المعتدون اليهود

"وإن عُدتم عُدنا"

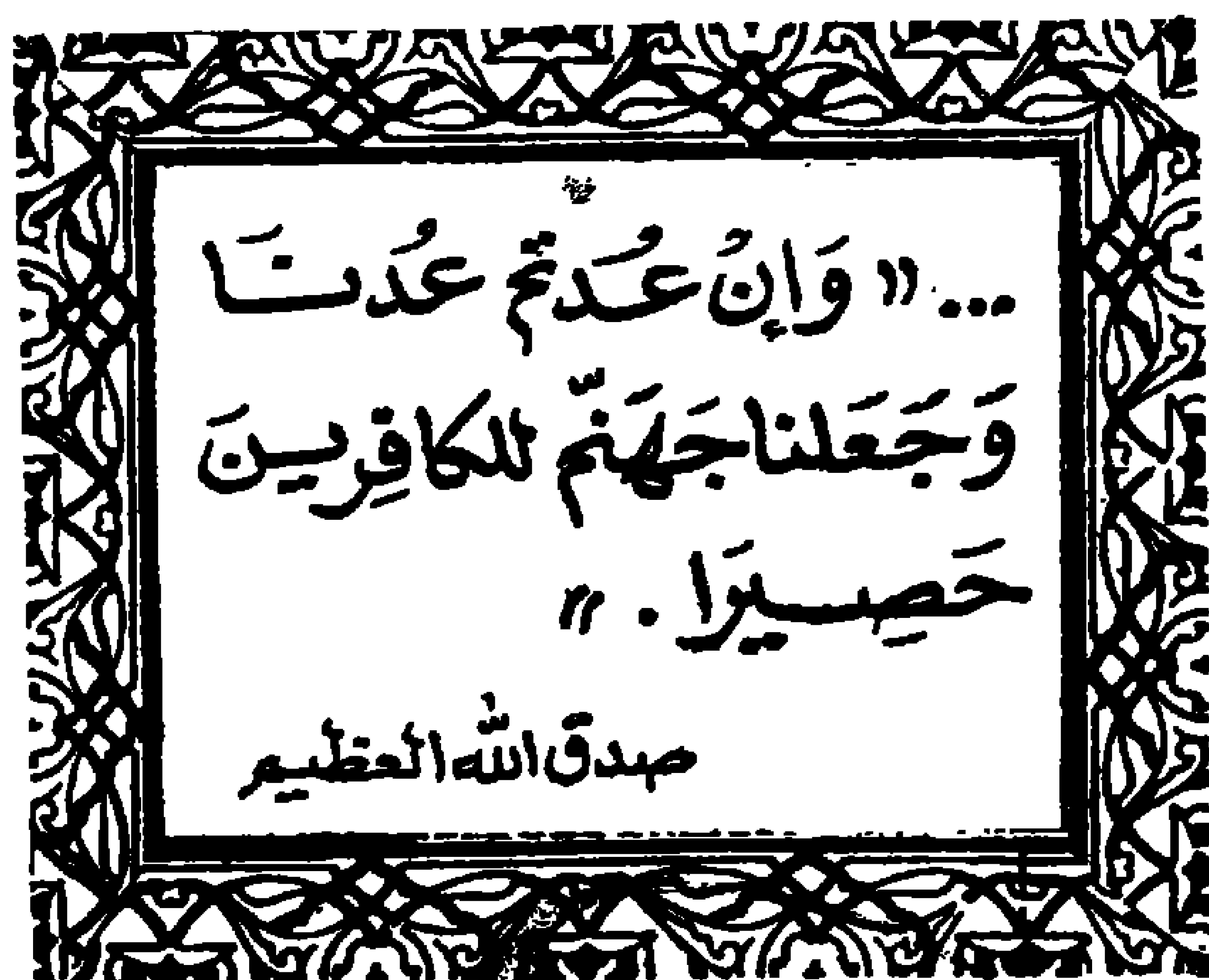
.. "وإن عُدتم عُدنا
وجعلنا جهنم لِلكافِرينَ
حَصيرًا . "

صدق الله العظيم

محمد صُبيح

المعتدون اليهود

وإن عُدتم عُدنا



بقلم: محمد صبيح

قال الله تعالى

بسم الله الرحمن الرحيم

« وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ
مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا * فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا
عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ ،
وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولًا * ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ
وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا * إِنْ
أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ، فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ
الْآخِرَةِ لِيَسُوؤُا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ
مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا * عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ ،
وَإِنْ عُدْتُمْ عُدْنَا ، وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا » .

[صدق الله العظيم]

التبار : الهلاك

سورة الإسراء

مقدمة

أكتب هذه المقدمة فى منتصف شهر مارس سنة ١٩٦٩ ، بعد أن عدت على التو من زيارة للاردن استغرقت عشرة أيام ٠٠ وقد حدث أثناء هذه الزيارة أن سألتنى آنسة عربية فاضلة تمثل الاذاعة البريطانية ، قالت :

ـ هل زرت مخيمات اللاجئين ؟ فقلت :

ـ لا ٠٠ لم أزرها ، وقد استبعدتها من برنامج الرحلة ؟

فرفعت محدثتى حاجبيها عجبا ، وقالت :

ـ ولكن كل من يأتى لزيارتنا لا بد له من زيارة المخيمات ٠

فأجبت على هذا الشريط المسجل :

ـ لست سائحا عاديا ، ولكنى محارب بالقلم فى جبهة القومية العربية ، ضد كل بغى وعدوان عليها ٠٠ وقد أسهبنا فى وصف الظلم الذى وقع علينا ، وعلى قومنا فى فلسطين ٠٠ وجاء الوقت لنبحث عن الوسائل التى يزول بها هذا العدوان ، ويذهب الى بيته كل لاجىء ، وينتصف كل مظلوم من ظالمه ٠

وكنت صادقا مع نفسى ، فقد فضلت أن أزور الكرامة ، حيث وقعت منذ عام (٢١ مارس سنة ١٩٦٨) أول هزيمة لليهود فى الجبهة الشرقية ، اذ زحفوا ب ١٥ ألف جندى يهودى اجتازوا نهر الأردن ، مع سلاحهم الثقيل ، واضطروا آخر اليوم الى الانسحاب بعد أن حملتهم مقاومة الفدائيين ومدفعية الجيش الأردنى خسائر فادحة ، مازالوا يلعقون جراحهم بعدها ٠٠

زرت الكرامة ، وزرت قواعد الفدائيين ، ووقفت فى « جرش » أشهد تشييع سبعة من هؤلاء الأبطال الى مقرهم الأخير،كانوا قد اشتبكوا مع المعتدين على سفوح « جولان » ٠٠ واستكشفت فى سهرات وجولات وأحاديث لا تنقطع « الانسان العربى » الجديد ، الذى حلت لديه عقدة الحياة ، وأصبح أداء الواجب هو سبب الحياة ومحركها ٠٠

رأيت آلافا يحملون السلاح فى كل مكان ، ولكنى لم أجد واحدا يدق الأرض ، أو يهز مدفعه ، ويباهى بأنه فى الصف الأول يقاتل ٠٠ لا مباهاة ٠٠ لا تفاخر ٠٠ لا صياح ٠٠ الحديث كله أقرب الى الهمس ، ولكن فيه ثقة

وتصميم ٠٠ ولكل انسان عملان : واجبه فى احدى المنظمات المقاتلة فى خط أمامى ، أو خلفى ، أو جانبى ٠٠ وواجبه اليومى ، فى تسيير عجلة الانتاج ، والسعى من أجل الرزق ٠ فاذا استشهد مقاتل ، فعليه الرحمة والرضوان ، ويهرع ليأخذ مكانه واحد من الصف الطويل الذى ينتظر دوره ٠٠ والمنظمات ترعى أسر العاملين فى جبهة القتال ، رعاية دقيقة كريمة ، تعجز الحكومات عن الاتيان بمثلها ٠

وتناقشنا طويلا ، مع المقاتلين ، ومع السياسيين ، ومع الأفراد العاديين ، فلم نجد حديث أى منهم يختلف عن صاحبه : تصميم على القتال ، وايثار للتضحية ، وانماء لحاسة الخوف لدى العدو ، خوفا يفقده أمنه ، ونومه ، ويبدد حلمه الذى جاء الى هذه الأرض يلتمسه ، فاذا السراب ، بل الممات يترصد له فى كل خطوة ، وفى كل حركة ٠

لقد وصل الأمر بكلمة « فدائى » ، أن عصابات ملثمة من اليهود أنفسهم ظهرت تسلب المارة وتجردهم مما معهم ، دون أى مقاومة ، بمجرد أن تذكر الكلمة ذات الوقع الرهيب عليهم ٠٠ وهى كلمة « فدائى » ٠٠

ان العمل الفدائى - كما رأيته - ينمو نموا مضطردا ، وقد ذابت فى الضفة الشرقية للاردن كلمة فلسطينى ، وكلمة أردنى ، ليعود الجميع كماكانوا قبل أن يقسم تشرشل بلادهم قسمين فى أعقاب الحرب العالمية الأولى ٠

وعند هذا النهر التاريخى - الأردن - وقفت أرقب مياهه ، وقد اجتازت ضفتيه من فجر التاريخ أفواج البشر قادمة من شبه الجزيرة أو من العراق ، أو من الشمال ٠٠٠ تمثل لى ابراهيم الخليل قادما من أرض الفرات ، هاربا من الأوثان التى حطمها ، ومن أصحابها الذين كاودا له كيدا ٠٠ حتى وجد فى مصر مأوى وأمنا ٠٠ وتمثل لى من بعده أبناؤه الذين دهمتهم المجاعة ، فكانت مصر منجاتهم فى عهد يوسف الصديق ٠٠ حتى اذا نما عدد هذه الأسر فى مصر ، وجاء وقت هجرتها الى فلسطين وجدوا الأرض عامرة بالعرب الكنعانيين والانباط والأدوميين واليبوسيين وغيرهم ٠٠٠ وكان قتال خلص فيه لليهود من أرض فلسطين العربية أقل من خمسها ، ولم يطل الأمر بهم ، الا سنين تقل عن القرن ، حتى جاءتهم غزوات المصريين ثم البابليين ثم الفرس ثم الرومان ثم العرب ٠٠ ولكن العرب لم يجدوا منهم الا بقايا ضئيلة ، وقد أمر عمر بن الخطاب فى عهده المشهور ألا يقيم أحد منهم فى هذه الأرض المقدسة ، ووقع العهد معه قواد جيشه : خالد بن الوليد ، وعبد الرحمن بن عوف ، وعمرو بن العاص وغيرهم ٠٠٠

لماذا أوصى عمر بن الخطاب بهذه الوصية التى تستبعد اليهود من الاقامة فى مقدساتنا ؟

لأنه عايش مؤامرات اليهود على الدعوة الاسلامية ونبيها صلوات الله عليه، وأدرك الحكمة فى أن رسول الله أمر باجلاء اليهود نهائيا عن الحجاز ، لا يقيم منهم فيه انسان ‥ ولمقدسات المسلمين والمسيحيين فى فلسطين مثلما لمكة والمدينة عند المسلمين ، من اجلال وتكريم ، وتحريم على أعداء الدين ٠

ولأن أمير المؤمنين عمر ، أدرك ما تعنيه الآية الكريمة فى سورة الاسراء ، بعد أن استعرضت علو اليهود مرتين ، فى أيام داود وسليمان ، وفى أيام هيرود ، ثم دمارهم مرتين بعد هذا العلو ‥ وانتهت الآية ، بهذا النذير الالهى الواضح : « وان عدتم عدنا ٠٠٠ » أى ان عدتم الى فلسطين ، عدنا لكم بالنكال والدمار الذى حلّ بكم أيام البابليين وأيام الرومان ‥

لهذا أمر عمر بن الخطاب ألا يقيم فى القدس ، وما حولها من أرض فلسطين يهودى ٠

وهذا هو ما يجب أن نسير عليه ، تنفيذا لأمر الله تباركت آياته ٠٠٠ فقد عاد اليهود الى فلسطين ، والله يأمرنا أن نعود اليهم بالنكال والدمار ، حتى تصبح أرضها بالنسبة لهم قطعة من جهنم ٠

وهذا الأمر من الله تعالى ليس أمرا مؤجلا ، فان خطرهم ـ كلما طال بهم الأمد ـ يزداد ، وأذاهم يتصاعد ‥ ولقد فصلنا موقف اليهود من الدعوة الاسلامية فى الجزء الأول من هذه الدراسة ، ورأينا أن رسول الله عليه الصلاة والسلام ، لم يمهل جيشه بعد فراغه من معركة الخندق الا ساعات من أول النهار ، ثم نادى فيهم المنادى :

« من كان سامعا مطيعا »
« فلا يصلين العصر »
« الا فى بنى قريظة »

وقد جربنا أسلوب الأناة مع اليهود ، خلال عشرين سنة مضت لهم ، وهم على حدودنا ، فماذا كانت النتيجة : ثلاثة حروب ، وآلاف الغارات الصغيرة والكبيرة على كل الحدود العربية ٠٠٠ وما أم الرشراش والسموع والصبحة وغزة وغيرها بالجرائم التى تنسى ‥ وهذا فضلا عن الجريمة الكبرى وهى اغتصاب أرض فلسطين نفسها ، وما حدث فى دير ياسين وغيرها مما يذكرنا بما صنعه أسلافهم فى أريحا عندما تمكنوا منها ٠

واني واثق تماما ، بعد أن سبرت أغوار النفس العربية فى الأردن والعراق ومصر ، أن الله بالغ أمره ، وناصر جنده ، ودافعنا الى أن نخطو فى سبيله هذه الخطوات المقدسة التى كتبت علينا ، لنطهر قدسنا ، ومسرى نبينا محمد عليه الصلاة والسلام ، ومولد نبينا عيسى المسيح عليه السلام ٠



أما وقد اقتربت المعركة الفاصلة مع اليهود من ميقاتها ، فان واجبا علينا، وقد قدمنا فى الجزء الأول : « المعتدون اليهود من أيام موسى الى أيام ديان » الظروف التاريخية التى أدت الى وجود اسرائيل فوق أرضنا عام ١٩٤٨ ٠

ومتابعة لهذه الدراسة ، حتى نمهد أرض المعركة المنتظرة ، فمن الواجب أن نلقى نظرة فاحصة على النتائج التى ترتبت على وجود اسرائيل ٠٠

لقد اهتزت كل قواعد الحياة التقليدية فى المنطقة العربية كلها ، وكانت ارادة التغيير شاملة ، والتعبير عنها صادفه العنف فى بعض الأحيان ٠ فقد قتل من رؤساء حكومات الهزيمة الأولى الملك عبد الله [الاردن] ، ومحمود فهمى النقراشى [مصر] ورياض الصلح [لبنان] ٠ وأسلوب الاغتيال ليس هو الاسلوب الأمثل ، ولكن فى حيرة الضمير العربى ، وجدنا مثل هذه الانفجارات ٠ ثم ما لبث المد الثورى أن شمل مصر وسوريا والعراق وتونس والجزائر ومراكش والسودان واليمن ، والجنوب اليمنى : كل منها حدث فيه شىء هام وخطير ٠٠٠

وفى أثناء هذه التقلبات والثورات ، هاجم اليهود مرتين : أول مرة عام ١٩٥٦ مستعينين بالانجليز والفرنسيين ٠٠ وثانى مرة عام ١٩٦٧ مستعينين بترسانة السلاح الامريكى ، ومؤامرات دول الاستعمار الغربى ٠

وهدف اليهود واضح ، وهو ألا يحدث استقرار فى المنطقة العربية ، وألا يمد العرب أيديهم الى القوى الاسلامية والمسيحية الضخمة التى تساندهم ، لكى يوقعوا بهم الضربة القاصمة ، كما ورد ذكرها فى القرآن الكريم ٠٠

ولكن الى متى ستعمل هذه المعوقات عملها ؟

فى اعتقادنا أن المعركة القادمة ، التى سوف تدور على أرض صلبة من العقيدة والاستعداد المكين ، فيها فصل الخطاب ٠٠ والله المستعان ٠

القاهرة فى ١٩٦٩/٣/٢٣

محمد صبيح

قيام الثورة فى مصر

رقصة النهاية ..

كان الملك فاروق قد استعد للفرار من القاهره ليلة حريق القاهرة ، وأعد طائرة تحمله إلى خارج البلاد . فقد خشى أن تتطور الأمور فى اليوم التالى ، وأن تهدد الأخطار حياته . فآثر أن يهرب قبل أن تغرق بة سفينة العرش .

ولكن الأمور سارت إلى ما هو أحسن — من وجهة نظره — وقامت وزارة على ماهر ، ووزير داخليتها مرتضى المراغى ، بما هو مطلوب منهم . .

ولم تعمر وزارة على ماهر إلا خمسة أسابيع ، تم فى خلالها القبض على معظم العناصر الوطنية المتحركة ، وأودعوا معتقل الهاكستيب ، وذلك استناداً إلى قانون الأحكام العرفية الذى استصدرته الوزارة النحاسية قبل إقالتها ، كما حددت إقامة سراج الدين وزير الداخلية السابق .

وحسب فاروق ، بعد أن كان قد أعد عدته للفرار ، أن الأمر استقر له من جديد ، ولو لفترة من الزمن ، فراح مع بطانته ، يظهرون أعظم الاستهانة والعبث بالشعور المصرى ، والاستخفاف بالمسئوليات العامة .

ألم تضم المعتقلات والسجون ، المئات من الشباب القادرين على تحريك الرأى العام ؟

ألم تتوقف الصحف الثورية التى كانت تعبر عنهم ؟

ألم يتم القبض على الفدائيين ، ويجردوا من سلاحهم ، ويصادر نشاطهم ضد الإنجليز ، والذى كان يمكن أن يوجه للجبهة الداخلية ؟

ألم يتحدث رئيس حزب الأغلبية ، الذى تحول إلى المعارضة ، فى اجتماعاته الخاصة ، عن أن وزارته كانت على وشك « تحقيق مطالب البلاد » ، بتدخل ووساطة من الملك عبد العزيز آل سعود ، ونورى السعيد ، وهو ضحك على العقول ، لابأس من أن تلوكه المجالس ؟

ألم يتقدم فرسان الأحزاب الأخرى ، والسياسيون الذين لا ينتمون إلى أى حزب ، ولكنهم ينتظرون فى النوادى فرصة مواتية ، لكى توزع عليهم بعض المناصب الوزارية ، بوصفهم « رجال الساعة » ، وأصحاب الكفايات ، ومنقذى ما يمكن إنقاذه . . إلى اخـــر هذه الأوصاف السقيمة التى ملها الشعب وكره تردادها . .

والشعب . . أين وقف بعد حريق القاهرة ؟ أى فى الأشهر الستة التى أعقبت شهر يناير سنة ١٩٥٢ . .

الشعب تجمع متحفزاً . . متربصاً . . يتلفت فى تنمر عن لحظة الخلاص ، من كل هذه التفاهة الداخلية ، لكى يقف وجهاً لوجه مع عدوه الأصيل ، وهو الاستعمار بغير أعوان ولا أسناد ولا عملاء . والصهيونية بعد ذلك متجمعة عبر الحدود فى أرض فلسطين بكل أحقادها وكل طاقتها على المكر والخداع .

ومن برج المراقبة . . وبعين الصقر التى ترى المنظر أمامها كاملا ، وواضحاً ، وقف الضباط الأحرار يتابعون الأحداث دقيقة بدقيقة ، وقرروا موعداً مبدئياً لضربتهم المباغتة فى شهر مارس ، أى بعد شهرين من يوم السبت الأسود ، كما وصفه بعض الكتاب الأجانب وهو يوم ٢٦ يناير سنة ١٩٥٢

وقد سميت لعبة التغيير الوزارى ، فى هذه الشهور الستة الأولى من عام ١٩٥٢ ، برقصة الوزارات . . وما هى برقصة ، ولكنها لعبة الموت لرجال السلطة جميعاً .

فى أول مارس سنة ١٩٥٢ قبلت استقالة على ماهر . . وقد عرف أنه أصبح غير مرغوب فيه باستقالة اثنين من وزرائه أحدهما زكى عبد المتعال وزير المالية ، والثانى أحمد مرتضى المراغى وزير الداخلية .

وكان رئيس الوزراء الجديد ، معد سلفاً ، وهو أحمد نجيب الهلالى الذى كان وفدياً وخرج على الوفد . .

وكان نجم وزارته مرتضى المراغى ، الذى رجت دوائر القصر أن يتمكن من القضاء على الحركة الوطنية كلها ، كما تمكن من القضاء على حركة الفدائيين فى القنال ،

ولهذا أسندت إليه وزارة الحربية ، مع وزارة الداخلية . وكان وزير خارجيته عبد الخالق حسونة (الذى تولى أمانة الجامعة العربية بعد ذلك) . .

وما لبثت هذه الوزارة أن اصطدمت بضرائب كان أحمد عبود ، صاحب مصانع السكر وغيرها ، يأبى دفعها للحكومة . ودفع عبود ثمن تغيير الحكومة نقداً ، لكى تسقط وزارة الهلالى ، وتتألف وزارة يرأسها واحد من موظفى شركاته ، هو حسين سرى ، وحتى يضمن هذا الرئيس الجديد جبهة القصر ، فقد ضم إلى وزارته كريم ثابت الصحفى والمستشار المقرب من الملك ومن الانجليز أيضاً .

وفى وسط هذه الدوامة من التصرفات الحمقاء أرادت حركة الضباط الأحرار أن تختبر قوة تنظيمها . . واتخذت من معركة جزئية ، هى رياسة نادى الضباط مجال هذا الاختبار .

كان الملك يرشح حسين سرى عامر ، أحد أعوانه فى الجيش لهذه الرياسة ، واختار الضباط الأحرار محمد نجيب . . وهزم مرشح القصر هزيمة منكرة ، مما دل على أن لتشكيل الأحرار سيطرة ، وأحكام تنظيم . .

وقد استشاط الملك غضباً ، وأمر بحل مجلس الإدارة الجديد لهذا النادى . وخشى رئيس الوزراء من مغبة هذا الاصطدام ، ووجد أنه ضد مصلحة القصر فأشار على الملك بأن يعين الرئيس المنتخب للنادى وزيراً للحربية ، وبهذا تهدأ ثائرة الضباط الغاضبين . . ولكن الملك من على مائدة القمار فى نادى السيارات بالأسكندرية قال : لا . . . وقبل استقالة الوزارة التى بقيت فى الحكم ١٨ يوماً من ٢ يوليو إلى ٢٠ يوليو سنة ١٩٥٢ . وكلف الملك نجيب الهلالى بأن يعود فيؤلف وزارة جديدة فشكلها وضم إليها أحمد مرتضى المراغى للداخلية ، وقام بمحاولة صبيانية لإرهاب ضباط الجيش، وهى اختيار إسماعيل شيرين زوج الأميرة فوزية أخت الملك وزيراً للحربية .

أعلنت أسماء مجلس الوزراء الجديد فى ٢٢ يوليو سنة ١٩٥٢ . وفى هذا اليوم تقرر مصير هذا العهد كله . . العهد الذى بدأ بثورة ١٩١٩ ، وولدت فيه الأحزاب ودستور سنة ١٩٢٣ ، وثلث قرن كامل من التجارب المتعددة ، وهى الفترة التى قامت بدورها فى محاولة المحافظة على الديمقراطية السياسية فى الداخل ، دون أن

تتمكن من قمع طغيان القصر . وقد ختمت حياتها هناك فى أرض فلسطين ، حيث دارت معارك انتهت بقيام دولة إسرائيل . وكان كل الدور الذى قامت به لملاقاة هذه الهزيمة ، هـــو أن تأمر الصحف والإذاعة بذكر كلمة إسرائيل مذيلة بـكلمة « المزعومة !! » .

٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢

لم يكن المراقبون المستفيدون من حكم فاروق بغافلين عن مخاطر الأيام التى يعيشونها ، وقد أدركوا من توالى منشورات الضباط الأحرار ، ومن عجز كل قوى التجسس فى الداخلية وفى الجيش ، أن تكشف عن أستار هذه الحركة ، والقائمين بها ... أدركوا أنه لابد من إعداد قوة بعيدة عن الجيش ، تكون سنداً للقصر فى أى أزمة داخلية تحدث ، ولا يتقدم الجيش لحلها .

أعد هؤلاء المستفيدون تشكيلين مسلحين :

أولهما : فى مصلحة السجون . إذ ظل حيدر قائد الجيش مشرفاً على حرس السجون ، وزاد عددهم ، ودربهم ، وزودهم بأسلحة ناجزة لكى يكونوا مدداً عند اللزوم .

ثانيهما : قوة فى القاهرة من جنود الشرطة اسميت « بلوكات النظام » ، أعدها مرتضى المراغى ، وصل عددها إلى ألفين ، يمكن زيادتها إلى ثلاثة آلاف ، وجعلها تحت تصرف وزارة الداخلية مباشرة . ومسلحها بسلاح حديث ، حتى تكون قوة ضاربة أو قوة اشتباك عند اللزوم ضد أى تحركات شعبية .

ولكن ظلت مشكلة المشاكل التى تؤرق الجميع هى لجنة الضباط الاحرار . وقد ألقى البوليس السياسى والقسم المخصوص[١] مسئولية التحرى عنهم ومعرفتهم على مخابرات الجيش . . وكانت مخابرات الجيش ، ومكتب القـــائد العام مما نفذ إليه

---

(١) البوليس السياسى هو الجهاز الذى كان يعمل ضد الحركة الوطنية فى القاهرة . والقسم المخصوص هو جهاز الرياسة فى وزارة الداخلية الذى كان يشرف على جهاز التجسس فى البلاد كلها . وكان يرأسه لمدة طويلة مختـــار خليل ، ثم عمر حسن ، ثم ابراهيم امام .

التشكيل واستطاع السيطرة على أهم أقسام فيه وتلقى الفريق حيدر أمراً فى ١٠ يوليو سنة ١٩٥٢ بأن يضع يده على المجلس التنفيذى للضباط الأحرار ، وقد دلت التحريات على أنهم ١٢ ضابطاً ، وهدده الملك بأنه إن لم يفعل فسوف يعزله من الخدمة .

وكان هذا الأمر طريفاً فى صياغته ، وطريقة تبليغه . فإن عبد العزيز رئيس خدم الملك ، كتب بقلم رصاص ورقة لرئيس الديوان الملكى الدكتور حافظ عفيفى ، يقول فيها بلسان الملك طبعاً : يجب أن يقال حيدر فى ظرف خمسة أيام إذا لم يحل اللجنة التنفيذية لنادى الضباط ، ويعزل الاثنى عشر ضابطاً الذين يتآمرون على جلالة الملك » . ونقل رئيس الديوان لرئيس الوزراء حسين سرى هذه التعليمات ، وقال له أن حيدر « يجب » أن يعرف هؤلاء الضباط .

ووقع حيدر فى ورطة شديدة ، واستدعى مدير مكتبه ، وأبلغه تعليمات رئيس الوزارة ، التى تلقاها من رئيس الديوان . وأنكر مدير مكتبه أنه يعرف شيئاً عن هؤلاء الضباط ، ولكنه يسمع بأنهم ضد حسين سرى عامر . .

ولم يكن مدير المكتب شخصاً غير الصاغ صلاح سالم ... أحد الضباط الأحرار .

روى ثروت عكاشة ، فى مجلة التحرير ، بعض التفاصيل عن الأسابيع الحرجة السابقة لقيام الثورة ، قال : فى ١٠ يوليو سنة ١٩٥٢ زارنى جمال عبد الناصر وخالد محيى الدين فى منزلى ، وطلبا الى كما كانا يفعلان عادة أن اسمعهما قطعة موسيقا «شهرزاد» . وسرعان ما نشرت الموسيقا سحرها فى الجو . وكان جمال يصغى إليها بعيون حالمة ، وما كادت تنتهى حتى نهض فجأة ، وأوقف البيك أب وقال : سنعمل فى بداية الشهر القادم ، فى ٥ أغسطس ، حتى يقبض الضباط رواتبهم . وحتى تعود من غزة الكتيبة ١٣ مشاة . وهى إحدى الوحدات الأساسية فى الحركة . .

ويستمر ثروت عكاشة فى ذكرياته فيقول إنه بينما كان يتناول أفطاره فى العشرين من يوليو ، وكان حسين الشافعى ضيفه على مائدة الأفطار ، إذ تلقى تلفوناً من الاسكندرية بأن رئيس الوزراء حسين سرى استقال ، وإن الضابط المكروه حسين سرى عامر ، سوف يعين وزيراً للحربية ، وسوف يلقى القبض على عدد من الضباط . . . فذهب ثروت فوراً إلى منزل جمال عبد الناصر ، وكان مكتظا فى هذا الصباح بالعديد من الضباط الاحرار ، فأخبره بما سمع .

وعندها قرر جمال عبد الناصر استدعاء اللجنة التنفيذية للضباط الأحرار إلى اجتماع عاجل، لأخذ قرار بالقيام بالحركة فوراً . . وكان ثلاثة منهم فى سينا . كما دعى الضباط الأربعة الذين انضموا للجنة التنفيذية أخيراً ، وهم زكريا محي الدين وحسين الشافعي وعبد المنعم أمين ويوسف صديق منصور . وبذا كمل عدد هذه اللجنة ١٢ عضواً . .

وعقد الاجتماع المنتظر فى منزل خالد محي الدين . وأخذ عبد الحكيم عامر يقرأ عليهم خطة العمل التى وضعها جمال عبد الناصر . .

وكانت الخطة تقضي باحتلال مقر القيادة العامة والثكنات التابعة لها ، والاستيلاء على محطة الاذاعة ، ومصلحة التلفونات ، ومحطة سكك حديد القاهرة وأن يكون ذلك بعد منتصف ليلة ٢٢ يوليو سنة ١٩٥٢ . . فى الساعة الواحدة صباحاً . . أى قبل فجر ٢٣ يوليو .

وتلقى جمال عبد الناصر خبراً من أحد أعوانه بأن الفريق حسين فريد رئيس أركان الحرب دعا إلى اجتماع عاجل فى مقر القيادة الساعة العاشرة مساء يحضره جميع قواد الأسلحة الموجودون فى القاهرة . فقرر جمال تقديم ساعة الصفر إلى الحادية عشرة .. وأخذ بنفسه يطوف على منازل زملائه بسيارته الاوستن الصغيرة . وتواعد معهم على اللقاء فى هذا الموعد تماماً .

وروى الرئيس جمال عبد الناصر أحداث تلك الليلة لجريدة الجمهورية . . قال لقد مررت بصعوبات كثيرة فى حياتى ، ولكن أحرج ظرف عرفته كان ليلة الثانى والعشرين من يوليو سنة ١٩٥٢ ، أى ليلة تنفيذ الثورة . كان يجب أن نحتل مقر القيادة فى الساعة الواحدة والنصف من تلك الليلة . وكان من المتفق عليه أن تلتقى جميع القوات فى القيادة العامة . ولكنى علمت أن القيادة العامة علمت بما اعتزمنا القيام به لأن أحد الضباط المنتمين لتشكيل الأحرار ، أثار ظنون شقيقه ، فحاول أن يحجزه عن الخروج ، ولما اخفق فى منعه اتصل تليفونياً بقصر القبة وأبلغ ضابط الحرس ، فاتصل بدوره بضابط قصر المنتزه حيث يقيم الملك ، وفوراً صدرت الأوامر إلى رئيس أركان الحرب ، كى يقاوم حركتنا ويقضى عليها . فاتجه إلى مقر القيادة العامة ، ومن هناك دعا جميع ضباطه لوضع خطة للقضاء علينا بسرعة .

قال جمال :

« تلقيت الخبر الساعة الحادية عشر ليلا ، وكنت وقتها ما ازال فى المنزل ، بعد أن تمت جميع الاستعدادات ، وكانت الوسيلة الوحيدة لحل المشكلة هى أسر رئيس أركان الحرب وجميع الضباط الذين كانوا معه قبل إنتهاء اجتماعهم والبدء فى تنفيذ خططهم . قصدنا مقر البوليس الحربى ، فوجدنا سرية حراسة على الباب ، فتركناه واتجهنا فوراً إلى مقر فرقة الفرسان ، فوجدنا الباب مغلقا ، وقد وضعت عليه حراسة مشددة ، فعزمنا على الذهاب إلى الماظة نطلب المدد . وفى الطريق رأينا سيارات عديدة تتجه إلى القاهرة . وكان الوقت حوالى الثانية عشرة والنصف ، أى قبل الموعد الذى حددناه للتحرك بنصف ساعة . . وأخذنا جانب الطريق لنلمح من يقود هذه الوحدات ، فوجدنا اثنين من قواد الفرق فى المقدمة ، وخشينا أن يكونا قد انقلبا علينا ، وانضما إلى رئيس الأركان ، وفجأة وجدت أنفسنا ، محاصرين بخمسة ضباط من رتبة الملازم ، ومعهم المدافع الرشاشه وأمرونا بعدم الحركة .

« وبعد لحظات قصيرة ، ظهر البكباشى يوسف منصور ، وأخذ ينادينى من السيارة الثالثة فى المقدمة ، وليبلغنى فى سرور ، أنه قد أسر قائد الفرقة ومعاونه ، وحجز جميع الضباط المتجهين إلى الماظة ، وإنه فى طريقه إلى موعد اللقاء . .

« عندئذ فهمت أنة بدأ سيره فى منتصف الليل ، أى أخطأ فى موعد التحرك وقدمه ساعة » .

« ولم يكن معه غير ثمانين جندياً ، إذ أن باقى وحدته لم تصل من فلسطين » .

« وكان أمامنا حل وحيد هو احتلال مقر القيادة بهذه القوة ، فوصلنا إليها قبل الساعة الواحدة صباحاً ، بعشر دقائق،أى قبل الموعد المتفق عليه بأربعين دقيقة.

« وهاجم هؤلاء الضباط الشجعان الذين قدموا من ألماظة ، مقر القيادة ، ومعهم ثلاثون جندياً . . وتبادلنا إطلاق النار مع حرس البوابة ، واستمرت المعركة أربعين دقيقة ، وفى الساعة الواحدة والنصف استولينا على مقر القيادة ، ووضعنا يدنا على كل من كان فيها من قواد » .

* * *

كان فى حساب جمال عبد الناصر أن يلقى القبض على ١٢ فريقاً ولواء من قواد الجيش الموجودين بالقاهرة ، دون أسماءهم فى كشف ، ووزع العملية على زملائه .

ولكن الصيد الذى حصل عليه فى مبنى القيادة كان أوفر . . لقد نزل من مقر القيادة عشرون ضابطاً كبيراً أيديهم فوق رؤوسهم .

وبينما كانوا يركبون السيارات إلى مقر حجزهم الاحتياطى ، سمعت جلبة قوية ، وتبين صوت أنور السادات . فقد نسى كلمة السر ، ووقع فى أسر القوات التى بدأت تتوافد وكان وقتها فى السينما ، وعند عودته تلقى من البواب الإشارة التى تركها له جمال ، فهرع إلى شارع الخليفة المأمون .

وكان على أنور السادات أن يقطع الاتصالات التليفونية فى العاصمة . ولكن تأخره فى السينما أدى إلى الاستفادة من شبكة التليفونات فى هذه اللحظات الحاسمة .

وجلس عبد الناصر على مكتب القائد ، وأخذ يتلقى ويرد على التليفونات الكثيرة المنتشرة حوله ، كل بما يناسبه .

وكان القلم السياسى قد أبلغ الوزارة والقصر بأن دبابات الجيش المصرى ، تحتل الكبارى والإذاعة والتليفونات والمراكز الهامة . وترابض أمام قصر عابدين . فأخذ حيدر يتصل من الاسكندرية بالقيادة ، يسأل :

— هل هناك شىء غير عادى ؟ !

فيحصل على رد بأن كل شىء هادىء فى القيادة . . .

ولما توالت إشارات القلم السياسى على الاسكندرية ، أصر حيدر على الاتصال بالفريق حسين فريد بنفسه . . . فكان الرد : إنه فى السجن ! !

وعندها . . أى بعد الفجر بقليل ، تبين لحيدر ، والملك ، والوزارة ، أن الضباط الأحرار استولوا على قيادة الجيش ، وعلى القاهرة كلها . . . وكانت دبابات حسين الشافعى هى التى قامت بهذه المهمة ، بعد أن أسرت قائد الفرسان .

وأرسل عبد الناصر دوريات استطلاع فى طريق السويس كى تتبين إذا كانت هناك أى تحركات للإنجليز . كما كلف على صبرى من مخابرات الطيران بأن يتصل بالسفارة الأمريكية ليخبرها بأن الحركة داخلية ، وعليها أن تبلغ بدورها السفارة البريطانية . . .

وفى الساعة الرابعة والنصف صباحاً ، تلقى عبد الناصر مكالمة من صلاح سالم فى سينا بأن الخطة نفذت فى العريش وأن الأحرار تولوا القيادة فى سينا .

المؤلف .. وهؤلاء الثوار ..

ورواية أحداث الثورة — أكبر وأنجح ثورة مصرية — فى تاريخنا الحديث.. يحمل كل منا ذكريات عن تلك الأيام ، ولا أرى حرجاً فى أن أروى ما تعيه ذاكرتى فى هذه المناسبة . . .

كنت فى الاسكندرية ليلة ٢٢ يوليو ، أتحدث مع الصديق المرحوم الدكتور محمد فاضل سليم ، وكان على أوثق الصلات الشخصية بالدكتور حافظ عفيفى رئيس الديوان . . وكان ذلك فى فندق سيسيل حيث كنا ننزل . قلت للصديق :

— إن عبث القصر وصل إلى غايته . . وستحدث ثورة قطعاً . . .

فتبسم ضاحكاً وقال لى :

— أنت تحلم بأوهام صباك ، وما تمنيته أيام مصر الفتاة ! لا شىء أسمه ثورة فى قاموس شعبنا ! !

قلت له : وسنة ١٨٨٢ ، وسنة ١٩١٩ . . هل نسيناها ؟

قال : كانت فلتة . . .

ومر بنا الأستاذ ادجار جلاد ، وكان من الصحفيين المقربين من القصر ، فحاولنا أن نعرف منه هذا التكوين الغريب لوزارة الهلالى ، فقال :

— البلد عايزه تطهير من الوفديين ، ومحاكمات . . . الهلالى حيعمل كده . ويوقف الانتخابات . . والبرلمان .

وعدت أتحدث عن الثورة . . ثم ذهبت إلى غرفتى . وفى الساعة الخامسة صباحاً دق جرس التليفون ، وإذا صديق الدكتور فاضل يتصل بى ، ويقول :

— اصح . . انت سامعنى . . أنا زعلان جداً . . لما انت عارف من الليل إن فيه ثورة ، ما صارحتنيش ليه ؟ !

وحسبت أن أحدنا يحلم . . ولكنى قلت وأنا أحاول أن أكون أكثر تيقظاً :

— إيه يا دكتور . . أنا مش فاهم . .

فقال : حافظ باشا [عفيفى] على التليفون . ولما قال لى إن فيه ثورة فى مصر،قلت له أنك عارف فطلب منى أن أسألك عن القائمين بها وأرد عليه حالا .

وهنا استيقظت تماماً . . وقلت له :

— حافظ باشا مين . . وثورة إيه . . .

قال : أنا جاى لك . . غرفتك نمرة كم ؟

وجاءنى الصديق ، فى هذه الساعة المبكرة ، ليكلم من غرفتى الدكتور حافظ عفيفى ويخبره عن معلوماتى !

وما كانت لدى أية معلومات ، سوى ما توقعته . فخرج من عندى غضبان أسفا ، على تضييعى لحق الصداقة ، وتكتمى أمراً سوف يعلمه الجميع عما قريب . .

وتذكرت وقتها حديثا دار منذ ثلاثة أيام ، بينى ، وبين رجل من أفاضل المصريين وهو السيد عبد الهادى القصبى ، من زعماء الغربية ، وعميد بيت القصبى ، صاحب النفوذ الروحى العظيم ، وكان أبوه أو جده الذى بسط نفوذه على السيد عبد الله النديم — مجاهد الثورة العرابية الكبير — وأمكنه أن يحجبه عن أعين مطارديه لدى أتباعه ، حوالى تسعة أعوام كاملة ! !

قال لى السيد القصبى ، وأنا أدير معه حديث الحالة التى آلت إليها البلاد ، وهو حديث كل المصريين . . قال لى عبارة غريبة :

— أنت صحفى . . وأنبهك إلى حدث كبير سوف يقوم به ضباط الجيش الشبان قريبا . . قريبا جداً . .

فسألت : حدث إيه . . تقصد ثورة مثلا ! !

فأجاب : أيوه . . .

* * *

ولم تكن الصحف قد وصلت إلى الاسكندرية ، فنزلت من الفندق ، أطالع وجوه الناس ، وإذا بى أسمع الراديو فى محل قريب ، وأتبين صوتا يذيع بيانا على الناس عرفت فيه صوت أنور السادات ... وأصغيت له . . ثم ظللت فى مكانى حتى أعيدت تلاوة البيانات . . وأدركت على الفور ، أن ما حدثنى به السيد عبد الهادى القصبى وقع . . وأن صوت السادات ، يدل على الاتجاه الذى هبت منه ريح هذه الثورة . .

إنها إذن ثورة وطنية شابة . . تعتمد على قواعدنا الخلقية والوطنية ، التى عاش بها ولها شباب الثلاثينيات ، فإذا بها تنجح فى الخمسينيات . .

وبعد يوم ، وفى القطار العائد إلى القاهرة ، جاء بجلسى بجوار الضابط محمود رياض ، الذى عرفته قبل عامين ضمن وفد مصر لدى هيئة الأمم فى نيويورك ، والذى أصبح الآن (عام ١٩٦٩) وزيراً للخارجية . .

لقد تحدثنا مدة ساعتين . . فإذا بى أسمع منه نفس العبارات والنغمات التى طالما ملأت نفوس آلاف الشباب . . وقد تحولت بين هؤلاء الضباط إلى عمل ، وتصميم.

وفى القاهرة ، ذهبت مع صديقى وجيه أباظة الذى تولى الشئون العامة ، وأشرف على الصحافة ، لزيارة أنور السادات فى القيادة . . وكان الليل قد انتصف ، وبعد أن انصرفت ، مررت على مكتب وجيه فسألنى :

— شفت جمال عبد الناصر . .

فسألته : مين جمال عبد الناصر ؟

الله . . أنت يظهر نسيت زميلنا يا أخى فى مصر الفتاة . . ده دخل عليكم وانتم بتتكلموا . .

— اللى كان واقف أمام الشباك ده . . .

— أيوه . . . هو رئيس حركتنا ؟ ! !

وخرجت أحاول تذكر جمال عبد الناصر . . وفجأة تذكرت هذا الشـــاب الصامت ، الذى كان يرأس شعبة مصر الفتاة فى باب الشعرية ، والذى قص على كيف اشتبك مع المدرس الإنجليزى فى مدرسته الثانوية ، لأنه أهان مصر . وأوقعه أرضاً ، وفصل . . وأصرت مدرسته على ألا تعود للعمل إلا إذا عاد قائدهم الوطنى الذى ثار لكرامة بلده .

وقد تحدث الرئيس بعد ذلك عن ثلاث سنوات قضاها فى هذه الحركة الوطنية من ميدان المنشية إلى مدرسة حلوان ، إلى هذه المدرسة الأخيرة ، وذكرنى بليلة قضاها مع بعض الشباب فى قسم عابدين تنفيذاً لقرار مقاطعة بعض الأجانب الذين كانوا يتعالون على مصر والكرامة المصرية ! !

ولقد التحق قائد هذه الثورة بالـكلية الحربية ، بعد أن انتهت صلته بحركة مصر الفتاة ، ولـكنها أثرت فى نفسه تأثيراً ما يزال بذكره . وكذلك فعلت هذه الحركة مع كثير من زملائه الشباب الذين التحقوا بصفوف القوات المسلحة ، أو الذين عملوا فى الحياة المدنية. وكانت صيحاتنا فى صحف مصر الفتاة تقول : ياشباب سنة ١٩٣٣ كن كشباب سنة ١٩١٩ . . وتقول : عزاء الجيش لايملك دبابة واحدة . . وكنا نقول : يا فضيحة جيش يسقط فى مناوراته « خروفاً » بالبراشوت بدلا من جندى ! ! وقد حوكمنا على كل هذا الـكلام ، وبرأتنا منه المحاكم الوطنية ، ولـكنه ترك بصماته فى جيلنا كله .

وحاول مرتضى المراغى أن يجرب « شطارته » مع ضباط الثورة ، ولـكن قيادة الأحرار كانت قد اتصلت بعلى ماهر ، وعرضت عليه أن يخلف وزارة نجيب الهلالى. فقبل على أن يتلقى التـكليف من الملك . .

ولم يكن الملك قادراً على أن يعارض فى شىء . فقد كلف على ماهر برياسة الوزارة الجديدة، الذى احتفظ لنفسه بالداخلية والحربية. وجمع بعض كبار الموظفين والمستقلين ليعاونوه فى وزارته ، وكان تاريخ تشكيل هذه الوزارة ٢٤ يوليو سنة ١٩٥٢ .

وسنرى كيف سارت الأمور بين قيادة الثورة فى القاهرة ، ومسرح العمليات الجديده فى الإسكندرية .

.. وانطلقت عجلة الثورة

تحرك من القاهرة طابوران مصفحان ، بعد أن اطمأنت الثورة إلى وضع يدها على مرافقها ، وعلى البوليس السياسى ، وقضت على مؤامرة قطع الإرسال الإذاعى من محطة الإرسال ، وذلك لتعزيز حامية الإسكندرية ، واسقاط الحـكم كله ، الذى كان قد تركز فى العاصمة الثانية . .

وبقى نصف مجلس الثورة فى القاهرة ، بقيادة جمال عبد الناصر . . ونعنى بالقاهرة مركز القيادة فى شارع الخليفة المأمون ، فإن أسرة جمال ، وبقية أسر هؤلاء الضباط الثائرين كانت تسمع الأنباء مثل غيرها . . وفى اليوم التالى ، بعث جمال لزوجته كلمة مع ثروت عكاشة يقول لها إنه لن يعود إلى البيت قبل التأكد من نجاح الثورة ، وهذا يقتضى بضعة أيام . كما كان قد ترك لأسرته مع أخيه مبلغاً من المال تستعين به فى حالة حدوث مكروه . .

وإذا كنا قد ذكرنا أسماء بعض الذين شاركوا فى الثورة ، أو الذين مهدوا لها عبر السنوات العشرين السابقة لقيامها ونجاحها ، فلا ينبغى أن ننسى دور الزوجات والأمهات . . أن بطولة الصبر والاحتمال لا تقاس إليها بطولة . وأيام وشهور القلق ، التى تصل أحياناً إلى سنوات ، هى ضريبة دفعتها كل أسرة فى هذا الكفاح المقدس ، ولا ينبغى لتاريخنا القومى أن يمر عليها مسرعاً متعجلا . وحسبهن منا هذه التحية السريعة ، حتى يتاح لنا تأريخ الجانب الإنسانى من ثوراتنا جميعاً .

لقد ورد فى نص البيان الأول الذى قدمت به الثورة نفسها :

« اجتازت فترة عصيبة فى تاريخها الأخير ، من الرشوة والفساد وعدم استقرار الحكم . وقد كان لكل هذه العوامل تأثير كبير على الجيش ، وتسبب المرتشون والمغرضون فى هزيمتنا فى حرب فلسطين . وأما فترة ما بعد هذه الحرب ، فقد تضافرت فيها عوامل الفساد . وتآمر الخونة على الجيش . وتولى أمره إما جاهل او فاسد . حتى تصبح مصر بلا جيش يحميها . وعلى ذلك فقد قمنا بتطهير أنفسنا ، وتولى أمرنا فى داخل الجيش رجال نثق فى قدرتهم ، وفى خلقهم ، وفى وطنيتهم . ولا بد أن مصر كلها ستتلقى هذا الخبر بالابتهاج والترحيب .

« وأما من رأينا اعتقالهم من رجال الجيش السابقين ، فهؤلاء لن ينالهم ضرر ، وسيطلق سراحهم فى الوقت المناسب . وإنى أؤكد للشعب المصرى أن الجيش اليوم ، أصبح كله يعمل لصالح الوطن فى ظل الدستور . مجرداً من أية غاية . وانتهز هذه الفرصة ، فأطلب من الشعب ألا يسمح لأحد من الخونة ، بأن يلجأ لأعمال التخريب أو العنف . لأن هذا ليس فى صالح مصر ، وأن أى عمل من هذا القبيل سيقابل بشدة لم يسبق لها مثيل . وسيلقى فاعله جزاء الخائن فى الحال . وسيقوم الجيش بواجبه هذا متعاوناً مع البوليس .

« وانا نطمئن إخواننا الأجانب على مصالحهم ، وأرواحهم ، وأموالهم . ويعتبر الجيش نفسه مسؤولا عنهم .

« والله ولى التوفيق » .

نفى فاروق ..

ولنترك زكريا محي الدين يقود عملية الإسكندرية ، لنطالع ما دونه روبرت سان جورج فى كتابه : الرئيس .. عن المحادثات التليفونية التى دارت بين الإسكندرية — ثكنات مصطفى باشا — والقاهرة ، مقر القيادة بالقبة . . وكيف أدار جمال عبد الناصر عمليات نفى فاروق ، والتيارات التى صاحبت هذه العملية .

الاسكندرية : ليس مؤكداً مكان فاروق فالبعض يقول إنه فى قصر المنتزه . والبعض يقول أنه فى رأس التين ، والبعض يقول أنه مختبىء فى مستشفى .

ناصر : على رجال مخابراتكم أن يحددوا مكانه بسرعة..

الاسكندرية : أحد جواسيس القصر يؤكد أن فاروق كان يتحدث مع البريطانيين ويطلب مساعدة عسكرية من القنال :

ناصر : يجب أن نبدأ عملياتنا العسكرية بأسرع وقت ممكن .

الاسكندرية : تفيد الأنباء أن فاروق فى قصر المنتزه .

ناصر : راقبوا قصر رأس التين على أية حال .

الاسكندرية : قائد الطابور المسلح ينصح بأن ننتظر حتى الصباح لنبدأ عملياتنا العسكرية . فرجاله لم يناموا لمدة ثلاث ليالى .

ناصر : زكريا محي الدين هو المسئول عن العملية . وقراره هو النهائى .

الاسكندرية : أننا نعتقد أن فاروق ذهب إلى قصر رأس التين فى الطرف الآخر من المدينة حتى يستطيع الهروب عن طريق البحر بسهولة أكثر .

ناصر : لابد من مهاجمة كلا القصرين غداً .

الاسكندرية : لقد انتهى السادات من اعداد الانذار لرئيس الوزراء على ماهر ليقوم بدوره بتسليمه للملك غداً . وينتهى الانذار بهذه الكلمات « وحيث أنك قد أسأت بذلك لسمعة مصر على مشهد من البلدان الأخرى ، وحيث أنك قد تغاضيت عن الرشوة والخيانة التى أعقبت هزيمتنا فى حرب فلسطين ، فإننا ، باسم الجيش الذى

يمثل إرادة الشعب قد حولنا مطالبتك بالتخلى عن العرش لصالح ابنك الأمير احمد فؤاد الثانى قبل الساعة الثانية عشرة ومغادرة البلاد نهائياً قبل الساعة السادسة مساء اليوم . وإذا رفضت الرضوخ لهذا الانذار ، فإنك ستتحمل مسئولية العواقب » .

ناصر : بلغ السادات بأن يسلم الانذار إلى رئيس الوزراء فى وقت مبكر من الصباح بقدر الامكان ، ليحمله إلى الملك .

الاسكندرية : جمال سالم لايوافق على الخطة التى أعدت للغد . فهو يرى ألا يسمح لفاروق بالإفلات ، بل يجب أن ينزل عليه أقصى عقاب بأسرع وقت ممكن .

ناصر : هل يعتقد بضرورة شنقه ؟

الاسكندرية : نعم . ويصمم السادات على أن تنفذ أوامرك المعدة للغد .

ناصر : يجب نفى فاروق .

وبقى زكريا محيى الدين على الحياد . وهو فى القيادة العامة منكباً على خرائط لاعداد حصار القصرين فى الغد .

وحوالى الساعة السادسة صباحاً استيقظ جمال عبد الناصر فى موعده المحدد فى القيادة العامة ووصل جمال سالم بالطائرة من الاسكندرية ليتناقش معه فى ضرورة إعدام فاروق . أنصت ناصر له بهدوء . وعندما انتهى سالم من كلامه قال : « عندى فكرة . سأذهب لأقابل عزيز المصرى . مما يخجلنى أن أوقظ الرجل العجوز مبكراً فى الصباح ، ولكن دعنا نرى ماذا سيقول » .

فارتدى ملابسه بسرعة واستقل عربة .

ضم الرجل العجوز صوته لصوت جمال سالم ، وقال : « إن رأساً مثل رأس فاروق لاتهوى إلا عندما تسقط » .

ونبهه ناصر إلى أنه قد يستعصى وقف سيل الدماء عندما يبدأ إراقتها .

فرد عليه عزيز المصرى قائلا : « يجب أن تقتل وتقتل وتقتل . يجب أن تطيح برقاب الآلاف لتنظف البلاد » .

وبعد وقت قصير اجتمع خمسة أعضاء من اللجنة فى القيادة العامة وتحدث إليهم

جمال سالم حديثاً فصيحاً . ثم تحدث ناصر برزانة قائلا : « إذا شنقنا فاروق ، فإن عامة الشعب فى اليوم التالى ستقتل على الأقل ثلاثمائة من حاشيته وهذا سيؤدى إلى أعمال قتل أخرى . ولن يكون هناك سبيل لوقفها » .

وتحدث كثيرون غيره . ثم أخذت الأصوات . وكانت الأغلبية فى صف ناصر . وبعد عدة ساعات بدأ ورود رسالات من الاسكندرية مرة أخرى .

الاسكندرية : إننا على اتصال لاسلكى مستمر برجالنا فى كل من القصرين وبولكلى وطائرات المتيور والفامباير النفاثة تطير خلف القصرين وأمامهما . وفوقهما تطير قاذفات قنابل من أربعة محركات تحمل ذخيرة من القنابل : وهناك طائرات هوكر فيوريز المقاتلة على استعداد للضرب فى حالة محاولة الملك الهروب عن طريق الجو ، وقد أطلق النار على رجالنا من برج فى رأس التين . ورد على النار بالمثل ... أوقف الآن اطلاق النار من كلا الجانبين ... واستسلم الحرس الملكى ... وجرح ستة أشخاص .. وافق فاروق أخيراً على النزول عن العرش بشروط سبعة .

ناصر : ما هى ؟

الاسكندرية : أولا ، أن يتم النزول عن العرش بطريقة تحفظ كرامته .

ناصر : ليست هناك من سبب لئلا يحدث ذلك .

الاسكندرية : وثانياً ، أن يسمح له بالذهاب إلى نابولى على اليخت الملكى « المحروسة » .

ناصر : هذا اليخت كلف الشعب المصرى قدراً كبيراً من المال . يستطيع أن يبحر عليه ؛ ولكن لابد من رجوعه بعد توصيله إلى شاطىء نابولى .

الاسكندرية : وثالثاً ، أن تطلق له المدفعية ٢١ طلقة تحية له .

ناصر : هذه التحية لا مانع منها .

الاسكندرية : ورابعاً ، أن يحضر ضباط الثورة رحيله حتى يضمن سلامته إلى آخر دقيقة .

ناصر : لامانع .

الاسكندرية : وخامساً ، أن يسمح لانطونيو بوللى ، الكهربائى السابق فى قصره الذى عادة مايصحبه فى مغامراته بالليل ، ومحمد حسن ، وصيفه ، بمصاحبته .

ناصر : هذا الطلب مرفوض .

الاسكندرية : وسادساً ، أن يسمح له بأخذ مجموعات الطوابع والعملات معه .

ناصر : هذه الطوابع والعملات تقدر بملايين الجنيهات المصرية وهو اشتراها بأموال الشعب . هذا الطلب مرفوض .

الاسكندرية : ورغبته الأخيرة هى أن تدار ثرواته وثروات اخواته فى داخل مصر لحسابهم .

ناصر : لانستطيع أن نعد بذلك .

الاسكندرية : وافق الملك على توقيع اتفاق التنازل فى الساعة الثانية عشرة ظهراً .

ناصر : هذا سيعطيه مهلة لمدة ست ساعات لاعداد حقائبه ورحيله .

الاسكندرية : أجل .

ناصر : اقرأوا لى صيغة التنازل عن العرش .

الاسكندرية : نحن فاروق الأول ، رغبة منا فى رفاهية وسعادة وتقدم بلادنا ، وأمـــلا فى مساعدتها على التغلب على الصعوبات التى تواجهها فى الظروف الحاسمة . قررنا التنازل عن العرش لابننا ولى العهد أحمد فؤاد الثانى . ونحن بذلك نحول السلطة لعلى ماهر رئيس مجلس الوزراء للعمل طبقاً لهذا القرار .

ناصر : هذا لايكفى . يجب أن تضعوا فى مكان ما فى الجملة الأولى شيئاً عن ارادة الشعب .

وأبلغوا جميع الضباط الاحرار الموجودين عندكم بأن يتخذوا أماكنهم على السفن الحربية الرئيسية فى الميناء ، حتى يبقى الموقف تحت سيطرتنا .

الاسكندرية : لقد أحصينا عدد الحقائب التى نقلت إلى « المحروسة » فبلغت مائتين وأربع حقائب . وأخذ معه أيضاً بعض صناديق من الشمبانيا والنبيذ من

المخازن الملكية ، وارتدى فاروق الزى الأبيض لأمير البحر فى الأسطول المصرى . وهو يودع الناس فى الصالون الكبير فى قصره ، لقد أرسل الملك الملكة ناريمان وبناته الثلاثة وإبنه الطفل إلى اليخت . وكذا مربية الطفل الانجليزية وثلاثة حراس البانيين ومدرب كلاب ويوجد هنا رئيس الوزراء والسفير الأمريكى كافرى ، وهما يقومان بمحادثتهما النهائية مع الملك والآن يغادر فاروق القصر عن طريق سلالم تؤدى إلى منصة مرتفعة قليلا . والآن ذهب إلى « المحروسة » وهو متأثر .

ناصر : ماذا كانت كلمات فاروق الأخيرة ؟

الاسكندرية : قال : « إن ما فعلتموه بى كنت سأفعله بكم » ثم أضاف : « إن مهمتكم ستكون شاقة ، ليس من السهل حكم مصر » . والآن تؤدى المدافع تحيتها ، وبدأت المحروسة تتحرك إلى البحر .

ناصر : الحمد لله .

لماذا لم يتدخل الانجليز ؟

ونعود مرة أخرى فنسأل : لماذا لم يتدخل الانجليز لصالح فاروق ؟

ونجيب بنفس الإجابة التى قدمناها على هذا السؤال بعد حريق القاهرة . فإن الانجليز كانوا قد فرغوا من فاروق ، ولم يعد يستحق معركة تخوضها جنودهم . . وإذا كان إيدن ووزارة تشرشل قد تاقت إلى احتلال القاهرة يوم ٢٦ يناير سنة ١٩٥٢ — وهو يوم الحريق — فامتنع العسكريون ، لأن الجيش المصرى كان قد تسلم العاصمة ، فان موقفهم بعد ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ ، هو نفس الموقف ، لأن الجيش المصرى — تسلم الحكم كله ، لا القاهرة وحدها ، وعلى رأســـه قيادة جديدة ، لايعرفون عنها شيئاً ، وإن كانوا قد أحسوا بوجودها تتكون مع الأيام ، خلال عشرة أعوام أى منذ صيف سنة ١٩٤٢ ، حتى هذا الأسبوع الحار الملتهب من شهر يوليو سنة ١٩٥٢ .

ولقد حاول فاروق أن يتصل بالانجليز . . وطلب من كافرى سفير الولايات المتحدة ، أن يدعوهم للتدخل ، فما كان فى وسعه أن يتدخل بعد أن قطعت عنه

الاتصالات التليفونية باستثناء خط سرى واحد . . ولكن الجواب على هذه الدعوة كان سلباً ، وكل ما ضمنه له السفير الأمريكى ، هو وعد من قيادة الثورة بألا تمس حياته ، إذا نفذ ما طلب منه. كما سلمه الملك خاتما ثميناً جداً . كانت إحدى المؤسسات الأمريكية عرضته عليه لشرائه ، ولم يكن دفع ثمنه .

والذى علمناه ، أن جهات كثيرة كانت قبيل الثورة ، تبحث عن بديل لفاروق ، وكان الانجليز — عن طريق وكلائهم — يجسون النبض ، ويسألون إذا كانت مصر تقبل مجلس وصاية يرأسه الأمير محمد على ، أو هل لدى أحد حل آخر أنسب من هذا ؟ وكان هذا الأمير ، يسعى جاهداً ليحصل على تأييد بقية الأمراء .

وفى نفس الوقت ، كان سكرتير الوفد ، يحاول جس نبض الجيش . بمفاوضات عن طريق اثنين من الأحرار : أنور السادات ، وأحمد أنور . . . ماذا يكون الموقف إذا اصطدموا مع فاروق ، وحاولوا خلعه ؟؟ .. وقد نفض الضباط الأحرار أيديهم من الوفد ، بعد أن وجدوا أنه يحاول أن يحصل على معلومات عنهم ، ولم يلمحوا طابع الجد فيما كان يتحدث عنه ..

كانت هذه الأحاديث سابقة على سقوط حكم الوفد . . أما الآن وقد قامت ثورة الجيش ، وانتصرت ، وخرج فاروق ، وزعماء الوفد وغيرهم من الأحزاب ، كانوا فى مصايفهم الأوروبية يستمتعون بوقتهم، فلم يعد هناك مجال لهم معاونين أو مستشارين. لقد بطل السحر والساحر .

فما وصل المسافرون إلى الخارج من الزعماء ، وأمعن الانجليز النظر فى الأمر ، حتى تسربت إلى الجميع الأنباء عن الشخصية التى تمسك بزمام الثورة ، وهى شخصية البكباشى جمال عبد الناصر ، الذى لا يوجد لدى أحد من هذه الجهات أى تفصيلات عن نشاطه السابق ، ولا توجد لدى المخابرات الانجليزية أو البوليس السياسى ورقة سمحت بفتح ملف له . . قالوا جميعاً ، أو هكذا يمكن أن نتصور : وماذا يمكن أن يعمل شاب فى الرابعة والثلاثين من عمره ، قضى حياته العاملة فى زيه العسكرى ، وفى محاضراته لطلبة الكلية الحربية . .

قرر الانجليز ، أن « ناصر » وزملاءه ، سوف تبهرهم السلطة التى وقعت بين

أيديهم ، ويسهل عليهم أن يحصلوا منهم على معاهدة تدخل مصر فى حبال دفاع مشترك

وقررت الأحزاب ، أن من الممكن الهاء هؤلاء الشباب من الضباط برتب عالية وسيارات فارهة ، ومرتبات كبيرة ، حتى يمكن استخلاص السلطة منهم ثم التخلص منهم . . فان تعذر هذا ، فسوف تؤدى بعض الأخطاء ، فى فترة الانتقال الهائلة ، لانفضاض الرأى العام عنهم .

وقد قابل جمال عبد الناصر رئيس حزب الوفد ، وكانت النصيحة التى سمعها منه ألا يفسد تفكيره بقراءة « الجرائد » فمعظم ما فيها كذب ! !

وما أن بدأ مجلس الثورة يتجه إلى إعطاء الشعب بعض حقوقه ، بالحد من الملكية الزراعية ، حتى خيل « للبشاوات » جميعاً ، أن هذه الخطوات ستكون الحفرة التى تتردى فيها الثورة . . . ولما أخرج على ماهر من الحكم لأنه تلكأ فى إصدار قانون الإصلاح الزراعى ، وصدر هذا القانون فى ٩ سبتمبر سنة ١٩٥٢ حتى تأكدت الطبقة التى تداولت الحكم فى نصف القرن الماضى ، إن العام لن يمضى إلا وينتهى من كل شىء اسمه ثورة ، وتعود الأمور لهم ، ولكن بغير فاروق . . وذلك لأن الموسم الزراعى يبدأ فى شهر نوفمبر ، وسوف تبور الأرض ويجوع الناس ! !

ولكن الذى حدث كان على خلاف ما توقع هؤلاء جميعاً .

اربع سنين من العمل الشاق

ففى السنوات الأربع التالية لقيام الثورة وتدعيمها ، ولاعلان قانون الاصلاح الزراعى الذى قضى على الاقطاع تمت أشياء كثيرة .

* عقد الضباط الاحرار أول اجتماع لهم بعد نجاح الثورة ، واعادوا انتخاب جمال عبد الناصر رئيساً لهم بالاجماع .

* الغيت القاب الباشوية والباكوية ، إكتفاء بلقب « حضرة » ثم عدل إلى « سيد » لكل المواطنين .

* حاولت الأحزاب تحريض العمال ضد الثورة . ولكن فشلت المحاولة ، وحلت الأحزاب السياسية .

* أفرج عن المعتقلين السياسيين الذين أعتقلتهم الحكومات السابقة ، وكذلك الذين صدرت ضدهم أحكام فى قضايا سياسية .

* أعطى السودان حق تقرير المصير . وبذا زالت العقبة التى كانت تتعثر فيها جميع المفاوضات مع الإنجليز بشأن الجلاء عن مصر . إذ كان يصر المفاوضون المصريون على أن يكون لقب الملك هو : « ملك مصر والسودان » . . . أما وقد زالت الملكية من مصر ، فأصبح من حق أبناء السودان أن يقرروا نظام الحكم الذين يريدونه لأنفسهم . ولم تعد للإنجليز حجة فى عرقلة الجلاء عن مصر أو تعويقه يوماً واحداً . وكان تاريخ هذه الإتفاقية بشأن السودان ١٢ فبراير سنة ١٩٥٣ .

* أعلنت الجمهورية ، وألغى مجلس الوصاية ، وكان ذلك فى ١٨ يونيو سنة ١٩٥٣ ؛

وقد شيع قرار إعلان الجمهورية ، أسرة محمد على بعبارة نابعة من المآسى والآلام التى عانتها البلاد من هذه الأسرة ، جاء فى القرار :

« لما كانت الثورة عند قيامها تستهدف القضاء على الأستعمار وأعوانه ، فقد بادرت فى ٢٦ يوليو سنة ١٩٥٢ إلى مطالبة الملك السابق فاروق ، بالتنازل عن العرش لأنه كان يمثل حجر الزاوية التى يستند إليه الأستعمار . ولكن منذ هذا التاريخ ، ومنذ ألغاء الأحزاب ، وجدت بعض العناصر الرجعية فرصة حياتها ووجودها مستمدة من النظام الملكى ، الذى أجمعت الأمة على المطالبة بالقضاء عليه قضاء لا رجعة فيه .

« وأن تاريخ أسرة محمد على فى مصر كان سلسلة من الخيانات التى أرتكبت فى حقوق الشعب ، وكان من أولى هذه الخيانات أغراق اسماعيل فى ملذاته وأغراق البلاد بالتالى فى ديون عرضت سمعتها وماليتها للخراب ، حتى كان ذلك سبباً تعللت به الدول الإستعمارية للنفوذ إلى أرض هذا الوادى الأمين . ثم جاء توفيق فأتم هذه الصورة من الخيانة السافرة فى سبيل محافظته على عرشه . فدخلت جيوش الاحتلال أرض مصر ، لتحمى الغريب الجالس على العرش ، الذى استنجد بأعداء البلاد على أهلها . وبذا أصبح المستعمر والعرش فى شركة تتبادل النفع . فهذا يعطى القوة لذاك فى نظير هذه المنفعة المتبادلة . فاستذل كل منهما بأسم الآخر هذا الشعب ، وأصبح العرش هو الستار الذى يعمل من ورائه المستعمر ، ليستنزف أقوات الشعب ومقدراته ، ويقضى على كيانه ، ومعنوياته ، وحرياته .

وقد فاق فاروق كل من سبقوه من هذه الشجرة ، فأثرى وفجر ، وطغى وتجبر وكفر . فخط بنفسه نهاية مصيره . فآن للبلاد أن تتحرر من كل أثر من آثار العبودية التى فرضت عليها نتيجة لهذه الأوضاع . .

« فنعلن بأسم الشعب : ألغاء النظام الملكى ، وأنهاء حكم أسرة محمد على مع ألغاء الألقاب من أفراد هذه الأسرة . . . »

« وبهذا بدأ النظام الجمهورى فى مصر . . »

ويلاحظ أن بيان الثورة ،كان عنيفاً جداً ضد الاستعمار . وإن اتفاق تقرير مصير السودان ، لم يكن نهاية مرحلة فى العلاقات المصرية البريطانية ، ولكن كان فاتحة معركة جديدة . قدر لها أن تكون من أعنف المعارك فى تاريخ مصر الحديث .

وقد صودر ما كان فى مصر من أموال فاروق (٢٦ ألف فدان وأخوته ٢٢ ألف فدان كما صودر ٢٤ قصراً وركناً مما كان يملكه .)

الثورة . . وأعداؤها

ونقصد بهم الأعداء فى الداخل . وهم الطبقة التى عاشت وأثرت وتمتعت بالنفوذ والجاه ، فى ظل النظام القديم .

ونقصد بهم أيضاً الجمعيات والهيئات التى ظلت متماسكة،وقد فاجأهانجاح الثورة، ووصول القائمين بها إلى مركز القوة فى البلاد .

ويتمثل الفريق الأول فى الساسة القدماء ، والأقطاعيين ، والذين جربوا فى الماضى سيطرة أموالهم على جهاز الحكم ، ونالوا من ذلك مغانم جمة . وقد عالجت الثورة أعداداً منهم بمحاكمات علنية ، أظهرت للرأى العام ما كانوا يعملون ؛ وكشفت سيرتهم على الملأ ، وأصدرت محاكم الثورة ضدهم احكاماً شتى بالسجن والمصادرة . ولكن معظمهم نال بعد فترة عفواً صحياً على أن يكف عن نشاطه المعادى للنظام الجديد .

أما الفريق الثانى ، فأهم عناصره جماعة الأخوان المسلمين،الذين أحسوا أن منهم فى داخل الجيش أعداداً قد تساعدهم على عمل انقلاب . كما أن منظماتهم السرية المسلحة ،

التى كانت قائمة وأفرادها يدخرون قوتهم الأصلية لعمل داخلى . . وهذه الخطة تشبه ما لجأ إليه مفتى فلسطين أثناء حرب اليهود عندما احتجز السلاح لكى يستعمله فى محاربة خصومه الفلسطينيين ، إذا تحررت فلسطين ، حتى يتمكن من السلطة .

وقد عمد الأخوان إلى أسلوبهم الذى مارسوه قبل الثورة ، وهو محاولة الاغتيال ، ولكن خططهم باءت بالإخفاق ، ودفعوا ثمنها .

وعند ما تمت هذه التصفيات ، وكان آخرها فى أوائل عام ١٩٥٤ ، أراد جمال عبدالناصر أن يختبر قوة الرأى العام الذى يسانده فقام بعدة رحلات إلى ريف مصر ، كان أولها فى المنشية — مديرية الشرقية — وقد ظهر بوضوح أن الثورة عاشت فى قرى الإصلاح الزراعى ، وبين جموع الفلاحين ، منذ بدأ توزيع الأرض عليهم فى يوليو سنة ١٩٥٣ ، وكأن عمرها أحقاباً وأجيالا ، لا عاماً واحداً . .

وكان الفلاحون على حق فى تمسكهم بهذه الثورة ، والذين قادوها .. فقد عاشوا أزماناً رازحين تحت مظالم يندى لها جبين التاريخ سواء فى أيام الحكم المملوكى ، أو التركى ، أو فى عهد محمد على وخلفائه . . فلما جاء الإنجليز ، تفننوا فى وصف تعاسة الفلاح ، ولكنهم مكنوا للبرابين الأجانب ، ومكنوا لأعوانهم من رقاب الفلاحين ، وأرزاقهم مما لم يحدث له مثيل من قبل . . وما حدث فى أيام الحرب العالمية الأولى ، من سوق مليون شاب من أبناء الريف للعمل وراء خطوطهم فى فلسطين ، بغير أى حقوق ولا رعاية ، جدد أيام حفر قنال السويس ، وما حدث فى عهد دليسبس والخديوين سعيد وإسماعيل ولكن بصورة أعنف ، وتزيد عليها سخرة الفلاحين ، ومصادرة أرزاقهم ومواشيهم ، ودواب الحمل من كل نوع . .

فلما أعلن الدستور ، وقام فى الظاهر حكم وطنى ، واحتاجت الأحزاب إلى أصوات الفلاحين لإنجاح نوابهم ، كانت خطب الانتخابات ، وخطب العرش مليئة بالكلمات الرنانة الطنانة ، دون أن يكون لها ترجمة إلى الواقع ..

وفجأة أعلنت ثورة الجيش ، وبعد أسابيع ، للمرة الأولى فى تاريخ هذا الشعب ، عرف أن وزارة أقيلت (وزارة على ماهر) لأنها تلكأت فى إصدار قانون الإصلاح الزراعى ، الذى يحدد ملكية الأرض ، وينص على أن الأرض لزراعها . ويضع حداً أدنى لأجر الفلاح العامل فى الأرض ، وما لبثت أن جاءت حكومة جديدة ، وما هى

إلا شهور حتى كانت سيارات الضباط الأحرار برياسة عبد الناصر تشق طريقها إلى مزارع الإقطاع الواسعة فى شمال الدلتا وتسلم صكوك التمليك للفلاحين، وهى الصكوك التى أسماها عبد الناصر، صكوك تحرير.. ونادى وهو يصافح كل فلاح على حدة. «ارفع رأسك يا أخى، فقد مضى عهد الاستعباد».

إذن لم يكن الأمر وعوداً بالكلام، ولكن عملا تحقق، وأرضاً وزعت.. وإذن فقد ألقت الثورة بنفسها فى أحضان الكثرة من أبناء هذا الشعب. ونادتهم بأن الثورة منهم، وبهم، ولهم، وأن القائمين بها إخوانهم وأبناؤهم..

وعندما احتاج جمال عبدالناصر إلى استفتاء يثبت لمعارضيه فى مارس سنة ١٩٥٤ أنه يسير فى طريق الحق، الذى يريده الشعب، حصل على هذا الإجماع الرائع من الفلاحين، وانتصرت الثورة على خصومها الظاهرين والمستترين، وقيل وقتها إن اجتماعات «المنشية، وبلتاج» كانت أشبه ببدر ومركزها فى دعوة الإسلام.

ومن هذه الاجتماعات انطلقت الثورة فى طريقها، بعد أن وحدت الجبهة الداخلية لتواجه العدو المستعمر..

* * *

الثورة الانجليزية

بدأت تصريحات جمال عبد الناصر تتوالى عن ضرورة الجلاء، وسألت حكومة لندن سفارتها فى القاهرة عما إذا كان «ناصر» يتحدث باسم الحكومة، وكان الرد: .. أنه هو الحكومة!

لقد تكاملت لدى الإنجليز صورة واضحة عن التكوين الثورى الجديد، من جواسيسهم ومن تتابع الأحداث. وعندما وقف عبد الناصر فى بور سعيد يوم أول أغسطس سنة ١٩٥٣، أى بعد عام واحد من قيام الثورة قال:

«لا بد من تحرير مصر.. لا بد من جلاء قوات الاحتلال... أن هذه المعركة، هى معركة مصر كلها، وستتكاتف جميعاً، حتى نحرر مصر من الغاصب، ومن أى جندى أجنبى.. وإننا نوزع السلاح. لا نوزعه على أهل القنال فقط، وإنما نوزعه على جميع أبناء الجمهورية، لأنها معركة تخص المصريين جميعاً».

عند ما تحدث جمال بهذه الكلمات ، نفذت إلى أسماع الإنجليز وعقولهم ، واتضح لهم أن ضباط الثورة ، لن يبحثوا عن بعض مناصب تلهيهم ، وليسوا هم من طراز السياسيين الذين تعاملوا معهم منذ انتكاس الثورة العرابية ، ولا يوجد ستار يخفى الاستعمار الآن عن أعين الشعب ، من ملك ، ووزارات ، ونظام حزبى هدفه الحكم فقط ، دون سعى جدى لتحقيق الجلاء ، اللهم إلا مفاوضات مع الإنجليز تتبعها مفاوضات .

لا شىء من هذا كله . . فقد وجد الإنجليز أنفسهم فجأة أمام الشعب بثورته المسلحة ، وجهاً لوجه !

دلاس .. والاحلاف

قال « ارسكين تشيلدرز »[1] ، وهو يصف الطريقة التى بدأ بها الغرب يفهم بها عبد الناصر ما يأتى :

فى ربيع عام ١٩٥٣ (بعد الثورة بأقل من عام) زار « جون فوستر دالاس » وزير خارجية الولايات المتحدة ، القاهرة لمناقشة خططه الخاصة بإنشاء حزام استراتيجى على طول حدود روسيا الجنوبية . يعززه فى الشرق الأوسط ، حلف دفاعى يضم دول هذه المنطقة . وهو الحلف الذى عوض على الدول منذ عام ١٩٥٠ . ولكنه كان يقابل بالرفض . وقابل «دالاس» الضابط الذى يبلغ من العمر ٣٥ عاما ، والذى قاد الثورة المصرية منذ كانت مجرد مجموعات صغيرة فى عام ١٩٤٢ . . استمع إليه عبدالناصر ، ثم رد عليه بقوله :

— نحن نعارض عقد أحلاف مع أية دولة كبرى أجنبية . لأن لدينا أسباباً قوية تدعونا للشك فى مثل هذه الأحلاف — ولأن شعوبنا لن تؤيد أية حكومة توافق على عقدها . إنك تطلب منا أن نعوق تحقيق أهدافك ذاتها . . إن الدفاع عن هذه المنطقة يجب أن يأتى من داخلها . من شىء يمكن أن يربط شعوبها بعضها بالبعض الآخر . . أن هذه القوة الداخلية ، هى وطنيتنا ، وتقدمنا ، وإصلاحاتنا الاجتماعية.

---

(١) كتاب الطريق الى السويس الأرسكين ر. تشيلدرز ترجمة الدكتور ابراهيم جمعة .

فإذا تعرضت جبهة العرب الداخلية ، التى لا يزال واجباً علينا أن ننشئها ، للضعف ، نتيجة لعرض أحلاف غير مرغوب فيها ، فإن هناك قوة سياسية واحدة يمكن أن تستفيد من ذلك . أن أكبر خطوة للشيوعية فى هذه المنطقة هى الخطر الذى يمكن أن يأتى من هجوم من داخل المنطقة ذاتها . وما جدوى « الخطط الاستراتيجية » ، إذا كان هذا الهجوم من الداخل .

يقول تشيلدز : ولم يعتمد عبد الناصر أثناء حديثه مع دالاس على تقدير القوة الوطنية فى الشرق الأوسط ، بل لقد أبلغه أيضاً أن « الجبهة الداخلية » يجب أن تصحبها مقدرة دفاعية قوية ، لتواجه أى هجوم خارجى . ولكن هذا الدفاع ، يجب أن تتكفل به الدول العربية ذاتها عن طريق ميثاق « التضامن العربى » المستقل غير المنحاز ، الذى ينبغى تدعيمه بالأسلحة الحديثة ، والذى يجب على الغرب ، إذا كان حكيماً ، أن يقدمها دون شروط سياسية .

* * *

وروى روبرت سان جورج فى كتاب « الرئيس » عن هذا الاجتماع مع دالاس ما يلى : قال ناصر لدالاس اننا لن نرحب بأمريكا فى محاولتها أخذ مكان بريطانيا فى الشرق الأوسط ، ثم قلت له (القائل هو ناصر) إنه إذا أبلغه حكام من العرب فى رحلته للدول العربية ، بأنهم سيسمحون للنفوذ الأمريكى بأن يحـــل محل النفوذ البريطانى ، فإن هؤلاء الحكام العرب يخدعونه بما يقولون .

وفى صيف هذا العام ـــ ١٩٥٣ ـــ زار مصر جواهر لال نهرو زعيم الهند . ثم محمد على جناح منشىء الباكستان .

ولاشك فى أن المصريين داخلهم سرور كبير لاستقلال هاتين الدولتين الكبيرتين، فإنهم لم ينسوا أيام استعمار الإنجليز للقارة الهندية ، كيف كانوا يسوقون الجحافل منها لضرب الثورات ، حدث هذا أيام عرابى ، وفى الحرب العالمية الأولى ، وفى ثورة سنة ١٩١٩ .

ولهذا لم يدهش المصريون ، بعد التقاء ثوار مصر مع ثوار الهند والباكستان من صدور البيان التالى :

يجب أن نتذكر أنه يوجد فى العالم اليوم قوة كبرى ، تهدف إلى الخير . ولن تسمح لنفسها بأن تكون أداة للشر . وهذه القوة تتزعمها الهند والباكستان . وهذه القوة الكبرى التى تمثل ثلث العالم ، والتى استخدمت فى الحروب الماضية ، كأداة فى أيدى الدول الاستعمارية ، لن تسمح لنفسها بعد الآن ، بأن تستخدم كوقود فى خدمة الاستعمار فى أية حرب فى المستقبل » .

الجلاء ...

مواجهة الاستعمار فى منطقة قنال السويس ، لها أسلوب واحد ، وهو تنظيم حركات التسلل إلى القاعدة ، ومهاجمة العسكريين من ضباط وجنود ، ومهاجمة — المخازن والورش — وإشاعة الذعر فى منطقة الوجود البريطانى كله . .

ومعركة الفدائيين هذه المرة ، لا يقوم بها شباب متحمس ، أخذ تدريبه على عجل لكن يقوم بها ضباط وجنود فى أزياء مدنية من كل صنف ونوع يقوم بها شباب ، أتقن استعمال السلاح ، وآلات التدمير ، ولديه منها الكثير فى مخازن الجيش المصرى بكل ما تحويه . بل يوجد الكثير من معدات الحرب فى مخازن الإنجليز أنفسهم بقاعدة القنال إذا أحسنت وسائل الإغارة عليها . وفى جميع الأعمال الفدائية يكفى أن يوجد السلاح فى المنطقة ، وربما فى يد للعدو ، لكى ينتزع منه ويوجه إلى صدره ـ وهذا ما قام به عبد الكريم بطل الريف . وما قام به ثوار الجزائر وفيتنام بعد ذلك . وما يجب أن يقوم به كل فدائى تعوزه الكميات الكافية من السلاح . . ويتوفر منه القدر المطلوب لدى العدو . . حتى الطائرات يمكن الاستيلاء عليها عند اللزوم .

وبدأت المعركة ، قبل أن تحتفل الثورة بعيدها الأول ، وكانت صامتة ، لا تتحدث عنها صحف القاهرة ، ويفغر الإنجليز أفواههم دهشة لما يحدث ؟ !

ألم يستثمروا حريق القاهرة بالقبض على الفدائيين فى العام الماضى ؟ ألم تأتهم الأنباء بأنهم جردوا من سلاحهم نهائياً ؟ . . ألم تشغل حكومة الثورة الجديدة بتدبير شئون بيتها الجديد ، وتشغلها مشاكله الداخلية الكثيرة ؟ . .

أخيراً ضاق الإنجليز ذرعاً ، بكل هذا الذى يحدث . فغيروا قيادتهم فى القنال بعد أن أصبح لها ثأراً مع المصريين بعد أحداث الإسماعيلية فى مطلع عام ١٩٥٢ ، وثأر آخر قبله منذ أحداث السويس ! !

وتلقت حكومة الثورة من الجنرال فستنج ، قائد الإنجليز فى القنال إنذاراً ، بأن حد رجال الطيران الإنجليز اختفى ، وأن على الحكومة المصرية ، أن تسلمه قبل صباح يوم ١٣ يوليو سنة ١٩٥٣ ، وإلا اتخذت إجراءات شديدة ! !

ورفضت القاهرة هذا الإنذار فى حزم وهدوء . . وكان الرد تزايد هجمات الفدائيين ، بشكل يوحى بأن حرباً فعلية تقع فى المنطقة . وكثر عثور الإنجليز على جثث ضباطهم وجنودهم فى مياه قنال السويس وترعة الإسماعيلية وفى الشوارع والطرقات حول معسكراتهم . . ولم تمض ليلة دون أن يسمع أصوات الإنفجارات المدوية ، وترى الحرائق فى قلب المعسكرات البريطانية .

ولفتت معارك القنال أنظار الصحافة والإذاعات العالمية ، فضلا عن صحافة الإنجليز وأمبراطوريتهم ، حتى أن سلوين لويد اعترف فى مجلس العموم البريطانى ، بأن حوادث اختفاء الجنود البريطانيين تتزايد فى منطقة القنال وبدأت بعد ذلك تنشر إحصائيات عن الخسائر فى أرواح هؤلاء الجنود (أوائل عام ١٩٥٣ كانت خسائر ستة أسابيع ٥٢ ضابطاً وجندياً)

وفى خلال هذه الفترة كانت السفارة البريطانية تدور جول موضوع المفاوضات . وتجس النبض فى كل اتجاه . . . وعند ماقدمت اقتراحاً ، بأن يشترك ممثل أو أكثر لحكومة الولايات المتحدة فى المفاوضات، رفضت مصر هذا الاقتراح بشدة وعنف، إذ لا يعقل أن نستدعى للنزاع طرفاً نعرف سلفاً أن له أطماعاً ، وأنه سيأخذ جانب الإنجليز ، ويعينهم إذا اتسع نطاق المعارك فى القنال . . أن دخولهم طرفاً ثالثاً فى النزاع معناه قبول عدو ثان لمصر فى هذا الكفاح .

وأخيراً حصرت نقط البحث، وتألف وفدان ، مصرى برياسة جمال عبد الناصر ، وانجليزى برياسة قائدهم الجنرال بنسون .

وفى المرحلة النهائية طلب الإنجليز ، أن تتوقف أعمال الفدائيين فى القنال . وقد أجيبوا إلى هذا الطلب . وحضر من إنجلترا المستر أنتونى هيد وزير الحربية البريطانية والمستر شاكبور وكيل وزارة الخارجية البريطانية ووقع الطرفان الاتفاق التمهيدى على الجلاء بالحروف الاولى من الاسماء .

وفى ١٩ أكتوبر سنة ١٩٥٤ عقد الاتفاق النهائى ، على أن يترك آخر جندى إنجليزى أرض مصر بعد عشرين شهراً من تاريخ التوقيع . . . أى بعد عشرين سنة من توقيع معاهدة ١٩٣٦ ، وهو التاريخ المحدد لسريان هذه المعاهدة، على أن تدور فى نهايته مفاوضات جديدة . . وكانت هذه هى المفاوضات وكانت هذه هى النهاية التصميم على الجلاء وترك الإتفاق لإنجلترا بعض مخازن تديرها شركة من الفنيين الإنجليز ، على أن تكون صالحة للاستعمال فى حالة هجوم خارجى على تركيا أو إحدى دول الجامعة العربية وتبقى هذه المخازن فترة سبع سنوات ، ثم يستغنى عنها ، أو يتجدد وجودها باتفاق آخر .

ووقع الاتفاق النهائى أنطونى ناتنج وزير الدولة البريطانى والسفير البريطانى رالف ستتفنسون والجنرال بنسون رئيس الخبراء العسكريين فى هذه المفاوضات .

وبدأت عمليات الجلاء فوراً ، وكان مما تسلمته مصر من منشئات هذه القاعدة عشر مطارات ، منها مطار أبو صوير الحربى الضخم ، ومطار ديفرسوار وهو واقع على البحيرات المرة ، ويعد أكبر مطارات الشرق الأوسط .. وعادت معسكرات التل الكبير إلى مصر ، وارتفعت عليها الرايات المصرية للمرة الأولى منذ عام ١٨٨٢ ، خط أنابيب البترول ، والمراكز العسكرية فى السويس والإسماعيلية وبور سعيد .

وقد عبر جمال عبد الناصر عن امتنانه العميق للظروف التى أدت إلى هذا النصر الكبير وذكر فى بيانه هؤلاء الذين ضحوا فى انتظار هذا اليوم بكفاحهم الصلب : أحمد عرابى ، ومصطفى كامل ، ومحمد فريد ، وسعد زغلول ، والشباب الذين باعوا أرواحهم للفداء على كل بقعة من ثرى الوطن .

* * *

والواقع ان اقتلاع قاعدة القنال من أيدى الإنجليز ، كان بمثابة اقتلاع عين أو ذراع من جسدهم .. أو الإثنين معا .

وكان بودهم أن يحدث شىء . . أى شىء لكى لا يتم هذا الجلاء ، ولكنهم وقعوا تحت ضغط كبير من مصر ، لم يكن لهم قبل بصده إلا من خلال معارك رهيبة ، قد يخسرونها . . وضغط باشره الأمريكان عليهم ، وفى حسابهم أن يفوزوا من مصر

بغنيمة تشبه غنائمهم التى حققوها من وراء التراجع الإنجليزى المستمر فى الشرق الأوسط . فقد اقتسموا مع انجلترا بترول إيران لكى يساعدوا على إسقاط حكومة مصدق ، وإلغاء التأميم ، وقاسموا فى بترول الكويت . وأعدوا مشروع دفاع مشترك ، حسبوا رغم الرفض المبدئى الذى قوبلوا به أن فى وسعهم تنفيذه بصورة أو أخرى . . ثم ان اسرائيل كانت جائزتهم الرئيسية فى المنطقة ، فإنه بعد أن بذل الانجليز ما بذلوا لإقامة هذه الدولة الدخيلة ، أدارت ظهرها لهم ، وبدأت تنسيق عملها مع الجهة الأكثر ثراء ، وقدرة على دفع المال ، وهى الولايات المتحدة .

ثم ان قيام هيئة الأمم ، وتزايد عدد الدول المتحررة فيها ، خلق رأيا عاما عالميا ضد القواعد والاستعمار بصفة عامة . . يضاف إلى ذلك أن الحرب القادمة بين الشرق والغرب ، لن تكون حرب قواعد ومعارك برية أو بحرية ، ولكن حرب صواريخ بعيدة المدى ، ورؤوس ذرية قادرة على الإفناء .

وكان يكون عجيباً جداً ، أن تظل انجلترا متشبثة بقاعدة السويس ، ومحتلة لجزء من أرض مصر ، فى الوقت الذى استقلت فيه الهند والباكستان وسوريا ولبنان والكثير من الدول الافريقية والآسيوية الاخر . . وهذا هو السودان فى طريقه إلى تقرير المصير ، ولن يكون مصيره العودة إلى الدائرة الاستعمارية المرنة . .

نكبة اسرائيل ...

ما كان يسهل على الاستعماريين الإنجليز قبول هذا المنطق أو ذاك . ولقد استبقوا سلسلة القواعد المحيطة بمصر ، على أمل أن تحدث أزمة ما ، فيطبقون على بلادنا مرة أخرى . . قواعدهم فى جبل طارق ومالطة وقبرص وعدن . . والقاعدة المشتركة مع أمريكا فى إسرائيل ، والقوة الأمريكية نفسها وقواعـــدها فى تركيا واليونان وإيطاليا . . كل هذه المراكز كانت تشكل حصاراً فولاذياً حول مصر ، تستطيع اكراهها ، أو احتلالها مرة أخرة ، إذا تطلب الأمر مثل هذا الأجراء .

وإذا بدا أن الانجليز قبلوا الجلاء ، مكرهين . . إلا أن الذين عبروا عن ضيقهم حتى درجة الانفجار ، كانوا اليهود فى إسرائيل .

كانت إسرائيل تعتبر الـ ٨٠ ألف جندى بريطانى فى منطقة قنال السويس درعا

واقيا لها من أى تحرك مصرى أو عربى ضدها . وانسحاب هذه القوة ، يهدد كيانها تهديدا خطيراً ، وبالقليل يزيد فى أعبائها الدفاعية لتعوض هذا الفراغ الذى يحدثه الجلاء عن مصر .

وعلى طريقة الغدر والمكر التى صاحبت الخلق اليهودى طوال تاريخه ، فقد لجأت حكومة بن جوريون إلى وسيلة تقليدية ، وهى اثارة عدد من الاضطرابات وأعمال التخريب ، تشعر بأن الأمن مختلف فى مصر ، وأنه لا بد من قوة احتلال ، حتى يطمئن الأجانب إلى وجودهم فى مصر . .

محاولات عن طريق الجاسوسية :

ووضعت خطة عرفت فيما بعد باسم عملية « لافون »[١] ، يقوم فيها عدد من العملاء الصهيونيين فى مصر بنسف واحراق عدد كبير من المراكز الحساسة فى مصر ، ومن بينهم مكاتب الاستعلامات الامريكية . وبعض دور التمثيل الأجنبى وطرق المواصلات ومكاتب البريد . . . ومن يدرى فقد تتطور العمليات الصغيرة فتصبح حريقاً كبيراً يشبه حريق القاهرة فى ٢٦ يناير سنة ١٩٥٢ .

وبدأ تنفيذ الخطة ، ومفاوضات الجلاء تتقدم فى مراحلها . ولكن يقظة قوات الأمن المصرية ، ونشاط أجهزة المخابرات ، مكنت مصر من وضع يدها على العصابة المكلفة بتنفيذ عملية « لافون » . وقد تم القبض على جميع أعضاء هذه الحلقة وعددهم ثلاثة عشر صهيونياً بين رجال ونساء .

وتبين أن التعليمات كانت تصدر لهذه المنظمة الارهابية من رياسة لها فى باريس . وان رئيس التنفيذ ، اسمه ماكس بينت . . وكان من أهم التعليمات لهذه الجماعة الاجرامية ، أن ينتحر أفرادها إذا وقعوا فى أيدى قوات الأمن المصرية . . وقد تمكن رئيس هذه المنظمة من الانتحار . كما انتحر كذلك أحد أعضائها واسمه موشى كريمونا .

---

(١) « لافون » كان وزيرا للدفاع فى حكومة بن جوريون واختلف مع القيادات العسكرية التى كان يسيطر عليها رئيس وزرائه . فأحصيت عليه الأخطاء التى ارتكبت فى هذه العملية ، وظلت تلاحقه ، وما تزال ...



اليهودى « ماكس بنيت » رئيس حلقة التخريب

وحكم على اثنين من عصابة عملية « لافون » أولها موسى ليتو مرزوق وكان طبيباً بالمستشفى الإسرائيلى ، وصمويل عازار . . وحكم على الباقين بالأشغال الشاقة المؤبدة والمؤقتة . . وبرأت المحكمة اثنين من المقبوض عليهم .

وعلى عادة اليهود ، قاموا بمحاولة دولية للضغط على مصر كى لا تنفذ حكم الإعدام على من صدر الحكم بإعدامهما . . ولكن دون فائدة . وحدث أن عرف الأمريكان بعد ذلك بتفاصيل هذه المؤامرة الصهيونية القذرة على مؤسساتهم فى مصر ، واغتيال بعض رجالهم الدبلوماسيين . وظلت المسئولية عن هذه العملية تتقاذفها الأحزاب السياسية الصهيونية عدة سنوات ، وكانت سببا فى تغلب أشكول على بن جوريون

وإقصاء بن جوريون تقريباً عن محيط العمـــل السياسى الإسرائيلى ترضية للولايات المتحدة .

* * *

وجاسوس فى دمشق :

وكان من بين أفراد هذه الشبكة ، شاب صهيونى من مواليد الاسكندرية أسمه إيلى كوهين تعلم فى كلية الهندسة بجامعة الاسكندرية ، وقد صدر الحكم ببراءته إذ لم يكن له دور واضح فى عمليات هذه الشبكة . . ولكن حدث أن التقطته المخابرات الاسرائيلية ، وقامت بتدريبه تدريبا شاقا طويلا ، لكى يقوم بدور مهاجر سورى إلى شيلى ، ويحمل أسم كامل أمين ثابت ، ويحفظ فاتحة القران . وفى شيلى التقى بالمستشار العسكرى للسفارة السورية ، أمين الحافظ ، الذى أصبح فيما بعد رئيسا للدولة السورية ، بعد انقلاب من الانقلابات الكثيرة التى عرفت بها دمشق .

وعن طريق هذه الصلة ، تمكن هذا الجاسوس ، من أن يستقر فى دمشق ويختلط بقيادات حزب البعث ، بما كان ينفقه من مال وفير ، على سهراته وهداياه . . مدعيا أنه جزء من ثروته الطائلة التى حصل عليها من أعماله التجارية فى شيلى وغيرها . وما هو إلا مال المخابرات الاسرائيلية .

وبعد أربع سنوات أمكن للمكتب الثانى السورى ، أن يتتبع هذا الجاسوس ، الذى بدأ حياته فى الاسكندرية ، ويعلق فى مشنقة نصبت له عام ١٩٦٥ فى ساحة المرجة بدمشق . وكما فشلت الجهود الصهيونية فى إنقاذ جواسيس مصر ، كذلك فشلت كل المغريات والضغوط التى بذلوها فى إنقاذ جاسوسهم فى سوريا .

الحرب الساخنة ... بعد الجاسوسية :

أما وقد أخفقت مؤامرات إسرائيل لتعويق عملية الجلاء ، فإنهم لجأوا إلى الأسلوب الثانى ، وهو محاولة استدراج الجيش المصرى إلى معركة سريعة ، قبل أن تنمو قوته وسلاحه وتدريبه ، مع ضغط متصل على أمريكا وانجلترا لكى لا تمد مصر بالسلاح .

حدث فى ٢٨ فبراير سنة ١٩٥٥ أن هاجمت قوات كبيرة من اليهود مدينة غزة ، هجوما مفاجئا ، واشتبكت مع حاميتها المصرية ، ودامت المعركة حوالى ثلاث ساعات نسف فيها العدو محطة المياه ، وبلغت خسائرنا ٣٩ قتيلا و ٣٣ جريحا . .

وكان هذا العدوان بتدبير مشترك مع الدول التى تحمى إسرائيل ، لكى تقتنع مصر أنها فقيرة فى سلاحها ، وأن مثل هذه المعركة ، سوف تتكرر ، إذا لم تنضم إلى الحلف الغربى الذى حاول دلاس أن يقنع به الحكومة المصرية دون جدوى .

وقد كشف جمال عبد الناصر عن خطة الغرب ، وعن التفكير المصرى فى مواجهته فقال فى إحدى خطبه[1] :

« أوصلتنا معركة اشتباكات خطوط الهدنة مع إسرائيل ، إلى معركة أخرى فى حرب تثبيت الاستقلال ، تلك هى معركة احتكار السلاح . . كانت معركة احتكار السلاح حلقة جديدة فى السلسلة . .

« أول حلقات السلسلة كانت جرنا إلى الأحلاف العسكرية الأجنبية . فلما رفضنا قيودها ، وأصررنا على الرفض ، كان تحريض إسرائيل علينا ، حتى يثبتوا لنا أننا لن نستطيع الدفاع عن أنفسنا ، وأننا فى حاجة دائمة إلى حمايتهم . . . » .

وكان طبيعيا ألا تنجح خطة الاستدراج ، التى سارت عليها إسرائيل ، ومن ورائها دول الأحلاف الغربية . .

ولم يكن هجوم إسرائيل على غزة هو الحركة العصبية التى ردت بها إسرائيل على معاهدة الجلاء ، ولكن هذه الهجمات تكررت فى عام ١٩٥٥ ، بطريقة لا يمكن أن تكون مجرد حوادث حدود . . .

ففى ٣٠ مايو سنة ١٩٥٥ حاول اليهود احتلال مركز بوليس غزة وقطع الطريق بين رفح وغزة . وفى ٢٢ أغسطس تكرر هذا العدوان ، ثم عاد فى ٢٨ أغسطس وآخر هذا الشهر وأوائل سبتمبر .

وفى ٢٨ اكتوبر هاجم اليهود ممر الكونتلا جنوب سيناء ، وكان هذا الهجوم اختباراً لقوة الدفاع عن هذه المنطقة ، التى ظهر بعد ذلك باثنى عشر شهراً بالضبط ، أنها كانت نقطة تحرك اليهود ، أثناء اشتراكهم فى العدوان الثلاثى .

---

(١) من خطبة ٢٢ يوليو سنة ١٩٥٧ .

وفى مساء ٢ نوفمبر سنة ١٩٥٥ هاجم اليهود ، موقع « الصبحة » داخل حدودنا فى سيناء ، وكانت قوتهم هذه المرة معززة بالمدرعات والطائرات والمدفعية الثقيلة . واشترك فى الهجوم عدد كبير من قواتهم ، وكان زحفهم عن طريق العوجة ، وهى منطقة منزوعة السلاح ، لايجوز لهم المرور منها . . . ومع ذلك فاليهود لايعترفون بما يجوز وما لا يجوز .

وواضح أن هذا الزحف جاء بعد ما أذيع فى أنحاء العالم عن صفقة الأسلحة الروسية مما سنوضحه فيما بعد . . وبعد معركة استمرت ١٧ ساعة ، ارتد اليهود بعد أن بلغت خسائرهم أكثر من ٢٠٠ قتيل ، وكانت خسائر القوة المصرية المكلفة بالحراسة فى هذه المنطقة ثمانين شهيداً .

ولم يكتف اليهود بمهاجمة الحدود المصرية ، ولكنهم أيضاً باغتوا الشاطىء الشرقى لبحيرة طبرية ، حيث تعسكر القوات السورية ، ودار قتال عنيف جداً استرد فيه الجيش السورى المواقع التى حاول اليهود الثبات فيها وبلغت خسائر الجيش السورى ٤٢ شهيداً ، وزادت خسائر اليهود عن ضعف هذا العدد .

وإزاء هذه التحديات السافرة والساخنة ، كان على مصر أن تبحث عن السلاح الذى يقيها شر هذا الاعتداء ، وأخفقت كل الجهود للحصول عليه من الغرب . وكان لابد من جس نبض الشرق ، وما لبث الرد أن جاء بالموافقة ، وحمل هذه الموافقة « شبيلوف » رئيس تحرير جريدة برافدا فى ذلك الوقت الذى قدم إلى مصر لحضور احتفالات عيد الثورة فى يوليو عام ١٩٥٥ .

وفى أول يوم من أيام الخريف — ٢١ سبتمبر سنة ١٩٥٥ — تم توقيع الاتفاق وكانت مخابرات الغرب ، قد عرفت بعض التفاصيل من براج . . ولهذا بادر الرئيس فأعلن النبأ ، وما أن سمعت وشنطن حتى أخذ جورج ألن وكيل وزارة الخارجية الأمريكية لشؤون الشرق الأوسط ، أول طائرة وجاء إلى القاهرة ، وهى عجلة عبرت عن القلق الذى أصاب وشنطن ولندن من هذا النبأ .

وتلقى « ألن » وهو فى الطائرة إشارة من المخابرات الأمريكية تحيطه علماً بما تلقته من براج بأن الاتفاق المصرى التشيكى يتضمن ٢٠٠ أو ٣٠٠ طائرة ميج و ٣٥ قاذفة قنابل متوسطة و ١٠٠ أو ٢٠٠ دبابة ستالين وست غواصات .

ويبدو أن تعليمات دالاس لوكيل وزارته كانت تقضى بأن يكون حاسماً جداً مع « ناصر » وأن يفهمه بوضوح تام أن حكومة وشنطن « لا تقبل » أن تتسلح مصر من الكتلة الشرقية .

وتمهيداً لحرب الأعصاب . تناثرت أقوال كثيرة عن رحلة جورج ألن إلى القاهرة ، والهدف منها، وكان ذلك سبباً فى لفت نظر السفير الأمريكى الذى طلب تحديد موعد للزائر القادم من أمريكا ، إلى أن أى كلمة أو تصرف غير لائق ، سوف يقتضى تصرفاً مماثلا ، أو أكثر حدة من الجانب المصرى .

وعندما وصل جورج الن ، والسفير الأمريكى ، إلى قاعة الانتظار فى الرياسة تأخرت مقابلتهما للرئيس ساعة ونصف . . وهناك ألفاظ قصيرة فى مثل هذه الظروف تعبر عن مواقف كثيرة . فقد اشتهرت ، كلمة « لاتغيير » No change التى كان يرد بها الانجليز فى ظروف كان القصر يستأذنهم فيها لتغيير الوزارة ، وهى قوية الدلالة على أن صاحب الكلمة الأخيرة فى شؤون الحكم المصرى ، لم تكن الأحزاب ولا الملك ، ولكن قوة المستعمر وسلطانه . . . وقد ارتبطت زيارة « جورج الن » بجملة أخرى قيل إن الرئيس رد بها على قلق زواره الأمريكان من تأخير مقابلتهم كل هذا الوقت الطويل ، وهذه الجملة هى : « دعه يهدىء أعصابه Let him cool Himself

وغنى عن البيان أن الزائر الأمريكى الكبير ابتلع كل العبارات التى كان أعدها لهذه المقابلة . . ورجع بخفى حنين كما يقول المثل العربى القديم . . وقال أحد المعلقين الأجانب : إن الممثل الشخصى لرئيس الولايات المتحدة كان فى موقف محرج أمام أنظار العالم . . لقد انتظرت مصر أجيالا كثيرة لكى تهين مثل هذه الدولة القوية جهاراً . . وأصبح ناصر فى ذلك الوقت رمزاً للعالم العربى . . وكان الناس يدفعون المال الذى كسبوه بالجهد مقابل صورة يعلقونها فى محلاتهم فى عمان وبيروت ودمشق وحتى فى بغداد ، وكان رد الفعل الذى جاء من أنحاء العالم العربى ، يدل على حاجة الأمة العربية الى تعبير قوى عن المعنى الذى ظل ناصر ينادى به ، وهو الكرامة . . ورد الضربات بمثلها .

والحقيقة ، أن هذا المعلق الأجنبى لم يعبر عن كل ما فى نفس المصريين ، وقصة الرسول الامريكى الذى جاء يهدد ، تنتشر ، وتأخذ أوضاعا شتى . . الحقيقة أن مصر

فى أعماقها أحست بأن « ناصر » رد على اشتراك الجنود الأمريكيين مع جيش الغزو الانجليزى للاسكندرية عام ١٨٨٢ . . وأنه رد على بيان ولسون فى مؤتمرات عام ١٩١٩ ، بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى ، وهو البيان الذى استثنى فيه مصر — وحدها — من حق تقرير المصير ، وهو الحق الذى أتيح لكل شعوب الأرض . » ولم يكن الرد فقط رحلة جورج الن وما حدث فيها ، ولكن الرد الاقوى كان تحطيم احتكار السلاح ودخول النفاثات والغواصات والدبابات الثقيلة فى الشرق الأوسط .

ونستطيع أن نقول إن عام ١٩٥٥ ختم بنصر كبير هو نجاح مصر فى مؤتمر باندونج وعقد صفقة الأسلحة الروسية ، وتأكيد شخصية مصر فى وجه جميع التحديات .

وكان فى تقدير مصر ، أن يكون عام ١٩٥٦ فاتحة عهد من الاستقرار ، وفق خطة موضوعة تدور حول النقط الآتية :

١ — إقرار الاستقرار السياسى الداخلى بإعلان دستور مؤقت وإجراء انتخابات رياسة الجمهورية ، ومجلس الأمة .

٢ — تدريب الجيش المصرى على الأسلحة الحديثة . وزيادة عدده بحيث يكون قوة رادعة حقيقية ، وتنتهى كلمة « الفراغ » التى طالما تشدق بها الاستعماريون ، كلما طولبوا بالجلاء . وأنها أسياسة الأحلاف .

٣ — إقامة مشروعات اقتصادية كبرى ، وقاعدة صناعية فى داخل البلاد تحقيقاً لبرامج العدالة الاجتماعية عن طريق الرخاء . وأهم هذه المشروعات السد العالى

ولكننا نسأل : ماذا حدث بعد تحركات عام ١٩٥٥ الناجحة ؟

مابعد جلاء الانجليز

كان الدوى الهائل فى عواصم العالم — لصفقة الأسلحة الروسية . باعثا عن مزيد من التفكير فى خطط هذا العدو التقليدى لحرياتنا ، وقواتنا — ولنمونا . . لقد صاحوا : إن النفوذ الشيوعى بدأ يتسرب مع السلاح إلى الشرق الأوسط ورددنا عليهم أن تسليح جيشنا من الكتلة الشرقية لا يعد فتحا للنفوذ الروسى ولا للنفوذ الأجنبى ، ولكنه قضاء على النفوذ الطويل الذى تحكم فينا وباشر فعلا سيطرته على مقدراتنا .

تقدير الموقف من الجانب المصرى هو المضى بأقصى سرعة فى تنفيذ برامجنا التى ختمنا بها الفصل الثانى .

وتقدير الموقف من الجانب الغربى ، هو محاولة تحطيم هذه البرامج وافسادها بكل وسيلة ممكنة ، مستعينة بالضغط الاقتصادى ، والحرب الباردة وتهيئة ظروف تؤدى إلى حرب محدودة ضد مصر ، تصفى فيها جيشها الجديد قبل أن تتكامل قوته ، ويصبح من العسير التغلب عليه .

وهذه الحرب فى تقدير الغربيين يمكن أن تتم عن طريق كلب الصيد المسعور ، الذى أقاموا له حظيرة على حدودنا الشرقية ، ونعنى به إسرائيل . . إذ لم يكن يتصور أن تقدم انجلترا وأمريكا على حرب مباشرة ، وقاعدة القنال كاد يتم اجلاؤها ، ومعاهدة الجلاء لم يجف مدادها[1] . . فضلا عن أن انجلترا كانت مطمئنة إلى وجود مراكز نفوذ كبرى لها حول مصر ممثلة فى نورى السعيد العراق ، وكميل شمعون اللبنانى وجلوب على رأس جيش الأردن .

---

(١) تم الجلاء نهائيا فى ١٣ يونيو سنة ١٩٥٦ ، وفى ١٨ يونيو سنة ١٩٥٦ رفع جمال عبد الناصر العلم المصرى على مبنى البحرية فى بور سعيد يوم ١٨ يونيو ، وهو ذكرى اعلان الجمهورية (١٨ يونيو سنة ١٩٥٣) .

فى ١٦ يناير سنة ١٩٥٦ أعلن الدستور الجديد ، وذلك فى نهاية فترة الانتقال التى قدرت بثلاث سنوات .

وفى ٣ مارس سنة ١٩٥٦ أعلن قانون الانتخاب الذى تدور على أساسه انتخابات مجلس الأمة . .

وكان من أهم سمات هذه الحياة الدستورية الجديدة ، إعطاء المرأة للمرة الأولى حق الانتخاب ، وخفض سن الناخب إلى ١٨ سنة ، واتاحة حق الانتخاب لأفراد القوات المسلحة ، وخفض تأمين الترشيح لعضوية مجلس الأمة إلى خمسين جنيهاً .

وللمرة الأولى نجد فى الدستور نصاً على أن الشعب المصرى ، يشعر بوجوده متفاعلا فى الكيان العربى الكبير ، ويقدر مسؤولياته والتزاماته ، حيال النضال العربى المشترك ، لعزة الأمة العربية ومجدها .

والنص على أن مصر جزء من الأمة العربية ، هو أول ثمرات الاستقلال الصحيح . وتحطيم لحاجز هائل اقامة الاستعمار البريطانى بين شعب مصر ، وبقية الشعوب العربية بتداخله فى برامج التعليم ، وإقامة الحدود السياسية المانعة من حرية الانتقال ، وتبادل منافع الحياة ، وسيطرته على جزء كبير من وسائل الأعلام ، وتشجيع الهيئات والمنظمات الانفصالية ، والنزعات العنصرية والشعوبية ، اتباعاً لسياسة فرق تسد : وفى خلال سبعين سنة تعاقب جيلان من أهل مصر ، يرون بغداد أو القدس أو دمشق أو بيروت أو الخرطوم أو بنى غازى وتونس والجزائر ومراكش بعيدة كل البعد — وكان أقرب منها — كل القرب — لندن وباريس وروما .

وما كان الأمر كذلك قبل سيطرة الإنجليز على القاهرة . . فإن أهل يافا وجدة وبنى غازى عاونوا المصريين معاونة ضخمة فى حربها ضد نابليون وجنوده ودفعت يافا ثمناً ضخماً لهذه المقاومة عندما هاجمها نابليون ، وساق الفرنسيون من هناك السيد عمر مكرم والكثير من المصريين الذين اعتصموا بفلسطين بوصفها ملجأهم ، وامتداد قوميتهم ، وكذلك صنع طوبار زعيم الدقهلية فى هذه الأزمة . . وإلى عكا هاجر آلاف الفلاحين المصريين من مظالم محمد على ، وحلوا أهلا على أبنائها حتى هاجمها محمد على وساق من هناك المهاجرين . وعندما حلت الهزيمة بالعرابيين ، كانت بيروت

ودمشق والقدس وبلاد الشام الكبير ملجأ الزعماء الذين نفاهم الإنجليز أو هربوا من عسفهم . . . وكذلك كانت القاهرة فى كل أزمة ، وفى كل محنة حلت بأبناء العروبة ، وكانت قادرة على مد يد المعونة ، كذلك صنعت إبان معركة الاستقلال السورى واللبنانى :. وهؤلاء نحن نرى موقفها مع فلسطين ومحنتها . . . وكان عدلا وصوابا أن يتضمن الدستور الذى انبثق من وحى الثورة وضمير الشعب ، نصاً على عروبة مصر . وهو ما تجاهله دستور سنة ١٩٢٣ الذى وضع والانجليز جاثمون على صدر هذه الأمة .

فى شهر يونيو من هذا العام ١٩٥٦ — يوم السبت ٢٣ — جرى استفتاء على الدستور . وانتخاب رئيس الجمهورية . وقد أقبل خمسة ملايين ونصف المليون من المصريين على اعطاء أصواتهم بالموافقة على الدستور ، وانتخاب جمال عبد الناصر رئيساً للجمهورية ، وكان طبيعياً أن يتأخر الانتخاب إلى منتصف هذا العام ، حتى يتم جلاء آخر جندى من جنود الاستعمار عن أرض الوطن . وبهذا يكون رئيس الدولة ، قد رفعه الشعب إلى كرسى المسؤولية الأولى ، وهو حر من كل قيد الأجنبى .. وهو يدفع إلى الصحائف السود من تاريخه قرار وزارة الخارجية البريطانية بتعيين السلطان حسين والسلطان فؤاد وولى العهد أحمد فؤاد . . ويدفع قبل ذلك ولاة الفرمانات السلطانية التركية ، الذين رفعتهم إرادة خارجية إلى حكم هذه البلاد . . هى صحائف لاننساها ، ولن تتكرر بإذن الله ، بعد أن تجرعنا فى عهودها كؤوس الذل والمهانة مترعة بالمر والحنظل .

ويرجع بعض كتاب الأجانب ، نشأة الفكر «القومى العربى» عند جمال عبد الناصر بعد رحلته الأولى إلى الحجاز ، التى سبق أن أشرنا إليها وهذا وهم وخطأ فادح . . فقد نشأت فكرة القومية العربية مع مبادىء مصر الفتاة العشرة فى الثلاثينيات .

وما أن ألتحق جمال عبد الناصر بالكلية الحربية ، وتعمق فى دراسات ظروف مصر العسكرية وتاريخها القديم والوسيط والحديث ، حتى وجد أن المنطقة العربية فى شرق البحر المتوسط منطقة متكاملة جغرافياً وتاريخياً وقومياً وعسكرياً . . وإنه ما من مرة سقطت فيه حلب ودمشق فى يد جيش غاز إلا كانت القاهرة وجهة ثانية . . وكثيراً ما سمعت « عزيز المصرى » رائد القومية العربية الحديث ، يقول

إن حدودنا العسكرية الشمالية جنوب جبال طوروس ، وحدودنا العسكرية الجنوبية فى باب المندب ، أى جنوب البحر الأحمر .

لقد سقطت فلسطين فى يد الغزاة الصليبيين ، وكانت دمياط والمنصورة هى معركتهم التالية ، فلما ردوا عن مصر ، أمكن بقوة مصر تحرير فلسطين وباقى بلاد الشام . ولما وصل التتار إلى شرق البحر المتوسط ، سارعت مصر لردهم فى أرض فلسطين قرب غزة ، وأوقعت بهم هزيمة منكرة . وما أن سقطت حلب فى يد السلطان العثمانى سليم حتى كانت خطوته التالية القاهرة وكان الجيش الذى هزم قرب حلب هو جيش مصر بقيادة السلطان الغورى . وحروب محمد على تشهد بتكامل المنطقة كلها عسكرياً ، فلما نجح الانجليز فى هزيمتنا عام ١٨٨٢ ، امتدت أطماعهم إلى فلسطين ، وإلى العراق ، وبسطوا نفوذهم عليها . .

القومية العربية ، ضرورة أمن ، وضرورة حياة ، ونداء تاريخ ، يمتد آلاف السنين ، ويستمر بإذن الله إلى أن يرث سبحانه الأرض ومن عليها .

* * *

معركة السد

بعد عام ١٩٥٦ :

١ — عام إتمام الجلاء .
٢ — عام السد العالى .
٣ — عام تأميم القنال .
٤ — عام العدوان الذى اندحر .

كانت صيحة التعمير، التى تحمل معها الرخاء والثقة ، تعبر عنها فى ذلك الوقت كلمة « السد العالى » .

والسد العالى فكرة كانت موجودة بين أحلام المهندسين من زمن ، بل هامت أيضاً فى ذهن مزارع متمصر يحمل أسماً يونانياً ، هو « ادريان دانينوس » وتخيلات لو أن لحية شيباء أحاطت بوجهه لبدأ أقرب إلى شخصية هوميروس شاعر الإغريق القديم .

وفى ٨ أكتوبر سنة ١٩٥٢ صدر قرار من مجلس قيادة الثورة بالبدء فى دراسة المشروع فتألفت هيئة من كبار المهندسين المصريين ، وأنضم لهم أربعة من الخبراء العالميين فى إقامة للسدود أثنان أمريكان وواحد فرنسى ورابع المانى[1] .

استغرقت الدراسة عامين وشهرين . فنى ديسمبر سنة ١٩٥٤ صدر تقرير موحد، وقعه جميع الخبراء المصريين وأجانب . بصلاحية المشروع ، وسلامة أسسه الهندسية . .

ومن الواجب هنا أن نذكر أنه من بعد الدراسات المائية الأولى فى حوض النيل ، التى قام بها بعض الخبراء الإنجليز ، أمثال مكدونالد وهرست ، اضطلع

---

(١) المهندسان الأمريكيان هما كارل ترزاكى وستيل لورنز ستراوب . والفرنسى أندريه كوبن . والألمانى ماكس بروس .

المهندسون المصريون بأعباء الدراسات والمشروعات الكبرى فى حوض النيل . نذكر منهم قبل الثورة اسماعيل سرى وإبنه حسين سرى ويوسف سميكة وعثمان محرم ، وعبد القوى أحمد ، وحامد سليمان وصبرى الكردى وبعد الثورة أحمد عبده الشرباصى وموسى عرفه ، ومحمد أحمد سليم ، وعبد الخالق الشناوى ، وحسين زكى ، وصدقى سليمان . وقد بذلت المجموعة التى اضطلعت بالتنفيذ جهداً جباراً وهو عمل ، وعرق ، استغرق منهم ومن مئات الفنيين المصريين[1] وألاف العمال عشرة أعوام خالدة الأثر باقية على صفحة الزمن . وإذا عرفنا أن القناطر الخيرية التى بدأ تنفيذها فى عهد محمد على بإشراف مهندسين فرنسيين تمت بعد أربعين سنة ، قدرنا قيمة ما عملناه حتى الآن حق قدرته .

وفى فترة السيطرة البريطانية ، على شؤون الرى المصرى ، قام الإنجليز بتنفيذ مشروع نادى به النواب المصريون فى عهد اسماعيل ، وهو إنشاء خزان أسوان إلا أنهم انشأوه عام ١٩٠٢ بسعة متواضعة جداً ، هى مليار متر مكعب ، وذلك لأن الانجليز لم يكونوا يخططون لرخاء مصر ومستقبلها . ولكن كانوا ينظرون إلى مزرعة القطن التى تمد مصانعهم بالخام المطلوب لها من الذهب الأبيض . ولكنهم أحسوا أن هذا القدر من الماء لا يفى بحاجة البلاد ، فزادوا سعة الخزان عام ١٩١٢ إلى مليارين . وفى خلال السنوات العشرين ، كان الأيدى المصرية قد تمكنت من تسلم العمل فى

---

(١) كانت لجنة بناء السد برئاسة وزير الأشغال وعضوية المهندسين : حسن زكى ، وسمير حلمى ، ومحمد أحمد سليم ، وطاهر أبو الوفا ، ومصطفى فتحى ، والمرحوم سيد عبد الجواد ، وعبد العظيم اسماعيل ، ومحمود عبد الباقى القشيرى ، وأحمد على كمال ، وعلى عبد العزيز صبرى .

وأما لجنة الرى والصرف فقد رأسها وزير الأشغال وعمل فيها المهندسون يوسف سعد ، ورياض على سليمان ، ومحمد عبد الرقيب ، ومحمد خليل ابراهيم ، ومحمد أحمد عتيبة ، وأحمد على فرج ، ومصطفى فتحى ، والمرحوم سيد عبد الجواد ، وعبد العظيم اسماعيل ، ومحمد أمين ، ويوسف سميكة ، وأحمد على كمال ، ومصطفى الجبلى ، ويحيى برادة .

وفى الأعوام الأربعة الأخيرة اضطلع المهندس محمد صدقى سليمان بعبء التنفيذ ، بعد استحداث منصب وزير السد العالى ، وقد تمكن بمعاونة جميع العاملين فى السد من اتمام مراحل العمل فى موعدها .

مرفق الرى ، فزادت سعة الخزان عام ١٩٣٣ إلى خمسة مليارات . . وكذلك إنشأ المصريون عام ١٩٣٧ خزان جبل الأولياء على النيل الأبيض جنوبى الخرطوم .

ودرس المهندسون ، مشروعات كثيرة للاستفادة من موارد النيل المائية ، وكان أهمها فى ذلك الوقت مشروعات المنطقة الاستوائية حيث تهبط كميات هائلة من الأمطار ، وتضيع بالبخر ، والتسرب إلى أراضى المنطقة الاستوائية على إمتداد بحر الجبل . . وترمى هذه المشروعات إلى .

١ — إنشاء سد عند مصب بحيرة فكتوريا يتحكم فى تصريف مائها . ومن الحسابات المبدئية ، إنه كلما صرفنا من البحيرة ما يبلغ ارتفاعه سنتيمتراً واحد من سطحها ، زاد إيراد النهر مليار متر مكعب . أى أن تصريف متر واحد منها فى مصاب النيل يزيد ماؤه مائة مليار متر مكعب !!

٢ — إنشاء خزان على بحيرة البرت يتحكم أيضاً فى تصريفها ، ويكون ماؤه رصيداً مستمراً للنهر ، وهو ما يسمى بالتخزين القرنى ، أى لمدة قرن من الزمان .

٣ — شق القنوات التى تحمل ماء البحيرتين عبر بحيرة وسياحات كيوجا ثم تجاوز بحر الجبل شرقاً ، وشق قناة جديدة تتبع مجرى جافاً لماء النيل إسمه الجونجلى للوصول إلى بحيرة نو .

٤ — دراسة مجرى بحر الغزال ، وهو أحد روافد النيل الغربية ، الذى يتسرب ماؤه بطريقة غامضة فى باطن الأرض ، ولا يصل منه إلى المجرى الرئيسى شىء يذكر ومحاولة تعديل مجراه ، للاستفادة من مائه استفادة كاملة .

٥ — شق القنوات بجانب مجرى النيل الأبيض . وتعميق مجرى النيل الأبيض نفسه ، لاستيعاب كميات الماء الكبرى، التى يمكن الحصول عليها من مشروعات أعالى النيل . وهذا تمهيد لانشاء مجرى جديد «للنيل الغربى» يجمع المياه الجنوبية ويصبها فى منخفض القطارة .

٦ — توجد أيضا مشروعات تخزين فى بحيرة تانا بأرض الحبشة ، ومشروعات مماثلة لنهر سوباط . ولكن هذه المشروعات تحتاج إلى دراسة وتعاون مع حكومة الحبشة، التى ترفض حتى الآن تقديم التسهيلات اللازمة . وبذا يتيسر أيضا انشاء النيل الشرقى ينطلق شمالا حتى السويس .

٧ — إنشاء خزان كبير عند منطقة مروى فى إبتداء الانحناءة الضخمة للنهر على مسافة من التقائه بنهر عطبرة .

وهذه المشروعات كلها تتطلب تعاوننا مع السودان ، وأوغنده[1] .

وقبل أن تستقل أوغنده ، أقام الانجليز على مصب بحيرة فيكتوريا فى النيل سداً إسمه سد « أوين » ، وطلبوا قبل الثورة مساهمة مصر فى هذا المشروع بأربعة ملايين من الجنيهات ، دفع منها قسط مقابل إقامة مهندس مصرى يراقب تصرف ماء النهر عند الخزان . ولم يكن هدف الانجليز من إقامة الخزان منفعة مصر ولكن توليد الطاقة الكهربائية من المساقط ، التى يستخدمونها فى صناعاتهم . ولكن بعد قيام الثورة وظهور خلافات سياسية ضخمة بين الانجليز وحكومة مصر ، ألغى الانجليز مشاركتنا فى الاتفاق على خزان أوين . وحتى لو كانت هذه المشاركة مستمرة ، فلا جدوى منها ، إلا بتحقيق سلسلة المشروعات التى ذكرناها آنفا .

وهكذا سيظل وجود الانجليز . أو بقاياهم قابعين عند منابع النيل ، عاملا معطلا لنمو شعوب هذا النهر العظيم . . وعلى الذين يتشككون فى جدوى سياستنا الافريقية أن يذكروا أن نهر النيل سخى بالماء ، وأن إيراده فى المتوسط يبلغ حوالى ٨٥ مليار متر مكعب وقد يصعد فى السنين الموفورة بالأمطار إلى ١٥٠ ملياراً ويهبط فى السنين العجاف إلى ٤٠ ملياراً فلا سبيل إلى التحكم فى هبوب الرياح الممطرة ، وماتحمله من ماء . . ولكن هناك سبل أتاحها الله للإنسان كى يدخر الماء فى وقت وفرته ، إلى أيام قلته وندرته . . وهى مشروعات التخزين الكبرى . .

أما والانجليز ، بدسائسهم ، وروحهم المعادية لتقدم شعوبنا ، ما زال بهم عرق ينبض فى القارة الأفريقية ، فمن الواجب أن نوثق صلاتنا بشعوب القارة ، ولاسيما أبناء حوض النيل ، لكى نستفيد ويستفيدون من هبات الطبيعة لنا ، ممثلة فى خير ما أعطاه الله لنا ، وهو الماء .

وحتى يتم للروح الأفريقية أن تنتصر على دسائس الاستعمار الانجليزى ـ والاستعمار الأمريكى الذى بدأ أيضا يتسرب حولنا ـ فلتقم مشروعات التخزين داخل حدودنا المصرية ، المصرية . وليكن مشروع السد العالى ، الذى احتضنته الثورة من أيامها الأولى ، ومن بعده مشروع وادى الريان ، مما نفرغ له الجهد ، ونواجه به الأيام .

---

(١) فى كتاب « النيل » لمحمد صبيح مناقشة مفصلة لهذه المشروعات .

تمويل السد العالى :

أما وقد تأكدت سلامة السد العالى ، وتأكدت ضرورته العاجلة ، فقد جاء دور الأرقام التى تترجم إليها عملية انشائه .

* قدرت تكاليف المشروع الاجمالية اللازمة لإنشاء السد والمحطة الكهربائية ، وخطوط نقل الكهرباء إلى أنحاء البلاد ، وعمليات استصلاح الأرض ، والاسكان ، ومرافق الطرق بـ ٤٠٠ مليون جنيه منها ٢١٠ مليوناً ، لإنشاء جسم السد ومحطته الكهربائية والمدينة السكنية اللازمة له والمرافق المطلوبة فى منطقة أسوان .

* سيزيد السد العالى رقعة الأرض المزروعة ٤٠٪ عن مساحتها الحالية (المساحة الحالية حوالى ٦ مليون فدان) منها مليون وثلث مليون فدان جديدة ، و٧٠٠ ألف فدان تتحول من الرى الموسمى ، إلى الرى الدائم .

* دارت مفاوضات مع الانجليز والأمريكان والبنك الدولى ، لتقديم قرض بالعملة الأجنبية اللازمة لاستيراد المعدات ، ومحطة الكهرباء ، وما إليها . . وأبدى الأطراف الثلاثة استعداداً للتعاون ولكن مالبث الجانب المصرى ، أن أحس بخيوط مؤامرة تنسج حول شروط القرض . وهى محاولة السيطرة على المالية المصرية ، مثل ما اشترطه البنك الدولى وهو « التفاهم حول الحاجة إلى ضبط المصروفات العامة للدولة » . . والدولة هنا هى مصر . وكأنهم بهــذا يريدون الرجوع إلى عهد الرقابة الثنائية التى عرفت أيام الخديو توفيق . . وإلى صندوق الدين ، ومآسى تلك الأيام الغابرة .

وكان من شروطهم أيضاً التى قدمها البنك الدولى (أمريكا تساهم فى ثلاثة أرباع رأسماله تقريباً ، ولها الإشراف على إدارته) ألا تستدين مصر من أى بلد آخر ، وألا توقع أى اتفاقات دفع إلا بعد التفاهم مع البنك الدولى . .

* أليست هذه هى الوصاية ؟!!

وصف الرئيس جمال عبد الناصر المفاوضات الغربية حول تمويل المشروع ، قائلا :

« تكلمنا مع ممثلي أمريكا . وقلنا لهم : إنه فى فترة خمس سنوات سيصرف على السد ٣٧٠ مليون دولار تدفع منها مصر ٣٠٠ مليون ، وتدفعون ٧٠ مليون . والمشروع كله يتكلف نحو ألف مليون دولار ، سندفع منها ٧٣٠ مليوناً أولا (ثلاثة أرباع تقريباً) . فكيف يمكن لى أن أنفذ الشروط التى يمليها على البنك الدولى . . وقلنا لهم إن لنا تجربة فى ذلك (يشير إلى ماحدث فى عهد إسماعيل) . وسبق أن وقعنا فى هذا الاستغلال . وحضر كرومر ، وبقى فى مصر » وهذه إشارة إلى الاحتلال الذى أعقب الوصايا المالية على مصر .

* أحس الروس أن ثمة عقبات يضعها الأمريكان فى طريق تمويل مشروع السد العالى ، فتقدم السفير السوفيتى فى القاهرة نيابة عن حكومته ، باستعدادها للاشتراك فى تمويل السد . فأرجأ جمال عبد الناصر بحث هـــذا العرض حتى ينتهى الكلام مع الأمريكان .

* جاء مدير البنك الدولى (أوجين بلاك) مرة أخرى إلى القاهرة ، بعد أن علمت الحكومات العربية ؛ بالعرض الروسى ،ووصف جمال عبد الناصر هذه المرحلة الجديدة من مفاوضات التمويل بأنها « فخ » قال :

* أبلغت مدير البنك الدولى أننا لن نبدأ المشروع إلا بعد أن نصل إلى اتفاق مع البنك ، وقال مدير البنك ، إنه يجب علينا أن نحل مشكلة الماء مع السودان . ثم يوقع البنك الاتفاق معنا . ولكنه لم يضمن أن تدفع أمريكا وانجلترا أكثر من ٧٠ مليون دولار .

« وظهر الفخ . نأخذ ٧٠ مليون دولار ، ونبدأ فى المشروع . ونصرف المال . فنطلب من البنك مبلغ الـ ٢٠٠ مليون دولار فيعرض البنك علينا شروطه ، وعلينا أن نقبل شروط البنك أو يتوقف المشروع ، ويضيع ما أنفقناه هباء .

« ومعنى هذا أن يرسل البنك من يجلس مكان وزير المالية . وآخر يجلس مكان وزير التجارة ، وثالث يجلس مكانى أنا ! »

* فى شهر فبراير سنة ١٩٥٦ أمر جمال عبد الناصر بإيقاف العمل فى مشروع السد العالى ، حتى يطمئن تماماً إلى مصادر تمويله بالعملة الأجنبية ، دون شروط ، ولا مساس باستقلال البلاد .

وفى آخر أيام هذا الشهر — فبراير — جاء وزير خارجيـة إنجلترا إلى مصر ، وكان سلوين لويد ، وقال لجمال عبد الناصر ، إنه مستعد للتوسط بيننا وبين السودان للموافقـــة على المشروع . ولكنه سمع الرد التالى : « إن تصرفاتكم تدل على أنكم تعقدون المسائل . جرائدكم ، وإذاعاتـكم تثير السودان ضد الســـد العالى . ومحطة الإذاعة البريطانية ، وإذاعة الشرق الأدنى (فى قبرص) تذيع تعليقات للوقيعة بيننا ، وبين السودان . ثم تقوم سفارتكم فى الخرطوم بجمع ذلك فى كتاب ، وطبعه وتوزيعه على السودانيين . ومعنى هذا محاولة خلق العداء بيننا وبين السودان . فكيف يستقيم هذا مع عرضك أن تكون وسيطاً بين مصر والسودان » .

وكان كل نصيب انجلترا من صفقة التمويل خمسة ملايين من الجنيهات . ومع ذلك دأبت وسائل الإعلام البريطانية على مهاجمتنا . ووقف اللورد كيلرن فى مجلس اللوردات يشتم ، ويندد ، ويطالب بمنع هذا القرض . فاستدعى الرئيس الســـفير البريطانى . وقال له :

« إننا شعب عاطفى ، ولن نقبل الشتم بخمسة عشر مليون دولار ، ولن نقبل كلام كيلرن ، ولسنا أمة غنية . ولكننا نستطيع أن نوفر خمسة ملايين من الجنيهات ، حتى لو دقفنا الزلط أو كسرنا الطوب . ونحن قبلنا هذا القرض حتى لا يقال أن مصر ترفض إقامة علاقة حسنة معكم . ولكن إذا تكرر هذا الكلام ، فسنرفض القرض » .

* وهنا وضح لمصر سوء نية الدول الغربية ، فطالبت الدخول فى مباحثات مع الاتحاد السوفياتى لبحث موضوع القرض المطلوب للسد . وجاء شبيلوف الذى أصبح وزيراً للخارجية السوفياتية إلى القاهرة فى شهر يونيو سنة ١٩٥٦ . وعرض إعطاء قروض طويلة الأجل ، بفائدة قليلة . ودون قيد أو شرط .

وأضاف الوزير الروسى ، الذى كان له دور سابق فى صفقة السلاح التى شرحناها فى أحداث العام الماضى ، إن بلاده يهمها أن يسود السلام بين مصر وجميع الدول ، تخفيفاً من حدة التوتر الدولى ، وهم لا يريدون أن يوقعوا بيننا وبين الدول الغربية .

وقد أجل جمال عبد الناصر بحث التفاصيل إلى حين زيارته للاتحاد السوفيـاتى التى كان تحدد لها موعد هو شهر أغسطس من ذلك العام .

* وهرع مدير البنك الدولى إلى القاهرة ، وفى اليوم التالى لمباحثات شبيلوف ، بدأ مباحثات جديدة مؤداها أن الغرب سيمول المشروع .

وقال له عبد الناصر : حسناً ، ونحن عند كلمتنا .

ولكن الأنباء جاءت بأن انجلترا والولايات المتحدة تقومان بمجهود دبلوماسى ضخم فى الخرطوم وأديس أبابا ، لكى تثور حركة احتجاجات فى السودان والحبشة ضد مشروع السد العالى .

ويبدو واضحاً ، أن هذه الدول الغربية تتابع سيرتها ، من وقوفها ضد نمونا الطبيعى ، وضد رخائنا ، واستقرارنا . . إنه العداء الموروث ، الذى أحاطوه بغلاف من الكلمات البراقة ، والأوصاف الجوفاء ، مثل قولهم : العالم الحر . . وما هم بأحرار إلا فى محاولة تعويقنا عن التقدم ، نحن أبناء هذا الشرق ، وأبناء العروبة ومصر بصفة خاصة.

ولقد حدث عند ما جاء سفير مصر فى الولايات المتحدة (أحمد حسين) يحمل الكلمات البراقة ، والوعود الخلابة من وشنطن ، أن قال له عبد الناصر إنه سيتمشى معه ومعهم إلى النهاية ، وعليه أن يعود حاملا موافقته على الشروط التى جاء بها (سعر الفائدة) ، ولكنه يخبره سلفاً ، أن شيئا من هذا لن يحدث . . وعاد السفير طائراً ، ليعلم عند نزوله فى المطار ، أن الولايات المتحدة ، والبنك الدولى سحبا عرضهما فى تمويل السد العالى ، وأن الحجة التى أبديت ، هى أنه ظهر — أخيراً — أن ظروف مصر الاقتصادية غير ملائمة لتنفيذ المشروع . . مع أن تقرير البنك كان قبل سبعة شهور يشيد بسلامة البناء الاقتصادى المصرى ، وأنه كفيل بتحمل المشروع .

وكانت مفاجأة غير سارة للسفير . وعند ما ذهب لمقابلة دالاس ، عبر له عن تخطئه على هذا التلون ، وهذا التلاعب . وإذا كان سفيرنا قد فوجىء ، فإن رئيس جمهوريتنا لم يفاجىء ، لأن استقراء الحوادث كلها كان يدل على هذه النتيجة .

إلا أن حكومة إيدن فى لندن فوجئت « بتسرع » دالاس ، فى اعلان رفض التمويل ، فقد كان فى تقديرها المماطلة والتعطيل أطول فترة ممكنة ، وان كانت النتيجة واحدة . . واضطرت حكومة لندن بدورها إلى أن تعلن انسحابها من عملية التمويل .

« ومن الواجب أن نستطرد قليـــلا ، بعد الفترة التى نقـدم دراستنا عنها ، لـكى نذكر ما حـدث من تعاون محمود الأثر مع رجال الحكومة السوفياتية فى عملية التمويل . .

فنى شهر أكتوبر سنة ١٩٥٨ أذاع نكيتا خروشوف رئيس وزراء الاتحاد السوفياتى ،أن حكومته وقعت اتفاقية قرض مقداره . . ٤ مليون روبل — ٣٥ مليون جنيه — للأسهام فى تمويل السد العالى. وكانت الفائدة ٥ر٢ ٪ وهى أقل فائدة عرفت فى تاريخ القروض ، ويسدد القرض فى اثنى عشر عاما ، ابتداء من عام ١٩٦٤ أى بعد ست سنوات من تاريخ تنفيذه .

وبدأت دراسة جديدة مع الخبراء الروس ، وعلى الرغم من اتساع نطاق العملية ، فإن المراجعة الجديدة ، وبعض التعديلات التى أدخلت طبقاً لتجارب الروس الضخمة فى ميدان إنشاء السدود والخزانات . . كل هذا لم يستغرق أكثر من شهر ونصف شهر .

يروى المهندس موسى عرفة[1] عن هذه المرحلة النهائية من الدراسة :

« اجتمع فى القاهرة كبار الخبراء والعلماء من الشرق والغرب ، لإعادة دراسة المشروع ، وعكف كل فريق منهم على بحث وجهات النظر التى أبداها الفريق الآخر .

« وقد خطر لى (كان موسى عرفة وزيرا للأشغال) كسبا للوقت ، أن يلتقى الخبراء جميعا بعد اتمام الدراسة ، حول مائدة واحدة تطرح عليها مختلف الآراء فى مناقشة مفتوحة ، يشتركون فيها جميعا ، ويصلون منها فى النهاية إلى حل يطمئنون إلى سلامته اطمئنانا كاملا .

« عرضت الفكرة على الخبراء السوفييت ، فرحبوا بالاشتراك مع خبراء الغرب فى المناقشة والبحث . ثم عرضتها على خبراء الدول الغربية ، فأبوا أن يساهموا فى مناقشة أساليب لم يسبق ممارستها فى بلادهم .

---

(١) كتابه عن السد العالى ص ٦٣ و ٦٤ .

« وعبثاً حاولت تهيئة الجو للمناقشة ، فلم أظفر من ذلك إلا بالموافقة على لقاء الجانبين فى اجتماع عادى للتعارف والمجاملة ، لا يتعرض للبحث والمناقشات الفنية .

« فكان على الجانب العربى أن يناقش كل فريق على حدة ، ليطمئن إلى سلامة كل خطوة يخطوها فى دراسته ، قبل أن يدلى برأيه النهائى فى أوضاع المشروع .

وعاد خبراء اللجنة الدولية إلى بلادهم ، بعد أن انتهت مهمتهم ، وقدموا تقريراً برأيهم فى ذلك .

« وقد لاحظنا فى هذا التقرير أنهم اعترضوا على ما اقترح الجانب السوفييتى إدخاله من تعديلات على المشروع الأصلى لبناء جسم السد العالى : أما عن إنشاء قناة مفتوحة فى الضفة الشرقية للنهر ، لتحويل مياهه ، بدلا من الأنفاق السبعة التى كانت فى المشروع الأول ، فقد تركوا البت فى أمرها إلى الخبراء العرب ، وإذن فقد انحصر الخلاف أخيراً بين خبراء الشرق والغرب ، فى الأسس التى يقوم عليها إنشاء جسم السد ذاته . . .

واتفقنا على إنشاء قناة مكشوفة لتحويل مجرى النيل . . وكذلك على بناء بعض أجزاء السد من الأحجار الجرانيتية الملبسة بالرمال ، مع توفير أوفى الضمانات وأوفر الاحتياطات ، لوقاية البناء من احتمال أى خلل يتطرق إليه .

« وفى ٢٨ يونيو عرضت نتيجة هذه المباحثات ، وتوصيات لجنة بناء السد العالى فى صدورها ، على اللجنة العليا للسد ، فأقرتها ، وبذا تم الاتفاق نهائياً على المشروع » .

وكان هذا المشروع يجرى عملية بناء السد على مرحلتين . ولكن رؤى فى يناير سنة ١٩٦٠ أن يسير العمل فى مرحلة واحدة . وزيد القرض الروسى تبعاً لذلك إلى ٩٠٠ مليون روبل ، أو ما يعادل ٧٨ مليون جنيه مصرى .

وقد حدث أن زار الرئيس جمال الاتحاد السوفياتى فى مايو عام ١٩٥٨ ، وكنت ضمن البعثة المرافقة له . وكان من ضمن ما شهدناه هناك سد عظيم يقام على نهر الفولجا بجوار مدينة « فولجاجراد » (ستالينجراد سابقاً) . .

وقد استغرقت زيارة هذا السد نصف يوم تقريباً وهو فى طور الاعداد . وفى نهر الفولجا ملاح كثيرة من نهر النيل ، إلا أن مجراه عنيف مندفع ، فى حين أن النيل هادىء فى جريانه يوحى بالثقة والاطمئنان .

وكان مما علمناه ، أن الروس أنشأوا على نهر الفولجا وحده ١٢ سداً من هذا النوع أهدافهم الرئيسية منها الكهرباء ، قبل الرى . وأن مئات الأنهار الضخمة فى روسيا الأوربية وسيبريا ، تحظى بمثل هذه العناية ، فى إنشاء السدود والخزانات ، مما يجعل المهندسين الروس أفذاذاً فى هذا المجال .

ومن واجبنا هنا أن نشيد بالروح العالية التى اتسم بها ساسة وخبراء الاتحاد السوفياتى ، ولاسيما الذين عاشوا معنا فى أسوان ، وهم قادمون من بلاد الجليد والمطر الذى لا ينقطع .

وشريعة الانصاف تقتضينا أن ننوه إلى جانب نكيتا خروشوف ، بالسادة محى الدينوف عضو مجلس الرياسة وقت انشاء السد ، وشبيلوف رئيس تحرير برافدا ثم وزير الخارجية ، وبيتر نيكيتين نائب رئيس العلاقات الخارجية ، ونوفيكوف وزير القوى المحركة ، وكومبزين الخبير الكبير فى السدود ، والذى اختير نائباً لمدير الهيئة التنفيذية لبناء السد ، والسفيرين كيسيليف وايروفيف وارخيبوف الذى وقع عن عن الاتحاد السوفياتى اتفاقيات القروض . . .

وقد عبرت مصر عن امتنانها لهؤلاء الأشخاص ، وعن مئات المعاونين الذين اشتركوا فى هذا العمل ، ومنحتهم أوسمة تقديراً لجهودهم .

وأننا لنعجب، وقد دخل السد فى دوامة الحرب الباردة بين الشرق والغرب وكادت تقوم بسببه حرب عالمية : لماذا وقفت انجلترا وأمريكا ضدنا فى إنشاء هذا المشروع ، وفى حين أن كل ما كان يتطلبه هو حوالى سبعة ملايين من الجنيهات كل عام بالعملة الأجنبية على مدى ١٢ سنة .. إنه مبلغ تافه ، إذا قورن بالدخل القومى لبلادنا ، الذى يتجاوز أربعة آلاف مليون جنيه فى السنة ! !

السبب هو أنهم يكرهون أن نقوى ، وأن نستقر ، وأن نتمتع بالرخاء الذى تمتعوا هم به مئات السنين بجهودهم أو على حساب الآخرين . .

السبب أن إسرائيل تخشى خشية الموت أن تتحول مصر بزراعاتها الجديدة وطاقة الكهرباء الهائلة إلى قاعدة صناعية . تقضى على دجلهم ، وادعائهم أنهم وحدهم أساتذة الصناعة والإنتاج الكبير .

ولقد سمعنا فى مجلس الشيوخ الأمريكى سناتوراً يصيح : هل يمول السد العالى لتزيد مصر مساحة أرض القطن فيها ، وتنافس أقطاننا منافسة خطيرة .

ورأينا إسرائيل تحاول أن تغرق منطقة أسوان بسيل من المخدرات . قاصدة بذلك اضعاف المجهود البشرى لعماله . ولكن هذه المؤامرة كشفت فى وقتها وقضى عليها بحسم تام .

ورأينا سيل الدعايات الكاذبة المغرضة تغرق صحف العالم العربى ضدنا . لماذا . . لأننا ننشىء سداً هذه أوصافه .

* يزيد حجمه ١٧ مرة عن حجم الهرم الأكبر ، معجزة الدنيا الخالدة ، ويرفع الماء عند جـــداره الجنوبى إلى ١٨٢ متراً : ويتسع حوضه لـ ١١٥٧ مليون متر مكعب ويمتد ماؤه جنوباً حوالى ٥٠٠ كيلو مترا بعرض عشرة كيلو مترات (بحيرة ناصر) وتحصل مصر منه سنوياً على ٧,٥ مليار متر مكعب والسودان يحصل على ١٤,٥ مليار متر مكعب .

* ويبلغ طول السد عند القمة ٣٦٠٠ مترا ، وطوله فى مجرى النهر ٥٢٠ متراً وعرض قاعدة السد ٩٨٠ متراً ، وعرض السد عند القمة ٤٠ متراً ، وعمق الستارة الحاجزة لتسرب أى ماء تحت قاعدة النهر ١٨٠ متراً تحت قاع النهر وعرض هذه الستارة عند القمة ٤٠ متراً وعند القاع الصخرى ٥ أمتار .

* عدد أنفاق التصرف الرئيسية ٦ أنفاق قطر الواحد منها من الداخل ١٥ متراً . وطول كل نفق ٢٨٢ متراً ، ووزن البوابة المتحكمة فى فتحة النفق ٢٣٠ طناً .

* عدد التربينات فى محطة كهرباء السد ١٢ توربيناً ، زنة كل واحدة ٧٦٥ طناً . وزنة مولدها ١٦٠٠ طناً ، وعدد لفات التوربين الواحد ١٠٠ لفة فى الدقيقة ، ومجموع قدرة المولدات ٢,١٠٠,٠٠٠ كيلو وات ، والطاقة القصوى التى يمكن الحصول عليها من هذه المحطة عشرة مليارات كيلو وات ساعة .

* وتحمل هذه الطاقة الكهربائية خطوطا رئيسية طولها ١٥٨٠ كيلو متراً ترتفع أسلاكها فوق أبراج ارتفاع البرج العادى منها ٣٠,٦ مترا ، ويبلغ طول الخطوط الفرعية ٩٤٠ كيلو متراً ، وأما ضغط الكهرباء فى الخطوط الرئيسية فهو ٥٠٠ كيلو فولت ، والضغط الكهربائى فى الخطوط الفرعية ٢٢٠ و ١٣٢ كيلو فولت

* ونذكر من الأرقام الفلكيه التى تترجم عن بناء السد ، أن حجم الصخور التى تطلبها الانشاء ٢١,٥ مليون متر مكعب وحجم الرمال التى استخدمت ١٥,٣ متر مكعب ، وهذا غير مئات الألوف بل ملايين الأمتار المكعبة من الخرسـانة وغيرها . . .

معجزة القرن العشرين :

وقبل أن ننتهى من الحديث عن ظاهرة هذه الأيام الكبرى ، وهى السد العالى ، نقول إن المفاوضات مع السودان ، التى كان سلوين لويد ، يريد أن يبيع لنا تدخله فيها باشتراكنا فى حلف ، أو شىء من هذا القبيل . . هذه المفاوضات استغرقت شهرا وقد ظهر خلاف وحيد بين الجانبين ، هو فى قيمة التعويض المطلوب عن إغراق مدينة حلفا ، ووافق الجميع على تحكيم الرئيس جمال عبد الناصر فى الأمر . . وانتهى التحكيم إلى دفع تعويض قدره ١٥ مليوناً من الجنيهات ، ووقعت الاتفاقية فى ٨ نوفمبر سنة ١٩٥٩ (١) .

وقد قدرت الاتفاقية جملة ما تحصل عليه مصر من ماء النيل — إذا ظل متوسط إيراده ٨٤ مليار متر مكعب — هو ٥٥,٥ مليارا ، أما نصيب السودان فتكون جملته ١٨,٥ ملياراً من الأمتار المكعبة .

ونصت الإتفاقية على ضرورة قيام الطرفين ببحث مشروعات أعالى النيل التى سبق أن أشرنا إليها ، على أن تقتسم مصر والسودان النفقات مناصفة (٢) . ووكل إلى لجنة

---

(١) أنشأت حكومة السودان مدينة جديدة فى موقع مرتفع بعيد عن موقع حلفا القديمة ، أمدتها بكل وسائل الحيـاة العصرية ، وكلفتها حوالى سبعين مليونا من الجنيهات ، وتعد حلفا الجديدة أحدث مدينة كاملة بنيت فى أفريقية .

(٢) ورد تفصيل لهذه المشروعات فى كتاب : « النيل » لمحمد صبيح طبعة سنة ١٩٤٥ .

فنية من الجانبين بأن تتولى بصفة دائمة دراسة الاحتياجات المائية والمشروعات المقبلة ، سواء كان ذلك داخل حدود السودان ، أو أوغنده والحبشة بعد موافقة هذه الحكومات المجاورة والتى تقع فى حوض النيل .

وتضمنت الاتفاقية أيضا ملحقا يقضى بأن يعطى السودان لمصر سلفة مائية قدرها ١,٥ مليار متر مكعب نستخدمها حتى عام ١٩٧٧ .

* * *

تأميم القنال

فى شهر نوفمبر سنة ١٩٥٤ ، ذهبت لزيارة صديق هو الأستاذ محمد على الغتيت ، فى أحد المكاتب بمجلس الثورة بالجزيرة . ودعانى ليعرفنى برئيس هذه الخلية من خلايا العمل السرى الصامت ، فى بيت الأسرار ، وهو الدكتور حلمى بهجت بدوى .. قلت له : أننا نلتقى عن طريق أخيه مصطفى بهجت بدوى ، أحد ضباط الثورة وأحد شباب مصر الفتاة فى لجر كفاحها .. وحاولت أن أعرف ماذا يدرسون فى هذا المكان .. ولكن صاحبى قال فى ضحكة مرحة : أسرار .. أسرار .. ووجدت محمود يونس المدير الفنى لمكتب رئيس الثورة ، كثير النشاط ، وله علاقة بما يدور ...

وفهمت فيما بعد أن لجنة تألفت فى مجلس الثورة لدراسة شئون قنال السويس ، وأن اختيار الدكتور حلمى بهجت لرياستها ، ليس إلا استمراراً لعمله السابق مع الثوار ، فقد كان وزير التجارة والصناعة فى ديسمبر سنة ١٩٥٢ ، وهى الوزارة التى تنظم علاقة مصر مع شركة القنال .. ومن السرية التى أحيطت بها أعمال اللجنة ، أدركت أن جمال عبد الناصر ، يعد بالقرب منه دراسة وافية ، لإعادة قنال السويس إلى مصر ، بمجرد خروج آخر جنود الاحتلال من البلاد .. إذ لم يكن ممكنا أن نطرد الشركة الأجنبية من مصر ، وهى تقيم فى أحضان ٨٠ ألف جندى بريطانى بأسلحتهم ..

ولكن التخلص من الشركة الأجنبية التى تدير القنال ، عمل كبير ، وليس قراراً يصدر بجرة قلم ، فإذا مظالم عشرات السنين تنتهى فى لحظة . ولقد ائتمن زعيم الثورة ، على سره الكبير حفنة قليلة من الرجال ، وعلى رأسها هذا العقل القانونى الوطنى الدكتور حلمى بهجت بدوى ..

روى الأستاذ الغنيت[1] : أنه التزم طريقته الجامعية وهى الحرص على تفهم

---

(١) حلمى بهجت بدوى العبقرية المصرية الراحلة ، ص ٧١ .

وجهة النظر المعارضة ، والإحاطة بجميع الاحتمالات التى قد تثار ضد حقوق مصر .

وقد ساعد على الوصـــول بالدراسة إلى قمة الفهم لظروف الشركة الأجنبية ، أن الحكومة عينت الدكتور حلمى بهجت مندوباً لها لدى الشركة ، ثم عضواً بمجلس إدارتها . فوقف على كل أسرارها الداخلية ، وإمكانياتها العملية والمادية . . حتى أنه عندما احتاجت الحكومة المصرية عام ١٩٥٦ إلى عملة أجنبية تمكن من أن يحصل من الشركة على قرض مقداره ٢٠ مليون جنيه ، سددت منه ستة ملايين قبل التأميم . وكان مدير الشركة الفرنسى ، يضرب كفاً على كف ويقول إن الدكتور حلمى ضحك علينا ، عندما حصـــل لمصر على هذا المبلغ ، وهو يعلم أن الشركة سوف تأمم بعد قليل ! !

وهناك شخصية أخرى لعبت دوراً فعالا ، فى مواجهة الشركة الأجنبية ، وهو الدكتور مصطفى الحفناوى ، الذى كان له نشاط كبير فى الحزب الوطنى قبل الثورة ، وأعد رسالة الدكتوراه لجامعة باريس عن القنال ، وبلغ من حماسته ضد سرقات الشركة ، وحماسته لتأميمها أنه أصـدر على حسابه مجلة أسبوعية كل حرف فيها يطالب بالتأميم .

وإذن فقد كان من برامج الثورة السرية — بعد الجلاء البريطانى — أن يتم الجلاء الثانى ، وهو إنهاء عمل الإدارة الفرنسية لقنال السويس . . وبعد أن تمت الدراسات التى أشرنا إليها ، ووضعت خطط التنفيذ ، تلخص البرنامج فى انتظار الوقت المناسب للقيام بهذه العملية الضخمة .

الوجه القبيح للولايات المتحدة

وفى ١٩ يوليو سنة ١٩٥٦ ، أذاعة حكومة الولايات المتحدة بياناً تسحب فيه موافقتها على تمويل مسد العالى وقالت فى بيانها « . . التطورات التى حدثت خلال الشهور السبعة التالية لتقديم العرض لم تكن ملائمة لنجاح المشروع ، وعلى هذا قد انتهت الحكومة الأمريكية ، إلى أنه من غـــير العملى فى الظروف الحاضرة أن تشترك فى المشروع ، إذا لم يتم الاتفاق بين الدول المشتركة فى موارد مياه النيل . كما أن مقدرة مصر على تخصيص موارد كافية تضمن نجاح المشروع صارت أكثر افتقاراً إلى التوكيد مما كانت عليه عند تقديم العرض » .

إذن هذه هى الفرصة المواتية ، الرد على تهجم أمريكا ومن وراتها إنجلترا ، ولن يكون الرد إلا بضربة عنيفة تفقد الاستعمار سمعه وبصره ، وهى تأميم قنال السويس .

وكانت وشنطن ولندن تتوقعان رداً من القاهرة على الكلمات الوقحة التى صاحبت سحب تمويل السد العالى . فإن من حق الغرب ألا يقدم شيئاً من ماله . . ولكن ليس من حقه أن يشكك فى مالية مصر ، أو قدرتها على تنفيذ برامجها . . وليس من حقه قبل هذا وذاك أن يتطاول بالشتائم علينا ، وأن تتحول معظم صحفه وبرلماناته إلى نشرات بذيئة ومنابر تنطلق منها الأكاذيب بغير حساب .

كانت أمريكا مغيظة محنقة ، لأن مصر اعترفت بالصين الشعبية ، وتبادلت معها التمثيل الدبلوماسى ، مع قطع العلاقات مع حكومة شيانج كاى شيك فى فرموزا[1] .

فإذا أضفنا إلى هذا صفقة الأسلحة الروسية التى شرحنا ظروفها ، ورفض مصر الانضمام إلى شبكة الدفاع الغربية ، محتفظة بحيادها الإيجابى ، وبعدها عن تيارات الحرب الباردة . . فإننا نجد لدى الغرب الكثير يقوله ضدنا ، وسوف نفصل ، فيما يلى ما حدث للمارشال تمبلر رئيس أركان حرب الامبراطورية ، عند زيارته للأردن . . وما حدث لسلوين لويد فى القاهرة ة يوم طرد جلوب من عمان .

كانت أول فرصة يتحدث فيها الرئيس جمال بعد بيان وشنطن ولندن ، هى خطب عيد الثورة فى ٢٣ يوليو و ٢٦ يوليو سنة ١٩٥٦ . . وقد مضت المناسبة الأولى ، لم يسمع الغرب إلا قول عبد الناصر مخاطباً الغرب : « لن تستطيعوا أن تتحكموا فى مصر أو تستبدوا بها . فنحن نعرف طريقنا . طريق الحرية والشرف . أننا لن نمكن أى مستعمر منا ، ولن يسيطر علينا مستبد لا سياسيا ولا عسكريا ولا اقتصاديا » .

---

(١) كان مؤلف هذا الكتاب قد تلقى دعوة لزيارة فرموزا ، وقبل سفره بـ٢٤ ساعة قطعت العلاقات مع حكومتها .. ولو أن هذه الحركة السياسية تمت وهو فى هذه الزيارة لغدا الموقف محرجا للغاية .

لم يستشف الغرب شيئا واضحا من هذا الكلام ، ولكن ما أن ألقى عبد الناصر خطبته فى ليلة ٢٦ يوليو ١٩٥٦ فى ميدان المنشية بالإسكندرية ، حتى أصاب الدوار الغرب كله ، وقضت عواصم العالم ليلة ساهرة ، أعقبتها ليالى أخرى ساهرة ما كان أطولها .

قرار التأميم

قبل هذا الاجتماع التاريخى اجتمع الرئيس جمال بمجلس الوزراء اجتماعا طارئا فى الإسكندرية وأخبرهم أنه أعد قانون تأميم قنال السويس ، وسوف يعلنه فى الاجتماع . وروى المهندس أحمد عبده الشرباصى ، أنه لم يكن أحد من الوزراء ، باستثناء الوزراء المختصين (التجارة والمالية) يعلم شيئا عن هذه الحركة ، وأن الرئيس قام وحده بدراسة خطواتها ، وتوزيع أعبائها، ولما سأله بعضنا عما إذا كانت النتائج المترتبة على هذا العمل قد حسبت بدقة ، أجاب بالإيجاب . وقد وافق المجلس بالإجماع على قانون التأميم ، معتمدين على أن الله وقف بجانب هذا الزعيم الثائر ، وإنه إذ يتوكل عليه فى هذا العمل الخطير ، لا يقصد به إلا وجه الوطن ورد ظلم طال أمده ، فالله آخذ بناصره ومؤيده .

وقدصدر قرار اختيار المهندس محمود يونس ، لقيادة هذه المهمة ، وهو واحد من شباب هذا الجيل ، الذى أعطى الكثير من وقته وجهده للعمل العام ، وكان له دوره وذكره من الثلاثينيات وما تلاها .

واختار محمود يونس بدوره الذين عاونوه فى العمل . . وأعدت خطابات سرية لمحافظى السويس والإسماعيلية وبور سعيد ، لكى يقوم كل منهم بما يطلبه مندوب الرياسة فى محافظته، وقد روى لنا السيد محمود طلعت محافظ السويس فى ذلك الوقت، أنه فى ساعة معينة من ليلة ٢٦ يوليو سنة ١٩٥٦ قدم له مندوب القيادة هذه التعليمات، وأعد قواته ، وصحبه إلى حيث وضعت السلطة المصرية يدها على كل مرافق شركة القنال فى الميناء والمدينة . .

وكانت ساعة البدء كلمة معينة فى خطبة الرئيس : تحركت عندها كل القوات بما فيها قوة قادها محمود يونس بنفسه فى القاهرة متجها إلى مقر الشركة فى جاردن سيتى . . كانت هذه الكلمة : «قرار من رئيس الجمهورية بتأميم الشركة العالمية لقناة السويس . . »

عند هذه الجملة وصلت مجموعة القاهرة إلى مبنى الشركة ، وتصدى البواب للمجموعة ، قائلا إن الشركة لا تعمل فى الليل ، فنحى جانباً ودخل محمود يونس ، فوجد مكتبا واحداً مضاء ، وفيه خواجه ، هو سكرتير الشركة ، فطلب منه تسليم مفاتيحه . . وذهل الرجل قائلا هذه شركة عالمية . . لا يمكن ! ! . . فتقدم منه اثنان ونحياه عن المكتب بهدوء ، فامتثل الرجل ، وأخذت منه مفاتيحه ووضع تحت الحراسة حتى تم تسلم جميع المكاتب والخزائن . ثم دار الاتصال على الفور بالاسماعيلية وبور سعيد والسويس عن طريق الخطوط المباشرة للشركة ، فإذا المفاجأة كانت تامة ، وكل شيء تم بادق نظام وعلى خير وجه .

وقد روى الرئيس فى خطبة الاسكندرية قصة العلاقات المصرية البريطانية الأمريكية ، وما حدث بشأن السد العالى . وروى تاريخنا مع شركة قنال السويس وما جرى بين ديلسبس ، والخديويين . . وكان مما قال :

« بلغ دخل شركة قنال السويس فى عام ١٩٥٥ - ٣٥ مليون جنيه[١] ، أى مائة مليون دولار ، ونأخذ منهم نحن الذين مات من أبنائنا ١٢ ألفاً أثناء حفرها مليون جنيه فقط ، أى ٣ مليون دولار . . .

« هل تعلمون مقدار القرض الذى طالبناه من أمريكا وانجلترا فى خمس سنوات : ٧٠ (سبعين) مليون دولار ! ؟ وهل تعلمون من الذى يأخذ المائة مليون دولار كل سنة ؟ هم الذين يأخذونه بالطبع !

« وليس عيبا أن أكون فقيراً ، واقترض لابنى بلدى ، أو أحاول أن أجد مساعدة لأجل بلدى . . ولكن العيب أن أمتص دم الشعوب ، وأمتص حقوق الشعوب .

« أننا لن نكرر الماضى ، بل سنقضى على الماضى . . بأن نستعيد حقوقنا فى قنال السويس . . هذه الأموال أموالنا ، وهذه القنال ملك لمصر ، لأنها شركة مساهمة

---

(١) وصل صافى دخل قنال السويس قبل حرب يونيو ١٩٦٧ حوالى مائة وعشرة مليون جنيه بمختلف العملات الأجنبية .

مصرية . . شركة قنال السويس الموجودة الآن فى باريس ، شركة مغتصبة ، اغتصبت امتيازاتنا . . وعندما جاء ديليسبس إلى مصر ، كان مجيئه يشبه مجىء يوجين بلاك (مدير البنك الدولى) إلى مصر للتحدث معى .

« والتاريخ لن يعيد نفسه . بل على العكس سنبنى السد العالى . ونحصل على حقوقنا المغتصبة . سنبنى السد العالى كما نريد . . وسنصمم على هذا . . ٣٥ مليون جنيه تأخذها شركة القنال فلتستردها مصر .

« ولهذا فأننا اليوم ، أيها المواطنون ، حينما نبنى السد العالى ، فإنما نبنى أيضاً لمصر العزة والحرية والكرامة ، ونقضى على سدود الذل والهوان .

« وتعلن ـ مصر كلها ـ جبهة واحدة ، أنها كتلة وطنية متكاتفة متحدة ، مصر كلها ستقاتل لآخر قطرة من دمائها . . كل واحد من أبنائها سيكون مثل صلاح مصطفى ، ومثل مصطفى حافظ (شهداء فى فلسطين) . . لن نمكن منا تجار الحروب . . لن نمكن منا المستعمر » .

وختم بقوله :

« الآن ، وأنا أتكلم معكم ، يقوم أخوة لكم من أبناء مصر ، ليديروا شركة القنال ويقوموا بعملها . . الآن فى هذا الوقت يتسلمون شركة القنال . . شركة القنال المصرية لا شركة القنال الأجنبية . . قاموا ليتسلموا شركة القنال ومرافقها ويديروا الملاحة فيها . . فى القنال التى تقع فى أرض مصر ، والتى هى جزء من مصر ، وملك لها . . نقوم الآن بهذا العمل لنعوض ما فات ولنبنى صروحا جديدة للعزة والكرامة . . »

الاستعداد للمعركة

عندما وقعت معاهدة الجلاء عن مصر عام ١٩٥٤ ، وقف تشرشل — رئيس الوزراء فى ذلك الوقت — يتحدث بصوت امتزجت فيه حشرجة الشيخوخة مع نبرات الحزن ، وقال :

« لم أحاول قط إخفاء ما أحس به من أسى ، تجاه سير الحوادث فى مصر . . وذهنى ما يزال قادرا على استيعاب التطورات الضخمة ، التى حدثت فى المواقع الاستراتيجية فى العالم كله . وهى تطورات جعلت نظرياتنا المنطقية القديمة فى شئون الدفاع ، غير صالحة للبقاء ، نسخت تماماً . وكذلك حدث تبدل عام فى تفكير قادتنا العسكريين . . مما جعل قاعدة قنال السويس والمركز الذى تحتله فى مصر ، لا يتفقان مع التطورات الهائلة التى حدثت ، ولا تناسبان ما نتوقعه فى المستقبل ، مما يثير تصوره الفزع فى نفوسنا .

« ويكفى أن نتخيل بشىء من الإيجاز ، ماذا سيحدث فى الأسابيع الأولى من الحرب ، لو وقعت اليوم ، وإنى على ثقة من أن المجلس الموقر سيقتنع بأن قاعدة قنال السويس أصبحت غير ذات موضوع » .

ولقد كنا نتوقع أن يكون تشرشل أكثر حصافة ، وتفتح ذهن . . وأن يزعم — ولو على طريقة النفاق الانجليزى الشهير — أن جلاء الانجليز عن مصر كان تقديراً من بلاده للحرية ، أو حرصاً منها على تطبيق ميثاق هيئة الأمم الذى ينص على ألا يبقى جنود دولة فى أرض دولة أخرى بغير رضاها وقد كان تشرشل أحد واضعيه . . وهو ما تمنيناه لتشرشل قبل عشر سنوات من معاهدة الجلاء ، ودعوناه إلى أن يكون بطل حرية الشعوب ، بعد أن حمل لقب بطل الحروب[1] !!

---

(١) ص ١٦٢ و١٦٣ من كتابنا «تشرشل» صدر عام ١٩٤٤ .

ولكن الأمل خاب فيه ، فقد راح يذكر أن حكومته مكرهة على الجلاء لأن استراتيجية القنبلة الذرية غيرت كل شيء . . ولو كان أكثر صدقاً ، لقال أن معارك المصريين فى القنال عجلت بإظهار مزايا هذه الاستراتيجية !

على كل حال ، لقد أبن تشرشل بإسم الاستعمار ورجاله ، الوجود البريطانى فى مصر ، ومنطقة قنال السويس . . وتبعاً لذلك ، كان يجب أن يكون خليفته — أنطونى إيدن — وحزب المحافظين بصفة عامة ، أقل إنزعاجاً من تأميم القنال ، إذ لم تعد تمثل إلا مصلحة مالية ، هى نصيب حملة الأسهم الانجليز ، من دخل القنال . أى حصتهم من ٣٥ مليوناً من الجنيهات . . وربما قلت هذه الحصة عن خمس عشرة مليونا من الجنيهات سنويا . فقد كانت أسهمهم تمثل ٤٥٪ من جملة أسهم القنال .

ولكن الأمر لم يكن كذلك . ولم يكن أمر هذه الملايين القليلة تنتهبها انجلترا أو فرنسا ، من عرق ودماء الشعب المصرى . ولكنه كان هذا الميراث الثقيل القديم ، الذى تخلف عن الحروب الصليبية وضراوتها وحرارتها .. وأمر المحاولات العنيدة المستمرة خلال القرن التاسع عشر للاستيلاء على القاهرة والقدس وما جاورها من بلاد العروبة .. ان رواسب هذا الماضى هى التى حركت عواصم الغرب الاستعمارى ، أكثر من الواقع وحقيقته .. انه الخوف من المستقبل ، اذا ما استيقظ الشرق ، وبلاد العروبة ، وأخذ مكانه الطبيعى على ظهر هذا الكوكب .. هو هذا ، ولا شئ غيره .. ومن أجل عقدة الخوف ، زرعت اسرائيل فى جسم الأمة العربية ، كما يزرع الميكروب الخبيث .. ومن أجل هذه العقدة ، انشأ الغرب جيلا من الساسة ، أسلموه الجاه والمال والنفوذ ، لكى يؤمن بالغرب وبتفوقه ، وبسيادته .

ففى لندن ..

كان رئيس الوزراء هو أنطونى إيدن ، بعد أن تخلى تشرشل عن رياسة الوزارة والحزب لكبر سنه . وكان من أهم زملائه الأعضاء فى مجلس الوزراء : سلوين لويد للخارجية ، وإيرل أوف هيوم وزير الكومنولث ، وهارولد ما كميلان وزير الخزانة وسير وولتر مونكتون وزير الدفاع، ولنوكس بويد وزير المستعمرات، وريتشاردبتلر

حامل أختام المملكة وزعيم مجلس العموم . . ومن الوزراء الذين ليسوا أعضاء فى مجلس الوزراء ، الفيكونت توماس وزير البحرية وأنطونى هيد وزير الحرب ، ونيجل بيرش وزير الطيران ، ووزيراً دولة للشئون الخارجية هما انتونى ناتنج والمركيز ريدنج .

والشخصان اللذان كانت لهما علاقة مباشرة بشؤون مصر . هما إيدن ، وسلوين لويد .

أما أولهما ، فقد جاء الحكم فى مكان رجل يعد من أبطال انجلترا ، ومن أكبر ساسة العالم فى القرن العشرين وهو تشرشل . وحتى لا يبدو إيدن قزما فى المقعد الكبير الذى جلس عليه ، فقد بدأ عهده بزيارة ايزنهاور لأخذ تأييد منه ، ووعد بأن تكون انجلترا شريكة فى سياسة العالم على قدم المساواة مع روسيا وأمريكا . مستغلا فى هذا الطلب صلة صداقة توطدت بينه وبين الرئيس الأمريكى أثناء الحرب العالمية الثانية .

وهناك اعتبار ثان فى حياة إيدن الخاصة سيطر على تفكيره ، وهو أنه تزوج فى شهر أغسطس سنة ١٩٥٢ من السيدة كلاريسا تشرشل إحدى قريبات سلفه الكبير، وهو زواجه الثانى . وكان فارق السن بينه وبين عروسه ثلاثين عاما . . وقد حاول إيدن ، بعد أن وصل إلى رياسة الوزراء أن يثبت لزوجته أنه سياسى عملاق ، وأنه قادر على أن يقف على سلم العظمة الذى وقف عليه تشرشل .

وكان إيدن يعد نفسه خبيراً بشؤون الشرق الأوسط ، أكثر من أى سياسى آخر ، فهو يعرف العربية والتركية ، ولو لم يلتحق بالعمل السياسى الحزبى لكان سار فى نفس طريق لورنس ، وفيلبى . . .

وعندما حاوره المستر اتلى رئيس حزب العمال ، وزعيم المعارضة ، فى معاهدة الجلاء عن مصر ، وقال إن الجلاء سوف يترك فراغا فى الشرق الأوسط ، رد إيدن قائلا إن أعفاء ٨٠ ألف جندى من العمل المحدود فى قاعدة قناة السويس سوف ينهى فراغا وجد فعلا ، إذ سيكون فى الاستطاعة تحريك هذا الاحتياطى الكبير إلى أى جهة يتطلبها العمل العسكرى . ولم تعد القواعد ذات قيمة ، ولكن القوات

القادرة على الحركة هى التى تهم الآن . . وأضاف رداً على المحافظين جداً الثائرين على الجلاء ، من أعضاء حزبه قائلا : أن ما نريده هو قاعدة قادرة على العمل ، لا حامية مشتبكة طـــول الوقت فى حرب . . وتوقع إيدن — بعد جلاء الانجليز عن مصر — أن تتعاون حكومتها بحرية فى شؤون الدفاع الغربى (يقصد الأحلاف !) .

وأعلن إيدن فى ٣٠ مارس سنة ١٩٥٥ عقد حلف دفاعي بين تركيا والعراق لكى يكون درعا يصد أى هجوم من الخارج ، ولما سئل عن تأثير هـذا الحلف على اسرائيل ، قال إنه للمرة الأولى يتجه نظر دولة عربية — عراق نورى السعيد — إلى نواحى أخرى ليس منها اسرائيل(١) .

أما سلوين لويد

ما أن تولى وزارة الخارجية فى وزارة إيدن ، أى جلس فى مقعد إيدن السابق ، حتى رسم برنامج رحلة إلى الشرق الأوسط ، يحاول أن يبيع معاهدات جديدة . ويضم بلدانا جديدة إلى حلف بغداد ، ووصل إلى القاهرة فى بداية شهر مارس سنة ١٩٥٦ وبينما كان يتناول العشاء فى قصر عابدين ، ومعه السفير البريطانى السير همفرى تريفيليان حتى أخذ يعرض وساطته لكى توافق حكومة السودان على مشروع السد العالى .

وكان عجيبا أن يظن الوزير البريطانى أنه أقرب إلى السودانيين ، من مصر والمصريين حتى يحاول تسويق موافقتهم على السد العالى لنا .

وما أكثر ما حاول الانجليز أن يبيعوا مالا يملكون . ففى بداية الحرب العالمية الأولى ، حاولوا أن يبيعوا عرش اليمن لعزيز المصرى ، فرد عليهم قائلا : إن اليمن ملك لشعب أسمه الشعب اليمنى ، وهو وحده صاحب الحق فى اختيار حاكمه وحاولوا أن يبيعوا عرش مصر لأغاخان ، ولكن الصفقة لم تتم .

---

(١) ألان كامبل جونسون فى كتابه عن أنطونى ايدن ص ٢٥٧ .

وانتقل كلام سلوين لويد — وهو (يتهته) فى حديثه ، إلى الأردن وراح ينتقد حملة إذاعة القاهرة ، وصحفها على الأردن . . فرد عليه عبد الناصر ، بنفس المعنى الذى دار فى خاطر عزيز المصرى من أربعين سنة بالضبط . . قال له :

— هذه مسائل بيننا وبين الأردن ، وهى تهم العرب وحدهم . فماذا يقلق باله فى هذا الموضوع ؟ ! !

فرد سلوين لويد :

— نعم . . نعم . لا ينبغى أن نقلق بالنا ، فلنا فى الأردن « جلوب باشا » وهو يقود الفيلق العربى كما تعلم . . فسأل عبد الناصر فى صوت خافت .

— . . جلوب ؟ فأجاب سلوين لويد مفاخراً .

— أجل الجنرال باجوت جلوب . . فقال عبد الناصر .

— آه . . أظن أنه الآن فى طريقه إلى قبرص ، فقد أقيل من منصبه قبل أن نبدأ عشاءنا بوقت قصير ورحل من الأردن على عجل . . .

ولدينا مثل مصرى يقول : وقفت اللقمة فى حلقه ، هذا المثل ينطبق تماماً على حالة سلوين لويد فى هذه اللحظة . فقد أبطأ فى مضغ طعامه ، وتظاهر بالثبات أمام هذه الهزيمة المنكرة ، فى المباراة الكلامية التى اشتبك فيها ، فاكتفى بالصمت ، أو ما يشبه الصمت ، حتى انتهت حفلة العشاء . . ويالها من حفلة . . وركب مع سفير بلاده إلى دار السفارة وهو يردد بفأفأة وتأتأة : هل هذا صحيح ؟ . . كيف حدث هذا !

وقدر لسلوين لويد ، أن تستقبله زيارته التالية . وكان للبحرين — استقبالا حاراً ساخنا بالطوب والمظاهرات العدائية . . وعاد إلى لندن وحقد الدنيا كلها يملأ صدره . .

ولم يكن وحده الذى جرعته القاهرة ، غصص الهزيمة . . فقد تلقاها أيضا رئيس أركان حرب الامبراطورية المارشال وولتر روبرت تمبلر . . وتلقاها فى عمان نفسها . . فقد راح بدوره يبيع . . يبيع حلف بغداد . ووصول أكبر قائد انجليزى إلى عمان ، كان فى ذاته حدثا كبيراً . . فهو لا يشغل هذا المنصب

فقط ، ولكن له تاريخ حافل . فقدكان من قواد الحرب العالمية الثانية أثناء غزو الحلفاء لإيطاليا ، ثم تولى رياسة المخابرات الحربية لبلاده ، ثم تولى فى الملايو حملة ضخمة ، لوقف التسرب الشيوعى إليها . ونتيجة لنجاحه فى هذه المهمة ، عين رئيسا لأركان حرب الامبراطورية ، وكان من أول مهامه تنسيق حلف بغداد ، وضم الأردن له فقام بهذه الزيارة فى أواخر عام ١٩٥٥ .. وإذا بالشعب الأردنى يثور ثورة عارمة ، لم يملك تمبلر نفسه إزاءها ، إلا أن يركب أول طائرة ، ويسرع من المنطقة كلها إلى بلاده ، على الرغم من أنه جاء أيضاً — يقدم هدية سخية من الأسلحة للأردن . وقد استقال نتيجة هذه الزيارة الفاشلة هزاع المجالى رئيس الوزراء الجديد ، الذى تولى الحكم أثناء وجود تمبلر . ولم تمكث هذه الحكومة أيضاً أكثر من خمسة أيام. ثم استقال . ليأتى بعده إبراهيم هاشم فى رياسة الوزارة ، الذىوكان عليه أن يعلن استنكار حكومته لحلف بغداد مما اضطر الجنرال جلوب أن يتدخل بقواته ويقبض على ألفى شخص منهم ٣٠٠ فى القدس وحدها . وعندها تقرر مصير هذا الإنجليزى الدخيل ، إذ لا يتفق وجوده مع ، تحرك القومية العربية إلى مواقع جديدة تسودها العزة والكرامة .

عاد الجنرال « تمبلر » إلى لندن ، وقد استقر فى ذهنه أن شيئاً غير عادى يحدث فى البلاد العربية .

وكان من طرائف ما حدث فى هذه الفترة أن فريقاً من شباب الموظفين فى وزارة الاقتصاد ذهبوا إلى وزيرهم وقالوا له إن موضوع الاشتراك فى حلف بغداد سيعرض على مجلس الوزراء بعد قليل ، فإذا وافق على الاشتراك فعليه أن يذهب إلى منزله ولا يعود إلى الوزارة أبداً ! !

وقد ألقى اللوم فى حادث إقصاء « جلوب » على الضابط الثائر على أبو نوار رئيس حرس الملك ، والذى تولى قيادة الفيلق العربى كله . ولكن اللوم يجب أن يلقى أيضاً على الشعب العربى كله ، إن كانت « القومية العربية » مما يلام عليها أهلها . . .

وسمع إيدن أنباء القاهرة وأدرك من أين سوف تهب الريح عما قريب . . وقد وصف الكاتب الكندى « ت . روبرتسون »[١] حالة إيدن النفسية بقوله :

« كان إيدن شديد الحساسية بصورة خاصة للتهم التى توجه إليه عن رغبته فى التهاون والترضية . فلقد كان هناك — فى خزانة محفوظات الحرب — هيكل عظمى

---

(١) كتاب «أزمة ... القصة السرية لمؤامرة السويس» ص٧٠

محنط ، يطلق عليه اسم « ميونخ » ، ولم يكن هناك من هو أكثر إحساساً بوجود الهيكل العظمى من رئيس الوزراء نفسه » . وهذه إشارة إلى الأحداث التى سبقت الحرب العالمية الثانية ، عند ماهادنت وزارة المحافظين برياسة تشمبرلن ألمانيا ، وظلت تتراجع أمامها حتى نشبت الحرب . . .

يستأنف هذا الكاتب : « أن إيدن حزم أمره على أن تقوم وزارة المحافظين فى حالة نشوب أزمة دولية تشبه أزمة ميونيخ ، بانتهاز الفرصة لمحو هذه البقعة السوداء ، التى ما زالت عالقة بتاريخ حزب المحافظين » .

هذه كانت حالة لندن ، وكبار المسؤولين فيها فى فترة التأميم . . وسنرى فيما بعد كيف استقبلوا القرار الخطير . . بعد أن نستعرض موقف فرنسا منا فى تلك الفترة .

فرنسا .. والحكم الاشتراكى

فى أول فبراير عام ١٩٥٦ ، ألف جى موليه زعيم الحزب الاشتراكى الوزارة ، وكان وزير خارجيته زميله الاشتراكى كريستيان بينو . ومن الأعضاء فى هذه الوزارة مانديس فرانس (وزير بلا وزارة) الذى كان رئيساً للحزب الاشتراكى الراديكالى ، ومن وزرائه الظاهرين فرنسوا ميتران رئيس الديمقراطيين واتحاد المقاومة الاشتراكيين . وكان الجنرال جورج كاترو وزيراً للجزائر . وكانت هناك أحزاب أخرى ممثلة فى الوزارة ، إلا الحزب الشيوعى ولا تعجب من هذا ، فقد كان أعضاء مجلس النواب (٦٢٧) مقسمين على ١٢ حزباً ، وهذا غير المستقلين ولم يكن الشيوعيون مشتركين فى الوزارة ، رغم أن لهم أكبر نسبة فى عدد أعضاء مجلس النواب (١٤٤ عضواً) ، وكان زعيمهم — موريس توريز — ما زال عائشاً . .

وكانت فرنسا فى ذلك الوقت ، مشتبكة فى صراع دموى رهيب ، يدور على أرض الجزائر ، ويشترك فيه من جانبها نصف مليون عسكرى . وعلى الرغم من المؤازرات التى كانت دول حلف الاطلنطى تمدها بها ، إلا أنها كانت تحس بأن أعضاء هذا الحلف ينظرون إليها نظرة زميل ضعيف ، بعد الضربة القاصمة التى أصابت

الجيش الفرنسي فى « ديان بيان فو »[1] بالهند الصينية ، وطردت الامبراطورية الفرنسية نهائياً من آسيا ، وقد غاظ فرنسا ، أن الولايات المتحدة وإنجلترا ، شرعتا فى عمل حلف فى الشرق الأوسط ، وهو حلف بغداد دون أن تدعو له فرنسا ، أو حتى تستشيرها فيه . وكأن فرنسا لا وجود لها أيضاً فى هذه المنطقة ، على صورة من الصور ، ولهذا فقد وجد العسكريون الفرنسيون أن من واجبهم ، أن يصرعوا جيش التحرير الجزائرى ، لكى يستردوا هيبتهم المفقودة فى الشرقين الأقصى والأوسط ، وأن يبذلوا فى هذا كل فرنك وكل روح يمكن التضحية بها فى جبال الأطلس .

وبعد أسابيع قليلة من تولية الاشتراكيين الحكم فى فرنسا ، قدم إلى مصر وزير خارجيتهم « بينو » فى ١٤ مارس سنة ١٩٥٦ وكانت زيارته عقب زيارة الوزير الإنجليزى سلوين لويد .

---

(١) من مفارقات التاريخ ، أن هذه المعركة الحاسمة فى نضال الشعوب الحديثة كانت سببا فى نشأة أحقاد ملأت نفس فرنسا ضد الولايات المتحدة ، فقد كانت الحامية الفرنسية فى وادى «دين بيان فو» بفيتنام الشمالية مكونة من ١٣ ألف جندى ، وقد حاصرها الفيتناميون ، حصارا تاما من التلال المحيطة وكانت بطاريات المدافع المضادة للطائرات التى استعملوها ببراعة تامة ، تمنع الطائرات من امداد الحامية المحاصرة ، ولم يكن هناك سبيل للانقاذ الا أن تضرب مناطق التلال من الجو ضربا مركزا ثقيلا يسكت مدفعية الفيتناميين . وكانت أقرب قاذفات قنابل لمنطقة العمليات هى القاذفات الامريكية وقدر ضرورة اشتراك ٥٤٨ طائرة أمريكية فى العملية وعرض فوستر دلاس الأمر على لجنة مختصة بالكونجرس الامريكى ، وتصادف أن كان زعيم المعارضة فى المجلس ، هو لندون جونسون ، الذى عارض معارضة شديدة فى اشراك الطائرات الامريكية فى عملية الانقاذ ، الا اذا اشتركت دول أخرى من حلف الاطلنطى أو جنوب شرقى آسيا فى العملية .. [هو رئيس الولايات المتحدة فيما بعد] ..

وقد شدد الفيتناميون هجومهم ، وقتلوا ألفين من الفرنسيين وأسروا الباقين ، وكان ذلك فى ٣ أبريل ١٩٥٤ . وبعدها قررت فرنسا :

١ ـ الانسحاب من الهند الصينية   ٢ ـ احتقار الولايات المتحدة ..

وهذا الحادث يفسر لنا موقف الجنرال ديجول من حرب أمريكا فى فيتنام ، وموقفه بصفة عامة من الولايات المتحدة . ويفسر لنا أيضا لماذا لم تعبأ فرنسا بمعارضة الولايات المتحدة فى العدوان على بور سعيد .

وكانت روح الزائر الفرنسي ودية ، فقد تحدث باستهانة عن حلف بغداد وحبذ عدم اشتراك مصر فيه ، وأعطى وعداً ، بأن تنقص فرنسا من الأسلحة التي تتدفق على إسرائيل . وكانت لدى مخابراتنا معلومات وثيقة عن أنواع وكميات هذه الأسلحة التي حاولت تل أبيب وباريس إنكار وجـــودها ، إلى أن أفشى الرئيس ناصر أسرارها في آخر عام ١٩٥٥ :

ووصل الحديث إلى الجزائر . .

وكان قد وصل إلى القاهرة ، نبأ أن إيدن وموليه ، اجتمعا ، وتناقشا في اتخاذ سياسة موحدة ، بعد أن عرف أن مصر تساعد الجزائر في حربها الاستقلالية وصرح موليه للصحفيين « بأن هناك نتيجة واحدة لهذه المحادثات وهي أن فرنسا وبريطانيا والولايات المتحدة ستتخذ موقفاً متحداً في سياستها حيال مصر » .

كان طرد جلوب من الأردن حافزاً على هذا الاجتماع . وكانت أزمة فرنسا في الجزائر حافزاً آخر . . . ولهذا جاء بينو . . واستطرد بعد وعوده (الكاذبة طبعاً) بمنع السلاح عن إسرائيل ، في أخذ وعد مقابل من عبد الناصر ، لكي يكف عن مساعدة الجزائر . وقد رفض الزعيم المصري هذا الطلب في بساطة ووضوح . إذ لم يكن يعقل أن تتخلى مصر الثائرة عن أختها لثورة الجزائر ، التي اشتعلت نيرانها في نوفمبر عام ١٩٥٤ .

وأصيب بينو بصدمة عنيفة .. فقد كان حزبه مرتبطاً بوعد من ناخبيه أن ينهي حرب الجزائر ، ووعى الناخبون ما قاله رئيس الاشتراكيين موليه أثناء الحملة الانتخابية وهو أنه « يسقط كل يوم شبان فرنسيون ، وتبحث الزوجات والأمهات عن السبب . ماذا يجب أن نفعل ؟ يجب قبل كل شيء أن نكف عن الكذب ، وأن نتفادى الأخطاء التي ارتكبت في الهند الصينية وتونس ومراكش . وعلى الشعب الفرنسي أن يختار بين حرب يائسة ، وبين صلح وسلام » .

وكان في تقدير الحكومة الفرنسية ، أن السلام في الجزائر ، طريقه من القاهرة ، وهذا هو عبد الناصر ، يقفل هذا الطريق ، ويقول ألا سلام في الجزائر قبل جلاء الفرنسيين عنها .

وهكذا انضم « بينو » إلى الساخطين الحاقدين على مصر ، ومعه رئيسه وزملاؤه.

وحتى تحصل الوزارة الفرنسية على نصر سريع فى الجزائر ، فقد زادت قواتها زيادة كبيرة ، ووعد « موليه » ، على أثرها بأن الثورة الجزائرية ستسحق فى ١٥ مايو ! ! وجاء يوم ١٥ مايو ولم يحدث ما وعد به فأدلى بتصريح جديد مؤداه أن ميعاد النصر هو الخريف . ولم يحدث أن سياسيا مسؤولا أدلى بتصريح فى مسألة لها هذه الأهمية ، بمثل هذه الخفة ، كما فعل « موليه » !

كيف استقبلوا التأميم

فى ليلة ٢٦ يوليو سنة ١٩٥٢ كان أنطونى إيدن قد دعا إلى العشاء زواراً من العراق ، هما الملك فيصل والأمير عبدالإله العراقيان ، ونورى السعيد رئيس الوزراء . ودعا بعض وزرائه لهذه المائدة . . وربما كان الحديث دائراً حول حلف بغداد ، واحتمالات نجاحه ، وموقف مصر منه . . وقبل أن ينتصف العشاء وأحاديثه المتفائلة دخل سكرتير بقصاصة ورق ، ووضعها أمام إيدن فإذا به يقرؤها ، ثم يعيد النظر فيما قرأ ، ثم يقول لضيوفه إن قسم الاستماع بمحطة الإذاعة البريطانية ، أبلغنا أن ناصر قال فى خطبته بالمنشية أنه أمم قنال السويس ، وأن مندوبيه استولوا عليها فعلا . . .

وبعد فترة صمت ، قال نورى : الآن فرصتك .. فرصتنا جميعاً . يجب أن تضرب وتضرب فوراً . .

يروى أنطونى إيدن فى مذكراته عن هذه الليلة :

« فى مساء السادس والعشرين من شهر يوليو سنة ١٩٥٦ كان ملك العراق ، وزعماؤه يتناولون طعام العشاء معى فى روانتنج ستريت ، وأثناء العشاء جاء أحد السكرتيرين الخصوصيين يحمل أنباء استيلاء « ناصر » على قنال السويس ، واغتصاب ممتلكات الشركة التى كانت تديرها وفقا لاتفاق دولى . فقد أعلن « ناصر » فى خطاب ألقاه بالاسكندرية أن مصر ستجد الأموال اللازمة لبناء سد أسوان وكانت الوسيلة فى متناول يده . سوف يستولى على القنال ، ويأخذ من دخلها رأس المال الذى يريده .

« وأنبأت ضيوفى بما حدث . وقد رأوا فيه بوضوح قلباً لكل اتجاهاتى وأفكارى التى سنقابل بها هذا التحدى . وانفض الاجتماع مبكراً ، بعد أن انتهى الغرض الاجتماعى من عقده .

« وكان مستر سلوين لويد ، ولورد سالزبورى ، ولورد هيوم يتناولون العشاء معنا فتوجهنا إلى غرفة اجتماعات مجلس الوزراء لتناقش ما يجب أن نفعله ، وانضم إلينا وزير المالية (هارولدماكيلان) ، ورؤساء هيئة أركان الحرب (المارشال تمبلر كان على رأسهم) ولم يكن لدى شك فى الأثر الذى تركه تصرف الرئيس ناصر من إهدار لكرامتى . لقد كان ذلك استيلاء على ممتلكات غربية (كذا) رداً على تصرف حكومة الولايات المتحدة ، وعلى نتيجة ما سنعمل سيتضح من تكون له السيادة والسيطرة فى تلك المنطقة !

« وقررنا أن ندعو السفير الفرنسى ، مسيو شوفل ، والقائم بأعمال السفارة الأمريكية مسترفوستر . ليشتركا فى مشاوراتنا ، وعندما وصلا أخبرتهما بما رأيناه . لقد كانت الحياة الاقتصادية ، لأوروبا الغربية — فى رأينا مهددة ، من جراء استيلاء مصر على القنال . وكانت تلك مسألة بالغة الأهمية ، فهى تتعلق باتفاق دولى تعرض للخطر . فيجب على الفور أن تنسق الحكومات الثلاث خطواتها المقبلة حيال ذلك . وقدمنا إلى الممثلين الفرنسى والأمريكى ، محتويات تصريح اقترحت أن أدلى به فى مجلس العموم فى الصباح التالى » .

سهر إيدن الليل كله ، وقبـــل الفجر اتصل بباريس وواشنطن ، وفى صباح اليوم التـالى ٢٧ يوليو ، وجه له زعيم المعارضة ، سؤالا عن الموضوع أجاب عليه بقوله :

« القرار الذى اتخذته الحكومة المصرية من جانب واحد ، بنزع ملكية شركة قنال السويس بدون اخطار ، نقضت به اتفاقيات الامتياز الممنوح لتلك الشركة ، والذى يؤثر فى حقوق ومصالح عدد كبير من الدول . وتتشاور حكومة جلالة الملكة (انجلترا) مع الحكومات التى يهمها الأمر بصفة مباشرة (فرنسا صاحبة الامتياز والولايات المتحدة الوصية على غرب أوروبا) بخصوص الموقف الخطير الذى نشأ عن هذا التصرف . وسوف تتناول المشاورات أثر هذا العمل التعسفى على إدارة قنال السويس . والمسائل الكثيرة الناجمة عنه » .

وقد تجاوب جيتسكل زعيم حزب العمال فى مجلس العموم مع إيدن ، وقال :

« إن المعارضة تأسف أشد الأسف لهذه الخطوة الجائرة التى لامبرر لها إطلاقاً ، والتى اتخذتها الحكومة المصرية .

واستطرد إيدن فى مذكراته أنه بعث ببرقيات إلى وشنطن وباريس قال فيها : إن رجلا له سجل ناصر يجب ألايسمح له بأن يطبق يده على رقبتنا . . .

ويفهم من هذه التعبيرات ، أن إيدن وحكومته ، والمعارضة ذاتها ، أصابها الدوار مماحدث . فقد زعموا أن الشركة دولية ، وهذا ليس صحيحاً ، ولايوجد شىء اسمه شركة دولية طالما أن موجوداتها فى أرض بلد ما له سيادته . . وأما سجل ناصر الذى تحدث عنه إيدن ، فهو أنه أجبر الانجليز على الجلاء ، ثم سلح جيش بلاده من حيث وجد السلاح متاحاً ، وبدأت حركة تعمير ضخمة ، كان على قمتها السد العالى ، والتمس لذلك المال الممكن ، والذى لبلاده فيه حق ، وهو دخل قنال السويس .

ولكن انجلترا كانت تنظر إلى الموضوع من زاوية أخرى . فقد هزتها من الأعماق ، حركة مصدق عام ١٩٥٦ ، عندما أمم بترول إيران . واضطرت لكى تستعيد صلتها بالبترول الإيرانى ، أن تتنازل عن نصفه للولايات المتحدة ، ثم لجأت إلى سياسة الأحلاف ، ليكون لها الحق فى أن تتدخل عسكرياً فى المناطق التى لها فيها مصالح ، بحجة قيام تحالفات معينة . .

وإذا كانت حجج السيطرة على قنال السويس فى القرن الماضى ، قامت على أساس مصالح انجلترا فى الهند والشرق الأقصى « فإن هذه الحجج القديمة زالت ، لتحل محلها المصالح البترولية فى منطقة الخليج ، والتى تمر معظم سفنه من القنال .

والمسألة بعد هذا ليست مسألة حجج . . ولكن مصالح . وأى الفريقين أقدر على تحقيق مصالحه . صاحب الشىء أو مغتصبه . .

***

وإذا سألت عن موقف « القاهرة » ، بعد خطبة التأميم ، فقد قالها عبد الناصر فى صراحة : « سنحافظ على حقوقنا ، ودونها أرواحنا ودماؤنا » .

وإذا سألت عن موقفنا من الولايات المتحدة ، وهجوم دلاس علينا ، وهو يسحب تمويل السد العالى ، ويسبنا ، فقد رد الزعيم المصرى على دلاس وعلى بلاده بقوله : « أننى كلما صدر من وشنطن كلام : سأقول : موتوا بغيظكم » .

وقال عن معونة وقروض الأمريكان بصفة عامة : أننى لم أر أبداً معونة أمريكية متجهة إلى التصنيع ، لأن اتجاهنا إلى التصنيع سيترتب عليه منافستنا لهم . . ولكن المعونة الأمريكية تتجه دائماً إلى الاستغلال » .

وإذن فقد تحددت السياسة ، وهى القتال دفاعاً عن الحق . . القتال فى سبيل العمل الجاد لتنمية موارد هذه الأمة بجهدها وعرق أبنائها ، لا بمن ، ولا بتحكم من الغير . .

والواقع أننا إذا استعرضنا ظروف الدول الشرقية التى تعيش على معونات أمريكا ، مثل تركيا وإيران وإسرائيل ، فإننا نجدها أسوأ البلاد اقتصاداً ، ومستوى المعيشة فيها بالغ التخلف ، وأسعار المواد الرئيسية فيها بالغة الارتفاع ، والبطالة والبؤس والفقر يعمها . . وذلك لأنها بضغط شديد من أمريكا تنفق معظم دخلها وما تحصل عليه من الخارج على شراء سلاح من أمريكا ، حتى لتبلغ ميزانية الجيش فيها حوالى ٤٠٪ ، ونسبة كبيرة من انفاقها الحكومى يأتى من هذه الهبات الخارجية ، فإذا كفت أمريكا يدها ، توقف دولاب الحياة فيها — وهو دولاب أشبه بالخراب .

ولاننسى أن نسبة كبيرة من المعونة ، تذهب إلى جيوب الطبقة المتحكمة ، حتى يزدادوا تمسكا بالسياسة الأمريكية وما تمليه عليهم .

واذكر انى حضرت مناقشة فى هيئة الامم عام ١٩٥٠ ، وكانت الصين أيام حكم « شيانج كاى‌شيك » موضوع الحديث . ووقف مندوب روسيا يتلو بياناً عن الرشاوى والفساد ، وتبديد طاقات الشعب ، بألفاظ بالغة فى الأقذاع . وهنا أوقفه رئيس الجلسة ، قائلا : إن هذا الكلام الفاحش لايصح التفوه على مسمع هيئة موقرة مثل هيئة الأمم !! فرد المندوب الروسى :

— عفوا ياسيادة الرئيس ، إننى لا أتلو كلامى ، ولكن أتلو مقتطفات من تقرير

مارشال ، عن الحالة فى الصين . . ومارشال قائد أمريكى مشهور ، وكان رئيس بعثة أمريكية فى الصين ! ويتحدث عن شيء رآه وعرفه .

ويجب فى هذا المقام أن نفرق بين معونات أمريكا للغرب ، ومعوناتها للشرق فبالدولار الأمريكى وقفت ألمانيا الغربية على قدميها فى ظرف أعوام قليلة بعد دمار الحرب العالمية على يد الأمريكان أنفسهم .. وكذلك صنعت فرنسا وإيطاليا . وكذلك تعيش انجلترا اليوم على سخاء الدولار الأمريكى . . وسنرى دور هذا الدولار وتأثيره على سياسة الانجليز أنفسهم فى أزمة العدوان الثلاثى على مصر .

مصر تقدر الموقف

نشطت المخابرات المصرية فى استطلاع الموقف العسكرى بالنسبة لانجلترا وفرنسا وإسرائيل وحصلت على معلومات ثمينة . .

ووضع الرئيس جمال عبد الناصر « تقدير موقف » للحالة التى نشأت بيننا وبين الانجليز ، بأن قدر على وجه دقيق ، ما يمكن أن يكون عليه تفكير « إيدن » ومعاونيه ، وخرج بنتيجة واضحة ، وهى أن الانجليز سيحاربون — لا لاسترداد القنال وحدها — ولكن لاسترداد مصر . . وعلى عادة الانجليز ، فإنهم سوف يضمون معهم فرنسا ، بالقوة التى تستطيع الاستغناء عنها من حرب الجزائر ، وشك فى امكان انضمام اسرائيل لهذه الحرب ، حتى لا تخسر انجلترا عطف العالم العربى ، وتحرج حكامه الموالين لها . .

وهذا منطق سليم ، واستنتاج صحيح ، إلا أن عبد الناصر ، أعطى إيدن فى موضوع اسرائيل وزنا لا يستحقه . فقد انتهى رئيس وزراء انجلترا إلى إهمال كل مصالح انجلترا فى الشرق الأوسط ، وقبل أخيراً انضمام اسرائيل لهذه الحرب لهفة منه على نصر سريع فى القنال ، وتوقا إلى إسقاط حكومة عدوه رقم ١ : جمال عبد الناصر .

وقد أورد محمد حسنين هيكل[١] فى جريدة الأهرام « تقدير الموقف » كما كتبه

(١) جريدة الأهرام فى ١٧ أكتوبر سنة ١٩٦٦ .

جمال عبد الناصر بخطه فى يوم السبت ٢١/٧/١٩٥٦ أى قبل إعلان التأميم بخمسة أيام . . وفيما يلى نصه :

ظهر يوم السبت ، وفيما بين الحادية عشرة صباحاً والثانية عشرة ، وفى مكتبه كتب جمال عبد الناصر بالقلم الرصاص على أوراق دفترمذكرات من القطع المتوسط ، مستطيل الشكل ، وثيقتين من أهم الوثائق فى تاريخ مصر المعاصر .

أولهما عنوانها :

« تقدير موقف من وجهة النظر المصرية فى حالة تأميم قنال السويس » .

كانت هذه الوثيقة فى ست صفحات ، وأما الثانية وكانت من خمس صفحات فقد كان عنوانها :

« تقدير موقف من وجهة النظر الغربية فى حالة تأميم قنال السويس » .

***

الوثيقة الثانية ، « تقدير موقف من وجهة النظر الغربية فى حالة تأميم قنال السويس » هى التى تهمنافى هذا الحديث ، فهى الأقرب اتصالا إلى السؤال الذى نحاول أن أجيب عنه أثناء مناقشة دراسة هيوتوماس عن السويس وأثناء تعقبى للطريقة التى استطاعت بها فرنسا أن تجمع — برغم المحاذير — بين بريطانيا واسرائيل .

وفى وثيقة « تقدير موقف من وجهة النظر الغربية فى حالة تأميم قنال السويس » فإن جمال عبد الناصر وضع وأجاب على مجموعة من العناوين الفرعية :

ماذا يصنع إيدن ؟

ماذ يصنع موليه ؟

ماذ يصنع دلاس ؟

وفى آخر صفحة من الصفحات الخمس سؤال أخير للمناقشة :

— هل تستغل إسرائيل الفرصة ؟

* * *

فى هذه الوثيقة الهامة ، كشف عن الأفق الفكرى الذى كانت تدور فيه قيادة مصر فى هذه الفترة وقد كان قريبا جداً من الحقيقة إلا فى تصور موقف إسرائيل. فقد توصل عبد الناصر فى تحليله وتقديره لموقف إيدن وماذا يستطيع أن يصنعه إلى عدة افتراضات لابد أن يبنى موقف مصر على أساسها :

(١) رد الفعل فى بريطانيا سوف يكون عنيفاً ، لأن الضربة القادمة فى الصميم. موجهة إلى مطامع السيطرة ، وإلى النفوذ السياسى والهيبة الدولية .

(٢) إيدن سوف يلجأ إلى القوة العسكرية بالتأكيد .

ضعف موقفه فى حزبه .

ضعف موقفه فى بلده .

ضعف موقف بلده فى الخارج ذلك كله ، سوف يدفعه إلى العنف . . أقصى العنف .

(٣) احتمال التعاون العسكرى بين بريطانيا وفرنسا قائم بسبب غضب فرنسا من مساعدة مصر لثورة الجزائر .

(٤) احتمال تعاون بريطانيا مع إسرائيل مستبعد . بسبب حرص بريطانيا على أصدقائها من العرب ، وتعاونها بطريقة سافرة مع إسرائيل يكشفهم ويحطمهم واستغلال إسرائيل للموقف بغير تنسيق مع بريطانيا يعرضها لمشاكل معقدة فضلا عن ذلك فإن بريطانيا فى حالة إقدامها على عمل مسلح لاتحتاج معونة اسرائيل العسكرية فيه .

لقد خرج من هذه الوثيقة سؤال هام كان ظهر ذلك اليوم ملء مكتب جمال عبد الناصر . . . وملء فكره كله :

— ما هو وضع بريطانيا العسكرى فى الشرق الأوسط وفى البحر الأبيض؟

أن السرعة هى العامل الحاسم فى الموقف .

فلو استطاع إيدن أن يتدخل فوراً ، وأن يبدو تدخله وكأنه رد فعل طبيعى لتأميم قنال السويس فمعنى ذلك أن إيدن سوف يجد تأييدا داخل بلده ومن جانب حلفائه ويبدو عمله أمامهم وكأنه رد مشروع فى مواجهة تحد لايطاق !

أما إذا لم يستطع إيدن أن يتدخل بسرعة ... ومضى وقت ، شهران أو ثلاثة ، فسوف تكون الفرصة قد فاتت لأن الجو النفسى يكون قد تبدل وتكون السياسة المصرية قد لعبت على المسرح الدولى دورها المطلوب ، خصوصاً إذا عززته بحسن إدارة قنال السويس .

وإذن فسؤال الساعة هو .

— ما هو وضع بريطانيا العسكرى فى الشرق الأوسط وفى البحر الأبيض ؟

وكانت لدى مصر معلومات وافية عن القوات البريطانية الموجودة فى الدول العربيةالقريبة منها . بالتحديد الأردن وليبيا .

فى البلدين كانت هناك الفرقة المدرعة العاشرة البريطانية . نصفها فى الأردن ونصفها فى ليبيا .

لكن الفرقة بنصفيها كانت خارج الحساب لسببين :

* من الصعب أن تستخدم بريطانيا قاعدة عربية فى غزو ضد مصر .

والسبب الثانى :

* أن بريطانيا سوف تكون فى حاجة إلى هذه القوات حيث هى فى الأردن وفى ليبيا لحماية الوجود البريطانى فيهما أمام الغضبة الشعبية التى سوف تحدثها عملياتها العسكرية ضد مصر .

وإذن تبقى من القواعد الغربية .

قبرص — مالطة — عدن .

ما أوضاع القوة البريطانية فيها ؟ .

* * *

وليس سراً الآن إنه كانت هناك صلات بين مصر وبين حركة التحرير الوطنى فى جزيرة قبرص ، وكان لمصر ضباط اتصال يعملون فى الخفاء داخل الجزيرة نفسها.

وفى عصر ذلك اليوم السبت ٢١ يوليو فلقد تم اتصال بين القاهرة وقبرص وكانت القاهرة تسأل عن القوات البريطانية فى قبرص وحجمها وتوزيعها . وكانت بعض هذه المعلومات متوفرة فى قيادة « أيوكا » تحتاج إلى بعض التجمع والتحقيق والربط .

حدث نفس الشيء فى مالطة عن طريق بعض القوى الوطنية .

حدث أيضاً فى عدن .

ومر يوم الأحد ٢٢ يوليو .

ثم جاء يوم ٢٣ يوليو الذى كان العالم كله يتوقع فيه رد جمال عبد الناصر على قرار سحب العرض الغربى بالمساهمة فى تمويل السد العالى . . .

لكن جمال عبد الناصر لم يرد ، وإنما اكتفى بأن قال إن مصر سترد ، وأنها ستبنى السد العالى ، وأنه ليس عنده لأعدائها فى الوقت الحالى أكثر من قوله : « موتوا بغيظكم » !

وكان يخطب فى احتفال أقيم فى مسطرد بمناسبة افتتاح خط أنابيب البترول بين القاهرة والسويس .

كان ذلك هو نفس الاحتفال الذى طلب فيه من المهندس محمود يونس — الذى وقع اختياره عليه ليشرف على إدارة قناة السويس — أن يقابله فى بيته مساء نفس اليوم الاثنين ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٦ .

* * *

صباح الثلاثاء كانت الإجابة على السؤال الكبير كاملة فى مكتب جمال عبد الناصر.

ما هو وضع بريطانيا العسكرى فى الشرق الأوسط وفى البحر الأبيض ؟ .

الرّد :

في قبرص . لواءان من المشاه وثلاث كتائب من فدائيي المظلات مدربين على عمليات مقاومة أيوكا ولكنهم ليسوا على أهبة الاستعداد لعمليات هبوط بالمظلات إلى جانب ذلك سرب مقاتلات وسرب من طائرات النقل .

في مالطة : حاملة طائرات واحدة .

في عدن : طرادان يقومان بأعمال الداورية في البحر الأحمر وسرب مقاتلات ولواء مشاة .

هذا عدا الفرقة العاشرة المدرعة الموزعة ما بين الأردن وليبيا والتي يستحيل في الظروف الحاضرة استعمالها في هجوم مباشر ضد مصر .

وأما أقرب احتياطي بريطاني بعد ذلك فهو الفرقة الثالثة ومقرها «سوثهامبتن» في جنوب بريطانيا نفسها .

* * *

مساء يوم الثلاثاء ٢٤ يوليو كان تقدير جمال عبد الناصر :

(١) أن إيدن سوف يقرر استعمال القوة العسكرية ضد مصر .

(٢) في نفس الوقت فإن إيدن لايملك قوة عسكرية قريبة وكافية يستطيع استعمالها بسرعة ونجاح .

(٣) ولو أقدم على عمل طائش بما لديه من القوات فإن هزيمته ممكنة ويمكن أن تكون ساحقة .

(٤) وإذا انتظر لاكمال استعداده العسكري وطال انتظاره فسوف يستحيل عليه بعد ذلك — سياسياً — أن يتدخل عسكرياً في غير الجو السياسي الملائم فإنه يهزم نفسه بنفسه .

* * *

صباح يوم الأربعاء ٢٥ يوليو كان قرار تأميم شركة قناة السويس معداً ومكتوباً يدخل صياغته النهائية وكان هناك شرطان للنجاح .

(١) لابد أن تبقى قناال السويس تحت الإدارة المصرية مفتوحة . . وبكفاءة ؛

(٢) لابد أن يبقى باب المفاوضات مفتوحاً وأن تكسب مصر مع كل يوم أرضاً فى الرأى العام العالمى . .

* * *

وقد نشرت تفصيلات كثيرة عن الطريقة التى يصدر بها قرار حكومتى إيدن وموليه بدخول الحرب ضد مصر ، والقليل جداً من تفاصيل هذه الأيام العصيبة هو الذى بقى سراً لم يكشف عنه بعد .

كان ايزنهاور[1] ضد الحرب ، فهو رجل عسكرى ، خاض غمار أكبر حرب عالمية شهدها التاريخ ، ويعلم مصائبها ، ولهذا كتب فى ٣١ يوليو سنة ١٩٥٦ إلى إيدن رسالة يقول له فيها :

« علمت من الرسائل التى وصلت منك ومن هارولد (ماكميلان) أن قرار (دخول الحرب) حازم ، ولا يمكن الرجوع فيه ، ولكن أرجو أن توافق على إعادة النظر فى هذا الأمر مرة أخرى على أوسع نطاق . ومن أجل هذه فقد طلبت من فوستر (دلاس) أن يسافر هذا المساء ليقابلكم فى لندن »[2] .

وذهب دلاس ليبذل كل طاقته الدبلوماسية كى يمنع الحرب الساخنة فى الشرق الأوسط ، وقال لإيدن وهو يحاوره : « لابد من العثور على طريقة ليخرج ناصر من حلقه ، ما أراد أن يبلعه »... يقصد القنال . .

وكانت الطريقة فى نظر دلاس ، الضغط الاقتصادى ، والمؤامرات الداخلية من محاولة عمل انقلاب داخلى ، إلى اغتيال يقوم به العملاء ! !

أما الطريقة فى نظر إيدن ، فكانت الأساطيل والطائرات . .

لقد اختلف كل منهما فى تفسير كلمة « الطريقة »

---

(١) توفى ايزنهاور يوم ٢٨ مارس ١٩٦٩

(٢) الدراسة التاريخية للعدوان الثلاثى التى أعدها المؤرخ الانجليزى هيو توماس ، ونشرتها جريدة الأهرام تباعا فى شهر سبتمبر سنة ١٩٦٦ .

وفى ٢ أغسطس سنة ١٩٥٦ ، حصل إيدن على قرار من مجلس وزرائه بالدخول فى حرب ضد مصر بالتحالف مع فرنسا ، جاء فيه أن على انجلترا أن تمضى فى المفاوضات ، فإذا مضت مدة معينة ، دون الوصول إلى نتيجة ، استخدمت القوة ، وقد وافق أعضاء هذا المجلس على قرار بهذه الأسس ، ودون مناقشة باستثناء السير وولتر منكتون وزير الدفاع . وهو الوزير الثانى فى ترتيب أعضاء مجلس الوزراء البالغ عددهم ١٨ وزيراً . . وهم غير الوزراء الذين لايحضرون المجلس وعددهم ١٥ وزيرا .

أما المدة المعينة للمفاوضات ، فقد حددها رؤساء أركان حرب القوات المسلحة ، من انجليز وفرنسيين بستة أسابيع . يضاف إليها أسبوع سابق لاتخاذ هذا القرار استنفد فى المناقشات . . أى أن الموعد المحدد فى تقديرهم للهجوم هو ١٥ سبتمبر . كما طالب العسكريون بدعوة الاحتياطى .

وكان الفرنسيون فى ضيق شديد من طول هذه المدة . فهم يريدون العودة للقنال بسرعة وفوراً . .

وقد طلب العسكريون الانجليز شيئاً آخر ، وهو التصريح بالزحف إلى القاهرة . إذ أن احتلال القنال ، والقاهرة معادية لهم ، لن يساعد على استمرار وضع أيديهم عليها . .

واختير القائدان الانجليزى والفرنسى للحملة . . القائد الأعلى الجنرال ستانلى كيتلى ونائبه الفرنسى الأميرال بارجو . . واختير قائد العمليات الانجليزى الجنرال « ستوكويل » . . والفرنسى الجنرال « بوفر » ، وعين لقيادة الطيران الجنرال سلانر البريطانى ، ولانسلو الفرنسى . .

وقدرت لجنة التخطيط المشتركة بين الانجليز والفرنسيين عدد القوات اللازمة للحملة . فكانت كما يلى :

تقدم انجلترا ٤٥ ألف جندى (غير قوات الأسطول)و١٢ ألف عربة مدرعة . و ٣٠٠ طائرة ، ١٣٥ سفينة حربية . وكان على فرنسا أن تساهم بـ ٣٤ ألف جندى و ٩ آلاف سيارة مدرعة ، و ٢٠٠ طائرة و ٣٠ سفينة حربية .

وسنورد فيما بعد بياناً كاملا عما تجمع من قوى العدوان فى الأسبوع الأخير من شهر سبتمبر سنة ١٩٥٦ .

وبدا للمراقبين المدققين ، أن صداقة انجليزية فرنسية وطيدة أخذت تنمو ، من وحى هذا الحلف ضد مصر . ولكن هذه الصداقة كانت إلى حين ، فما أن تولى ديجول الحكم بعد هذه الأحداث ، حتى تبين له أن ما كان فى عام ١٩٥٦ ليس صداقة أصيلة ، ولكن استغلالا عابرا . . فليس للانجليز أصدقاء دائمون ، وليس لهم أعداء دائمون ولكن لهم مصالح هى التى تتزايد حولها الصداقة أو تنكمش . . أو تزول ، وسنرى فى حرب السويس بالذات ، كيف استدرج الانجليز الفرنسيين إلى المعركة بسهولة تامة فلما تعارضت مصالحهم مع استمرارها ، أخرجوهم منها بنفس السهولة ، وكأن شيئاً لم يكن . . وهو درس تعلمه ديجول ، ولذلك حذر أصدقاءه من القواد الفرنسيين ، وكان ما يزال معتزلا بعيداً عن الحكم ، وأكد عليهم ألا يؤمنوا للانجليز ، ولايسلموهم قيادهم .

الاسكندرية أم بور سعيد !

أطلق الانجليز اسماً رمزياً على عملية الغزو هو : « العملية ٧٠٠ » ثم عدلوها إلى إسم آخر هو « هاميلكار » (اسم قائد قرطاجنى قديم) ورسموا حرف H على السيارات ومعدات الحملة . ولكن ظهر بعد قليل أن الفرنسيين لاينطقون الهاء ، ويحولونها إلى « أ » ، فغيروا الاسم إلى « موسكتير » أى فارس .

وقد استشير تشرشل فى العملية ، وأشار بأن يكون الغزو عن طريق الاسكندرية لأسباب تاريخية أبداها ، وأسباب عسكرية سمعها من رجال البحرية ، وكانوا جميعاً يترددون عليه ، رغم أنه ترك الحكم . .

أما السبب التاريخى ، فهو أن الانجليز ارتدوا مرتين عن الاسكندرية . الأولى أيام حملة فريزر عام ١٨٠٧ . فقد ردهم المصريون عند رشيد وهزموهم شر هزيمة . . المرة الثانية عام ١٨٨٢ : فعلى الرغم من أنهم استولوا على الاسكندرية كالمرة السابقة إلا أنهم وقفوا عند خط كفر الدوار الدفاعى ، الذى أعده عرابى . وكان مهندسه ورئيس أركان حربه محمود فهمى باشا ، وقد هاجموا هذا الخط مرات عديدة ، وارتدوا

عنه خائبين . . وتشرشل دارس للتاريخ الحديث ، لايشق له غبار .. ولذلك فعندما بدا أن هناك صعوبات حولت خطة الزحف إلى بور سعيد ، قال . إذن سأستشير مراجعي التاريخية لأرى كيف عملها نابليون ! ! [مشيراً إلى أن نابليون زحف من الاسكندرية إلى القاهرة بنجاح] .

أما الأسباب العسكرية التي رجحت أول الأمر ، أن تكون الاسكندرية هي هدف الزحف ، فتتخلص في أمرين :

١ — توجد في ميناء الاسكندرية السعة الكافية ، التي تسهل لأسطول الغزو الضخم ، مرونة الحركة . . . وهي أمور لاتتوفر في ميناء بور سعيد .

٢ — توجد قرب الحدود الغربية قاعدة بريطانية ، تعسكر فيها فرقة مدرعة انجليزية ومطارات يمكن أن تكون في خدمة الهجوم وفي حالة تحطيم الزحف البرى لسبب ما ، يمكن للقوات الغازية أن تنسحب غربا إلى هذه القواعد ، والانجليز على خبرة تامة بمسالك الصحراء الغربية ، فإن حرب العلمين علمتهم الكثير في هذه المنطقة . .

وكما أمكن لمخابراتنا ، أن تعرف عدد القوات العسكرية الانجليزية ، المتاحة لإيدن وقواته في هذا الوقت ، فقد وقفت أيضاً ، على تفاصيل كافية عن خطة « موسكتير » ، ومنها أن الهدف كان الاسكندرية .

وكان الانجليز ، وقت احتلالهم لمصر يعرفون معرفة دقيقة مواقع الطوابى الساحلية في ميناء الاسكندرية . . وكان بديهياً أن يلجأوا هذه المرة إلى ما لجأ إليه الأميرال سيمور عام ١٨٨٢ . عندما سلط مدافعه على هذه الطوابى وهدمها

وفي هدوء تام حصلت القيادة المصرية على مدافع ضخمة جداً ، يفوق مرماها أقصى ما لدى البحرية البريطانية من مدافع في سفنها الكبيرة ، وأخذت في غسق الليل توزعها على أماكن مختارة في الاسكندرية بعيدة عن المدفعية التي عرف الانجليز أماكنها ، وزودت بتحصينات ووسائل تنكر متقنة ، وأبعدت عنها الحركة العسكرية بقدر الإمكان . . وبهذا اطمأنت قيادتنا إلى أن الأسطول عند ظهوره قرب شواطىء الاسكندرية سيلقى استقبالا ساخناً جدا ، ودرساً لم يتح لسفن سيمور أن تلقوه في عام ١٨٨٢ . .

يروى المؤرخ هيو توماس : كان لدى الجنرال كيتلى من القوات أكثر مما كان تحت قيادة الجنرال ولنجتون فى ووترلو ، وهى المعركة التى هزم الإنجليز فيها نابليون .

وقد ذكرنا أن وزير الدفاع « مونكتون » لم يكن مؤيداً لعمليات الغزو ، وظهر أيضاً أن اللورد مونتباتن ، وهو أكبر العسكريين البريطانيين .. وكان قائد الأسطول .. وأحد أقرباء الملكة وأقرباء زوجها .. لم يكن متحمساً ..

قال هيو توماس : لم يحدث لأية حكومة بريطانية أن جمعت مثل هذه القوة الضخمة ، بدون تأييد أو علم زعماء المعارضة . ولم يعلم جيتسكيل زعيم المعارضة (لم يكن البرلمان منعقداً) بحجم هذه القوات إلا بطريق الصدفة ، فى منتصف شهر أغسطس . فقد أخبره المستر مينتون رئيس وزراء مالطة ، بالتفاصيل ، صدفة ، أثناء زيارته للندن فى أغسطس ، وكان جيتسكيل غير مصدق ما سمعه .

قنبلة زمنية .. موعدها ١٥ سبتمبر

كانت خطة مصر ، الدخول فى أى مباحثات ، وإطالة أمدها ، مع إتقان عملية إدارة القنال على أعلى مستوى من الكفاءة .. وذلك لكى يزول عامل المفاجئة ، وتكسب مصر تدريجياً ، عناصر قوية فعالة فى الرأى العام العالمى .

لقد بدأت عناوين الصحف العالمية هكذا : « لا ميونخ فى البحر المتوسط » قالتها الفيجارو الفرنسية .. و «لا مكان لأمثال هتلر» . قالتها الميرالد العمالية البريطانية .

وأذاع الأميرال بارجو الفرنسى (الذى اختير بعد ذلك نائباً للقائد العام لحملة الغزو) بياناً قال فيه : أن ٧٥ مليون طن من البترول الذى يحصل عليه الغرب ، يمر فى قنال السويس ، فهل تريد القاهرة فرض رقابتها على هذا المرور ؟

وخذت شركة قنال السويس توزع « الشيكات » على الصحف ، ولكن صحيفة يسارية فرنسية ، فضحتها ، إذ نشرت صورة الشيك الذى تلقته ، مما اضطر باقى الصحف إلى رد هذه الشيكات .

والواقع أن « جورج بيكو » مدير الشركة المؤممة ، كان رجلاجشعاً ، بالغ الحمق فى نفس الوقت . . . والمصريون يعرفونه جيداً . . فكان له مشهد فى مصر ، مع كل وزارة مصرية جديدة قبل الثورة . . كان يزور وزير التجارة الجديد ، ثم يفتعل «خناقة» ويوجه كلاماً لاذعاً وإهانات متعمدة إلى الوزير أو أحد معاونيه ، لكى يفهمه أنه كممثل للشركة العالمية فوق أى إشراف مصرى . . وعندما قامت الثورة ، أراد أن يكرر هذه « الوصفة » التى رآها مفيدة فى جميع الحالات السابقة ، فزار الدكتور حسن مرعى وزير التجارة ، وتناقشا فى مسألة قانونية ، فدعا الوزير نائبه ، السيد محمد أبو نصير ، بوصفه من رجال القانون . . وما أن بدأ يتكلم ، حتى فاجأه هذا الـ « جورج بيكو » بسيل من الشتائم دهش لها الوزير ، فنظر إلى الفرنسى الأحمق وقال له ، وكانت القهوة قد جاءت : — لا تشرب هذه القهوة . وقم أخرج من غرفتى فوراً فأنت رجل غير مؤدب ، وإلا طلبت من الساعى أن يسحبك من يدك خارج الوزارة ! !

فشحب وجه بيكو ، وقام يتعثر فى مشيته ، لم ينبس بكلمة . . وأدرك أن شيئاً جديداً حدث فى مصر . . . إنه « الثورة » .

وكان من رأى « موليه » وزملائه الوزراء الاشتراكيين ، ألا يظهر ممثلو شركة القنال المعروفين : جورج بيكو ، وشارل — رو رئيس مجلس الإدارة ، حتى لا يسرى بين عناصر الرأى العام الفرنسى — ونسبة كبيرة منهم يساريون — هذا السؤال : أمن أجل هذه الحفنة من الرأسماليين الجشعين ندخل حرباً جديدة ؟ فقد كان رجل الشارع فى فرنسا يدرك بفطرته أن العشرين مليون جنيه (حصة فرنسا بالتقريب) تتسرب فى هدوء إلى جيوب قليلة فضلا عن المزايا الهائلة التى يتمتع بها المديرون والموظفون الفرنسيون فى الشركة ، مما جعلهم من كبار الأثرياء بغير عناء بذلوه . . .

ولا تحتاج التحركات السياسية التى لجأت إليها انجلترا وفرنسا ، والولايات المتحدة ، وهيئة الأمم إلا إلى السرد . فإن تحليلها يسير . .

* *جمدت الدول الثلاثة أرصدتنا لديها .*

* دعيت الدول الثلاثة إلى مؤتمر دولى يعقد فى لندن يوم ١٦ أغسطس سنة ١٩٥٦ تحضره بعض الدول المستخدمة للقنال وحددت بـ ٢٢ دولة . وقد رفضت مصر حضور هذا المؤتمر ودعت إلى مؤتمر أعم منه ، تحضره الدول الموقعة على معاهدة الآستانة سنة ١٨٨٨ والدول التى تمر سفنها فى قنال السويس ، لوضع اتفاق جديد يؤكد ضمان حرية الملاحة .

وعقد مؤتمر لندن (الذى لم تدع له أى دولة عربية ، ودعيت له الحبشة وإيران ! !) . . ومما يستحق التقدير لشعب صديق هو اليونان ، أن حكومته دعيت إلى مؤتمر لندن ورفضت الحضور .

واقترح وزير خارجية أمريكا تأليف لجنة دولية تدير القنال ، وكلف روبرت منزيس رئيس وزراء استراليا بالحضور إلى مصر ، وعرض المشروع على ناصر . . ولكن ناصر رفض المشروع مقدماً .

* قال إيدن عن نشاط مصر فى شرح موقفها ، وكسب تأييد عالمى على أوسع نطاق ، قبل بدء المؤتمر ببضعة أيام ، ألقى ناصر خطاباً من النوع المهين الذى كنا تعودنا عليه فى ذلك الوقت ، واتهم العالم الحر بالاستعمار وبمص دماء الشعوب ، ووصف تدويل القنال المقترح فى مؤتمر لندن ، بأنه مؤامرة ، ومضى فى إثارة العالم العربى ضد الغرب بقوله : بعد تأميم قنال السويس بيوم واحد ، بدأت أصوات العالم العربى ، هذه ليست قنال السويس ، وإنما هى قنال العرب ، وبدأت القومية العربية تظهر فى أكمل صورها . وتدفقت على مصر كافة التأييدات من ملوك وقادة العرب .

وهاجم إيدن موقف الروس ، وقال أنهم سيحضرون مؤتمر لندن ككلاب حراسة ! أما الهند فقال إن حكومتها كانت واقعة فى حرج . . وظل ممثلوهم فى القاهرة ، وكريشنا مينون الطائر ، على اتصال دائم بالحكومة المصرية . . ولم يكن الهنود يؤمنون بالحلول التى تعرض على مؤتمر لندن .

* وتلقى إيدن تقريراً من سفيره فى الولايات المتحدة قال فيه أن الرأى العام

الأمريكى منقسم انقساماً كبيراً فى الرأى حول استخدام القوة . والمشاكل السياسية التى يثيرها العمل العسكرى ، فى نفس السنة التى تجرى فيها الانتخابات ، قد تبلغ درجة مفزعة . وليس أحسن من الوقت الذى اختاره ناصر للقيام بعمله هذا من ناحية السياسة الداخلية فى أمريكا .

* وصل منزيس رئيس وزراء استراليا إلى لندن ، لحضور المؤتمر . وطلب منه إيدن أن يتكلم فى التليفزيون تأييداً لوجهة نظر إنجلترا وفرنسا . ولكن التليفزيون اعترض ، بأن إيدن أبدى وجهة نظره ، ويحسن دعوة سياسى معارض لإيدن ليتكلم ، ثم يعقبه منزيس ، محافظة على التوازن فى عرض وجهات النظر . وقد ثار إيدن وفار ، وعد رأى التليفزيون البريطانى ، حادثاً غريباً ، وإهانة لأحد رؤساء وزارات الكومنولث . وبذل أقصى ضغط لكى يبدى منزيس وجهة نظره ، دون اعتبار لنظرية التوازن فى إعلام الرأى العام البريطانى . . وقد كان .

* وانعقد مؤتمر لندن ، وكانت الدول التى وافقت على إدارة القنال عن طريق لجنة دولية ١٨ دولة ، منها إيران ، والحبشة ، وباكستان ، وتركيا ، من المجموعة الافريقية الآسيوية ، التى حضرت ، وال ١٤ دولة الباقية من دول أوروبا والكومنولث البريطانى (استراليا ونيوزيلنده) ومعها الولايات المتحدة . . أما كندا فلم تحضر المؤتمر . . وعارضت الهند وروسيا وأندونيسيا وسيلان مشروعات التدويل . .

* وكل المؤتمر إلى لجنة يرأسها منزيس الاسترالى بالذهاب إلى ناصر ، وإقناعه بقبول اللجنة الدولية ، وقد انضم له مندوبون عن إيران والسويد والحبشة والولايات المتحدة .

وجاء منزيس ولجنته إلى القاهرة ، وزعم فى تقريره أن حججه التى أبداها « لناصر » كانت مقنعة . ولكن « ناصر » أوضح وجهة نظر مصر ، وهى أنه من غير المعقول أن تطرد البلاد دولة واحدة مستعمرة هى انجلترا ، لتحل محلها استعماراً جماعياً .

ويزعم إيدن أن تصريحاً لايزنهاور صدر أثناء وجود منزيس فى القاهرة ، هو

الذى جعل « ناصر » لا يقبل قرارات مؤتمر لندن .. ونص هذا التصريح الأمريكى:
« ما زال عندى (أيزنهاور المتكلم) كبير الأمل فى أن تقبل مصر مقترحات لندن .
ولكن موقف الولايات المتحدة هو عدم اليأس ، حتى ولو صادفتنا العقبات » .

وواضح جداً ، أن الرئيس جمال رفض فكرة عقد مؤتمر لندن ، وأى قرارات تصدر عنه مقدماً ، وأن هذا الرفض لم يكن فى حاجة إلى كلام يصدر عن وشنطن ، ولكن إيدن كان فى حالة دوار وهو يكتب مذكراته .

وقد قال منزيس فى تقريره لإيدن عن الزيارة : لقد قيل لى قبل سفرى إلى القاهرة ، أن الرئيس ناصر رجل يتمتع بجاذبية شخصية كبيرة ، وقد يتحايل على ، ويقنعنى بغير ما أومن به وأعرفه ، ولكنى أؤكد لك أن ناصر لم يستطع أن يضحك على .. وأستطيع أن أقول أنه رجل يتمتع بكمية هائلة من الذكاء ..

والواقع أن ناصر وزملاءه ضحكوا ليلة بحالها ، أثناء سهرة عشاء مع منزيس ، فقد أخذ يمتعهم بقدرته على تقليد الأصوات والشخصيات . ولو أنه مارس هذه الهواية ، لكانت أبقى له من جريه فى ركاب إيدن !!

• إنتهت زيارة منزيس للقاهرة فى ٧ سبتمبر سنة ١٩٥٦ ، وعاد منها بخفى حنين المشهورين .

وعاد جى موليه رئيس وزراء فرنسا من لندن فى ١٢ سبتمبر ، وقد روى الحديث التالى الذى دار بينه وبين فوستر دالاس وزير خارجية أمريكا واشترك فيه بينو وزير خارجية فرنسا[١] .

موليه — اعتقد أن سياستك تقوم على السلبية ، ولا ريب فى أن النتائج التى حققتها حتى الآن تؤيد قولى هذا .

دالاس — هناك أمران ليس إلا ، يهماننا نحن الأمريكيين . وهما المسيحية ، والنظام الاجتماعى القائم على حرية المشروعات الخاصة . وسنقاتل

---

(١) كتاب «أزمة .. القصة السرية لمؤامرة السويس» للكاتب الكندى ت. روبرتس ، ص ٨٦ .

حتى النفس الأخير للدفاع عن مسيحيتنا ، وعن حريتنا الاقتصادية.

بينو — أنا أصدقك .. ولكن بعض المشتركين معنا فى اجتماعاتنا ليسوا من المسيحيين ، بل من المسلمين والبوذيين ، ولذلك فإن ايمانك المسيحى لا يهمهم فى شىء . أما بالنسبة لحرية المشروعات الاقتصادية الخاصة، فقد تكون مثمرة فى البلاد المتقدمة صناعياً ، مثل الولايات المتحدة . لكنه لا يعنى شيئاً أبداً للبلاد المتخلفة .

دالاس — لا . . أن رأيك يمثل وجهة النظر القصيرة . ففى الامكان على المدى الطويل ، حمل هؤلاء الناس على احترام المسيحية ، والتمتع بفوائد المجتمعات المتنافسة .

بينو — هل تعنى أنهم سيكونون أحراراً فى أن يفعلوا ما نريد منهم أن يفعلوه ! ! .

ونرى من هذه المناقشة العقيمة ، مـــدى سطحية التفكير الذى تدور حوله مناقشات هؤلاء الساسة الذين ظهروا فى بلادهم ، والحق أن النصف الثانى من القرن العشرين ، شهد شخصيات فى الميدان الدولى ، لا تتسم بأى قدرة إلا القدرة على الدس والخديعة . وإذا كنا بين الحين والحين نستشهد بفقرات من مذكرات إيدن ، فلكى نبين الهوة التى انحدرت إليها السياسة الدولية فى هذه الفترة .

* وزع جورج بيكو مدير شركة قنال السويس المؤممة تقريراً سرياً ، أكد فيه أن الخطة وضعت لسحب المرشدين الأجانب من قنال السويس ، وقال أن حوالى مائة مرشد سوف يتركون العمل ، وبهذا يقع الاضطراب فى مرفق القنال ويتضح عجز المصريين التام عن إدارتها ، ويصبح التدخل لإدارتها أمراً منطقياً جدا . .

حدد يوم ١٥ سبتمبر سنة ١٩٥٦ لسحب المرشدين الاجانب .

* وتلقى إيدن تقريراً من الجنرال تشارلز كيتلى القائد العــام للحملة ، بأن قواته مستعدة للتحرك يوم ١٥ سبتمبر .

وكانت الخطط توضع سراً فى مخابىء هويتهول ، حتى لا تتسرب عن طريق

حلف الأطلنطى ، أو أية مخابرات أخرى معادية . وكان وزير الدفاع،أنطونى هيد ، وهو بريجادير سابق فى الحرب العالمية الثانية ، يقوم بدور الاتصال بين الجهات السياسية والجهات العسكرية .

* فى ١١ سبتمبر سنة ١٩٥٦ أدلى الرئيس الأمريكى أيزنهاور بتصريح فى مؤتمره الصحفى ،كان بمثابة سيل من الماء المثلج سقط على أجهزة الحرب فى كل من لندن وباريس وقيادة العدوان فى قبرص . . وجه له السؤال التالى :

— هل تنوى الولايات المتحدة دعم موقف بريطانيا وفرنسا فى حالة لجوئهما إلى استخدام القوة . . ورد ايزنهاور :

— لا أفهم حقاً ما تعنيه بكلمة « الدعم » ! . . ولكنى أؤكد أن هذه البلاد لن تدخل الحرب طالما أحتل أنا مقعد رياسة الجمهورية ، إلا إذا دعى الكونجرس إلى جلسة أقر فيها إعلان حرب كهذه . . وقد أقمنا الأمم المتحدة ، لتزيل احتمال العدوان عن طريقها . ولن أكون طرفا فى أى عدوان . . .

* وفى هذا اليوم ١١ سبتمبر أعلن رسمياً عن مؤامرة سحب المرشدين الأجانب من القنال . وفى اليوم التالى — ١٢ سبتمبر سنة ١٩٥٦ — وقف إيدن فى مجلس العموم يمهد للحرب التى توقع أن تقع بعد ثلاثة أيام ! !

وكان فوستر دلاس ، قد تقدم باقتراح تعويق ، سماه تأليف جمعية المنتفعين بالقنال ، وعين للجمعية مدير ، وكان مشروع هذه الجمعية (الفكاهية !) هو النقطة التى اتكأ عليها إيدن فى خطبته المنتظرة . .

قال إن على المدير الجديد أن يتعاون مع مصر بقدر ما يسمح التعاون فى مسائل الإرشاد ، ومواعيد المرور ، والاشارة ، ومعالجة الجسور . ويجب أن يستعين إلى أقصى حد ممكن . بمرشدى شركة قنال السويس القديمة ، وموظفيها الفنيين . فإذا خلقت مصر الصعوبات ، فعلى المدير أن يؤدى عمله من على ظهر سفينتين راسيتين فى مدخل القنال ،كمركزين للتنظيم . . وعليه أن يجمع الرسوم من كل السفن التى تعبر القنال ، فى قوافل ، بإشراف النادى (المنتفعين) ، بأسعار يقررها النادى بدون أى

ربح لأى من أعضائه . ويجب أن تعوض مصر عن التسهيلات التى تقدمها ، ولكن الغرض الأساسى لجمع الرسوم هو الوفاء بنفقات الجمعية :

وقال إيدن فى خطبته فى مشروع هذه الجمعية الهزلية .

« أرى لزاما على أن أوضح أنه فى حالة محاولة الحكومة المصرية التدخل فى عمليات النادى ، أو رفض تقديم الحد الأدنى الضرورى من التعاون ، فإن هذه الحكومة (مصر) ستكون من جديد منتهكة لمعاهدة عام ١٨٨٨ الدولية. وستكون الحكومة البريطانية والحكومات الأخرى المعنية ، فى هذه الحالة ، حرة فى اتخاذ أية خطوات أخرى يتطلبها الموقف ، إما عن طريق الأمم المتحدة ، أو بأى سبيل آخر ، لتوكيد حقوقها وضمانها » .

وختم كلمته بقوله :

« أريد أن أتناول مسألة ما إذا كانت حكومة جلالة الملكة ستعطى تأكيداً بعدم استخـــدام القوة ، إلا بعد الالتجاء إلى مجلس الأمن ، فلو أن هذا التأكيد أو الضمان سيكون مطلقاً ، لما كان بإمكانى ، ولا بإمكان أحد من الواقفين على هذه المنصة إصداره ، فليس هناك أحد يمكنه إخبارنا عما سيتخذه ناصر من إجراء فى المستقبل بخصوص القناة ، أو بخصوص مصر .

« مع كل ذلك ، فسأرد عليكم بهذه الإجابة التى لا يمكن لأية حكومة أن تجيب بأكثر منها : من المؤكد أن نيتنا ستتجه إلى عرض مثل هذا الموضوع على مجلس الأمن، لو سمحت الظروف ، أو بعبارة أخرى لو لم يحدث طارىء جديد » .

وقد قامت فى مجلس العموم ضجة عالية ، أثارتها المعارضة العمالية ، واتضح أن الرأى العام البريطانى ، أصبح منقسماً تماماً .

وألقى موليه رئيس وزراء فرنسا بيانا مماثلا فى برلمان باريس .

ونشرت الصحف توضيحا للطريقة المقترحة لادارة القناة وذلك بأن تتم الإدارة من سفينتين راسيتين فى بور سعيد والسويس . . وأن تتولى بارجة حربية شق الطريق أمام قوافل السفن ! !

• وألقى فوستر دالاس بيانا فى وشنطن وقال :

« أنا لا أعرف شيئا عن وجود خطة لاختراق القناة بالقوة . ونحن لا ننوى أن نفعل ذلك بالطبع .. ولا ننوى مقاطعة القناة أيضاً . ولو استعملت مصر القوة ، فكل ما نفعله هو أن نحول سفننا إلى رأس الرجاء الصالح . وإنى أود أن أقول الآن ، إنه من المضحك أن يحاول إنسان فرض نظام على مصر لا ترغب فيه... »

• وعلى الرغم من تهديد إيدن بالحرب فقد اتضح من موقفه عدة أمور :

أولا — أنه اعترف بانتهاء ولاية الإدارة الفرنسية على قناة السويس ، وسماها الشركة القديمة . . وبهذا سلب من فرنسا الأرض التى كانت تقف عليها ، وهى تتوق إلى الحرب من أجل إعادة الشركة القديمة .

ثانياً — ذكرنا من قبل أن دخل الـ ٣٥ مليون جنيه الذى حققته القناة فى السنة السابقة للتأميم ليس مبلغاً ضخماً ، يهز بلدين مثل انجلترا أو فرنسا . . ونرى إيدن هنا شديد الاكتراث ، والتدقيق ، بألا تحصل مصر على دخل القناة .. تسلم رسوم المرور فى حساب خاص .. تخفض هذه الرسوم . . تكون للمصروفات الضرورية . . أى شىء يمكن أن يحدث إلا أن تأخذ مصر هذا المال .

وهنا تتضح لنا حقيقة ناصعة المعالم . . وهى أن هدف بريطانيا ألا تقوى مصر ، وألا تزيد مواردها . . تظل فقيرة ، حتى لا تخرج من الحيز الضيق الذى وضعه الاستعمار ، وحكم أسرة محمد على ، لها ... فإن مصر القوية الغنية تستطيع أن تعمل الكثير فى منطقة الشرق الأوسط ، وفى أفريقية ...

والواقع أن هذا التفكير الحاقد المسموم ضدنا ، دل على أن الإنجليز ليسوا بلهاء... فما أن هزموا فى معركة السويس ، حتى تحقق كل أو معظم الذى خافوا من حدوثه فى أفريقية وفى شرق آسيا ، وفى كل مكان فيه استعمار . .

وتطور الرأى العام فى بريطانيا ، بعد إعلان « حكاية » نادى المنتفعين على النحو السابق . . يقول ت . روبرتسون فى تحقيقه الدقيق :

« ساد الاضطراب السياسى العاصمة البريطانية . . وقد أذهلت إيدن الصدمة ، وبعثت فى نفسه اليأس ، وعقد مجلس الوزراء جلسة طارئة ، طالب فيها بتلر زعيم الأغلبية فى مجلس العموم ، ومونكتون وزير الدفاع ، مع تصميم وإصرار ، بأن يفسر موقفه ، والعوامل التى دعته لقبول اقتراح نادى المنتفعين. دون أن يضمن أولا تأييد الولايات المتحدة ... وانعقد مجلس العموم فى اليوم التالى ، وحضر إيدن متأخراً ، وقد بدا عليه الشحوب والوجوم ، وتقلصت ملامحه ، وبان عليه الغضب العاصف . وقد ظل أكثر من ساعة يواجه هجوماً مستمراً من أعضاء المجلس بالتخلى عن فكرة النادى ، وإحالة الموضوع إلى الأمم المتحدة . مما اضطره آخر الأمر إلى الوعد بأنه سيذهب إلى مجلس الأمن . . »

* وهكذا أفلت من إيدن موعد منتصف سبتمبر سنة ١٩٥٦ ، الذى حدده مع العسكريين ، وشركة القنال المنحلة، للهجوم على مصر، حتى يذهب إلى مجلس الأمن .

* ومن الواجب فى هذا المقام أن نشيد بموقف الهند تحت زعامة نهرو، وموقف كرشنا منون ، بصفة خاصة ، الذى عاش هذه الأسابيع ، وكأنه يسكن فى الطائرات تقله بين القاهرة ولندن وواشنطن ونيويورك . . إنه بدا الشخص المستيقظ أبداً ، الذى لم يعرف النوم طريقه إلى عينيه . . لقد فاز بحق ، بلقب المحامى الأول عن قضية مصر ، وظفر بأوسمة الحقد والكراهية ، من أمثال إيدن وسلوين لويد الإنجليزيين ، وسباك البلجيكى ، وزعماء الاشتراكية المزيفة فى باريس . .واستطاع أن يكسب إلى جانب قضية العقل والحكمة وعدم العدوان ، عضواً قديراً فى الكومنولث البريطانى ، وهو ليستر بيرسون وزير خارجية كندا ، والذى يعد من أقدر خطباء الإنجليزية فى الوقت الحاضر ، ويتمتع باحترام كبير فى الدوائر العالمية .. إنه بطبيعة الحال لم يهاجم السياسة البريطانية علناً ، ولكنه كان يمسك بأزمة قوية قادرة على كبح جماح دعاة الحرب على الجانب الآخر من الأطلنطى .

ولا نستطيع أن نقول أن موقف كندا ، هو مجرد تأثر بسياسة أيزنهاور الأمريكية ، بوصفه الجار الأقرب والأقوى ، بقدر ما نقول إنه إدراك أعمق لمضار الحرب ونتائجها الوخيمة على الجميع . فإنها ستحرق بنارها كثيرين ، أولهم انجلترا نفسها . .

وهكذا ذهبت انجلترا للأمم المتحدة لتجد فى جانب عبد الناصر ، ممثلى الولايات المتحدة ، والاتحاد السوفياتى ، والهند ، ويوغوسلافيا ، واليونان ، ولتجد كندا ضد الحرب . . وتجد استراليا ونيوزيلندة فى صف دعاة الحرب . . .

* وانسحب المرشدون الأجانب باستثناء اليونانيين . . واحتشد عند مدخلى القنال أكبر عدد من السفن اجتمع فى وقت واحد . فحتى تحبك المؤامرة طلب أعداء مصر ، من الربابنة التابعين لهم ، التلكؤ فى الطريق والظهور أمام بور سعيد والسويس فى وقت واحد ...

ولم تنطبق السماء على الأرض كما خيل لهم . . .

كل ما حدث أن محمود يونس وزملاءه فى قنال السويس لم يناموا أسبوعاً أو نحوه ، وواصلوا العمل بأعصاب قوية ، وعزيمة من حديد ، وصبر وسعة صدر ، حتى اجتازت هذه الموجات ، ولا نسميها القوافل ، القنال فى نظام ، وهدوء . .

وسارعت مصر إلى سد الثغرات فى عدد المرشدين ، بعد مؤامرة الانسحاب ، وقبلت تباعاً مرشدين من الاتحاد السوفياتى ويوجسلافيا واليونان ، والولايات المتحدة ، وألمانيا والدول الاسكندنافية . . عينت نحو مائة واحد منهم . وتخلت قيادة الأسطول المصرى ، عن عدد من أكفأ ضباط البحرية ، ووضعتهم تحت تصرف الإدارة المصرية للقنال .

سار كل شى بخير . . حتى عندما أراد بعض الربابنة الإنجليز السفهاء التحرش بالمرشدين . . وحتى عندما حاول أحدهم أن يجنح بالسفينة إلى الشاطىء ليرتطم ويعيق الملاحة ... لقد حلت كل هذه الأزمات الصغيرة فوراً ، لأنها كانت فى الحساب .

ومضت الملاحة فى القنال ، وانكفأ وجه الإدارة الفرنسية السابقة للقنال ، فى الوحل خراباً وعاراً ، وارتفع رأس الإدارة المصرية ، عاليا ... عاليا . . . حتى كاد يلامس السماء ...

وهكذا انهارت أقوى حجة تذرع بها الاستعمار وهو يطالب بإعادة وضع يده على المرفق المصرى الكبير بحجة كفاءة الإدارة الأجنبية .. فقد ثبت أن هذا الادعاء الضخم ، وهم وسراب .

وكسبت مصر عطفا عظيما ، وتأييدا شاملا كاملا .. فقد تلخص الموضوع إذن ، فى من يأخذ رسوم المرور : أصحاب القنال ، أم هذه العصابة ؟

وسئل دالاس ، صاحب مشروع نادى المنتفعين :

— لماذا انتزعت الولايات المتحدة الأسنان من نادى المنتفعين . . (إشارة إلى محاولة المرور بالقوة لسفن هذا النادى ؟) فأجاب فى سخرية :

— أنا لا أستطيع أن أفهم هذه الأقوال السائرة عن انتزاع الولايات المتحدة الأسنان من فم نادى المنتفعين . وذلك لأنى لم أعرف مطلقا ، أنه كانت هناك أسنان على الإطلاق فى فم النادى المذكور ! !

يقول روبرتسون الكندى فى كتابه « الأزمة » :

ولم يمض أسبوع واحد بعد انسحاب المرشدين (١٥ سبتمبر) حتى كانت شركة لويد للتأمين البحرى فى لندن تحذف الرسوم الإضافية على التأمين التى كانت قد فرضتها على السفن المستخدمة للقنال ، معبرة بذلك عن ثقتها فى قدرة مصر على إدارة القنال بمنتهى الكفاية .

* ونترك انجلترا وفرنسا تذهبان إلى مجلس الأمن ، لنلقى نظرة على باب سرى خلف هذه المشكلة ، أخذ يفتح تدريجياً . . وهو العلاقات الفرنسية الإسرائيلية ، التى تطورت فجأة ، ثم قفزت فجأة ، لتصبح عاملا رئيسياً فى الاندفاع نحو الحرب ، فى موعد جديد ، بعد أن أفلت من إيدن موعد ١٥ سبتمبر سنة ١٩٥٦ .



ايدن فى طريقه الى مجلس العموم البريطانى
لعرض مشروع نادى المنتفعين ..

معركة بورسعيد

عرضنا فى الفصل السابق للتحركات السياسية ، التى كانت تخفى نوايا العدوان ، فى عواصم الغرب على جانبى الأطلنطى . .

ولنقف معاً فى القاهرة ، التى كانت دوائرها الرسمية مشغولة بعض الوقت باستقبال السياسيين من كل مكان ، والاتصال بدول العالم جميعاً ، وإمداد وسائل الأعلام بحاجتها من الأنباء . . هذه الدوائر كانت — أيضاً — مشغولة كل الوقت بإعداد لمعركة مسلحة ، لم تغب عنها تفاصيل التجمع لها .

وإذا استعرضنا خطب وأحاديث الرئيس جمال عبد الناصر فى الفترة ما بين تأميم القنال ، وخطبتها المشهورة فى ٢٦ يوليو سنة ١٩٥٦ ، وإبتداء العدوان ، نجد أمامنا ما يأتى :

١ — كلمة قصيرة ألقاها فى دمنهور يوم ٢٨ يوليو قال فيها :

« إذا أرادوا أن يتدخلوا فيما نقرره ، فإننا نقول لهم إننا أحرار فى بلادنا وسنبقى دائماً أحراراً فى بلادنا » .

٢ — وفى نفس اليوم رد على وفود الشعب التى أقبلت تهنىء بعودة القنال إلى أهلها فقال لهم : لقد قامت الضجة التى كنا ننتظرها فى لندن ، وباريس ، وسيحافظ شعب مصر على استقلاله حتى آخر قطرة من دمه . وذكر أن قنال السويس كانت ستعود لمصر بعد ١٢ سنة ، وما حدث اليوم قد كشف المستور . . « لقد أممت بريطانيا الحديد والصلب والنقل البحرى ، ولم يقل لها أحد لماذا تؤممين هذه المرافق . هى حرة فى شركاتها البريطانية المساهمة ، ونحن أحرار فى شركاتنا المصرية المساهمة » . . وقال عن فرنسا ووقاحة وزير خارجيتها إنه سيترك للجزائر أن ترد عليها وتعطيه درساً فى الأدب .

وأكد أن مصر ستقابل العدوان بالعدوان .

٣ — وفى ٣١ يوليو أكـد الرئيس أنه ماض فى سياسته ، وفى أول أغسطس سنة ١٩٥٦ ألقى فى شباب جامعة الأسكندرية ، كلمة أشاد فيها بموقف العرب وتأييدهم جيعا لمصر ، وقال : إننا نعرف كيف نرد المغتصبين . . كيف نرد القراصنة . .

٤ — وفى ١٢ أغسطس ، شرح الرئيس الموقف ، ورد على الدعوة لمؤتمر لندن ، وهو مؤتمر يعالج موضوعا خاصا بمصر ، ولم تستشر مصر فى عقده !! وسأل على أى أساس تدعو انجلترا وفرنسا والولايات المتحدة ٢٢ دولة لمؤتمرها، مع أن عدد الدول التى تمر سفنها بالقنال ٥٤ دولة . . وقال : « لقد انتظمت الملاحة منذ تأميم الشركة أكثر من ذى قبل . فهناك ٧٦٦ سفينة مرت فى القنال حتى الآن (فى أسبوعين) ولم يقدم أحد أية شكوى .

« القضية ليست قضية القنال، بل قضية الدول الصغرى التى حصلت على استقلالها، وترغب فى تأمين هذا الاستقلال . فهل تمكنوا من خداع الشعوب كما أرادوا أن يفعلوا ببيانهم الثلاثى ؟

« لقد حصل رد فعل فى مصر . . فكل فرد فيها صمم وأحس أن هناك مؤامرة تحاك ضده للاعتداء على كرامته وسيادته .

« وسئلت فى المؤتمر الصحفى الذى عقد فى الساعة الخامسة من أحد الصحفيين الأجانب : هل هناك حالة طوارىء . فقلت إنى منذ أن نشأت فى مصر ، وأنا اعلم أننا فى حالة طوارىء ضد الاستعمار ، وإننا سنكافح من أجل حقوقنا » .

وأبان الرئيس فى مؤتمره الصحفى صورة الحرب المقبلة مع دولتى الاستعمار فقال : سنشن حرباً شاملة كالتى فى الجزائر والهند الصينية ، وكل الشعب يعبىءنفسه للحصول على استقلاله وسيادته . . سنكافح بكل الوسائل ، وأقول عن نفسى : إنى ساكافح لآخر قطرة من دمى من أجل حقنا فى الحياة ، وسنتجه إلى الأمام بقوة وعزم وتصميم . . سينصرنا الله الذى أعاننا فى كل أزماننا . . وسننتصر على قوى السيطرة والتحكم . .

* * *

وفى المؤتمر الصحفى الذى أشار إليه الرئيس فى خطابه هذا سأله أحد الصحفيين عن عدد القوات المصرية التى تعد عسكريا الآن (١٢ أغسطس) فرد يقول :

— إننا نستعد لمواجهة أى هجـــوم ، لكنى لا أستطيع أن أذكر أرقاما عن قواتنا .

وقد أدلى الرئيس فى ١٨ و ٢٠ و ٢٤ أغسطس و ٢ سبتمبر بأحاديث صحفية أخرى . كما نشر نص الرد على مشروع الغرب بتدويل القنال ، والذى سلم لمنزيس رئيس وزراء استراليا .

وكذلك أدلى بحديث فى ١٣ سبتمبر لمراسل الديلى هرالد العمالية الانجليزية قال فيه : إن الاقتصاد المصرى يستطيع الصمود لتجميد الأموال المصرية فى الغرب . وسنواجه المتاعب ، ولكنها لن تجعلنا نركع طالبين الرحمة .

وفى منتصف سبتمبر ، وهو الموعـــد الأول للهجوم على مصر ، بمناسبة سحب المرشدين الأجانب ، ألقى الرئيس خطبة فى كلية الطيران ببلبيس ، أشاد فيها بالمرشدين المصريين واليونانيين الذين احتملوا عبء مرور السفن وحدهم ، وقال إنه يهدى باسم الشعب ، وباسم كل فرد من أبناء مصر إلى هؤلاء الرجال البواسل وسام الاستحقاق المصرى من الشعب المصرى .

وعرض فى هذه الخطبة لموقف أمريكا . . قال :

« الرئيس الأمريكى يقول كلاماً معناه السلام . ووزير خارجيته يقول كلاماً معناه الحرب . . وإذا كانت أمريكا فعلا تسعى إلى السلام فلماذا تقدمت باقتراح جمعية المنتفعين ؟ » . . .

* * *

وهكذا كانت خطب وأحاديث عبدالناصر ، هى مدفعية مصر الثقيلة ، التى أطلقتها على صروح الكذب الإنجليزى الفرنسى ، فدكها ، وتكشفت الحقائق لمعظم شعوب

الأرض ، ولنسبة كبيرة من الرأى العــــام الإنجليزى ، وعناصر قوية فى الرأى العام الفرنسى .

وهذا هو المكسب الضخم الذى وصلت إليه مصر فى فترة الأسابيع السبعة السابقة لـ ١٥ سبتمبر .

الاستعداد للحرب .. وقوات العدوان الثنائى

وبينما كانت حرب الأثير والورق على أشدها ، تجمعت فى القاهرة البيانات المؤكدة عن التجمع الذى تم فى قبرص ومالطة وليبيا والجزائر وعدن ، وبين القواعد الرئيسية فى فرنسا وإنجلترا نفسها .

وفى ٢٥ سبتمبر سنة ١٩٥٦ كانت القوات المعادية موزعة كما يلى[١] :

أولا — القوات البرية فى قبرص :

حشدت بها من القوات البريطانية الوحدات الآتية :

مجموعتان للواثبين من المشاة (رقم ٥٠ ، ٥١) فى نيقوسيا وفاجوستا . وعشر كتائب مشاة حول نيقوسيا ، وعلى الساحل الشمالى والساحل الجنوبى وفى المنطقة الوسطى . وآلاى سيارات مدرعة موزعاً بين نيقوسيا وفاجوستا وليماسول . وآلايين مدفعية ميدان فى فاجوستا وليمنى . وآلاى مدفعية متوسطة فى باقوس . وآلاى مدفعية مضاد للطائرات خفيف وآلاى مدفعية للطائرات ثقيل موزعين حول المطارات ومستودعات البترول فى لارنكا . ومجموعة اللواء السادس عشر للهابطين بالمظلات فى منطقة نيقوسيا . ومع هذه الوحدات كل العناصر الإدارية اللازمة للخدمة فى شئون النقل والصيانة والتموين .

كما تم حشد بعض القوات الفرنسية فى قبرص ، وتضمنت الوحدات الآتية : اللواء العاشر لجنود المظلات فى منطقة جنوب غرب مطار تمبو . وكتيبة من الفرقة الأجنبية .

(١) كتاب معركة سيناء وقنال السويس ، للواء أ.ح. محمد كمال عبد الحميد

ثانيا ـ القوات البرية فى مالطة :

مجموعة اللواء الثالثة المشاة بكتائبه الثلاث . وكتيبة مشاة إضافية . ولواء من الفدائيين البحريين (الكوماندوز) كاملا بكتائبه الثلاث . وآلاى سيارات مدرعة . وآلاى خفيف مدفعية مضادة للطائرات . وآلاى ثقيل من المدفعية المضادة للطائرات . ووحدات مختلفة من مدفعية الميدان . ووحدات إدارية متنوعة لخدمة هذه القوات .

ثالثا ـ القوات البرية فى ليبيا :

رياسة الفرقة العاشرة المدرعة . وآلاى دبابات سنتوريان فى ميسراته بطرابلس . وآلاى دبابات سنتوريان فى المرج ببرقة . وآلاى مدفعية ميدان ٢٥ رطلا فى طرابلس : وورش ومستشفيات ومهمات المهندسين ووحدات خدمة الجيش موزعة فى منطقتى طرابلس وبرقة ، وبخاصة بعد إضافة العربات الناقلة للدبابات واستكمال حاجة كل هذه القوات من الذخائر للحرب .

رابعا ـ القوات البرية فى الأردن :

كانت قوات بريطانيا موزعة فيه كالآتى : آلاى دبابات ثقيلة من طراز سنتوريان فى العقبة (عدا أورطة) . الأورطة الباقية من آلاى الدبابات السنتوريان فى معان . ومعها سرية مشاة وفصيلة رشاشات متوسطة فى العقبة وبطارية مدفعية ميدان ٢٥ رطلا وتروب مدفعية مضاد للدبابات ١٧ رطلا فى العقبة ومستودعات مهمات وذخيرة وعربات لأعمال النقل والتموين فى الزرقا . و٥٠ عربة ناقلة للدبابات الثقيلة فى العقبة .

خامسا ـ القوات البرية فى عدن :

حشدت بها كتيبتان من المشاة .

* * *

وبالنسبة للقوات البحرية التى حشدت فى المدة نفسها وفى هذه القواعد نفسها فكانت كما يلى :

اولا ـ القوات البحرية فى قبرص :

كان هذا الأسطول موزعا بين قبرص ومالطة بصفة أساسية علاوة على القطع التى كانت راسية فعلا فى موانى طولون ووهران بالجزائر ، جاهزة تحت الطلب ، وكانت القطع الانجليزية مكونة من :

٤ حاملات طائرات (ايجل، ثيسوس ، بلوراك ، البيون) . و ٥ طرادات ، و ١٢ مدمرة ، و ٧ غواصات ، و ٩ كاسحات ألغام ، و ٥ باثة ألغام ، و ١١ ناقلة للجنود ، و ١١ سفينة شحن للدبابات ، وسفينة ورشة صيانة ، و ٢ سفينة تموين ، وامدادات .

وفى طبرق : ٣ ناقلات للبترول ، و ١٤ زورقاً حربياً صغيراً ، و ٨ زوارق حربية كبيرة

أما القوات الفرنسية فكانت مؤلفة من : البارجة جان بارت (التوام للبارجة ريشيليو) ، ٢ حاملة طائرات هما : لافاييت وأرملوتاش ، و ٢ طرادات هما : جورج ليجوس ، ودى جراس ، و ٤ مدمرات ، و ٨ فرقاطات ، و ٣ غواصات

ثانيا ـ القوات البحرية فى مالطة :

١ طراد نيوفوندلاند ، و ٢ مدمرة ، و ٢ سفن تموين ، وبعض سفن ناقلة للزيت.

* * *

أما بالنسبة للقوات الجوية فقد كان توزيعها كالآتى :

فى قبرص (مطار اكروتيرى) فكان فيها : ٣ سرب فينوم ، و ٢ سرب مقاتلات متيور ، و ٥ طائرات متيور للتصوير ، و ٣ طائرات أنسون للنقل الداخلى .

وفى مطار نيقوسيا : ٢ سرب هنتر ، و ٢ سرب فامبير ، وسرب هليوكوبتر و ٣ أسراب نقل جنود ، وسرب نقل طائرات فرنسية فى مطار تمبو .

وفى مالطة كان بها : ٤ أسراب قاذفات قنابل نفاثة كانبرا (٦٠ طائرة) . وسرب فينوم . وهذا بخلاف الطائرات الموجودة على حاملات الطائرات .

وفى ليبيا كانت هناك فى مطار العظم ، بعض الطائرات من طراز متيور وكانبرا وطائرات النقل .

وفى الأردن كان فى مطار عمان : سرب من طائرات فينوم ، وأعداد من طائرات متيور وفامبير .

وهذا علاوة على الاهتمام الخاص الذى أبدته بريطانيا بتحسن مطار المفرق بالعراق استعداداً لاستقبال كل أنواع الطائرات وامداده بالمخازن اللازمة لذخيرة الطائرات النفاثة وقطع الغيار اللازمة .

وفى عدن ، حشد فيها : ٢٥ طائرة فينوم ، و١٥ طائرة فامبير ، و٦ طائرات هنتر و٣ طائرات كانبرا .

وأما بالنسبة للقوة الجوية الفرنســية فكانت موزعة بين حاملات الطائرات (لافاييت ، ارموناش) وبين ميناء طولون وبين قواعد إسرائيل .

وقد رئى أن الحشود البريطانية كانت بطبيعتها أكثر عدداً ، وقد اقتضى أمر تجميعها بتلك الصورة إلى سحب بعضها من قواعدها فى ألمانيا الغربية . بل إلى استدعاء قوات كثيرة من الاحتياطى العام فى بريطانيا .

وبدأت عملية التدريب تدخل طور التنفيذ الجدى ، واشتركت القوات الفرنسية والبريطانية فى قبرص فى هذا التدريب على العمليات المشتركة ليلا ونهاراً وخاصة فيما يتعلق بتكتيكات الهابطين بالمظلات ورجال الغزو من الفدائيين .

وبجانب ذلك ضاعفت بريطانيا نشاطها فى قبرص ومالطة لتوفير التموين والترفيه وأخذوا فى البحث والتنقيب عن موارد جديدة لمياه الشرب فى قبرص بعد أن زادت الطاقة الاستهلاكية عن إمكانيات الموارد الموجودة بها .. وكان من جراء البحث عن موارد المياه أن تسربت أنباء وتفاصيل جديدة عن تطور الزيادات فى عدد وأحجام القوات المحتشدة فى قبرص . .

لندن .. المرتبكة

وقع إيدن وعصابته تحت ضغط بالغ الشدة ، مرجعه إلى عدم ثقته فى نجاح الخطة التى دبرها ، وبعد أن رأى انقسام الرأى العام فى بلاده بدرجة خطيرة وبعد أن رأى تخلى ايزنهاوز وحكومته عنه ، وبعد أن رأى أقوى دول الكومنولث لاتوافق على الحرب . وهى الهند والباكستان وكندا وسيلان .

ولكن عاملا آخر كان شديد الإلحاح عليه فى أن يقدم ، وهو زوجه « كلاريسا » فقد قالت إنها أحست كأن قنال السويس تجرى فى غرفة نومها من كثرة ما عاشت فى دوامتها منذ ٢٦ يوليو ، وأنه لاشفاء لها من هذا الفيضان . إلا بأن يأتى لها زوجها إيدن برأس عبد الناصر على طبق ! !

وكان الرؤساء العسكريون (باستثناء اللورد مونتباتن) يطلبون حسم الموقف . إما بالحرب أو بالعدول عنها ، فقد بدأ الجنود يقلقون من طول انتظارهم فى القواعد التى أرسلوا إليها ، ومن القيام بتدريبات لايعقبها إلا تدريبات .

وفى اجتماعات حلف الاطلنطى ، كانت الولايات المتحدة تحاول الحصول من ممثلى بريطانيا وفرنسا على اعتراف بأنهم سيحاربون . لكى تتخذ موقفاً مناسبا فى داخل الحلف . ولكن هؤلاء الممثلين لاذوا بالصمت التام .

وكانت روسيا توالى الضغط ، لكى تحول دون العمل العسكرى ، فقد أذاع خروشوف أنه سيسمح للمتطوعين السوفيات بالسفر إلى منطقة القنال إذا طلب منهم ذلك ، وعندما وجه أحد الصحفيين الأجانب للرئيس عبد الناصر سؤالا عن هؤلاء المتطوعين ، وعما إذا كانت مصر ستستعين بهم ، كان جوابه : لاتعليق .

وكتب بولجانين إلى إيدن رسالة طويلة يؤيد فيها وجهة نظر حكومة مصر ، ويحذر من ارتكاب أى عمل طائش . ورد عليه إيدن بأن ناصر رجل عسكرى ، ويؤمن بالعمل العسكرى .

وزاد قلق فرنسا من انجلترا ، فقد بدأت حرباً كلامية فى هيئة الأمم ، سوف تحيل الموضوع كله إلى مفاوضات ومناقشات ، فطار إيدن ومعاونيه إلى باريس فى

١٦ سبتمبر ليؤكد للفرنسيين ، أنه لايجب ترك القضية تغرق ، أو وضعها فى المياه الراكدة لهيئة الأمم !

وكان إيدن شديد الضيق من خطب ناصر « القوية » كما كان يصفها . وما أن وصله خطاب ثان من بولجانين أكثر حزماً ، حتى راح يكتب لأيزنهاور مستنجداً .

ولكن وخزات دلاس كانت أكثر إيلاماً وإزعاجاً . ولا سيما وهو يتحدث عن الاستعمار ، الذى لاتعانى الولايات المتحدة من عقدته . . فما كان من إيدن إلا أن راح يهاجم هذه المعانى ، ويقول :

« من الحقائق التى لا يمكن مناقشتها أن ثمة بلدين من أكثر بلاد الشرق الأوسط وأفريقيا تأخراً ، وهما العربية السعودية ، وليبيريا ، وهما بلدان تلعب أمريكا فيهما دوراً هاماً كبيراً [1] » .

الاعتراف سيد الأدلة

وفجأة دخل عامل جديد فى الموقف ، كانت فرنسا تمهد له من زمن ، وتحس به المخابرات الإنجليزية والأمريكية ، وهو علاقة إسرائيل بفرنسا ، وهذا السيل من الأسلحة الذى كان يتدفق من الترسانات الفرنسية على إسرائيل وكأنها جزائر أخرى ! !

يروى موريس بورجيز — مانورى وزير دفاع فرنسا للكاتب الكندى روبرتسن قصة العلاقات الاسرائيلية الفرنسية الحديثة كما يلى :

« حدث الاجتماع الأول بينى وبين بيريز [2] ، قبل أكثر من سنة واحدة من وقوع الحرب أى فى خريف عام ١٩٥٥ ، وكنت وقتها وزيراً للداخلية . ولكن علاقاتنا

---

(١) مذكرات ايدن ص ١٨٠ .

(٢) هو وزير دولة فى وزارة بن جوريون ومن أركان حزب الماباى وكان بن جوريون يتولى مع رئاسة وزارة اسرائيل وزارة الدفاع .

واجتماعاتنا سرعان ما تزايدت بصورة جدية ، بعد أن عدت وزيراً للدفاع فى يناير عام ١٩٥٦ فى حكومة المسيوموليه . وقد توصلنا إلى تفاهم كامل حول التعاون الفرنسى الاسرائيلى فى النضال ضد العرب . ودخلت بريطانيا فى الصورة بعـــد تأميم قنال السويس . وكانت سياستنا تتركز على عدم القيام بأى شكل من أشكال العمليات العسكرية دون اشتراك بريطانيا معنا .

« وبالرغم من أن الخطط البريطانية لم تعان إلا أنها كانت بطيئة واستغرقت أمداً طويلا ، حتى أننى اضطررت إلى إيفاد الجنرال شال من رياسة أركان الحرب لمقابلة ايدن رئيس وزراء انجلترا ، واستعجال الأمور معـه ، ولـكن استعجال الأمور لتنفيذ الخطة الموضوعة لم يصبح ممكناً ، إلا بعد أن أصبح المستر أنطونى هيد وزيراً للدفاع[1] . (كان وزير دولة للحرب ، وليس عضواً فى مجلس الوزراء) . وكان السبب الرئيسى من ناحية البريطانيين فى الحيطة والحذر ، هو أن الانجليز لعبوا دوراً هاماً فى المـاضى فى تدريب الجيش المصرى . وكانوا يعتقدون أنه جيش طيب . (الفرنسيون لا يوافقـون !) وكانت هناك صـعوبة أخرى وهى أن البريطانيين أصدقاء العرب وأعداء إسرائيل (كذا ! !) بينما نحن على النقيض أصدقاء إسرائيل ، وأعداء للعرب » .

وهنا ننتقل بيانات وزير الدفاع الفرنسى إلى نقطة بالغة الخطورة فى الكشف عن التيارات الدولية . . . فيقول :

« بعـد أن تمت الاستعدادات ، وقـرر الاسرائيليون موعد الهجوم ، رحنا نسارع فى تنفيذ برنامج المساعدة لاسرائيل . ورأيت نفسى مضطراً للتشاور مع الأمريكان للحصول منهم على ما نفتقر إليه من قطع الغيار ومن المعدات الأخرى ، وكان الأمريكيون يعرفون

---

(١) استقال السير وولتر منكتون وزير الدفاع وعضو مجلس الوزراء يوم ١٨ أكتوبر . وكانت استقالته أول احتجاج من رجل شريف على حماقة ايدن. وان كان ايدن قد ادعى فى مذكراته أن الاستقالة لأسباب صحية !!

كل شيء عمـــا هو حادث فى باريس تقريباً . وكنت أستقبل السفـير الأمريكى ديلون ، مرة كل أسبوعين على الأقل ، لأطلب منه المزيد من المعدات من الولايات المتحدة ، ولا ريب فى أنه كان يعرف أن هذه المعدات ترسل إلى قبرص ، حيث تشحن نسبة كبيرة منها إلى إسرائيل .

« وأبلغنى السفير ديلون أن البريطانيين كانوا يطلبون أيضـاً من السفير فى لندن — الدرتسن — المعدات والتجهيزات من أمريكا . وقد طلبنا من أمريكا وتلقينا منهـا ما يربوا مجموعه على أكثر من تسعين مادة مختلفة من معدات الأسلحة كما تسلم البريطانيون منهم نحواً من ١٦٧ (مائة وسبعة وستين) مادة حربيـة . وأرى من غير المنطق أن يواصل الأمريكان القول إنهم كانوا يجهلون كل شيء عن خططنا » .

واستطرد وزير دفاع فرنسا يقول :

« وكانت السلطات العسكرية الأمريكية أيضاً مطلعة على كل شيء ، عن طريق رياسة أركان الحرب فى وشنطن ، التى كنت دائم الاتصـال بها ، للاسراع فى تنفيذ برنامج إرسـال الأسلحة . وعن طريق جهاز المخابرات الأمريكية . وكان المألوف فى مثل هذه الظرف أن نسمح بمرور المعلومات عن طريق الوسائل السرية لا عن طريق الاتصالات الدبلوماسية العادية . وكان هناك بالطبع احتمال بأن لا يكون الرئيس ايزنهاور ، المشغول بحملته الانتخابية ، قد عرف بهذه الحقائق إلا بعـــد فوات الأوان » .

ومن حق أى باحث ، بعد هذه الافشاءات الفاضحة البالغة أعلى درجة من الخطورة أن يسأل : من الذى يحكم الولايات المتحدة ؟ ...

إننا عرضنا بأمانة الموقف بالنسبة لأيزنهاور ـ رحمه الله ـ ، ولا نشك فى أنه كان رجلا صادقاً مع نفسه.. ولكننا نشك كثيراً فى موقف دلاس ، الذى قالوا المعركة فى نهايتها

لصالح مصر .. قال لسلوين لويد وهو يزوره فى المستشفى : — لماذا لم تتموا مهمتكم ؟ ! !

أى أن هناك كلاماً يقال للناس على الملأ وخططا تنفذ سراً .. ينفذها الحزب العسكرى فى الولايات المتحدة .. وينفذها جهاز المخابرات الرهيب ..

إن حجم المعونة العسكرية الأمريكية لقوات العدوان ، لم يوضح حتى الآن بدقة ، لأنه تم فى طى كتمان تام : حتى أفشاه وزير دفاع فرنسا . ولكن من الواضح ، لتتعدد الأصناف التى تحصى بالمئات ، أنها معونة لها قيمتها ، قدمت من وراء ظهر رئيس جمهوريتهم ، وتحدياً لسياسته ، ولما كان يصرح به دلاس علناً للناس ، وهو يناور ويراوغ على المسرح الدولى ..

وهنا نعود بالذاكرة مرة أخرى إلى موقف الولايات المتحدة عام ١٩١٩ عندما أصدر ويلسن رئيس الولايات المتحدة بياناً ينكر على مصر طموحها إلى الاستقلال ، وفى عام ١٨٨٢ عندما شاركت الولايات المتحدة برجال وسلاح فى التمهيد لاحتلالنا ، مشتركة مع انجلترا .

وهذا موقف ثالث .. اذكروه أيها العرب للحكومة الأمريكية ، بل للحكومات السرية التى تسيطر فى الخفاء على الولايات المتحدة .. وأما العدوان الرابع السافر : قد كان فى مؤازرتها السياسية والعسكرية لإسرائيل عام ١٩٦٧

وإذا قلنا الحكومات السرية فى الولايات المتحدة ، ونسينا إسرائيل ونفوذها الهائل هناك — وعلى كثير من السياسيين الغربيين ، فأننا نرتكب خطأ فاحشاً ..

فلنضف إذن إلى الحزب العسكرى الأمريكى وجهاز المخابرات ، الأخطبوط الصهيونى .

لقد اتضح لنا الآن ، أن فرنسا وإسرائيل كانت تدبران عدوانا على مصر ، ولكل منها هدف : فرنسا تريد إخماد ثورة الجزائر بضرب مصر ، وإسرائيل تريد قطعة من مصر ، أو بالقليل إكراهها على الاعتراف بوجودها . وكان ذلك فى خريف عام ١٩٥٥ ، أى قبل أن يتحقق الجلاء النهائى عن مصر . وطبعاً

قبل أن تؤمم القنال ، وتثور أزمة السد العالى .. أو على الأصح قبل أن يستوعب الجيش المصرى صفقة الأسلحة الروسية . وكل ماهو مطلوب ، البحث عن وسيلة لاشتراك انجلترا فى الحرب .. وجاءت الفرصة ، بوصول إيدن المغرور الفاشل رئيسا لوزراء انجلترا ، وبتأميم القنال ..

معاهدة سيفر

أما وقد استقر رأى الشريكين : فرنسا وإسرائيل على الاشتراك فى الحرب فقد بقى الاستيثاق نهائياً من موقف انجلترا ... وفى ١٦ أكتوبر سنة ١٩٥٦ وصل إيدن وسلوين لويد مرة أخرى إلى باريس ، وتم اجتماعهما مع المتآمرين الفرنسيين : موليه ، وبينو .

يصف ت . روبرتسون هذا الاجتماع بقوله :

« جلس السياسيون الأربعة ، يواجهون بعضهم البعض فى قصر ماتينون الفخم الذى كان فى يوم ما مسكن الأمراء ، ومنزل السياسى تلليران .:. وظهرت على الجدار وراء إيدن ولويد صورة فنية رائعة ، تمثل دون كيشوت يعالج طواحينه الهوائية .. وبدت وراء موليه وبينو الفرنسيين صورة ضخمة لأكبر سياسى متآمر فى تاريخ فرنسا ، وهو الكردينال ريشيليو ، وقد تطلع بنظرة لا تخلو من المكر والدهاء إلى الاجتماع الذى يدور أمامه » .

وفى هذا الاجتماع عرف إيدن باشتراك إسرائيل ، ولم يبــد اعتراضاً ، وفى هـذا الاجتماع عدلت خطة الغزو من الاسكندرية إلى بور سعيد .. وهو اليوم الخامس من نوفمبر ، وهو اليوم السابق لانتخابات رياسة الجمهورية فى الولايات المتحدة .

وفى هذا الاجتماع ، ظهر أنه لابد من معاهدة مكتوبة ، تضمن لاسرائيل أن انجلترا ستنفذ نصيبها من الحرب ، بعد اندفاع جنودها فى سيناء فقد رفض بن جوريون أن يتحرك خطوة واحدة من غير هذا التعهد الكتابى .

وفى هذا الاجتماع أيضاً عرضت فرنسا نماذج من العملة التى أعدتها لقوات الغزو ، وعليها إشارة تقول إنها عملة « احتلال مصر !! » .

وفى ساعة مبكرة من يوم ٢٢ أكتوبر سنة ١٩٥٦ ، نزلت فى مطار فيلاكوبلاى جنوب باريس طائرة ركاب ، استقبلها مندوبون من وزارة الدفاع الفرنسية .. وفى ضباب هذه الساعة المبكرة مرق ركاب الطائرة فى سيارتين إلى بلدة « سيفر » فى ضواحى باريس . وهناك فى فيلا لأحد الفرنسيين من أصدقاء «بورجيز مانورى» . نزل هؤلاء الزوار ، وكانوا بن جوريون ، وموسى ديان ، وبيريز ، وهم زعماء الحكومة الإسرائيلية .

وأدركهم بينو وزير خارجية فرنسا ، ورحب بهم باسم المسيو كوتى رئيس جمهورية فرنسا ، وفى اليوم التالى قدم موليه فى سيارة عادية لينضم إلى المجتمعين ودار حديث حول الأسلحة الجديدة التى تتلقاها مصر وضرورة تحطيم هذه الأسنان الخطرة التى تنمو لمصر قبل أن تطبق على إسرائيل ، وعلى المصالح الغربية فى المنطقة . وأشار بن جوريون إلى القيادة العربية المشتركة التى جعلت بلاده كبندقة ، تكفى ضغطة واحدة من هذه القيادة لكى تتحطم .

ولم يكن الاشتراكى « موليه » فى حاجة إلى مزيد من الإقناع ، فقد اتفقوا على الموعد الذى تعلن فيه إسرائيل تعبئتها وهو ٢٦ أكتوبر (إسرائيل عبأت قواتها قبل هذا التاريخ سراً ، ووقفت المخابرات المصرية على التفاصيل من ناحيتها) ، واتفقوا على حجم المظلة الجوية الفرنسية بطائرات المستير التى تحلق فوق جيش بن جوريون الزاحف على سيناء ، وعلى سفن الأسطول الفرنسى لحماية شواطىء إسرائيل ، وانتهز بن جوريون الفرصة ، وطلب مزيداً من السلاح حتى كاد يخلى مخازن حلف الأطلنطى مما لديه . . .

وتحدد موعد الهجوم الإسرائيلى يوم ٢٩ أكتوبر ، على أن يدركه الهجوم الإنجليزى الفرنسى على بور سعيد بعدها بيومين .

وفى أثناء هذه المداولات ، حضر من إنجلترا ، بنفس الطريقة السرية ، سلوين لويد وزير الخارجية ، وباتريك دين وكيل الوزارة ، ومندوب عن المخابرات البريطانية . وعرض الإنجليز التمثيلية الهزيلة التى ألفها إيدن بأن يوجه إنذاراً للقوات الإسرائيلية والمصرية ، بالابتعاد عن ضفاف القنال عشرة أميال . حتى تدخل قواته لتفصل بين المتحاربين ، حرصاً على سلامة القنال ! ! وطلب الإنجليز من إسرائيل أن تقبل الإنذار . . .

يروى بينو الفرنسى هذه الأحداث ويقول :

« لقد دهشت لما فى هذا الإجراء من نفاق وخداع ، ولم أخف حقيقة مشاعرى ، لكن بن جوريون كان فى حاجة ماسة إلى ضرب الطائرات البريطانية للمطارات المصرية . ولهـذا قبل شرط الإنجليز الذى أصروا عليـه . وقبلناه نحن (الفرنسيين) أيضاً » .

وطار سلوين لويد إلى لندن ، لعرض ما توصل إليه المجتمعون على إيدن ، وعاد فى الرابع والعشرين من أكتوبر سنة ١٩٥٦ ، ووضعت مسودة المعاهدة ثم أرسلت بالطائرة مرة أخرى إلى إيدن ، ثم جاءت موافقته ، ووقع باتريك دين عن إنجلترا ، وبينو عن فرنسا ، وبن جوريون عن إسرائيل . ولم تكتب منها إلا ثلاث نسخ محافظة على السرية التامة ووضع اليهودى نسخة فى جيبه ، وهو يقول : على أى حال عدت بورقة ما ؟ ! وكان موضوع اتفاق ألا تنشر نصوص اتفاقية سيفر فى أى وقت .

كانت إسرائيل توالى الهجوم على الأردن ، فى حوادث حدود متلاحقة ، كى تحول النظر عن قواتها المتجهة إلى الحدود المصرية ، وفى الموعد المحدد — ٢٩ أكتوبر — اخترقت قوات موسى ديان الحدود عند منطقة العوجة .

ولنترك الهجوم اليهودى إلى حين لنستعرض مواقع وخطط القيـادة المصرية فى مواجهة العدوان .

مصر .. تتأهب للعاصفة

كان تعـداد الجنود الذين قادهم نابليون لغزو مصر فى آخر القرن الثامن عشر ، وأول القرن التاسع عشر ٣٥ ألف جندى ، وتصدى لهم الشعب المصرى كله فى حرب شاملة . وبعد ثمانين سنة من جلائهم نجح الإنجليز فى غزو مصر ومعهم مساعدات أجنبية ، وكانت قواتهم ٦٠ (ستين) ألف جندى بما فيهم الهنود والفرنسيون والأمريكان . . وكانت قوات عرابى بين ١٢ و ١٨ ألف جندى .

وفى سنة ١٩٥٦ حشد الإنجليز والفرنسيون ٨٠ (ثمانين) ألف جنـدى غير احتياطيهم المستعد للمعركة فى ليبيا والأردن وقبرص ، بما يصـعد بهذه القوة إلى ١٢٠ ألف جندى . فإذا أضفنا جيش إسرائيل كله ، واحتياطيـه بعد التعبئة ، فإننا

نحصى قوات العدوان بـ ٢٤٠ ألف جندى ، أى أربعة أمثال قوات الجنرال ولسلى عام ١٨٨٢ ، وثمانية أمثال قوات نابليون .

ولم ندخل فى حساب هذه التحركات العسكرية الأوروبية قوات فريزر التى هاجمتنا عام ١٨٠٧ ، فقد أخطأ الإنجليز خطأ جسيماً ، إذ نزلوا الإسكندرية بستة آلاف جندى ، وما أن وصلوا رشيد ودخلوا المعركة حتى تعرضوا لما يشبه الإبادة التامة من قوات الشعب . . وكانوا معتمدين على انضمام قوات المماليك لهم . ولكن هذا لم يحدث . . فكانت هزيمتهم المرة . . .

وفى عام ١٩٥٦ ، تغير ظرف العدوان تغيراً تاماً . . وذلك :

أولا — قدر الرئيس عبد الناصر أن حرباً لا بد ستنشب بيننا وبين الإنجليز وذلك قبل تأميم القنال ، وكانت قيادة الجيش على علم بالأمر .

ثانياً — استطاعت الحرب النفسية التى سلطتها القاهرة على إيدن وحكومته والنشاط الدولى واسع النطاق الذى بذله جهازنا الدبلوماسى والإعلامى أن يؤخر الاشتباك شهور أغسطس وسبتمبر وأكتوبر . . وهى مائة يوم تقريباً ، كانت لها قيمتها فى رسم خطط الدفاع .

ثالثاً — قدرت قيادتنا أنه إذا كانت الكلمة النهائية ، للإنجليز فى هذا الهجوم فسيكون عن طريق الإسكندرية ، وقد تأهبت قواتنا البحرية ، ودفاعنا الساحلى على النحو الذى شرحناه قبل .

رابعاً — عندما ضعفت أعصاب إيدن فى أواخر مرحلة الإعداد للمعركة ، وافق على رأى الفرنسيين ، فى أن يكون الهجوم عن طريق بور سعيد ، لكى يستفيد استفادة كاملة من انضمام اليهود إلى المعركة ، وإن كان هدفه هو غير أهدافهم . فقد كان حلمه أن يصل إلى القاهرة ، ويسقط حكومة عبد الناصر ، وكان هدف الفرنسيين الاستيلاء على قنال السويس ، وكان هدف إسرائيل شبه جزيرة سيناء وإن أمكن أن يصلوا إلى القاهرة فأنهم سيثأرون مما حدث لهم أيام الفراعنة ! !

وعندما دعت القيادة الإسرائيلية الملحقين العسكريين لفرنسا وانجلترا لاجتماع فى تل أبيب مساء ٢٩ أكتوبر قال لهم المتحدث باسمها : لا أستطيع أن أصرح باسم الهدف الذى نقصده ، ولكن انظروا إلى هذه الخريطة . . وأشار إلى القاهرة ! !

خامساً — جعلت القيادة المصرية منطقة الدلتا كلها ، كهدف للهجوم المنتظر ، وأولت عناية خاصة للموانى الثلاثة الكبيرة السويس وبور سعيد والإسكندرية . . فنشرت شبكة الرادار ووسائل الوقاية الجوية على شكل مروحة نقطة ارتكازها فى القاهرة وأطرافها تغطى الدلتا كلها . وكان من أهم ما عنيت به القيادة إنشاء مجموعة كبيرة من الطائرات الهيكلية مصنوعة من الخشب على طراز الطائرات الموجودة لدى مصر ووضعتها فى المطارات المعروفة .

سادساً — وزعت وحدات الجيش المدرعة ، فى معسكرات محيطة بالقاهرة على شكل مروحة قصيرة ، بحيث يسهل تحريكها إلى أى جهة يقع فيها الهجوم .

سابعاً — عزز الدفاع حول قنال السويس تعزيزاً كاملا ، وأعطيت عناية خاصة للسويس ومداخل الخليج ، وأخفيت بقدر الإمكان حقيقة القوات والأسلحة التى حشدت لمعركة القنال ، بوصفها هدفاً رئيسياً للعدوان مثل القاهرة تماماً . حتى إذا توغل العدو فى منطقة القنال ، وقع فى فخ القوات المسلحة المعدة له ، والتى لم يحسب حسابها .

ثامنا — أنشىء جيش التحرير ، الذى انضم اليه المواطنون بحماسة كبيرة ، وشرع فى تدريبه ، وتسليمه السلاح ، وايكال حراسة المرافق العامة له من كبار وطرق ، وأى هدف يغرى جنود المظلات بالهبوط عنده لتدميره .

تاسعاً — خففت القوات فى سيناء ، لتعزيز عمليات الحرب فى القنال والدلتا مع إبقاء العدو على علم بأن ما حشد فيها يزيد عن ٥٠ ألف جندى ..

عاشراً — أعد التموين الداخلى ، إعداداً سليماً لمواجهة الحرب ، ووزع البترول على المحافظات ، بحيث كان رصيده كافياً للاستهلاك العسكرى والمحلى حتى لو استمرت الحرب ستة أشهر .

* * *

الحرب فى سينا

قبل غروب الشمس بوقت قصير ، يوم ٢٩ أكتوبر سنة ١٩٥٦ ، أسقطت إسرائيل كتيبة مظلات حملتها ١٦ طائرة دا كوتا فى منطقة منعزلة شرقى قنال السويس

وعلى بعد ٢٥ ميلا منها . . واسم منطقة الإسقاط ممر متلا ، وشرقى سدر الحيطان . وكان الغرض من هذه الخطة الصبيانية ، إذاعة أن اليهود هددوا قنال السويس فعلا ، بوصولهم قربها ، وبهذا يصدر الإنذار الإنجليزى الفرنسى الممهد لضرب العدو للمطارات والموانى والمدن المصرية ! .

* * *

وقد أدت الدراسة المتعمقة للمعلومات الواردة على القاهرة من مخابراتنا ، التى امتد نشاطها إلى عواصم الهجوم، ومراكز التجمع .. والمعلومات الواردة من المناطق التى للإنجليز فيها سلطة ، مثل العراق والأدن ، إلى أن هناك محاولة لاستدراج الجيش المصرى إلى سيناء ، ومحاولة جره إلى الهجوم على إسرائيل ، وبذا تخلق ذريعة مناسبة لإعلان الحرب على مصر ، بمقتضى ضمان الحدود الإسرائيلية الذى أعلنته فرنسا وانجلترا والولايات المتحدة ، وربما أدى هذا الهجوم المصرى — فى حالة وقوعه — إلى استدراج الولايات المتحدة للمعركة ضدنا ! !

ولتحقيق هذا الهدف ، أخذت إسرائيل تهاجم الحدود الأردنية ، هجوماً متصلا . وأخذت إذاعة لندن — طبقاً لخطة موضوعة — تبالغ فى تحرشات إسرائيل بالأردن ، وعندما وزنت قيادتنا هذه المعلومات بما تجمع لديها من معلومات عن حقيقة الاشتباكات على الحدود الأردنية ، وضح أن هناك خطة تخفيها هذه العملية ، وأن هذه الخطة لابد أن تكون استدراج مصر للحرب مع إسرائيل .

وقد أدلت جولدا مايير وزيرة خارجية إسرائيل بتهديدات ، وسافر الملك حسين إلى العراق ، وقال نورى السعيد إنه مستعد فوراً لإمداد القوات الأرنية بالجيش العراقى . . . ولكن مصر لم تلمح من كل هذه التحركات إلا الخطة الأصلية وهى مهاجمة قنال السويس لا أى مكان آخر .

يقول الفريق أول محمد فوزى وزير الدفاع المصرى ، فى الدراسة الفنية — التى عملت لحرب السويس[١] .

---

(١) نشر التقرير فى جريدة الأخبار خلال شهر نوفمبر سنة ١٩٦٦ .

« كان الهدف بسيطا واضحا .. إن كلا من انجلترا وفرنسا كانتا تأملان من وراء هذه الاضطرابات المرسومة ، أن تستفز القاهرة ، لترسل جيوشها إلى سيناء كى تعمل ضد إسرائيل ، وتساعد الأردن المهددة . فالفرصة لا شك متاحة أمام مصر للهجوم على إسرائيل . وانجلترا ترغب أيضا فى الوقوف إلى جانب الأردن ضد إسرائيل .

« رغم دهاء هذه الخطة وعمقها ، فإن الفرصة المرتقبة لم تسنح للمعتدين لسبب واحد بسيط ، وهو أن مصر قد فطنت إلى الأمر ، فلم تشن هجوماً على إسرائيل وفوتت الفرصة على الدهاة » .

وإذن فلم يكن هناك بد، من الهجوم على مصر، مهدوا له بمعاهدة سيفر السرية .. وتحدد موعده وتفاصيله على النحو الذى سنراه بعد .

وكانت الخطة تقضى بأن يقوم الطيارون الفرنسيون بعمل مظلة جوية فوق هذه القوة بطائرات المستير تحميها ، حتى تدركها مجموعة اللواء ٢٠٢ اليهودى مندفعة نحوها من نقطة الكونتيلا ، وبعد أن يصل التعزيز إلى نخل ثم سدر الحيطان ، تتقدم القوة كلها إلى السويس .

وفى نفس الوقت كان على القوات البرية الإسرائيلية ، الاندفاع من المنطقة المنزوعة السلاح ، وتستولى على القسيمة وأم قطيف وأبو عجيلة . . وتندفع إلى الإسماعيلية . . وقد أعدت لهذا الزحف ثلاثة ألوية إسرائيلية هى اللواء السابع المدرع واللواء الرابع المشاة واللواء السابع والثلاثين المشاة ، وهى فى جملتها خيرة ما لدى الجيش الإسرائيلى من قوة ضاربة . . وكان هدفها الإسماعيلية ، مارة بالقسيمة وأم قطيف وأبو عجيلة ، ثم القنال .

وثمة هجوم ثالث يقوم به لواءان يهوديان وكتيبة من الاحتياطى ، وثلث هذه القوة مدرع ، لكى يستولى على رفح والعريش ، ثم يندفع نحو القنطرة .

وأعدوا كذلك هجوما رابعا بقوات ضخمة مؤلفة من أربعة ألوية منها ثلاثة مشاة ، ولواء مدرع للاستيلاء على قطاع غزة ثم تعزيز الوجود اليهودى فى العريش ، وعزل سيناء ، عن مصر .

والقوة الخامسة ، التى أعدها اليهود ، فى بير سبع ، فقد كلفت بأن يكون قسم منها احتياطيا ، والقسم الآخر يزحف الى الجنوب للاستيلاء على المواقع المصرية فى نصرانى وشرم الشيخ .

* * *

وقد ذكرنا من قبل أن خطة القيادة المصرية أن تخفف القوات المصرية فى سيناء ، بطريقة هادئة جداً ، حتى تتبين أين يقع ثقل الهجوم المنتظر . واستبقت هذه الخطة فى منطقة سيناء كلها القوات التالية :

فى غزة : لواءان من الحرس الوطنى، ولواء فلسطينى وكان تحت التدريب .

فى رفح : كتيبتان من اللواء الخامس مشاة .

فى العريش : لواء واحد مشاة . . هو اللواء الرابع ومدفعية مساعدة .

فى أم قطيف : كتيبتان من اللواء السادس ومدفعية مساعدة .

فى شرم الشيخ : الكتيبة ٢١ المشاة ، ومدفعان سواحل عيار ٦ بوصة .

وكشفت مواقع الإنذار المصرى تحركات اليهود ، فسارع سلاح الطيران على الفور بضرب الحشود اليهودية من بعد المغرب إلى منتصف الليل ، مما أوقع الذعر فى صفوف الطوابير المتحركة ، وأفقدها ميزة المفاجأة ، وعاق زحفها إلى صباح اليوم التالى .

وفى نفس الليلة ، بعد أن عرفت أنباء الهجوم اليهودى ، طلبت سوريا رسمياً أن تشترك فى المعركة ، وكذلك طلبت القوات الأردنية . ولكن القيادة المصرية ، طلبت من الجيشين عدم الاشتراك فى الحرب فى الوقت الحاضر ، مع الوقوف فى وضع الاستعداد خشية أن يفتح اليهود جبهة ثانية ...

* * *

وفى صباح اليوم التالى — ٣٠ أكتوبر — بدأ أول اشتباك للعدو مع قوة الحراسة فى الكونتلا ، وكانت المواقع الدفاعية فى سيناء محصنة تحصيناً فنياً ، مما تعذر منه على الهجوم اليهودى الاستيلاء على الموقع ، فعدل خط سيره ، وانطلق فى اتجاه نخل .

وعند نخل ، وفوقها دارت معارك جوية بالغة فى الشدة ، فقد طردت طائراتنا العدو من السماء بعد أن أوقعت به خسائر جسيمة ، ثم انهالت قذائفها على تجمعات اليهود فى العوجة ونخل وتمد ، حتى بددت قوة اندفاعه وأوقفت حركته .

وصدر البلاغ المصرى التالى : « بدأ العدو يستخدم قواته الجوية للضغط على قواتنا البرية ، وقد تدخل سلاحنا الجوى فى الحال ، فأسقط طائرتين نفاثتين للعدو ، كما دمر ١٢ عربة مصفحة » .

وبعد ذلك صدر بلاغ آخر فى نفس اليوم : « تمكنت قواتنا بعد ظهر اليوم من تطهير قوة العدو غرب نخل ، وقضت عليه تماماً واشتبكت أربع طائرات من قواتنا الجوية ، بثمانى طائرات اسرائيلية من طراز مستير . وقد تمكنت طائراتنا من اسقاط طائرة من هذه الطائرات الاسرائيلية الثمان ، ويحتمل أن تكون طائرة قد أصيبت إصابة مباشرة ، كما أسقطت نيران المدفعية المضادة طائرة للعدو من طراز أورجون ، وأسقطت طائرة أخرى فى قطاع غزة . وجارى تطهير باقى قوات العدو فى أرض العمليات » .

وفى نفس الوقت صـــدرت تعليمات القيادة المصرية بتعزيز قوات سيناء على النحو الآتى :

١ — يتحرك اللواء ٢٨ من قوة الحرس الوطنى من الاسكندرية إلى المشط شرق قنال السويس .

٢ — يتحرك اللواء الثانى مشاة من غرب القنال إلى فايد . واللواء الأول مشاه من القاهرة إلى الشلوفة . والآلاى الأول من مدفعية الميدان من القاهرة إلى العريش ، والبطارية الثانية إلى أبو عجيلة . .

ويبدو من تحريك القوات على هذا النحو أن القيادة المصرية ، كانت ما تزال تدرس الموقف ، بعد أن تواترت الأنباء من قبرص ، بوجود استعدادات كبيرة فى معسكر البريطانيين والفرنسيين ، وصدرت الأوامر بتجمع قوات المظلات التابعة لهم للذهاب إلى مكان ما فى الشرق الأوسط ؟ ! !

وكانت القيادة المصرية قد أرسلت من السويس قوة للقضاء على المظليين اليهود فى ممر متلا ، كما أمرت لواء مشاة بمجموعة مدرعة بالتقدم من القنال إلى الجفجافة ، للقضاء على أى قوة أخرى من المظليين اليهود ، يمكن أن تسقطها الطائرات مرة أخرى فى فى سدر الحيطان والتمد شرقى قنال السويس .

أما الطريق الأول ، فقد وجهت له لواء مشاة للقضاء على أى زحف يحدث من نخل والحسنة .

ولخص اللواء أ . ح محمد كمال عبد الحميد الخطة التى راعتها القيادة المصرية ، فى مواجهة الهجوم اليهودى فيما يلى :

١ — توريط العدو فى معارك ثانوية على أطراف المنطقة الدفاعية الرئيسية لاستنزاف قوته المادية والمعنوية وللكشف عن مدى صلابته وعزمه ، وتعطيله الى حين تجمع القوة الضاربة ، التى تقوم بالقضاء عليه .

٢ — ظهر من الهجوم اليهودى على مواقع «أم قطف» انه فى خلال ثلاث محاولات لم يستطع أن يحقق غرضه ، وخارت قواه ، مما أكد نجاح عمليات التعويق ، بحيث تحولت إلى انتصارات واضحة . . وقد أدت المواقع والألغام أغراضها فى تكبيد العدو الزاحف أغراضها تماماً .

وهكذا مضى اليوم الثانى للهجوم اليهودى دون أن يصل إلى نتيجة .

وفى اليوم الثالث ، أخذت إذاعة تل أبيب ، والاذاعة البريطانية ، فى قبرص تدعيان أن الهجوم اليهودى وصل إلى قنال السويس . . وهو كذب واضح ، ولكن إرساله بهذه الصورة ، كان يحمل التمهيد للقوات البريطانية والفرنسية بالتدخل حسب ما تم الاتفاق عليه فى معاهدة سيفر .

وقد صدر البلاغ الرسمى التالى يوم ٣١ أكتوبر يقضى على هذا الادعاء :

« إن القوات المصرية ، قد سيطرت على الموقف الذى نشأ عن العدوان الاسرائيلى المفاجىء فى خلال الـ ٢٤ ساعة الأخيرة : وأن قنال السويس غير مهددة على الاطلاق بأى تهديد عسكرى . وليس هناك ما يهدد سلامة السفن المارة بالقنال ، أو حرية الملاحة فيها . والقوات المسلحة المصرية قادرة فى كل الظروف على حماية القنال » .

وأعلنت بريطانيا بياناً رسمياً ؛ ثبت بعد ذلك أنه وسيلة حقيرة من صور التضليل ، كان يجب ألا تلجأ اليها دولة — كانت عظمى فى يوم من الأيام — قال هذا البيان أن انجلترا لا تنوى استغلال القتال الذى نشب فجأة (كذا ! !) فى سيناء لمصلحتها .

هل تقف انجلترا متفرجة فى معركة سيناء ؟ ! !

سنرى . . . فقد تقدمت قوة مصرية لعبور القنال ، مكونة من مجموعتين من الدبابات التشيكية والروسية ، لتأخذ أماكنها فى منطقة بير روض سالم وهى قادرة على رد التقدم للعدو وتحطيمه .

وفى يوم ٣١ أكتوبر ركز العدو هجوماً ضخماً على موقع أم قطف وأبو عجيلة وهو الموقع المتحكم فى الطرق الممتدة الى العريش والاسماعيلية . . ولم يكن فى الموقع غير كتيبتين مصريتين . وإذا بالعدو يذهل للمفاجأة ، فما أن انتهى اليوم حتى كان قد خسر ٤١ دبابة ومدرعة،واضطر إلى التراجع ، مع أن الطيران الفرنسى والانجليزى ، كان قد دخل المعركة تأييداً لهذا الهجوم . . وقد اسقطت المدفعية المصرية المضادة ١١ طائرة من طائرات العدو .

وظلت هذه المعركة الرهيبة مستمرة يومين آخرين ، وتولى القيادة الاسرائيلية قائد جديد ، بعد مصرع قائده الأول أساف سمحونى .

وحاول اليهود أن يقتحموا الموقع بالسلاح الأبيض ، مستعينين بتفوقهم العددى الضخم . . ولكنهم ارتدوا أيضاً أمام مهارة وبسالة الجندى المصرى الذى استطاع أن يصرع ٢٥٠ يهودياً ضرباً بالخناجر والقنابل اليدوية فى أقل من نصف ساعة .

وكان موسى ديان القائد العام لليهود يشرف بنفسه على هذا الهجوم ، وقد رأى موت ضباطه وجنوده بعينه الواحدة فى هذه الرمال التى شهدت من ثلاثين قرناً ، عصيان بنى اسرائيل لربهم ، وبقاءهم فى هذه البرية أربعين سنة ، حتى باد منهم جيل ، وخلفه جيل آخر .

وهكذا ، وبعد مائة ساعة من هذه الحرب تعلم اليهود درساً وراحوا من اليوم الأول يصرخون مستنجدين طالبين التدخل الانجليزى الفرنسى ، بقوات بحرية وبرية .

الانذار .. وقرار الانسحاب

أمام « حوسة » اليهود أمام الحامية الصغيرة فى أبو عجيلة . وتلبية لاستصراخات بن جوريون ، وجهت بريطانيا وفرنسا فى الساعة السادسة والنصف من مساء يوم الثلاثاء ٣٠ أكتوبر انذارا لمصر (وتمويها لإسرائيل !) ، تطلب فيه خلال ١٢ ساعة إيقاف جميع الأعمال الشبيهة بالحربية فى البر والبحر والجو ، وسحب القوات العسكرية إلى مسافة عشرة أميال من قنال السويس ، وأن تقبل مصر احتلال القوات البريطانية والفرنسية للمواقع الرئيسية فى بور سعيد والاسماعيلية والسويس . .

وهكذا بدأ الفصل الثانى من التمثيلية .

ولم يحتج الرد على الإنذار البريطانى وقتاً طويلا فقد دعا الرئيس عبد الناصر السفير البريطانى ، وقال له فى هدوء :

« سنقاتل ، فلقد سمحنا لكم فى المرة الأخيرة (سنة ١٨٨٢) بدخول البلاد بصورة مؤقتة ، فبقيتم أكثر من سبعين عاماً ، ولن تسمح مصر بتكرار ذلك ثانية » .

وكان السفير فى موقف حرج . . فقال إنه سمع عن الانذار من الإذاعة . ولم يهتم أحد فى لندن بأن يبلغه بالأمر ، ولو قبلها بقليل ! !

وفى لندن حاول إيدن أن يراوغ مجلس العموم ، و المعارضة تحاصره . . . قال له جيتسكيل زعيم العمال :

— حقاً إنه وضع غريب للغاية . إن المجلس ، والبلاد كلها . . الجميع ينتظرون رداً على هذا السؤال : هل نحن فى حرب ؟ . . ورد إيدن متأففاً :

— إن هناك حالة صراع مسلح نشأت !

وفى نيويورك كان مجلس الأمن مجتمعاً . وقد قام داج همرشولد الأمين العام ، بطلب اتخاذ إجراء إيجابى فوراً ، وإلا فانه سيستقيل من منصبه ، ووجه المندوب السوفياتى سوبوليف ، كلامه لمندوب فرنسا فى المجلس قائلا له :

— على فرنسا وانجلترا أن تدرسا بإمعان ما تقومان به ، فإن العدوان المسلح على منطقة قنال السويس قد تترتب عليه نتائج خطيرة . . نتائج خطيرة تلحق بالجنس البشرى كله .

وأغمى على المندوب الفرنسى . أغمى عليه حقيقة لا مجازاً ، عندما استوعب أن ما سمعه يعنى الحرب الذرية !

* * *

ودرس الرئيس عبد الناصر الموقف من الوجهة العسكرية ، واتفق مع قيادة القوات المسلحة ، على توحيد الجبهة ، وإيقاف حرب سينا ، وسحب جنودنا منها ومواجهة العدو فى القنال وغربها ، حتى لا تقع هذه القوات فى الفخ الذى أرادوا من شهرين تدبيره لها . .

وكان على قوات أبو عجيلة الباسلة ، التى أوقفت الزحف اليهودى قرابة خمسة أيام واجب آخر ، وهو أن تحارب حرب مؤخرة . حتى يتم سحب كل القوات فى سينا ، وتدمير ما لا يمكن حمله من الأسلحة .

وتحية لهؤلاء الجنود البواسل ، ولإخوانهم الذين صمدوا مثلهم فى رفح بنفس البسالة ، حتى صدر أمر الانسحاب ، نقتطف الفقرة التى وردت عن قوات سينا فى التقرير الفنى لرياسة أركان الحرب المصرية عن المعارك . . قال التقرير :

« هاجمت اسرائيل سيناء ، بقوة مكونة من ٣٥ كتيبة من المشاة ، وعشر كتائب ونصف من المدرعات . و٣٥ كتيبة من المدفعية . وبمقارنة بسيطة كان كل جندى مصرى بسيناء يواجه أكثر من أربعة جنود اسرائيليين ، وكل مدفع مصرى يطلق نيرانه يجد رداً من عشرة مدافع إسرائيلية ، وكل دبابة مصرية ، كانت تواجهها عشر دبابات اسرائيلية . . . » ، ومع هذا لم تستطع إسرائيل أن تخطو إلى الأمام ، حتى أعلنت انجلترا وفرنسا أن قواتهما ستحتلان قنال السويس . . وصدر قرار ترك سينا مؤقتاً . لمواجهة العدو الأقوى ، والأجدر بالعقوبة ، والذى تحركت اسرائيل بأسلحته ، وتحت حماية طائراته .

تعليق عبد الناصر عن المعركة

سنعود إلى اليهود مرة أخرى ، وهم ينسحبون من سينا يجللهم الخزى والهزيمة . . ولكنا نقتبس هنا فقرات من خطبة ألقاها الرئيس فى ادفينا ، وهو يوزع الأرض على الفلاحين ، شرح لهم وللتاريخ ماحدث فى سينا بأسلوب أستاذ أركان الحرب المبسط كل التبسيط حتى يستوعبه السامعون على كافة المستويات ، قال :

« وكان عندنا ٢٥٠ طيارة ، ولكن فى وقت المعركة كان عندنا ٤٠ (اربعين) طيارا فقط . بمعنى أنه كانت توجد ٢١٠ طيارة ليس لها طيارين . . قال سمحونى فى مفكرته ، أنه لم يستطع مواصلة الزحف لأن الطيران المصرى سبب لقواته خسائر [1].

« يوم ٣١ قررنا الانسحاب ، وكانت خطتنا أن نبدأ بالانسحاب من رفح أولا ثم العريش وأبو عجيلة ، وأبو عجيلة تنتظر ليوم ٢ نوفمبر . . يعنى ننسحب على ليلتين . ودباباتنا التى نقلناها شرق القنال ، تعود مرة أخرى فى الليل وتعدى القنال لانقاذها طبعاً من الطيران الانجليزى والفرنساوى اللى اشترك فى هذه الليلة فى المعركة .

« وأصدرنا أوامرنا لقواتنا فى غزة ، بعدم القتال ، وأن يسلم الحرس الوطنى حفظاً لدماء المدنيين فى القطاع .

« والناس فى كبريت (غرب القنال) شافوا تمانى طيارات يهودية فرنساوية وصلوا للإغارة على كبريت ، وطلعت لهم ٣ طيارات مصرية من المطار أثناء الغارة والثلاث طيارات وقعوا ثلاث طيارات يهودية .

« اتصل القائد العام بقائد اللواء فى رفح ، وأبلغه أن الخطة هى أن تنسحب وأن عليه أن ينسحب من رفح . وكانت اجابته أنه منتصر على اليهود . وقال أنه ضامن استمرار الانتصار . فرد عليه القائد العام إن العملية مش معركة محلية ، ننتصر فيها . ولكن ده يؤثر على قواتنا كلها ، وعلى جيشنا . ويجب أن ينسحب تحت ظروف القتال .

---

(١) وصف اليهود طائراتنا بانها كانت تهاجمهم كالكلاب المسعورة .

« وفى أبو عجيلة ، قاتلت قواتنا إلى يوم ٢ نوفمبر ، وعند الظهر انسحب قائد موقعنا وخرج من أبو عجيلة لغـــاية الاسماعيلية ، وفى المغرب أعلن موسى ديان أنه استولى على أبو عجيلة . .

« كان فين جيش اسرائيل وموسى ديان يوم ١ و ٢ نوفمبر ! وهل بدأ موسى ديان يتحرك إلا بعد جلاء كل القوات المصرية غرب القنال ! وهل هى شطارة ، طبعاً لقائد عسكرى ، أنه يلاقى أرض أسفلت قدامه ، بدون مقاومة ، ويركب عربته ويمشى فيها ؟ هو ده يشرف أى واحد ؟ أو ده شرف قديكون أحسن منه الهزيمة »

المصابيح المشتعلة

عاد موليه رئيس وزراء فرنسا ، من لندن ، بعد توجيه الانذار إلى مصر . وذهب إلى الجمعية الوطنية ، وأخبر أعضاء برلمانه بنص الإنذار وعقب عليه بقوله . « قيسوا عملنا بنتائجه ، أننا نأمل أن نحطم عبد الناصر بقليل من إراقة الدماء ونحن نعلم أن الخطأ قد يكون فى جانبنا ، ولكن الخطأ الأكبر هو أن نقف موقفاً سلبياً من مصر .

وروى الرئيس عبد الناصر ، ما حدث قال :

« فى الساعة السابعة مساء كنت فى بيتى أقابل السفير الأندونيسى ، وسمعت صوت صفارات الانذار ، ثم سمعت مباشرة أزيز الطائرات المغيرة ، فأدركت على الفور أنها غارة بريطانية ، كانت الطائرات المغيرة نفاثة ، والطائرات النفاثة الوحيدة فى شرق البحر المتوسط ، لا يمكن أن تكون إلا واحدة من نوعين : الأليوشن ٢٨ الذى تملكه مصر ، أو الكانبرا البريطانية .

« وتيقنت على الفور أن بريطانيا تدخلت عسكرياً فى المعركة ، وأردت أن أتأكد على أى حال فتركت السفير الأندونيسى ، وصعدت إلى سطح المنزل أراقب الغارة وأسمع صوت الطائرات ، لأتأكد أنهـــا طائرات بريطانيا ، ثم تلقيت الإعلان البريطانى — الفرنسى عن بدء عمليات حربية ضد مصر .

« وعلى وهج المصابيح ، التى كانت الطائرات المغيرة ، تلقيها على مطار القاهرة الدولى ، وكانت الغارة البريطانية الأولى عليه ، رأيت المؤامرة . . لم يكن الوهج

يكشف منطقة المطار وحدها . . وإنما كان هذا الوهج ، يكشف فى أفكارى منطقة الشرق الأوسط .

« إذن فإن الهجوم الإسرائيلى لم يكن هدفه ، إلا دعوة قواتنا الرئيسية إلى سينا ثم إقفالها ، وقطع الطريق عليها باحتلال منطقة القنال ، وبهذا يتحقق للعدو هدفان :

الأول : تحطيم قواتنا العسكرية شرق القنال تحطيما تاماً ، بعد حرمانها من المساعدة الجوية .

الثانى : دخول مصر ، واحتلالها بدون مقاومة منظمة ، إذ أن مصر ستكون بغير جيش يدافع عنها » .

وفى ٢ نوفمبر سنة ١٩٥٦ أذاع الرئيس جمال عبد الناصر بياناً على الشعب المصرى قال فيه :

« أمس فى الساعة السابعة بدأت فرنسا وبريطانيا غاراتها الجوية على القاهرة ، وعلى منطقة القنال وعلى الاسكندرية . وكان الغرض من هذا واضحاً . وكانت غاراتهم مركزة على المطارات . كان غرضهم أن يدمروا سلاح الطيران المصرى الذى أظهر التفوق الساحق فى اليومين الماضيين ، والذى سيطر على المعركة ، وأصاب السلاح الجوى الإسرائيلى بالعجز .

« . . سنقاتل أيها الإخوان فى سبيل حرية مصر . . سنقاتل فى حرب شاملة ، جنودها الشعب المصرى جنباً إلى جنب مع قواته المسلحة .

« أيها المصريون إننا سنقاتل قتالا مريراً ، ولن نسلم . إن كل فرد منكم جندى فى جيش التحرير الوطنى . ولقد أصدرت الاوامر بتوزيع السلاح عليكم وعندنا منه الكثير .

« سنقاتل فى معركة طاحنة من قرية إلى قرية ، ومن مكان إلى مكان .

« سنقاتل ولن نسلم .. فأننا اليوم أيها الاخوة نكتب صفحة جديدة فى تاريخنا ، وأنا أعاهدكم أنى سأقاتل معكم من أجل حريتكم ، كما عاهدتكم من قبل ، إلى آخر قطرة من دمى » .

الأعداد الهائلة

للطيران أهمية كبرى فى المعارك الحربية الحديثة . . وقد حل محل المدفعية بعيدة المرمى، وكلف بأعباء ضخمة جداً ، وصلت إلى نقل الأسلحة الثقيلة والفرق المدرعة ، ورأيناه فى حرب فيتنام ، يقوم بما كانت تقوم به البغال فيما قبل عصر الطيران ، من نقل العتاد إلى الأماكن التى لا تمتد إليها طرق فى الغابات والأحراش . . وهى طائرات الهليكوبتر . . .

كانت قيادة القوات المعتدية ، تقيم وزناً كبيراً جداً ، لإمكان تدخل النفاثات المصرية فى عمليات النقل البحرى ، ولهذا خصصت ستة أيام كاملة ، لضرب المطارات المصرية ، حتى تتعطل حركة سلاحنا الجوى . .

وأى تقدير لقوات الغزو أثناء المعركة ، ما كان يمكن أن يصل إلى الأرقام الكاملة لحجم الحملة ، التى عرفت بعد ذلك من الوثائق الرسمية ، سواء فى عدد الجنود ، أو المعدات . . وكان ما وصل إلى مصر فى ٢٥ سبتمبر من تقدير نشرناه من قبل ، قد تضاعف على النحو الذى سجلته الدراسة الفنية التى قامت بها رياسة أركان الحرب المصرية بعد المعركة .

جاء فى هذه الدراسة ما يلى :

لقد كان تفوق الحملة البريطانية الفرنسية أمراً حقيقياً وظاهراً . وقد بدأت الاستعدادات للحملة منذ اليوم التالى للتأميم . فى الأسبوع الاول من أغسطس استدعت بريطانيا ١٢٥ ألفاً من الاحتياطى . . وفى فرنسا ، وبعد تعبئة جزئية أمكن استدعاء ٥٠ ألف جندى . وبعدها بدأت قوات الغزو تتدرب فى سهل سالزبورى بجنوب بريطانيا . ثم جرى إرسال الجنود إلى قواعد الغزو فى مالطة وقبرص .

وفى خلال الأسابيع الأخيرة السابقة على الغزو تحركت مجموعات كبيرة من المقاتلات والقاذفات البريطانية والفرنسية متجهة إلى قواعد قبرص ومالطة . .

وهكذا عندما بدأ الهجوم الجوى على مصر مساء ٣١ أكتوبر ، كان عدد الطائرات التى تغير على مصر كالآتى :

طائرات بريطانية :

٩ أسراب قاذفات فى قواعد لوقا وهالفار بمالطة .

٩ أسراب قاذفات فى قاعدة نيقوسيا بقبرص .

٢ سرب مقاتلات فى نيقوسيا

٥ أسراب مقاتلات فى أكروتيرى بقبرص .

٢ سرب استطلاع جوى بالصور فى أكروتيرى .

١ سرب استطلاع جوى فى لوقا .

٧ أسراب نقل جوى فى تمبو بقبرص .

١ سرب أمداد جوى واتصال .

والمجموع ٣٥ سرباً ونصف . . إذا أضيف إليها ١٣ سرباً من القاذفات فوق أسطح ٣ حاملات طائرات بريطانية ، ثم وحدتان من طائرات هليوكبتر للاقتحام فوق ظهر حاملتين أخريين ثم ٦ أسراب أخرى رابضة فى قواعد بريطانية قريبة من مصر بالأردن أو عدن .

من هذا كله . . يتضح أن لبريطانيا ٥٥ سرباً ونصف سرب ، ووحدتى اقتحام هليوكبتر وكان هذا العدد كله موجهاً لخدمة حملة مصر .

وإذا أضيفت لهذه الأرقام قوة الطيران الفرنسى المخصصة لحملة مصر . . وقد بلغت الآتى : ٢١ سرباً فى قواعد قبرص وإسرائيل ، ٣ أسراب تعمل من فوق ظهور حاملات الطائرات الفرنسية . . يكون مجموع قوة الطيران الفرنسى ٢٤ سرباً . .

وإذا أضيف الرقم الفرنسى لقوة الطيران إلى الرقم البريطانى لأصبح المجموع ٧٩ سرباً ونصف سرب . . كلها للهجوم على مصر من الجو . . ولو حاولنا ترجمة هذا الرقم إلى أعداد الطائرات . . نجد السرب البريطانى يضم من ١٠ إلى ١٢ طائرة . وهذا يعنى أنه عموماً تعرضت مصر لهجوم ٧٩٥ طائرة إلى ٩٥٤ طائرة نفاثة !

* * *

وفى البحر . . أعدت حملة الغزو البحرية لتضم خمس حاملات طائرات بريطانية تعمل كمطارات متحركة تقترب من الشواطىء المصرية . . وهى الحاملات إيجل ، تيسوس ، بولو أرلت ، ألبيون أوشن . . بالإضافة إلى ٥ طراد ، ١٢ مدمرة ، ٧ فرقاطة ، ٧ غواصة ، ٤ كاسحة ألغام ، سفينة لبث الألغام ، ١١ ناقلة جنود ، ١٤ سفينة لإنزال الجنود والدبابات ، ومجموعة أخرى من السفن بينما قدمت فرنسا لأسطول الغزو البحرى البارجة جان بارت ، وحاملتى الطائرات لافييت وأروماسيون ، ٢ طراد ، ٤ مدمرة ، ٨ فرقاطة ، ٢ غواصة ، وفى البحر الأحمر كانت قوة بحرية مكونة من الطراد نيوفوندلاند والمدمرتين كرين ودايانا البريطانيتين ، والمدمرة جازيل الفرنسية .

* * *

ولم تكن هذه هى كل القوة المعدة لحملة مصر . . فقد كانت اسرائيل قد سبقت غزو بور سعيد بهجومها على سيناء لتصنع الذريعة المطلوبة . . وكانت اسرائيل قد حشدت للهجوم على الجيش المصرى بسيناء قوة مكونة من ١٨ لواء مشاة ومدرع ، ١٠ كتائب مشاة ، ١٦ كتيبة مدفعية ، ١٩٢ طائرة مقاتلة و٥٠ طائرة أخرى قاذفة قنابل ، ٣٣ طائرة نقل ، ٥٥ سفينة بحرية وزورق ووحدات أخرى مساعدة .

ولو جمعت الحشود البريطانية والفرنسية والاسرائيلية التى وجهت ضد مصر خلال العدوان الثلاثى ، لوضح أن القوة التى هاجمت مصر كانت قوة هائلة وتحقق عنصر التفوق بشكل مؤكد . . وكاحصائية أخيرة تبين القوى التى تهاجم مصر يبدو أن مصر تعرضت لما يأتى:

الهجوم يضم ٣٨ لواء من جنود المشاة ومن المدرعات يعتمد على قوة ضاربة تتكون من ٧٥٠ دبابة . . وتقدمت الحملة تحت طلقات ٢٥١٠ مدافع . . وبدأ غزو شاطىء بورسعيد فى ظل فوهات مدافع بارجة و ٧ طرادات و ٢٠ مدمرة و٢٠ فرقاطة و ٢٢ لنش طوربيد ترافقها ٩ غواصات . وعملت ١٣٤ سفينة أخرى فى خدمة الحملة ، تحمل جنودها وتموينها وذخائرها وطائراتها . . وتم هذا كله فى حماية ٢٨ سربا من المقاتلات و ٢٥ سربا من قاذفات القنابل المقاتلة و ٢٣ سربا من

قاذفات القنابل . . كما ساهم فى سرعة امداد الحملة ١٩ سربا من طائرات النقل الجوى . . وقام ٩ أسراب ونصف سرب من طائرات الاستطلاع تسبق اقتراب الحملة من مصر للاستكشاف علاوة على خدمات سربين هليكوبتر اقتحام و١٥ سربا للامداد الجوى .

« ستوكويل » يقدر القوات المصرية

وكما صنعت القيادة المصرية ، اذ حصلت على أوثق المعلومات عن قوات العدو كذلك حاول العدو بكل وسائله ، ومنها التصوير الجوى ، أن يحصل أيضا على كل المعلومات المتاحة عن قواتنا ، وعلى أساس هذه المعلومات بنى خططه .

وكان الجنرال ستوكويل ، هو القائد الانجليزى للقوات المهاجمة . . تحت القيادة العامة للجنرال كيتلى . .

وبمناسبة مضى عشر سنوات على العدوان ، نشرت جريدة الصنداى تلجراف الانجليزية مذكرات ستوكويل عن حرب السويس ، وقامت بترجمتها جريدة الأخبار فى ٣١ / ١٠ / ١٩٦٧ .

وقد جاء فى هذه المذكرات عن القوات المصرية ما يلى :

كان السلاح الجوى المصرى يمثل تهديدا كبيرا لطائراتنا ، سواء من ناحية العدد أو نوع المعدات . لقد كان لدى السلاح الجوى المصرى ما يتراوح بين ١٥٠ و ٢٠٠ من المقاتلات جزء كبير منها من طائرات ميج ١٥ وكنا نعتقد أن لدى المصريين عددا من أحدث المقاتلات السوفيتية من طراز ميج ١٧ . وكان لديهم أيضا طائرات فامباير ومتيور . مع حوالى ٤٠ أو ٥٠ قاذفات قنابل من طراز إليوشن ٢٨ ومجموعة من طائرات النقل وطائرات التدريب .

وكان الجيش المصرى قد نما على يد عبد الناصر وأصبح قوة مفيدة ذات تسليح جيد وكانت معظم معداته سوفيتية . وكانت معنوياته قد ارتفعت وبالتالى تحسنت كفاءته فى القتال . وكان لدى الجيش المصرى ما يتراوح بين ٢٥٠ و ٣٠٠ دبابة ،



ماء على رماد الحرائق فى بور سعيد ثم معاودة للجهاد فى سبيل الحرية

دبابات سنتوريون البريطانية تدعمها دبابات ستالين و ت ٣٤ وت - ٩٥ السوفيتية وكلها دبابات حديثة سريعة ذات مدافع قوية . كذلك كان لدى الجيش المصرى عدد كبير من المدافع المضادة للطائرات ومعدات الرادار . وكانت قوات المشاة المصرية تضم ٧٥ ألف جندى .

وكان الجيش المصرى موزعا إلى قوات فى سيناء ، للدفاع ضد أى تهديد اسرائيلى أو كقوة ضاربة ضد اسرائيل ، وقوات فى مصر موزعة للدفاع عن بور سعيد والاسكندرية ، مع احتياطى رئيسى موجود للدفاع عن القاهرة .

وكانت الخطة العامة التى أعطيت لنا أن نقوم بعملية جوية ضد السلاح الجوى المصرى تتبعها عند الضرورة عملية هجوم على الطرف الثانى من قناة السويس . . وكان المقرر أن تكون هناك أيضاً عملية ضد الاسكندرية الهدف منها تحويل الأنظار . وكانت الخطة تتضمن القدرة على التقدم على طول القناة بعد هذه العمليات الأولية الجوية والبرية — أ . هـ.

ويبدو من هذا البيان أن الإنجليز لم يستطيعوا الحصول على معلومات كافية عن الدبابات التى فى حوزة الجيش المصرى . كما إنهم أخطأوا التقدير فى إهمالهم قدرة السلطات المصرية على الاستيلاء على المخزون البريطانى من العتاد فى قاعدة قنال السويس .. وقد تم اعتقال الخبراء الانجليز والحصول على كافة ما فى القاعدة سليماً .. وهى كميات هائلة من جميع معدات الحرب باستثناء الطيران . .

أما الطيران المصرى ، فقد حدث قبل ابتداء العدوان بيوم واحد أن طائرات انجليزية أسرع من الصوت ، كانت تطير على ارتفاع أربعين ألف قدم ، فهاجمتها طائرات مصرية ، وأصابت واحدة منها وكان لهذا الحادث وقع عميق لدى إيدن وأعوانه من المعتدين . . قال فى مذكراته .

« فى مساء يوم ٢٩ أكتوبر كنت أتحدث مع وزير الدفاع (أنطونى هيد) ومع رئيس أركان حرب الطيران ، وقلت لهما إن من المهم لنا أن نحصل على معلومات يمكن أن نعتمد عليها اعتماداً أكيداً ، بحيث تصل إلينا فى صباح اليوم التالى ، وفى الفجر قامت أربع طائرات استكشاف من طراز « كنبيرا » بالتحليق على ارتفاع يتراوح

بين ٣٠ و٤٠ ألف قدم ، بقصد تحديد مواقع القوات المتحاربة وتصويرها إن أمكن ، وبالرغم من أنها كانت تحلق على ذلك الارتفاع الكبير ، فقد تعرضت للنيران ، ولكنها عادت سالمة ، رغم أن إحداها أصيبت .

« فلما علمت (إيدن يكتب) بما حدث لتلك الطائرات فكرت فى الأمر بشىء من القلق . ولقد دهشت بعد ذلك حين ابتعد سلاح الطيران المصرى عن القتال . ولم أفهم السبب . . ربما كانوا طيارين من دولة أخرى هم الذين كانوا يقودون الطائرات « الميج » التى تعرضت لطائراتنا فى الفجر ، أثناء قيامها بعمليات الاستكشاف » .

ولم يكن هناك طيارون من دولة أجنبية كما زعم إيدن . وقد ذكر عبد الناصر بعد ذلك ، أن عدد طيارينا كان أربعين طياراً فقط ، فلم تكن تدريباتهم على « الميج » قد تمت . وقد قاموا بدورهم فى سحق الطيران الإسرائيلى والفرنسى ، ثم رأت قيادتنا أن تودع الطائرات فى أماكن بعيدة عن متناول العدو ، لكى تتدخل فى المعركة فى الوقت المناسب : وبالطريقة المفاجأة التى تربك العدو . .

وبمناسبة القوات المهاجمة من قبل الانجليز والفرنسيين ، يجدر إكمالا لهذا البحث ، أن نورد البيان الرسمى للمعونة الفرنسية التى زود بها الجيش الإسرائيلى الخائب ، والذى « اتوحل » كما عبر الرئيس عبد الناصر أمام أبو عجيلة ورفح ، دون أن ينال من المدافعين عنها رغم التفوق الهائل فى العدد . . فلما صدر قرار الانسحاب من سينا بعد تدخل الانجليز والفرنسيين ، أخذ موسى ديان (يبرطع) فى الطرق الأسفلتية ، لأنه لم يجد أمامه أية مقاومة .

قالت البيانات الرسمية عن معونة حكومة فرنسا تحت زعامة حزبها الاشتراكى ، لجيش إسرائيل ما يلى :

قبل ابتداء العدوان الإسرائيلى بأربعة أيام تحركت قطع الأسطول الفرنسى كريسانت وسيركوف وبوفيه وجورج ليجوس فى اتجاه إسرائيل ، للقيام بحماية سواحلها تنفيذاً لما تم فى سيفر .

وفى يوم ٢٣ أكتوبر تحرك الطيران الفرنسى إلى المطارات الإسرائيلية ، تحرك الجناح ٦٤ نقل جوى من طراز « نورد » من قوات حلف الأطلنطى من قاعدة سان ديزيه الفرنسية إلى مطار اللد الإسرائيلى .. وتحرك الجناح الثانى مقاتلات مستير (١٤) من ديجون إلى حيفا . وتحرك الجناح ٦٤ نقل جوى من طراز (نورد أطلس) إلى حيفا . وفى ٢٨ أكتوبر وصل ٦٠ طياراً فرنسياً إلى ميناء حيفا ، وقبلها فى أوائل أكتوبر كانت الأسلحة الفرنسية تتدفق على إسرائيل . ووصل إلى اسرائيل ٣٦ طائرة مستير ١٤ ، ٣٠٠ دبابة سوبر شرمان ، ٣٠٠ ناقلة جنود مددى ٦ × ٦ و ٢٠ ناقلة دبابات .. علاوة على ١٠٠ دبابة قدمتها فرنسا فى أوائل عام ١٩٥٦ .

ضرب الطائرات ستة أيام

ظلت الطائرات الإنجليزية والفرنسية ، وقد قارب عددها الألف طائرة ، تقذف المواقع المصرية ستة أيام متوالية ، هى المدة اللازمة لوصول القوات الإنجليزية الفرنسية من مالطة ، وانضمامها إلى القوات المبحرة من موانى قبرص .

ولم تكن تحركات الأسطول الهائل ، بحمولته من الرجال والعتاد خافية على قيادتنا ، وكان القصد من استمرار ضرب المدن والطرقات هذه المدة الطويلة تحطيم المعنوية المصرية ، ولكن الجنرال ستوكويل اعترف بأن النتيجة كانت عكسية ، إذ قال فى مذكراته : « لم أكن مقتنعاً بأن إطالة فترة الحرب الجوية يمكن أن تحرز النصر فقد أثبتت التجربة أن ذلك من شأنه أن يزيد المقاومة » .

والحقيقة أن ثبات الشعب المصرى فى هذا الموقف يحتاج إلى كثير من التأمل والتحليل ... فلم يحدث أن فزع الناس ، وحاولوا الفرار من المدن إلى الريف وملأوا الطرق ، وعرقلوا حركة النقل العسكرى ، كما حدث من الشعب الفرنسى فى الحرب العالمية الثانية . فعلى الرغم من احتمائه وراء خط ماجينو إلا أن ضرب الطائرات الألمانية أحدث من الرعب ما جعل فرنسا كلها تهرع ملتمسة الفرار

إلى الريف . وتوقفت التنقلات العسكرية تماماً ، مما مكن هتلر من أن يجتاح فرنسا فى أيام .

ولم يحدث أيضاً خلال هذه الأيام الستة ، أن فكر مواطن مصرى واحد ، أن يزيد مخزونه العادى من التموين .. فمن كان يحصل على قدر معين من السكر أو الشاى أو الدقيق أو الوقود ، حافظ على هذا القدر ، وربما انقص منه .

وكان البريجادير فرجسون يدير الحرب النفسية من قبرص ، ويوجه إذاعات مسمومة مضللة للشعب المصرى ، فيقول إن الطائرات ستضرب موقع كذا ، وموقع كذا .. ابتعدوا عنه . وطريق كذا وطريق كذا تجنبوه .. وما من مصرى اهتم بكلمة من هذا الهذيان الذى كان يذاع ، حتى بعد أن نجحت طائرات العدو فى تحطيم محطات الارسال فى أبو زعبل ، وتوقف صوت القاهرة عن العمل .

وقد وجه الجنرال ستوكويل ، اللوم لفشل الحرب النفسية ، وقال : « كنت أشك فى جدوى وقيمة الحرب النفسية » .

ولعل أسخف المنشورات التى ألقتها الطائرات ، أنهم حاولوا أن يستعينوا بسلاح النكته الذى يعجب به المصريون ، فكانت النكتة التى اهتدى إليها الانجليز باردة مثلهم .. كتبوا كلمة بورسعيد ، وقالوا تحتها إن عبد الناصر أخذ « سعيد » وترك لكم « بور » !! .

ولنضرب مثلين اثنين فى الداخل لنتائج الهجوم الجوى ، ومثلين من الخارج لكى نكشف بها عن حقيقة المعدن النبيل الذى صاغ الله تعالى منه هذا الشعب العربى بكل طبقاته ، وفى جميع ظروف الحياة التى يحياها . .

فى مساء ٢ نوفمبر صدر البيان الرسمى المصرى التالى ، وهو رقم ١٥ :

« أغارت الطائرات الانجليزية والفرنسية على المدن المصرية ، وقد أصابت بقنابلها ١٠٠ قتيل و٤٠ مصاباً فى أبى زعبل ، وهدمت ٧ مراكز فى أبو حماد وقتل ٣ أشخاص بها . وأصيبت محطة ماركونى . وهدمت كنيسة للأقباط فى عين شمس ، كما حدثت بعض التلفيات المادية الأخرى فى بعض المدن .

أسقطت قواتنا المسلحة ١٤ طائرة فرنسية وانجليزية وهذا بيان عنها : طائرتان فى بور سعيد ، ومثلها فى الاسكندرية وواحده فى رشيد و ٩ فى القاهرة » .

وهذا البلاغ يدل على شمول القصف الجوى لكثير من المدن . وقد كانت الخسارة الكبيرة فى الأرواح ، فى سجن أبو زعبل ، إذ تهاوت فوقه احمال ضخمة جداً من القنابل . . وقد تهدمت مبانيـــه . وأصيب بعض ضباطه وجنوده إصابات قاتلة . وهرع الذين نجوا من المسجونين يسعفون حراسهم ، وينقلون الجرحى إلى أماكن أمينة .. ولم تسجل بعد الغارة غير أربع حوادث هرب ، عاد أصحابها من تلقاء أنفسهم خلال الأسبوع التالى لهـــذه الغارة الوحشية .. وكان كل ما يتمناه هؤلاء المسجونون أن تتاح لهم فرصة لقاء مع العدو ، لكى يثأروا من ضحايا هذه الغارة .

هذه قصة . . وقصة أخرى شاهدتها بنفسى فى قرى الدقهلية والشرقية . . . فقد كنت أطوف أثناء اشتداد الغارة بها[1] ، وأنا فخور بالسكينة التى أسبغها الله على نفوس هذه الملايين من أبناء الشعب الذين تجاور قراهم منطقة العمليات الحربية ، وكانت القيادة المصرية قد أجلت من منطقة القنال عدداً من المدنيين من الاسماعيلية وحولها ، فنزلوا فى قرى الاصلاح الزراعى ، والقرى الأخرى . . وترك لهم فلاحونا الطيبون مساكنهم ، وقالوا : حسبهم أنهم تركوا كل شىء وراءهم . . بل لقد حدث أن رفض معظم هؤلاء المواطنين الطيبين أن يحصلوا على معونة من وزارة الشؤون الاجتماعية لتموين هؤلاء المهاجرين ، قائلين : سنقتسم اللقمة الموجودة مع اخوتنا وضيوفنا ، وهذا شرفنا ، ونصيبنا المتواضع فى المعركة حتى الآن .

والواقع ان كل مصرى كان يحس بواجبه المقدس فى الدفاع عن وطنه إزاء هـذا التعصب المجنون . . وهو تصميم أحسه من قبل المواطنون الذين وقفوا ضد نابليون

---

(١) كنت أعمل وقتها مستشارا صحفيا للاصلاح الزراعى .

فى معركة الألف يوم . . وهو تصميم أحسه المصريون ، بعد ذلك فى كل مواقف الفداء التى خاضوها .

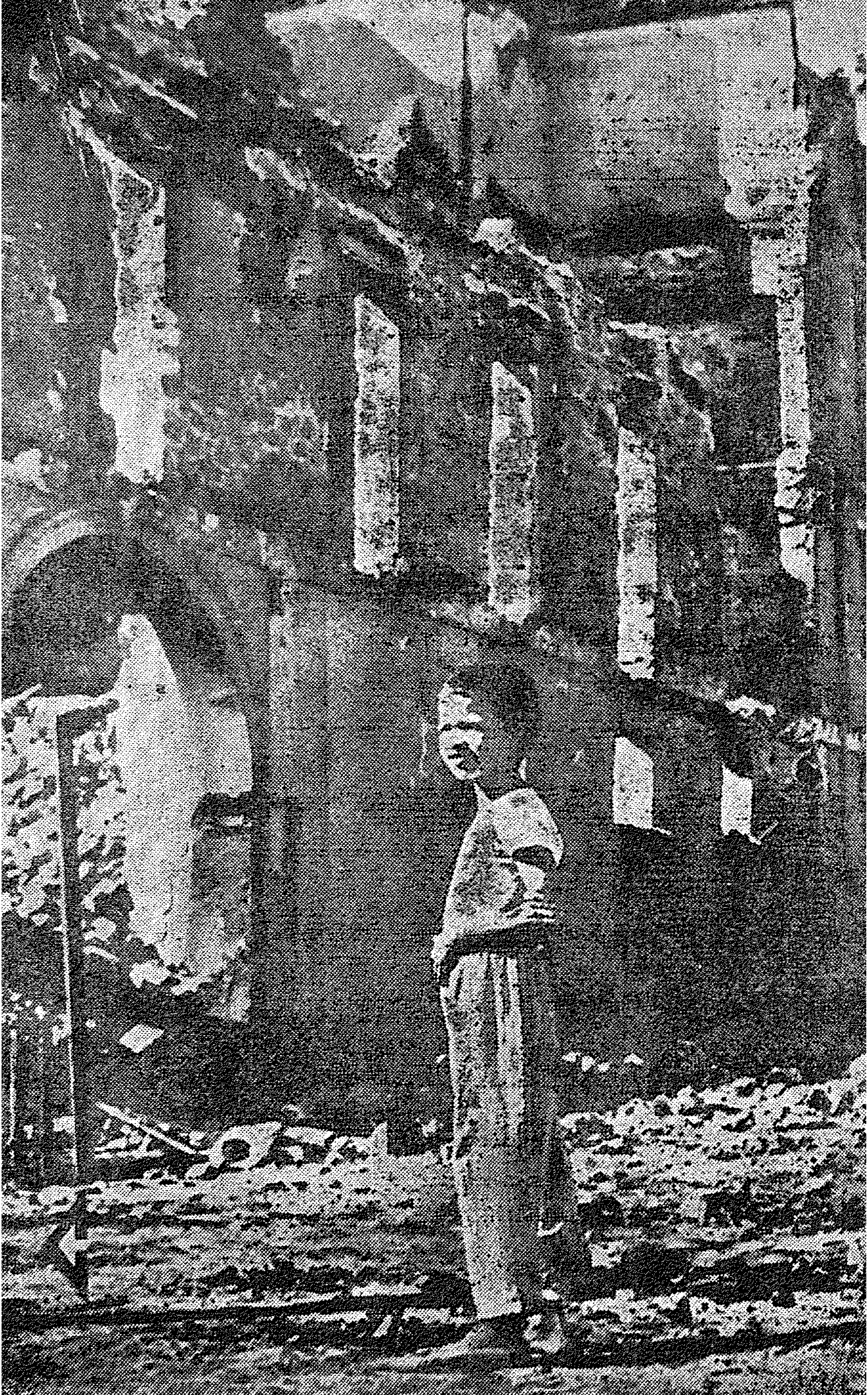
أما فى الخارج ، فقد كان كل مصرى يكافح كفاحاً مستميتا ليعود إلى الوطن ويساهم فى معركة الشرف والفداء . . وحتى تتاح لهم العودة كان مصريون من الإذاعة فى ليبيا (سيد الغضبان وإخوانه) يركبون على ظهر السيارات ويخطبون فى الجماهير العربية ، وآخرون فى عمان والقدس ، أداروا الإذاعة الأردنية على أنها إذاعة القاهرة ، حتى يظل اسم القاهرة يملأ الهواء . وصحفيون فى بيروت (محمود السعدنى وإخوانه) يصدرون جريدة عن يوميات المعركة .

وهناك فى أقصى الأرض . . فى الصين كانت توجد بعثة فنية برياسة الفنان المصرى الكبير عبد السلام الشريف ، تقيم معرضاً فنياً ، ثم حدث العدوان ، وانقلبت مدن الصين الكبرى إلى ساحات هائلة ممتلئة بأنباء هذا الشعب المجيد . وكان العدد القليل من المصريين (السفير حسن رجب والبعثة الفنية) يظهرون لهذا الطوفان البشرى محيين شاكرين باسم مصر . . فقد أحسوا أنهم فى مصر فعلا . . وسنذكر فيما بعد ما دار بينهم وبين ماوتسى تونج .

النزول فى بور سعيد

مضت الأيام الستة . . وفى أثنائها توجه جمال عبدالناصر إلى الأزهر يوم ٢ نوفمبر سنة ١٩٥٦ . . وفى الطريق لمحه أفراد من الشعب ، فأخذوا يلاحقون سيارته وهم يصيحون : حنحارب . . حنحارب . . وما أن وصل إلى شارع الأزهر ، حتى قطع المسافة القصيرة فى أقل من نصف ساعة لكثرة تزاحم الجماهير حوله ، وإعرابها عن شىء أكثر من الثقة به ، وبالمعركة ، وهو الإيمان بحتمية النصر .

وعلى المنبر الشهير . . وفى ساحة الأزهر ، التى شهدت أحداث ألف سنة ، وكانت هى الإشعاع الوضاء لمعانى العزة والإباء . . وسجل تاريخ غزاة أقبلوا ، يجلجلون فى عدة الحرب وضوضائها ، فإذا روح المقاومة المنبعثة من الأزهر ، وكل ما يمثله من علوم الدين والدنيا ، ومن وجدان الحضارة المستقر فى أعماق هذا الشعب . . إذا هذه الروح تؤدى عملها ، وتكر على البغاة ، فتكتسحهم ، وتردهم خائبين .



بور سعيدى صغير بين أنقاض مدينته ، ولعله كان يسأل نفسه :
لماذا فعل الانجليز بنا هذا ؟ ٠ لابد من الثأر

من على منبر الأزهر ، وقف جمال عبد الناصر ، يعبر عن ضمير هـذه الأمة ، ويقول : « سنقاتل فى كل مكان . . ولن نسلم . . وسيكون شعار كل فرد منا فى القوات المسلحة والشعب : سنقاتل ، ولن نسلم » .

وفى بورسعيد ، كانت « الارامادا » البحرية المكونة من سفن إنجليزية وفرنسية، قد وصلت ، وبدأ قذف مركّز على مناطق النزول ، وهى الجبـــانة ، وبور فؤاد ومطار الجميل ، قامت به الطائرات ، حتى إذا حسبت أن المقاومة توقفت فى هـذه الأماكن بدأ المظليون يهبطون . .

كان اسم الكتيبة الأولى التى كلفت باحتلال المطـار : الشياطين الحمر ، وكان قائدها البريجادير بتلر . . وماكادت الدفعات الأولى من جنوده تهبط ، وهى مكونة من ٢٥٠ جندياً ، حتى اندلعت من تحتها ألسنة الجحيم ، وأبيدت عن آخرها .. فتوالى ضرب شديد مركز مرة أخرى ، ثم أنزلت دفعة ثانية ، وكان هدفها مطار الجميل .. ووصف « بيتر وودز » مراسل الديلى ميرور العسكرى وكان مرافقاً لقائد الحملة ، ما حدث بقوله :

« ماكاد جنودنا يشرعون فى الهبوط ، حتى تحولت السماء إلى جحيم من الرصاص، بفعل المدافع المضادة للطائرات والمدافع الأوتوماتيكية ، والدبابات والأسلحة الصغيرة . وكان المصريون فى انتظارنا فى كل مكان . وكنا كلما تقدمنا نحو برج المطار، ازداد عدد القتلى والجرحى من رجالنا . وفى خـلال نصف ساعة ، امتلأت المحطة بالجرحى ، من الهابطين ، وشرع الجراحون فى العمليات الجراحية . وشظايا القنابل تخترق نوافذ صالة العمليات . وأنا أكتب الآن من الصالة الداميـة ، وفى مواجهتها الدبابات المصرية تضرب جنود المظلات . وقال لى البريجادير بتلر ، قائد العمليات ، إن هناك دبابات أكثر مما كنا نظن . ولا يمكننا عمل شىء بسبب المقاومة التى يلقاها الهابطون » .

حدث ذلك فى صباح يوم ٥ نوفمبر ، وصدر فى الساعة العاشرة والنصف صباحا ، البلاغ الحربى المصرى رقم ٣٤ يقول : إن قوات مصر سيطرت على الموقف تماماً . وقضى تماماً على قوات النزول . والشعب كله يشترك فى المقاومة . وسقطت ٧ طائرات عند ما حاولت أن تسقط أسلحة وذخيرة لجنود المظلات . العدو يحاول ضرب بورسعيد من الجو لفشل هجومه ويحاول إنقاذ قواته .



أم مع جثة ابنها الذى صرعه العدوان على بور سعيد ، واخوانه ينقلونه بعربة يد الى مثواه الأخير ٠٠ ظروف المعركة لم تسمح بغير هذه الوسيلة

وواصل العدو هجومه الجوى بأمواج متلاحقة لإقلال المقاومة . . وأخيراً اضطر إلى الاستعانة بمدفعية الأسطول ، وضرب المدينة كيفما اتفق ، وذلك علاوة على ضرب الطائرات . . ولما تأكد للجنرال ستوكويل ألا فائدة من كل عملياته يوم ٥ نوفمبر ، لجأ إلى الحيلة ، إذ أسقط من الطائرات دمى ، وعرائس على شكل الجنود، تهبط بالمظلات ، فأخذت النيران المصرية تحصدها ، ومن وراء قوات المقاومة أنزلت جنود حقيقية بأعداد ضخمة جداً ، حتى أخذت لنفسها موقع قدم ، آتشبث به ، ثم توالى النزول جواً وبحراً ، فى منطقة الجميل ، وفى بورفؤاد (للقوات الفرنسية) ، وذلك تحت حماية مدفعية الأسطول .

ظروف القتال بالنسبة للانجليز

وكان مقدر سلفاً ، أن بور سعيد هى نقطة مقاومة ، يطلب منها اثخان العدو بالجراح ، أما موقع الالتقاء مع العدو لجنوب بور سعيد ، حيث يبتعد الإنجليز والفرنسيون عن حماية مدافع الأسطول .

وكانت القيادة العامة للقوات المعتدية تقدر المخاطر الجمة للخطوة التالية ، بعد أن تتخذ لها مواقع أقدام فى بور سعيد ، فقد اندمج الجيش المصرى مع الشعب وأطلقت قيادتهم السرية على نفسها اسم « قوات المقاومة الشعبية » ، وتأهبت لحرب شوارع ومنازل مريرة . . ولا نستطيع أن نقـــدر عدد قوات المقاومة . ولكن أهل بور سعيد ، مع كتيبة من الجنود والضباط ، كانت هى القوات . .

أما الخطوة التالية — التى لم تحدث — فقد تحدث عنها الجنرال ستوكويل قائدهم ، فقال فى مذكراته .

« لم تكن بور سعيد مكاناً مرضياً بالنسبة لمهمتنا . إن أقرب مطار مناسب يوجد فى أبو صوير على بعد نحو ٥٠ ميلا إلى الجنوب ، وقريب من إحدى المناطق التى يحتمل أن يحشد فيها المصريون قواتهم المدرعة . . . وكانت المدينة أشبه بسدادة زجاجة ذات عنق طويل جداً . وكان علينا أن ننزع السدادة ونحشر أنفسنا فى العنق . ونتقدم فيه . . . وكانت عمليات النسف فى طريق تقدمنا من بور سعيد ، كفيلة بأن تسبب لنا مضايقات لا نهاية لها .

« وكانت بور سعيد تتصل فى طرفها الجنوبى بالممر الذى يربطها ببقية أنحاء البلاد عن طريق جسرين يمران فوق قنال تؤدى إلى بحيرة المنزلة . وكان واحد من الجسرين فقط قوياً ، بدرجة يتحمل معها الدبابات السنتريون . . وكان فى استطاعة المصريين تدمير الجسرين . وعندئذ يكون علينا أن نرسل معدات لإقامة جسور فى مقدمة قواتنا ، إذا لم نستطع أن نحتل الجسرين سليمين .

« كذلك كان يمكن تدمير القنال التى تنقل المياه العذبة إلى بور سعيد (ترعة الإسماعيلية) وكان هذا كفيلا بأن يسبب لنا مشكلة الحصول على المياه العذبة بالنسبة للمدنيين (كذا) ! ، وأيضاً للقوات » .

والواقع إن الصراحة التى تحدث بها الجنرال ستوكويل ، ترد على خرافة الادعاءات الفرنسية التى انطلقت تزعم أنه لولا توقف القتال لكانت قواتهم وصلت إلى الاسماعيلية والسويس . . . وإن الأمر كان محتاجاً إلى ٤٨ ساعة فقط . . . وقاحة لا أكثر !

إن إلقاء نظرة على حالة الجنود المعتدية ومعـــداتها تضيف جديداً إلى هذه الدراسة . . ومرة أخرى نستطيع الاستعانة بصراحـة الجنرال ستوكويل . . فقد قال :

« إن المدة الطويلة التى أجلت فيها الحرب ، تسببت عنها مشكلات كثيرة . فقد ظلت السفن مشحونة بالعربات والمؤن لأكثر من شهر . وبدأت بطارياتها فى الهبوط . وكانت فى حاجة إلى صيانة مستمرة . وكان من الضرورى تفريغ بعض السفن دون أن نتحقق من الموعد الذى يتحتم الإبحار فيه . . . ولم تـكن لدينـا فـكرة عما إذا كانت خطة « موسكتير » سيكتب لهـا النجاح أو الفشل الفورى . ولـكننا جاهدنا فى مقر القيادة السرى لنخرج بنظام معقول للمعركة » .

ورطة ايدن .. وقتال بور سعيد

قال ت . روبرتسون فى كتاب « الأزمة السرية » ما يلى :

« امتلأت منطقة القنال من السويس إلى بور سعيد بالأرتال المنسحبة من المشاة والمدرعات المتجهة إلى الغرب قادمة من الصحراء . وفشلت الخطة الثلاثية فى جذب



بقايا طائرة انجليزية سقطت فى هذا الحقل وهذا الفلاح يحمل غنيمته ..

ثلث الجيش المصرى إلى سيناء ، كما تمنت بريطانيا وفرنسا . ووجدت الدولتان أن أربعين ألف جندى قد جاءوا من الشرق إلى خط الهجوم المشترك . وكانت النتيجة أن اكتشف وزير دفاع فرنسا (بورجيز — مانورى) أن محاولاته لاستعجال العمليات تلقى مقاومة عنيدة من الجنرال البريطانى كيتلى المعروف بتأنيه وحذره . لا سيما وقد ازداد هذا الحذر من جراء توافر الأدلة على أن خطوط الدفاع المصرية القوية فى بور سعيد ، قد تعززت الآن بالقوات المتدفقة من شرق منطقة القنال (سيناء) » .

وهكذا أوقعت الخطة المصرية بتوحيد جبهة القتال ، ارتباكاً تاماً فى تحركات العدو . . فقد وضع قدمه تحت حماية مدفعية الأساطيل الضخمة على شريط ضيق من أرض بور سعيد ، وواجهته المقاومة الشعبية بعناد ضخم ، وتحفز كامل . . وراح عنق الزجاجة بعد بور سعيد ، يتحول فى نظر كيتلى وستوكويل إلى منطقة مظلمة محفوفة بأعظم المخاطر .

وهنا وقع حادث من الحوادث التى يدبرها القدر ، ولم تكن فى حساب المدافعين أو المهاجمين . . فقد فهم إيدن خطأ ، بعد إنزال الجنود الأولى فى بور سعيد ، أن المدينة استسلمت . وكان مجلس العموم فى لندن منعقداً وسلوين لويد وزير الخارجية مشتبك فى مناقشة حامية مع المعارضة ، وإذا بإيدن يقف ويعلن استسلام بور سعيد .

يقول إيدن فى مذكراته . « تجلى الأثر على الفور ، إذ نهض مؤيدو الحكومة على أقدامهم يهتفون ، ويلوحون بأوراقهم ، بينما سكتت المعارضة مؤقتاً مغلوبة على أمرها . وبهذا الإعلان أنبأت العالم بوقف إطلاق النار » .

يستمر إيدن فى روايته : « وفى الساعة السابعة مساء جاءتنا إشارة أخرى تقول إن القتال مستمر !! »

« ماذا حدث ؟ (إيدن يكتب) إن من الصعب الاعتقاد بأن محافظ بور سعيد كان يتفاوض لوقف إطلاق النار ، ثم إلى التسليم فعلا بدون علم الحكومة . ولابد أن ناصر كان يعلم خلال هذه الساعات الخمس ماذا يجرى فى بور سعيد . . . إننى واثق أن هذا التغيير كان بناء على رأى جهة بعيدة . . . »

وروى إيدن تحريفات عن إشاعات نزول الروس إلى المعركة ، فى الوقت الذى كان آخر خبير من المهندسين الروس فى السد العالى، قد وصل إلى الخرطوم فعلا ، أى كان على مسافة ثلاثة آلاف كيلومتراً عن مكان المعارك !

ثم استطرد إيدن : « وعندما استؤنف القتال ، اتخذ شكل الاقتناص ، وأساليب حرب العصابات فى المناطق المزدحمة بالمبانى ، وفى خلال هذه الفترة الأخيرة ضربت المدينة بالقنابل . . . وكان القتال الذى دار فى الشوراع معقداً ، إذ أن معظم القوات النظامية المصرية ، اختلطت بالمدنيين الذين كان أكثرهم مسلحاً أيضاً . . وصمدت مراكز المقاومة » .

واضطر إيدن أن يعود إلى مجلس العموم ، ويعلن أنه أدلى ببيان غير صحيح للمجلس ، وأن الحرب مستمرة .

وكما أدى رجوع القوات المصرية من فخ سيناء سالمة ، إلى ارتباك فى خطط الجنرال كيتلى العسكرية . كذلك أدى إعلان بيان كاذب فى مجلس العموم ، إلى ارتباك أكبر فى خطط إيدن السياسية .

وإذا كان إيدن قد حار فى مذكراته عن الجهة التى كانت تعطى التعليمات لبور سعيد ، فيمكن أن نفسر له اللغز الآن .. فالاتصال اللاسلكى ، كان ممكناً . . وهذا أمر بديهى . . وإذا كان المعتدون قد قطعوا المواصلات التليفونية ، فإنهم لم يفطنوا إلى وجود كابل بحرى تحت الماء يربط بور سعيد بالإسكندرية وبهذا كان الاتصال بالمدينة الباسلة ممكناً جداً . . . وكانت القيادة المصرية تعطى تعليماتها ، وهى تعلم تفاصيل ما يحدث دقيقة بدقيقة .

وقد روى العميد الموجى قائد القوات المدافعة عن بور سعيد ، قصة الساعات الثمينة التى كسبها من العدو ، لتنظيم قتال الشوارع ، بعد يومين من مواجهة معركة الشاطىء والمطار .. قال :

بعد أن استولى المظليون الفرنسيون يوم الإثنين ٥ نوفمبر على وابور المياه فى الرسوة وقطعوا اتصال بور سعيد البرى بالإسماعيلية ، طلبوا من المهندس المصرى

هناك أن يساعدهم فى الاتصال بالسلطات المصرية ، للاتفاق على تجنب المدنيين ويلات القتال . فساعدهم فى الاتصال تليفونياً بالقائمقام حسن رشدى الضابط المصرى بالبوليس ، الذى أبلغ ذلك إلى الحكمدار اللواء حسن البنا ، فأبلغه بدوره إلى السيد المحافظ محمد رياض . . واتصل بى مساعده القائمقام أنور حسين الذى كان حاكم المدينة العسكرى حينئذ ، ورفضت الطلب بإشارة من يدى ، وكان ذلك حوالى الظهر .

وحوالى الساعة الرابعة بعد ظهر ذلك اليوم ، ساء موقف المدينة المدنى بسبب قطع المياه عن بور سعيد ، حتى أن المستشفيات لم تكن تجد المياه اللازمة ، وتعرض المهاجرون المدنيون ، عن طريق المنزلة ، للعدوان الذى كلف مئات الأرواح من الضحايا .

وقبلت مقابلة مندوبى المتعدين . وتم بالفعل وقف مؤقت لاطلاق النيران ، كان بلاشك كسباً للمدنيين . وقد وجدت فى أنظارى البريجادير بتلر البريطانى والكولونيل ساتو جبير الفرنسى . وقد بادرتهما بقولى : أنا جئت لسببين هما قطع المياه عن البلد ، وقتل المدنيين المهاجرين .

وكان كلامى واضحاً ، فقد درست العلوم العسكرية فى انجلترا مدة خمس سنوات . . قلت :

— يا بريجادير إنى أحملك شخصياً مسؤولية عدم التفرقة بين المدنيين والعسكريين خصوصاً وأن القتال القاسى وسفك الدماء لم يبدأ بعد . . فصاح بتلر مندهشاً :

— قتال قاس ! لقد حدث ما فيه الكفاية من القتال وإراقة الدماء . قلت :

— أريد أن أعرف لماذا طلبتم الاتصال بنا فى الصباح . . فقال :

— للبحث فى إمكان حقن الدماء . . فقلت :

— ما دمتم على أرض مصرية ، فإراقة الدماء ستستمر . . فقال :

— ولكنك كنت تتكلم عن ٦٠٠ مدنى قتلوا حتى الآن . . فقلت فى تصميم :

— أن الحرب ستستمر . . ولكنى أحب أن يكون الثمن الذى يدفعه المدنيون فى أضيق الحدود .

وقدم البزيجادير بتلرورقة عليها عنوان : شروط الاستسلام . فرفض الأميرلاى الموجى النظر فيها وأعادها قائلا :

— هل تعتقد أنه يمكن لضابط أن ينظر فى هذه الورقة .

فشطب بتلر العنوان ، وجعله : شروط مؤقتة لإيقاف إطلاق النيران .

فنظر الموجى فى الشروط ، وقال : هذا كلام لا يمكن بحثه فطلب الجانب البريطانى إعداد شروط مقابلة ، وقال أنه سيرفعها لرياسته .

وتم الاتفاق على إيقاف النار حتى الساعة التاسعة والنصف مساء . وتبدأ العمليات بعدها .. وكانت لهذه الساعات كل قيمتها فى تجميع القوات المدافعة وتنظيم قتال الشوارع على خير وجه . وكان وابور المياه قد أصلح ، وعادت بور سعيد تشرب . وكل ما حدث أن الإنجليز طلبوا مهلة نصف ساعة أخرى فأعطاها لهم القائد المصرى ، ثم بدأت الحرب ولم تتوقف إلا بخروج آخر جندى بريطانى من المدينة إلى البحر .

ونترك بور سعيد مؤقتاً ، لنلقى نظرة على معركة من أروع معارك الحرب حدثت على خليج العقبة ، عند موقع شرم الشيخ .

معارك أخرى

عرضنا من قبل لمعارك الجو ، وساحل بور سعيد ، ورأينا كيف أفسدت خطط القيادة المصرية ، جانبين هامين من العدوان . أولهما محاولة العدو تدمير قسم كبير من القوات المصرية فى سيناء . والثانى الوصول إلى الاسماعيلية والسويس فى يومين أو ثلاثة . . فإن شيئاً من ذلك لم يحدث .

وقد حدثت فى غضون الأسبوع الأول من الحرب معارك أخرى هامة فى الموانى، وعلى الشواطىء ، نذكر منها :

معركة شرم الشيخ

كانت السفينة المصرية « رشيد » مكلفة بالعمل فى خليج العقبة ، وهى سفينة تموين حربية ، وكان من واجباتها حماية موقع شرم الشيخ بحراً ، وهو يقع على مدخل الخليج من ناحية سينا وحماية بعض الجزر الصغيرة ، أهمها جزر تيران . وكانت مهمة « رشيد » تنتهى فى أول نوفمبر سنة ١٩٥٦ ، لتحل محلها سفينة التدريب دمياط التى أبحرت من ميناء السويس ليلة ٣٠ / ٣١ لهذا الغرض .

وكانت القوة المصرية البرية المدافعة عن الموقع ، وهى الكتيبة ٢١ مشاة ومعها مدفعان عيار ٦ بوصة .

كان من خطط القيادة الاسرائيلية الاستيلاء على شرم الشيخ ، لتأمين منفذها الجنوبى عن طريق خليج العقبة إلى البحر الأحمر . فأعدت لهذا الغرض لواء كاملا فى بير سبع ، وعدداً من الدبابات الاسرائيلية حشدت فى ميناء إيلات اليهودى ، زودها الانجليز بعد ذلك بدبابات أخرى من معسكرهم فى الأردن . . ونقلت هذه الأسلحة الثقيلة إلى نقطة ذهب قرب شرم الشيخ ، لتشترك فى مباغتة الموقع المصرى. عند وصول اللواء التاسع اليهودى من بير سبع إلى موقع التجمع فى ذهب . كما كلفت

سريتان من المظليين ، بالسقوط عند الطور شمال غرب شرم الشيخ لتطويق الموقع من الخلف . .

ولم يكتف الاسرائيليون بهذه القوة الضخمة ، ولكنهم طلبوا معونة القوات الجوية البريطانية والفرنسية وبحرية هاتين الدولتين بمساعدة الهجوم . . أملا فى القضاء بحرب خاطفة على الكتيبة المصرية والمدافعين فى لمح البصر ، وفتح الطريق عبر خليج العقبة إلى إيلات .

بدأت عملية شرم الشيخ بتحرك الوحدات المهاجمة ليلة ٢٩ أكتوبر . وكانت وحدات هذا الزحف من بير سبع ، معرضة للطيران المصرى ، فهاجمها هجوماً عنيفاً . جعلها تتفرق ، وتضل الطريق . فلما عاد التئام جمعها ، وصلت إلى نقطة التجمع فى اليوم الرابع من زحفها .

وكان قائد الموقع المصرى فى شرم الشيخ يرقب العملية كلها ، وقد أعد كميناً فى وادى كبير فاجأ التحرك الاسرائيلى من ذهب ، وأوقع به خسائر كبيرة وبدأت غارة الطيران الإنجليزى والفرنسى على شرم الشيخ ليلة ٣ نوفمبر وصباحها ، واستهدفت الباخرة رشيد للهجوم الجوى ، وشاركت فى عمليات الدفاع .

وحاول القائد الاسرائيلى أن يستدرج القائد المصرى إلى التسليم بعد أن انسحبت القوات المصرية من سيناء كلها . واستحالة إمداده بأى قوة . . فرفض ، واستعمل بعض سفن الصيادين الصغيرة لنقل المدنيين والإداريين والجرحى فى اتجاه الطور ، ولكن قائد هذه السفن ، تمكن من النجاة بها رغم المجازفة الشديدة التى قام بها ، وذلك بعد أن قامت الطائرات المصرية بمهاجمة السفن الحربية البريطانية فى المنطقة . وقد أبرق هذا الضابط إلى القيادة باللاسلكى البرقية التالية :

« دارت معركة بحرية جوية قبل آخر ضوء بين طائراتنا الجوية وأسطول الأعداء (الانجليز) فى منتصف المسافة بين رأس محمد ومدخل الخليج . واشتعلت النيران فى إحدى البوارج نصف ساعة ، وحجب الظلام معرفتنا تفاصيل النتائج . ولاذت البارجتان الباقيتان بالفرار جنوباً . . قوات العقبة تشكركم ، وتحيا مصر » .

وتحدثت القيادة العامة فى القاهرة تليفونياً مع قائد شرم الشيخ ، وطلبت منه التسليم . . فوصف فى الرد موقفه بالضبط ، وكل ما طالب به هو بيان عن حالة الحرب فى القاهرة والاسكندرية والقنال . . كان هو وجنوده مشغولين بالوطن ، لا بسلامتهم . . وهذه هى الروح المصرية الأصيلة .

وإزاء عناد هذه القوة (٨٠٠عسكرى وضباطهم) أطبق عدد كبير من الطائرات على شرم الشيخ ، وظل ضربها مستمراً حتى دمروا المعدات الحربية بما فى ذلك مدفعية السواحل ، والمدفعية المضادة ومرشحات المياه . . ولكن أشارة قائد الموقع للقيادة العامة كانت تختم بعبارة « سنظل ندافع إلى النهاية » .

وتلقى قائد شرم الشيخ من القيادة فى القاهرة البرقية التالية :

« أقدر فيك وجنودك البطولة والاقـــدام . ستكونون دائماً مثالا للوطنية والتضحية فى سبيل الواجب ، إذا لم يمكنك الاستمرار حتى أول ضوء ، فإنى آمرك أن تسلم . تخلص من جميع الأسلحة ، حتى البنادق والطبنجات ولو بإلقائها فى البحر. تدمر جميع المنشئات إذا أمكن . تحياتى » .

استمرت عملية شرم الشيخ تسعة أيام ،عندما صدر أمر القاهرة بإنهاء هذه الحرب الانتحارية .

وقد ورد فى التقرير الرسمى اليهودى عن الحرب فصل طويل عن قتال شرم الشيخ وصفت مراحله ثم قالت :

« ظهر لنا أن المصريين لن يستسلموا إلا أمام شىء آخر ، فأرسلناه إليهم وهو طائرات نفاثة منقضة ، كانت تهبط فوق رؤوسهم ، وتقذفهم بكل شىء حتى بالنشرات التى كتبت باللغة العربية ، وفيها أن مصر كلها استسلمت (كذب طبعاً) وقد ضربوهم بالصواريخ والقنابل على اختلاف أنواعها ، ثم اشتركت مدفعيتنا الثقيلة ومدافع الهاون ، ومع ذلك ، فإن المصريين لم يجدوا فى كل هذا عذراً للاستسلام . لقد كنا نطبق عليهم بقوات هائلة من الأرض ومن الجو والبحر . ولكنهم رفضوا الاستسلام. وعند ذلك وجدنا أنه لا مناص لنا من هجوم المشاة عليهم بكثرة هائلة للتغلب على المقاومة . وحارب المصريون بعناد من دشمة إلى دشمة . ومن حفرة إلى حفرة . ومن خندق إلى خندق ، واستمرت هذه المقاومة من الساعة الثانية ليلا إلى ما بعد الظهر » .

قال التقرير :

« وأخيراً وجدنا أن الذين قاومناهم ٨٠٠ (ثمانمائة) عسكرى مصرى منهم ٤٥ ضابطا بقيادة الكولونيل رؤوف » .

أما مجموع قوة العدو المهاجمة براً فكانت ١٢,٠٠٠ (أثنى عشر ألف) رجل ..

وقد نشرت مجلة « باحمنة » الاسرائيلية العسكرية حديثاً عن الكولونيل رؤوف قالت فيه : « هو شاب متين قصير القامة . . كان طول المعركة فى موقعه يقاتل مع رجاله . وقد قال فى النهاية إننا لم نستسلم لكم ، بل بسبب هذه الطائرات (الفرنسية والانجليزية) .

وتحدثت المجلة مع ضابط برتبة ليفتنانت كولونيل هو حنا نجيب ، حارب مع عبد الناصر فى الفالوجة . ولما سألته المجلة لماذا لم تنسحبوا بعد أن تبين لكم أن القوات الاسرائيلية متفوقة فى العدد تفوقاً هائلا قال : أن الحرب عندى لعبة . . مباراة . وأنا أحب أن ألعب إلى النهاية سواء ربحت أم خسرت .

وفى بيان ابن جوريون فى الكنيست اليهودى يوم ٧ نوفمبر سنة ١٩٥٦ قال :

« إننا احتللنا فى ٣ نوفمبر المواقع التى انسحب منها الجيش المصرى عدا منطقة شرم الشيخ . وهو موقع محصن بمدافع قوية ومجهزة بمطار جيد . وقد أبدى المصريون شجاعة قوية عجيبة ، حتى كان من الصعب علينا أن نتصور أو نصدق أنه فى إمكاننا القضاء عليها . ولكن سقطت منا فى هذه المعركة الرهيبة ضحايا غالية جداً علينا ، ومن الصعب أن نعوضها .

« وأبدت قواتنا بطولة ، وبذلنا أعظم مجهود فى التاريخ اليهودى . وكانت أيامنا فى هذه المعركة أيام فزع وذعر أمام هول القوة المصرية . وكان المطلوب من الشعب الاسرائيلى كله أن يصبر ويظهر الشجاعة أمام جيش مصر ، عدونا القدير . »

السفينتان رشيد .. ودمياط

أشرنا من قبل إلى أن السفينة رشيد شاركت فى صد الهجوم الجوى الأول على

شرم الشيخ . وكان وقود السفينة لا يكفيها إلا ليومين . وقد أقبلت قطع الاسطول البريطانى بقيادة الطراد نيوفوندلند وسدت مدخل خليج العقبة ، ووصلنا بعد ٨ أميال من شرم الشيخ ، ثم بدأت تأخذ وضع الاستعداد لحصار السفينة رشـــيد وإغراقها . .

وهنا تدخل القدر ، فقد وصلت أسراب من الطائرات الفرنسية والبريطانية وكانت على ارتفاع كبير لتتفادى المدفعية المضادة ، وحسبت أن قطع الأسطول الانجليزى ، من بين السفن المصرية ، فاشتبكت معها فى معركة رهيبة ، وتصاعد دخان القنابل صاعدة هابطة ، وانتهزت السفينة رشيد الفرصة ، وانسحبت يحجبها الدخان واتجهت شرقا إلى الساحل السعودى ، ورست عند شرم الوجه ، وكان ذلك فى صباح ٢ نوفمبر . . . ولما انتهت الغارة ، وطلع الفجر ، لم تجد السفن البريطانية فريستها ، وحسبت أنها غرقت ، وأذاعت هذا النبأ فرددته محطات لندن وباريس وقبرص وتل أبيب . . وسمع بحارة رشيد نبأ غرقهم فى الراديو ، وأبرقوا باللاسلكى إلى القاهرة أنهم سمعوا النبأ ، لكنهم وصلوا سالمين إلى شرم الوجه ، وهم يتناولون الخراف المشوية ! !

وذكرنا من قبل أن السفينة « دمياط » ، كانت قد أمرت بأن تقلع من السويس لتحل محل رشيد . وقد أبحرت من ميناء الأدبية يوم ٣١ أكتوبر . وبعد منتصف الليل بعشر دقائق ، ظهر الطراد نيوفوندلند ومعه مدمرتان ، إحداهما تحمل اسم ديانا . وكانت المسافة بين دمياط والطراد البريطانى نحو ٤٠٠ متر عندما تلقى القومندان حسين شاكر إشارة ليكشف عن جنسية سفينته واسمها . . وبدلا من أن يرد ، أصدر أمره بإدارة آلات سفينته كلها ، والاندفاع بأقصى سرعة إلى الأمام ، وقد أمسك دفة السفينة بنفسه . . وكان قصده أن ينطح الطراد بسفينته ويغرقه ، ويغرق معه ، إذ لا سبيل لمبارزة بالمدفعية لاختلاف الأحجام البين .

وأدركت سفن الأسطول البريطانى ، ماسوف يحدث فركزت نيرانا ، كأنها ستار من الحمم ، ساقط على السفينة المصرية ، فتعطل مدفعها الوحيد ، وقتل طاقمه واعتمدت على مدفع خفيف وأسلحة صغيرة فى لحظة الاندفاع ، وقد وصلت احدى القذائف المصرية إلى قاعة السينما فى الطراد البريطانى ، فقتلت ٣ من رجاله وأصابت ١٣

فرداً ، وعلى مسافة قصيرة جداً من الهدف ، كانت وطأة الإصابات فى دمياط قد فتحت فيها فجوات تسرب منها الماء بكميات ضخمة ، فأمر رجاله بالنزول ، وبينما كان ينزل سمع أنينا خلفه فعاد لإنقاذ صاحبه ، ولكن السفينة غرقت به فى خليج السويس . وبهذا كانت خسائر دمياط ٦ ضباط وخمسين من رجالها .

وجاء فى تقرير البحرية البريطانية عن هذا الحادث :

« إما أن قائد دمياط ، كان بطلا خارقا فى شجاعته ، أو أنه كان مجنونا فى وطنيته ، لما أقدم عليه من عمل يندر أن تشهده معارك البحر » .

وقد التقطت سفن العدو بعض رجال السفينة دمياط ، وسبح آخرون مفضلين أهوال الماء ، وأسماك القرش على الأسر .. وقد وصل كثيرون منهم إلى الشاطىء بعد عشرين ساعة من السباحة . أما الجرحى الذين التقطتهم السفن البريطانية فقد نقلوا إلى عدن على ظهر الطراد البريطانى ، وقد أبحر إلى هناك لإصلاح ما أصابه من عطب .

الهجوم البحرى على السويس

كنا نريد أن نفرد فصلا خاصا ، للهجوم البريطانى على السويس ، محاولة من العدو الوصول إلى القاهرة من هذا الطريق . . وهو الطريق الذى سلكته القوات الهندية ، عام ١٨٨٢ ، لاخضاع مصر . . على نحو ما فصلناه فى عرض الحرب العرابية[١] ولكنا فضلنا أن نوجز أنباء المعركة هنا ، حتى نختم قصة الحرب فى البحر الأحمر .

كان درس ثلاثة أرباع قرن مضت ، قد استقر فى نفس المصريين ، وأولت قيادتهم اهتماماً خاصا لهذا المنفذ الرئيسى إلى بلادنا .

تمت عمليات تحصين خليج السويس وشواطئنا على البحر الأحمر ، بطريقة هادئة جداً ، وسرية جداً ، بحيث لم تستطع مخابرات العدو اكتشاف شىء عنها ولم يتجه نظر طائرات التجسس إلى هذه المنطقة ، وتصويرها ، إذ كان فى تقديرهم أن مصر تولى اهتمامها كله لسيناء والقاهرة وبور سعيد والاسكندرية . .

---

(١) كتاب أيام وأيام للمؤلف .

وقد اعتمد الدفاع المصرى فى البحر الأحمر على سلاحين : المدفعية ، وزوارق الطوربيد . . ووصف اللواء أ . ح محمد كمال عبد الحميد العملية بقوله : أنشئت مواقع « تبادلية » للمدفعية ، ساعدت على تضليل العدو ، وخداعه . وتحريك المدافع بين مواقعها الأصلية ، وهذه المواقع التبادلية . . كما أنشئت « مبايت » أوحظائر لزوارق الطوربيد ، حسب نظام حديث ، وضع خصيصاً لها ، بحيث يخفى وجودها تماما على العدو ، إلا حين تفاجئه بغاراتها .

وبحكم الوجود البريطانى السابق فى منطقة القنال ، كان يعلم الكثير عن تحصين ميناء الأدبية ، ومواقع المدفعية فى السويس ، ولكن هذه التعديلات فاجأته . فما أن بدأ تركيز غاراته على المنطقة حسب معلوماته ، حتى تعرض لنيران مدفعية مضادة لم تكن فى حسابه . وسقطت خمس طائرات مهاجمة فى يوم واحد .

وأذاعت قيادة القاعدة البحرية بالسويس ، أنها بثت ألغاماً فى الخليج ، وأن على جميع السفن أن تحذر منها ، والواقع أن هذه الألغام لم تكن قد وضعت بعد ، لتسهيل العمليات البحرية المصرية ، ولكن العدو فى هجومه البحرى الذى استعد له كان حذراً مرتبكا ، خشية أن يقع فى فخ من الألغام ، مما ساعد على سهولة اصطياده .

وكانت حملة إنزال الجنود إلى البر فى جنوب السويس ، مكونة من عدد من ناقلات الجنود ، وسفن تموين ، وسفن حربية للحراسة والتمهيد ، تقودها الطرادة نيوفوندلند .

وفى يوم ٣ نوفمبر سنة ١٩٥٦ ، بدأت عملية السويس ، واقتحمت هذه المجموعة خليج السويس ، وإذا بالفخ الذى وقعت فيه لم يكن من الألغام ، ولكن من مدفعية لا يعرف شيئاً عن وجودها على الشاطئين ، ومن زوارق طوربيد برزت له ، وكأنها عفاريت من الجان ، وما لبثت هذه القوة البحرية المهاجمة ، أن تعرضت لنيران مركزة ، غرقت على أثرها سفينتان ، وأصيبت ثالثة ، فأمر القائد البريطانى ، بالعودة فوراً ، إذ وجد أن استمرار تقدمه سوف يصل به إلى قاع الخليج ، لا إلى ميناء السويس .

وفى مساء السبت ٣ نوفمبر صدر البلاغ الحربى رقم ١٧ ، وظهر فيه أن سفناً فرنسية كانت مشتركة فى عملية السويس إلى جانب السفن البريطانية ، وورد فى البلاغ أن قطع الأسطول المصرى ظلت تطارد العدو ، وهو يحاول الافلات منها ، حتى فنار

أبو درك ، وإلى جانب القطع التى ذكرنا إصابتها ثبت غرق مدمرة بريطانية أصابتها المدفعية الساحلية . .

وفى الأيام الأربعة التالية ، ظلت طائرات العدو تستطلع منطقة الخليج عسى أن تجد وسيلة للنزول إلى البر وكان ذلك فى أيام ٤ و ٥ و ٦ نوفمبر ، وفى هذه الأثناء بدأت عمليات لغم الخليج ، حتى لاتعود الحملة مرة أخرى.. .

أما اليهود الذين كانوا موجودين فى سيناء ، بعد انسحاب الجيش المصرى منها ، وفى مناطق سدر وعسل بالذات ، فقد اكتفوا بنهب المعدات البترولية فى المنطقة ، وكانت قواتهم بأعداد كبيرة ، ولكنهم رفضوا أن يقدموا أى معونة لشركائهم فى العدوان للنزول إلى البر المقابل . . .

وقد حاول الانجليز البحث عن كاسحات ألغام ، لإزالة العقبات من طريقهم وأقرب كاسحات كانت فى المحيط الهندى . . وذلك لأنهم لم يضعوا فى حسابهم أن الوقت من أيام عرابى قد تغير .. ولم يستعدوا لمقابلة أى مقاومة فى خليج السويس.

إن كلاماً كثيراً قيل عن المعارك فى البحر المتوسط وسيناء . ولكن معارك البحر الأحمر حجبت السويس فى غمار الحوادث الضخمة التى جرت من حولها ، ولعل خير مانذكره عنها ، أن مزيداً من الوعى بهذا الطريق المائى العظيم [البحر الاحمر] ، وعناية من الله وجهت خطا القومية العربية ، فاذا هى فى اليمن ، وإذا هى فى عدن . وإذا هى فى السودان والحجاز مواقف حراسة ضد غارات القرصنة الاستعمارية فى البحر الأحمر .

المدمرة ابراهيم

والآن ننتقل إلى المعارك البحرية فى البحر المتوسط ، فما أن عرف أن إسرائيل هاجمت سيناء ، حتى صدر الأمر للمدمرة إبراهيم بالإسراع إلى ميناء حيفا ، وضربها رغبة فى تعطيل عمليات البترول ، حيث يوجد مصنع التكرير الذى استولى عليه اليهود بعد انسحاب الانجليز .

وكان ظهور المدمرة المصرية فى مياه حيفا مفاجأة تامة للعدو ، وقد استمرت عمليات إطلاق القنابل من البحر من الساعة ٤,١٨ فجر يوم ٣١ أكتوبر سنة ١٩٥٦ إلى الساعة ٥,٣٥ . .

وما أن أتمت المدمرة ابراهيم مهمتها حتى أسرعت إليها ثلاث مدمرات فرنسية ، كان قد وكل إليها حراسة الموانى الإسرائيلية ، كما سارعت الطائرات المستير وهاجمت السفينة المصرية .

واتصل قائد المدمرة بقيادته فى الاسكندرية ، فصدر له الأمر بالتالى : « غادروا السفينة بعد التيقن من إغراقها » .

وفى الساعة ٧,٢٩ صباحاً رد قائد المدمرة إبراهيم حسين رشدى طازين بأنه شرع فى عملية الإغراق ، وبعد ١٤ دقيقة أرسل إشارة قال فيها ، فتحت بلوف التغريق.. وكان العدو قد أطبق على السفينة ، وقبل إغراقها كان العدو قد سحبها إلى الشاطىء ، وأعلن فى ضجة كبيرة أنه أسر السفينة .

وقد علقت القيادة الإسرائيلية على مهمة « ابراهيم » وما حـــدث من حصارها بالطائرات والأسطول الفرنسى واليهودى بقولهم : يعتبر إرسال المدمرة للقيام بهذه العملية مظهراً للكبرياء غير العادى ، والاستخفاف بقوات اسرائيل والاستهانة بأمرها !!

وكان من تأثير الدمار الذى حاق بمرافق حيفا وميناتها نتيجة هجوم المـــدمرة إبراهيم ، أن استعانت إسرائيل بعد الحرب بحلفائها جميعاً كى يقيموا لها نظاماً للدفاع البحرى ، لا يسمح — فى تقديرهم — بمثل المفاجأة المؤلمة التى حدثت لهم .

ومما يستحق الذكر أن البوارج الفرنسية ، حين ضربت المدمرة إبراهيم ، لم تكن متأكدة أنها سفينة مصرية . ولهذا أرسل الفيس أدميرال بارجو الفرنسى إلى باريس إشارة يقول فيها :

« لقد أصبنا مدمرة مصرية بأضرار جسيمة ، ولكننا لسنا متأكدين من جنسيتها.. إذا ثبت أننا أخطأنا فليس ذلك هجوماً متعمداً على الأسطول السادس الأمريكى » !

وكانت أسماء هذه البوارج الفرنسية : « جورج ليجيه ، وسيركون ، وكيرسان » والأخيرة هى التى ضربت المدمرة المصرية بمدافعها الضخمة بعيدة المدى . والأولى هى التى اتجهت إلى رفح ، وضربتها من البحر مساعدة للهجوم اليهودى الذى توقف تماماً

أمام مقاومة القوة المصرية ، الموجودة هناك . . سنذكر أسماء هذه السفن الفرنسية ، ولا ننساها !

معركة البرلس

ومن معارك البحر المتوسط ، بعد ورود الإنذار البريطانى ورفضه ، أن مجموعة من زوارق الطوربيد بقيادة الصاغ جلال الدسوقى ، كلفت بعمل دوريات مستمرة على شاطىء البحر المتوسط ، وفى صباح ٤ نوفمبر ظهرت سفن للعدو أمام البرلس .

وعلى الفور أمر جلال بمهاجمة الأسطول ، وقذف طوربيداته عليه ، فأصاب طرادة فرنسية إصابة مميتة ، اشتعلت فيها النار وغرقت ، وأصاب مدمرة إنجليزية إصابة بالغة . وكان العدو فى اقترابه من الشواطىء المصرية يسير تحت مظلة من الطائرات ، لم يعبأ بها قائد الزوارق حتى يتم مهمته ، وقد باشرت هذه الطائرات عملها وهى موجات متتالية حتى أغرقت الزوارق .

وحاولت المدمرة المصابة أن تتجه إلى طبرق . ولكنها غرقت فى الطريق وقذفت الأمواج بجثث بعض قتلى هذه السفينة والأعلام والقنابل البريطانية . . ومن عجب أن الذين قتلوا من انفجار الطوربيد ربطت جثثهم فى قنابل عيار ½ ٤ بوصة حتى تغوص فى الماء . . ولكنها لم تفعل ! !

وكانت حمولة الطرادة الفرنسية ٧ آلاف طن ، وطاقمها مكون من ٦٠٠ فرد . وكانت تحمل وحدات من الفدائيين البحريين .

الناصر والظافر .. وطارق

كانت المدمرات المصرية الثلاثة المذكورة ، قد كلفت بدورية حراسة خارج ميناء الاسكندرية ، وذلك فى أول نوفمبر سنة ١٩٥٦ . وعند الخروج للمهمة وصلت طائرات العدو فوق الميناء ، وركزت هجوماً خطراً على السفن الثلاثة ، التى اشتبكت معها على الفور بمدفعيتها المضادة . وكانت قيادتنا البحرية تراقب العملية ، فأشارت إلى السفن بالاقتراب من الشاطىء لتقع الطائرات فى مدى المدفعية الساحلية .

ونفذ قواد السفن العملية فى هدوء تام ، لم تفطن له الطائرات المهاجمة ، التى عززت بأسراب جديدة ، مما مكن من إصابة أربع طائرات وإسقاطها الواحدة بعد الأخرى ، ونجت سفننا تحت ستار من الدخان الكثيف أطلقته .

وقد دهش لبراعة هذه المناورات ربابنة السفن الأجنبية فى الميناء. وتصادف أن كانت سفينة أمريكية حربية قادمة لحمل الرعايا الأمريكان ، وشاهد قائدها ما حدث ، فسجل بخط يده شهادة للبراعة المصرية الفائقة التى أديرت بها المعركة من البر والبحر .

ومن عجب أن أهل الاسكندرية كانوا يتتبعون هذه العمليات من الكورنيش ومن نوافذ وأسطح العمارات المطلة على الميناء ، وقد استقبلوا المدمرات الثلاثة بعواصف من الهتاف والتهليل ، كما أطلقت السفن الراسية فى الميناء صفارات الترحيب .

وكم ضحك هؤلاء جميعاً ، عندما سمعوا إذاعة قبرص البريطانية ، واذاعة تل أبيب تعلن عن نجاح الغارة الجوية ، وغرق المدمرات المصرية ، وأدرك الجميع ، مدى «لحنة» وكذب إذاعات العدو .

"سمحونى" و "مورهاوس"

مذكرات سمحونى :

كان الهجوم الإنجليزى الفرنسى على مصر ، وكأنه انفجار وقع فى كل بيت على ظهر هذا الكوكب . . الناس كلها تتحدث . . الإذاعة تتناوله وكأنه الحرب العالمية أعلنت . . الصحف تحتشد بالعناوين الضخمة . . الشارع . . المتجر . . المدرسة . . المصنع .. المزرعة . . الغابة .. كل مكان يعيش فيه ناس متحضرون ، كانوا يتحدثون عن شىء واحد هو العدوان على مصر ؟ !

لماذا كل هذا الاهتمام ، مع أن معركة شديدة جرت فى المجر ، بين الشعب المجرى، والقوات السوفياتية لم تثر كل هذا الاهتمام ، حتى أن متحدثين فى هيئة الأمم صاحوا: هل ما يسيل فى مصر دماء ، وما يسيل فى المجر ماء ! !

وحدثت قبل حرب السويس حروب أخرى ، لها أهميتها ، مثل الحرب الكورية ، التى راح ضحيتها عشرات الألوف من الأرواح ومنهم أمريكان كثيرون(١) ،

هذا فى الحقيقة سر إلهى ، أودعه الله فى هذه الفترة الحاسمة من تاريخ البشرية ، ولا شىء أكثر أو أقل . . ولكنا مع هذا نحاول التحليل :

أولا — مصر بحكم تاريخها الحضارى الطويل ، ومركزها الجغرافى فى وسط العالم ، وملتقى قاراته ، نقطة حساسة جداً بالنسبة للأسرة البشرية .

ثانياً — حصول مصر على استقلالها الكامل بعد جهاد طويل مرير استمر عشرات السنين ، وجلاء الإنجليز عنها فى يونيو سنة ١٩٥٦ ، ثم محاولتهم العودة فى صليل سلاح ضخم ، وجلبة وضوضاء ، بعد أربعة أشهر فقط من جلائهم ، كل ذلك أفزع العالم ، وحرك ضميره ، وأظهر العدوان بصورة مزرية فادحة الدمامة .

---

(١) كان ضحايا الحرب الكورية ستون ألف أمريكى قبل محادثات الهدنة و٨٠ ألف أمريكى أثناء محادثات الهدنة حسب تقدير مجلة تيم الامريكية .

ثالثاً — كانت فترة الشهور الثلاثة ، بين تأميم القنال وابتداء العدوان ، فرصة ثمينة جداً أمام مصر ، لتظهر للعالم أجمع أن مصر قادرة على إدارة القنال حتى بعد سحب المرشدين الأجانب منها : . . وبهذا سقطت حجة أن القنال فى خطر .

رابعا — الطريقة السهلة التى أدارت بها مصر المعركة السياسية العالميـة وقبولها المستمر للمفاوضة ، جعلها فى مركز الرجل الواسع الأفق ، الواثق من حجته وموقفه ، الذى لا يريد شراً بأحد ، ولـكن يريد تعايشاً سلمياً مع الجميع .

خامساً — وجود أنتونى إيدن على رأس الوزارة الإنجليزية ، ملأ الدنيا عطفا على مصر وزعامتها . . فعبد الناصر فى نظر الشعوب كلها رجـل بسيط ، ظهر من أوساط الشعب ، ترك قصور الحـكام الذين سبقوه ، وأقام فى مسكن صغير . . رجل قام بثورة ، وحرص على أن تكون ثورة بيضاء .. أما خصمه فى لندن فرجل متعال ، متعجرف ، يحاول أن ينفخ ناراً فى رماد القرن التاسع عشر الاستعمارى . . ومتى ؟ بعد مضى نصف القرن العشرين بست سنين ! وقد انتشرت كلمات السخرية بإيدن حتى فى وسط حزبه ، وبين صحف المحافظين . . ومن ذلك :

— قال عنه نائب محافظ : على إيدن أن يثبت لنا أن له شاربا حقيقيا ؟

— وقال آخر : إن إيدن رجل من قش !

— وقال إيدن عن نفسه : أنا رجل يعيش على دواء البنزدرين !

سادسا — حول إيدن بلسانه ، وقصر نظره معركة السويس إلى معركة شخصية بينه وبين ناصر عند ما ذهب إلى الإذاعة وقال :

* « إن نزاعنا ليس مع مصر ، ولـكن مع ناصر » . . وقال أيضا :

* « العالم لا يمكن أن يسعنى ، ويسع ناصر » .

ولا يوجد أى إنسان عاقل يقبل فـكرة حرب تراق فيها قطرة دم واحـدة لأن إيدن يكره ناصر !

سابعا — عندما ظهرت هيئة الأمم ، ونشأت دول كثيرة مستقلة فى العالم تستطيع أن ترفع صوتها ، ورأسها لم يكن الناس فى كل مكان مستعدين لقبول فـكرة الإمبراطوريات ، وإعادة بعثها ، أو المحافظة عليها ، بل لعل كثرة شـعوب أفريقية

وآسياوأمريكا ، كانت تنظر بارتياح بالغ إلى أن يظهر الأسد البريطانى سابقاً ، بغير أنياب على الاطلاق . .

ولهذا كانت حجة منهارة ، أن يكتب إيدن لايزنهاور :

* ستكون أبشع نهاية لتاريخنا الطويل ، أن نقبل على أنفسنا أن نهلك بالتدريج .

أو يقول ماكميلان لهربرت مورفى الأمريكى :

* ان قبول ماعمله ناصر ، سوف يحول انجلترا إلى هولنده أخرى فما من أحد فى أمريكا أوغيرها ، مستعد لأن ينظر إلى تاريخ انجلترا الطويل ، أن يعطيها وزناً أكثر من هولندا .. فهذا أمر يعيش فى بطون الكتب فقط .

هذه بعض عوامل جعلت مصر فى مركز أقوى ، وساعدها على كسب الحرب النفسية . فى كل مكان وفى داخل انجلترا نفسها .

ولكن العامل الأقوى والأهم هو بسالة الدفاع المصرى فى كل المواقع التى حدث فيها اصطدام . ووقوف كل المواطنين المصريين صفاً واحـــداً مع قيادتهم وجيشهم فى وجه العدوان . ولهذا ذعر إيدن عندما لم يتحقق شرطان كان يعول عليها كثيراً وهما :

١ — عدم قيام ثورة فى الشعب المصرى ضد ناصر .. هكذا قال فى مذكراته مما دل على الخطأ الفادح الذى وقعت فيه مخابراته .

٢ — عدم تأثر الشعب المصرى ، وعدم خوفه وانزعاجه من غارات الأيام الستة التى قامت بها حوالى ألف طائرة انجليزية وفرنسية ، مملوءة بالحقد والقنابل .

* * *

ولعل أول وثيقة تثبت حقيقة الحالة التى وجد العدو الإسرائيلى نفسه فيها مذكرات القائد سمحونى : وفيمايلى : ترجمتها عن العبرية .

ـ اللواء يتقدم إلى تمد ونخل . اللواء (٢٠٢) يطلب طلب طائرات لنقل الجرحى .

ـ القوات معرضة لضرب شديد من الجو .

ـ نشاط العدو (مصر) مستمر طول اليوم ، ولم نستطيع نقل الجرحى .

وكتب سمحونى عن عمليات المجموعة ٣٨ التى تولت الهجوم على أبوعجيلة ماترجمته عن العبرية :

ـ اللواء السابع المدرع يتقدم تجاه أبوعجيلة . وبعد احتلال أبوعجيلة سيكون هدفنا الحسنة .

ـ اللواء السابع المدرع جنوب عجيلة ...

ثم دون الملاحظات التالية :

١ ـ لم تكن هناك أوامر ثابتة للعمليات .

٢ ـ لم يكن هناك أى تنسيق من الرئيس الأعلى .

٣ ـ غرفة العمليات لم تكن تخدم الفروع المختلفة .

٤ ـ لم يكن القائد ، ولا أركان حربه فى مقر القيادة فى بعض الأوقات .

٥ ـ لم تكن هناك اتصالات مستمرة مع الوحدات . ولم تكن هناك تقارير من القواد الكبار .

٦ ـ الأوامر التى كانت تصدر من القائد ، ولكن فرع العمليات لم يكن يتولى تنسيق النشاط .

٧ ـ ضابط فرع العمليات لم يقم بإدارة فرع العمليات .

٨ ـ كل الضباط فى فرع العمليات هجروا أعمالهم ، ولم تكن لهم مهمة إلا أنهم أصبحوا ضباط اتصال .

٩ — غرفة ضباط العمليات الحربية تأخرت فى العمل . ويجب أن تكون ملاصقة لغرفة الحرب .

١٠ — لم تكن هناك فائدة حقيقة من فرع المخابرات .

١١ — جرت محاولة للسيطرة على الوحدات بوساطة جهاز لاسلكى .. نجح اتصال واحد ، ثم عطب الجهاز ولم يواصل الارسال .

١٢ — . . . (لم يكتبها سمحونى ولكن كان فى ذهنه شىء يقوله قبل أن يموت ، ولم يفعل) ملاحظة : لم يكن فى الوحدات سجاير ولا ترفيه .

ولاجدال فى أن موسى ديان وبن جوريون شعرا بالغبطة لمقتل القائد سمحونى ، لما تضمنته ملاحظاته من هجوم بالغ على إدارة الحرب . وإن كانا قد تمنيا لولم تسقط هذه الوثيقة فى يد مصر ، لتكشف عن عجز اليهود وارتباكهم وقدرة جيشنا على سحقهم والوصول إلى تل أبيب على جثثهم ..

ويشبه هذه الحالة النفسية . ما ورد بعد عشر سنوات فى مذكرات الجنرال ستوكويل ، وهو يصف عنق الزجاجة المخيف الممتد جنوب بور سعيد ، ويصف الحملة كلها بأنها مغامرة جلبت الكثير من الفشل والخيبة . وهو الرجل الذى كان هادىء البال فى ألمانيا يقود أربع فرق ، ثم استدعى إلى عمل حربى ، نكس رأس بلاده فى الوحل .

بور سعيد الباسلة

يقابل هذا الارتباك ، وهذا التردد فى مركز العدو ، المثل الذى ضربته بور سعيد الباسلة . . وكان المثل واضحاً أمام الشعب المصرى ، وأهل بورسعيد بصفة خاصة .. لقد استطاعت ستالينجراد (فولجاجراد الآن) أن تقاوم الغزو الهتلرى ١٦٨ يوماً ، حتى استنفد كل طاقته وارتد إلى خذلان . .

وقد شاهدت شخصياً المواقع التى دافع فيها أبطال المدينة الروسية ، وكان خروشوف قائدهم السياسى فى هذه المعركة ، وقد دامت المعركة من أغسطس سنة ١٩٤٢ إلى فبراير سنة ١٩٤٣ . وكان الجيش المهاجم بقيادة المارشال فون باولوس

مكوناً من ٢٠ فرقة — ربع مليون جندى ألمانى — وعلى الرغم من أن العدو كان قد وضع قدمه فى المدينة ، إلا أن حرب الشوارع أجلته عنها المرة بعد المرة . . وكلمة الشوارع تعبير غير دقيق ، إذ أن معظم مبانى المدينة هدمه، وكذلك مصانعها . ومن الصواب أن نقول حرب الأنقاض . . وقد استطاع الروس بحركة بارعة أن يطوقوا جيش العدو . وعلى الرغم من أن أقدر قواد الألمان — جنرال فون مانشتين — حاول بجيوش متجددة إنقاذ الألمان المطوقين فى ستالينجراد ، إلا أنه فشل . . وكانت هذه فاتحة الهزيمة الهتلرية الكبرى ، التى جاءت فى وقت مقارب لهزيمة العلمين . وقد رأينا بأنفسنا المكان الذى اعتقل فيه المارشال باولوس ، وشرح لنا أبطال الدفاع البواسل كيف استسلم باولوس مع كل جيشه !

وإذن فالدفاع من داخل المدن ممكن .. وفى استطاعة الشجاعة، مع التنظيم الدقيق ، أن تكبد العدو خسائرضخمة ، وتحول عدوانه إلى هزيمة منكرة .

وهذا الاعتبار ، وضعه المصريون نصب أعينهم . وكنت تجد فى المنصورة عشرات من الجماعات تدرس طرق الوصول إلى بور سعيد عبر بحيرة المنزلة وكانت ملابس الصيادين من أعز أدوات التنكر فى ذلك الوقت . . حتى سجناء الليمانات أعربوا عن رغبتهم فى أداء ضريبة الموت مع إخوانهم البواسل على مدخل القنال .

وقد احتفظت قيادة الجيش بطرق سرية يجتازها رجالها فى ملابس مدنية ، ومعهم معدات الحرب ، التى تتطلبها معارك الشوارع ، غير ما هو موجود فى بور سعيد أصلا . . . وعلى الرغم من حلقة الفولاذ التى حاول الإنجليز أن يضربوها حول بور سعيد ، إلا أن جهودهم قصرت عن أن تحيط بهذا الشاطىء الطويل المليء بالأعشاب النامية ، والأوحال الكثيرة ، والذى يمتد عشرات الكيلومترات .

وبدأ أهل بور سعيد كفاحهم ، بأن أغلقوا متاجرهم ، ورفضوا التعامل نهائياً مع جنود العدو ، كما أبى العمال عروضاً مغرية جداً للعمل مع العدو — ولقد وصل الإغراء إلى حد عرض أربعة جنيهات عن ست ساعات من العمل . . ولا فائدة .

واستولى العدو على ٤٠٠ مسكن فى المدينة لإقامة قواته ، وطرد منها سكانها . كما اتخذت مدرسة الظاهر بشارع ٢٣ يوليو ومدرسة المعتمدية فى شارع صفية زغلول لاعتقال رجال بور سعيد . . وكان الفرنسيون يرحلون المصريين الذين يشتبهون فيهم إلى قبرص .

وحول العدو مسجد العباسى فى بور سعيد إلى مركز من مراكز قيادته . . وفتحوا أبواب الجمارك ، وحملوا جميع البضائع والصناديق التى وجدوها فى المخازن إلى سفنهم .

وفى وسط هذه المظاهر ، كان الرصاص دائم الانطلاق ، والقنابل اليدوية والألغام لا تنفك تصطاد رجالهم ، وتدمر معداتهم . واضطر المعتدون إلى حظر التجول من الساعة الخامسة مساء إلى السادسة صباحاً . . ومع هذا واصلت بور سعيد كفاحها .

ولا بد من مثل نضربه لجو الحياة فى هذه الأسابيع الحافلة بكل ما هو مثير . وهذا المثل هو قصة الضابط الإنجليزى ، مور هاوس ، الذى كان مكلفاً مع جنوده بإخماد أنفاس المقاومة ، وكان شديد الشراسة ، يطلق مسدسه لدى أول بادرة . وقد لاحظ فى مروره شاباً يركب دراجة ، فترك جنوده ، وأسرع وراءه إلى شارع جانبى . وأغواه باستمرار المطاردة ، أن الشاب وقع بجوار سيارة واقفة فى الطريق . فأسرع يحاول القبض عليه ، وما أن وصل إليه ، حتى قفز من السيارة عدد من رجال المقاومة كمموا فم الضابط وجردوه من سلاحه فى لمح البصر ، وقذفوا به فى السيارة التى أسرعت بصيدها . . وفى عيادة طبيب ، كانت مقراً لإحدى قيادات المقاومة ، وجدوا « أم على » الحكيمة فى انتظارهم ، ومعها صندوق من صناديق الموتى ، وضعوا فيه مور هاوس بعد أن أوثقوه جيداً . . ونقل الصندوق بحمولته إلى منزل الميكانيكى أحمد هلال .

وجن جنون الإنجليز لاختفاء هذا الضابط ، وبدأوا يمشطون المنطقة التى اختفى فيها على حد تعبيرهم . . وكان كل بيت يفتشونه يضعون عليه علامة × بالطباشير . ولم تحتج حماية بيت أحمد هلال من التفتيش لأكثر من وضع نفس العلامة على بابه . . . إلا أن إخفاق الإنجليز فى العثور عليه ، جعلهم يعاودون التفتيش والغيظ يملأ نفوسهم ، وأجلوا عن المنطقة كل سكانها . مما جعل رجال المقاومة يتركون صيدهم ، وكان لهم معه برنامج ، وهو شراء حياة عدد من الأسرى من رجال المقاومة ، مقابل هذا الضابط . . . وبعد أيام مات مور هاوس فى مخبئه ، نتيجة عدم التمكن من الوصول إلى مكانه .

ولقرابة مور هاوس مع الأسرة المالكة فى بريطانيا ، قامت ضجة كبيرة حول اختفائه ومصرعه ، مع أن عشرات من أمثاله لقوا مصيراً مثل مصيره . . .

أما « أم على » التى أشرنا إليها ، فهى حكيمة فى عياده طبيب ، لجأ إليها بعض ضباط المقاومة أثناء حصار إحدى المناطق ، فألبستهم ملابس المرضى وأرقدتهم على أسرة المستشفى الملحق بالعيادة . ومنذ ذلك الوقت ، اتخذ هذا المكان مقراً لنشاط كبير .

وفى الوسع أن نمضى فى سرد عشرات ومئات من قصص البطولة للشعب البور سعيدى ، ولقيادة المقاومة الشعبية ، ولكوكبة الصحفيين التى واجهة كل الأخطار ، وتسربت إلى بور سعيد تحمل إلى الوطن أروع أنباء الفداء .

وكان يمكن أن ننشر قائمة شرف لأسماء رجال المقاومة ، وقد عرفنا بعضهم ، ولكن عدم وجود بيان كامل بأسمائهم ، قد يبعث الضيق فى نفوس من أغفلت أسماءهم . . كما أن شهداء هذه المعركة الخالدة ، هم أحياء فى ذاكرة هذا الوطن ، ولقد ذكرتنا رسالة الشاب الشهيد جواد حسنى ، التى كتبها بدمه على حائط السجن الذى عذبه فيه الفرنسيون حتى الموت . . ذكرتنا هذه الرسالة ، برسالة عبد الحكم الجراحى التى كتبها بدمه وهو يحتضر فى ثورة الشباب ضد الإنجليز عام ١٩٣٦ . . فكلا الرسالتين ، وكلا الشابين هم أمثلة لمشاعل المجد ، أخذت زيتها من عصارة الحياة لآلاف وآلاف من أبناء وبنات هذه الأمة .

وقد اعترف الجنرال ستوكويل بأن المقاومة السلبية فى بور سعيد نجحت تماماً ، ولم تحصل قوات الإنجليز والفرنسيين على أية مساعدة من أية جهة من الجهات .

وفى تقرير الجنرال كتلى : « لقد قاتلنا ضد شعب جهزت قواته المسلحة بأحدث الأسلحة والطائرات ، واستماتت أفراده فى الدفاع عن بور سعيد بإصرار وعناد وحنكة » .

وقال أيضاً هذا التقرير : « أن السلطات المصرية وزعت الأسلحة على المدنيين فى بور سعيد ، فراحوا يستخدمونها بطريقة واسعة النطاق . وكانوا يلقون القنابل على السيارات العسكرية ، ويجتهدون لإيقاع الدوريات فى كمائن أثناء الليل ، وكان القتال الذى دار فى شوارع بور سعيد معقداً . لأن الجنود المصريين نزعوا ملابسهم العسكرية ، واختلطوا مع المدنيين ، وكان كثير منهم مسلحين . »

سد القناة ..

ذكرنا من قبل أن الأوامر صدت للوحدات المصرية المدرعة التى عبرت كوبرى الفردان ، فى طريقها لا إلى مواقع المعارك فى سينا ، ولكن إلى قلب إسرائيل مباشرة . . هذه الأوامر صدرت بعودتها إلى غرب القنال بأسرع ما يمكن .

ودلت طائرات الاستطلاع قيادة العدو فى قبرص على ما يحدث ، وأدركت أن جيش مصر نجا من الفخ الذى نصب له ، فأصدرت أمرها لطائراتها بضرب الوحدات المدرعة العائدة ، ونشأ من شدة الضرب ، وتركيزه على كوبرى الفردان ، أن انهار هذا الكوبرى ، كما غرقت بعض سفن فى مداخل القنال نتيجة الضرب . . ثم مالبثت السفن التى كانت بالآحاد ، أن أصبحت بالعشرات ، ومنها سفن كانت محملة بالأسمنت ، فأصبحت عقبة خراسنية فى مجرى القنال . .

وضرب الانجليز بأيديهم عن صدورهم هلعاً ورعباً . . فإن كثرة العوائق التى سدت مدخل القنـــال تحتاج إلى أسابيع وأسابيع لرفعها ، وإعادة المرور الطبيعى إلى مجرى المـاء . . وإذن فسيتوقف البترول عن المرور — هذا بفرض أن حالة الحرب فى المنطقة انتهت .

وزاد ذهول الانجليز من هذه النتائج التى لم يتوقعوها ، أن الجيش السورى نسف خط أنابيب البترول العراقى فى ثلاثة مواضع ، وأصبح من المستحيل الحصول على قطرة واحدة من هذا المورد .

الانجليز أشعلوا هذه الحرب بحجة تأمين المرور فى قنال السويس لبترولهم . وهؤلاء هم بحماقتهم تسببوا فى انقطاع البترول عنهم لوقت لا يعرف مداه . . واضطرت حكومتهم إلى أن توزع البترول بالبطاقات ، وكذلك عدة مواد تموينية ذكرتهم بأيام الحرب العالمية وما تلاها من ضيق شديد . ومما زاد فى هلع العارفين ببواطن الأمور أن مخزون كل من الانجليز والفرنسيين من البترول كان لا يكفيهم لأكثر من أسبوعين أو ثلاثة .

والغريب أن الذين حسبوا ضرب مصر بالطائرات ، وضرب بور سعيد واحتلال شاطئها ، سوف ينهى المعركة مع شعبها وحكومتها فى أيام ، هم جماعة من قصار النظر ..

إن السيارات بدأت تتوقف فى مدن فرنسا وانجلترا . . والقطارات عدلت مواعيدها ، ولم يسر فى فرنسا إلا نصف القطارات التى تعود الناس عليها . .

لماذا كل هذا ؟ حماقة حفنة من الرجال . . هذا هو رد الفعل الطبيعى الذى أحس به معظم أفراد الشعبين . . ومن ورائهم أوربا الغربية كلها .

الموقف فى انجلترا

ومهما قيل عن صبر الشعب الانجليزى ، وقوة احتماله فى الأزمات ، فإن الحرب التى دفعه إليها إيدن وعصابة السويس ، كانت من نوع جديد عليهم . . فلا هى بالحرب الصغيرة فى مستعمرة من المستعمرات تكفى فيها قوة محدودة ، مثل ثورة قبرص . . ولا هى حرب كبيرة تحشد لها انجلترا جنود الكومنولث وتحارب فيها إلى آخر جندى أمريكى كما حدث فى الحرب العالمية الثانية . .

ثم إنها حرب غير مبررة ، وقد يتطاير منها شرار يشعل انفجاراً عالمياً لا يبقى ولا يذر .

كل هذه العوامل حركت فى داخل انجلترا عناصر واعية ، واعطت حزب العمال فرصته الكبيرة ، لكى يضرب حلف حزب المحافظين ونزقه ضربة قاضية .

وقد تحرك الحزب ببطء فى أول الأمر ثم اندفع فى موقف شعبى ، وكان أنورين بيفان ، صاحب الصوت العالى . . وهو الرجل صاحب المبادى الذى ألف كتاب « بديل من الخوف » ينادى بنزع أسباب الخوف التى تسيطر على البشرية . .

وفى البرلمان ، وفى المظاهرات التى حضرها عشرات الألوف تجلى هذا الرأى المستنكر ، وتحدث الخطباء ، ورآها إيدن فى ذهابه وإيابه ، ووقفت زوجة كلاريسا فى ميدان الطرف الأغر عندما خطب فيه بيفان خطبة مدوية قوبلت بأعظم مظاهر الحماسة .

* كتب برتراند راسل ، أكبر فلاسفة انجلترا فى العصر الحاضر : « إن العمل الاجرامى والاجراء الجنونى اللذين أقدمت عليهما حكومة بريطانيا وفرنسا ضد مصر ، يشعرانى بشديد الخجل نحو وطنى » .

— وقالت مجلة الايكونومست المستقلة (بريطانية) : أن الطريقة التي عولجت بها هذه الأزمة تدل على مزيج غريب من الاجرام والهستيريا .

— وقالت الأوبزرفر (بريطانية) : من المهم أن يعرف العالم أن وزارة إيدن لا تتمتع بتأييد الشعب ، ونحن إن لم نتمكن من توضيح ذلك على الملأ ، فسوف نتهم كلنا بالجنون وعدم المسئولية كما تتهم حكومتنا الحالية .

— وقالت الديلي ميل المحافظة (بريطانية) : لقد تصرفنا من تلقاء أنفسنا دون الحصول على تأييد رسمي سوى حماية مصالحنا ، ودون توضيح الأسباب الدالة على صحته .

— وقالت الديلي ميرور اليومية المعارضة (بريطانية) : هذه حرب أعلنها إيدن وحده .

— وقالت المانشستر جارديان المستقلة (بريطانية) : أن قرار انجلترا وفرنسا ضد مصر ، كان عملا جنونيا ، مبنيا على التهور والاندفاع ، دون الاستناد إلى أى مبرر . ونحن لا نستطيع التنبؤ بطبيعة الانفجارات التي قد تقع .

— أما جريدة التيمز البريطانية ، فعلى الرغم من أنها كانت في صف معاد لمصر، إلا أنها عندما تبينت هزيمة إيدن السياسية استدارت له وقالت . أن التهور يكلف كثيراً ، ويجب أن تتوقع تماماً ما سوف يحدث من الآن . . أن المجازفات الواضحة فى الطريقة ، والوقت التي اتخذها الانجليز والفرنسيون فى تنفيذ أعمالها العدوانية ، أمران لايمكن تجاهلهما .

وقالت فى أول نوفمبر أن القائد الأعلى للجيوش المتحالفة على حافة الهاوية

وعند النزول فى بور سعيد ، ووصول أنباء المقاومة المصرية الباسلة . قالت الجريدة : على الحكومة أن تبرهن أن القوات الانجليزية والفرنسية تستطيع السيطرة بسرعة على مجرى القتال . . وما زالت تساورنا الشكوك الآن فى أن تصرفاتنا كانت سليمة وعند ما استقال إيدن ودعته التميز بقولها التهور يكلف كثيراً جداً .

* أما الكاتب البريطاني ادموند إيرل فقال : أن انجلترا باعت عرضها .

— وقارن الزعيم العمالى ينورين بيفان فى مناقشة مجلس العموم يوم ١٩ ديسمبر موقف حكومة المحافظين فى بدء العدوان ، وفى انهزامه قائلا : كانوا يعتقدون أنهم وصلوا إلى قمة مجدهم . ويقولون الآن أن انجلترا أصبحت أمة من الدرجة الثانيـة ، وقد أظهرنا للعالم بسبب إخفاق تصرفنا فى مصر ، وأن الشعلة قد أفلتت من أيدينا ، وانتقلت إلى دولة أخرى ، ويجب علينا الآن أن نعد أنفسنا أمة من الدرجة الثانية ، وأن نلتمس لأنفسنا ملجأ وراء حائط يفوق حائطنا الخاص فى الارتفاع (يقصـد الولايات المتحدة) . . . ويبدى بيفان اعتراضه على هذا الرأى ويقول : أن تصفية الامبراطورية البريطانية لا يعقبه قيام امبراطورية أخرى ، . . إذ لا توجد الآن دول عظمى ، ولكن توجد دول منهـارة . . . واستطرد قائلا . أننا لاشك نستعمل لغة غير صحيحة لا تتفق وطبيعة العصر ، وهناك وسائل جديدة لتحقيق العظمة ، عن طريق إشعاعات حـــديثة للفكر ، والعمل على الهام الناس وانارة عقول البشر ، ولا يمكن أن نتوقع فى المستقبل أملا أعرض إلا إذا اتعظنا بعبرة السويس وعواقبها الأليمة (١) .

* * *

وفى مجال دراسة العقلية البريطانية أثناء الغزو ، نشير إلى النقد اللاذع الذى وجه إلى تكوين العملية نفسها ، فإن طول المسافات بين قواعد التموين والإمداد ، ومكان المعارك كان أمراً بالغ الخطورة . .

كانت السفن التى قامت من مالطة مجموعة ضخمة مكونة من مائة سـفينة تحمل الرجال والعتاد ، وكان عليها أن تلتقى فى مكان ووقت متفق عليهما بالسفن القادمة من قبرص .

وعند ما علم تشرشل بهذه التفاصيل ، قال منتقداً رئيس وزراء حزبه . ووزارة حربه : لن أركب البحر مدة خمسة أيام ، إذا كانت معدتى مضطربة ! !

---

(١) جمع هذه المقتطفات المؤلفان ميكائيل فوت ومرفين جونس فى كتاب (الآثمون) لعام ١٩٥٧ ترجمة محمد عطا .

واضطراب المعدة هذا لم يكن من نصيب الجنود وحدهم ولكن من نصيب إيدن وجهازه الحربى والسياسى كله . . ولعل أبلغ مثل على هذا الاضطراب ، الحوار الذى دار بعد إحدى جلسات مجلس الوزراء البريطانى فى أواخر اكتوبر سنة ١٩٥٦ فقد وجه السير ديفيد ايكلز وزير التعليم الحديث لإيدن قائلا :

ــ كان يجب أن نأخذ وقتاً للتفكير ، فرد عليه إيدن فى صلف .

ــ أنك لم تخدم ، أنت وبعض زملائك فى وزارة حرب .

وسمع الحوار وزير العدل والخدمات المدنية ــ واسمه ريان ماكلويد فعلق قائلا:

ــ لم نكن نعلم أننا فى حرب . .

فأشاح إيدن بوجهه عنه ! !

ولم تكن معارضة عملية السويس فى داخل الجهاز الحكومى البريطانى . قاصرة على بعض الوزراء الذى ذكرنا استقالاتهم ، فقد قال عنها توماس المؤرخ الانجليزى لهذه الحرب :

« فى بريطانيا أيضا صادفت عملية موسكتير معارضة متزايدة خلال نهاية ذلك الإسبوع ، فنى يوم ٤ نوفمبر أعلنت استقالة ناتنج . ونظم ٤٠ نائباً محافظاً حركة احتجاج بزعامة اليكسى سيبرمان وولتر اليوت وهيلد المدعى العام السابق . ويبدو أن هؤلاء المحتجين أكرهوا على الامتناع من تقديم مذكرة يضمنونها سحب تأييدهم للحكومة ، وذلك استناداً إلى تعهد من هيث زعيم المعارضة ذى الابتسامة الدائمة (هكذا وصفه إيدن) بأن ينتهى القتال فى خلال بضعة أيام ، وكان هفلتون فوستر قد كتب خطاب استقالة ولكنه لم يرسله وفى وزارة الخارجية البريطانية وقع عدد من وكلاء الوزارة وثيقة تنطوى على نقد للعمليات ، ووقع فيتز موريس ، المستشار القانونى لوزارة الخارجية مذكرة انتقد فيها الأساس القانونى للعمل المقترح القيام به ، ولقد أثار العداء الواضح الذى أظهرته محطة الاذاعة البريطانية (بى . بى . سى) لعملية السويس كلها مسألة العلاقات التى تربط الحكومة بوسائل الأعلام بصورة خطيرة : فلقد حاول الأقطاب المحافظون منع جيتسكيل من الرد على حديث لإيدن أذيع يوم ٤ نوفمبر ، وأوفدت وزارة الخارجية أحد مستشاريها إلى دار الإذاعة ليتأكد من أن محتويات النشرات الأخبارية متفقة مع سياسة الحكومة .

بل حدث ما هو أكثر من هذا فإن تعليمات صدرت بعدم توزيع محاضر الاجتماعات الخاصة بعملية السويس ، على عدد كبير من موظفى وزارة الخارجية البريطانية ، ومثل هذا حدث فى فرنسا أيضاً ، حتى أن جريدة الأوبزرفر البريطانية قالت إن هؤلاء المسئولين الكبار (ومنهم وزراء) ذهلوا لحذف أسمائهم من قوائم توزيع المحاضر والمذكرات السرية .

وكانت هذه الحالة سبباً فى ثورة نفسية عارمة داخل الأجهزة الرسمية للحكومتين المعتديتين .

إلا أن الوكيل الدائم لوزارة الخارجية البريطانية ، الذى يمثل فكرة السياسة المستمرة رغم تغير الوزارات ، وهو السير إيفون كير كباتريك ، فكان فى وسعه ، كما روى سفير كندا فى لندن — نورمان روبرتسون — أن يقيم عبدالناصر تقييما دقيقاً من وجهة نظره ، وأن يتبين ما يمثله من خطر على عالم الشرق الأوسط بأسره .

وقد شرح كير كباتريك للسفير هذا الخطر بقوله : إن المعلومات السرية المتوافرة لدى مخابرات وزارة الخارجية ، تشير إلى أن عبد الناصر قد شرع فى العمل على الإطاحة ببعض أنظمة الحكم فى البلاد العربية ، كالعربية السعودية ، وليبيا ، وسوريا والعراق ، عن طريق ثورات يقوم بها الضباط الأحرار فى تلك البلاد . وقال إن المخطط الذى وضعه يقضى بحدوث الثورة فى العراق فى غضون أربع سنوات .

وطبعاً لم تصح مواقيت ولا معلومات هذا السياسى الاستعمارى العتيد ، فإن ثورة قامت فى العراق فعلا ، ولكن بعد عامين لا أربعة أعوام من أحداث السويس .. وليس ذلك لأن عبد الناصر خطط ونظم ، ولكن لأن الشعب العراقى أحس بوجوب التغيير ، فاندفعت طلائعه الثورية فى الجيش للعمل . .

ولا يسعنا إلا أن نقر وزارة الخارجية البريطانية ، على أن أفكار عبد الناصر ، خطرة فعلا ، لا على الشرق الأوسط وحده ، ولكن على أفريقية وآسيا ، وأمريكا اللاتينية ، فهى تمثل التحرك ضد الاستعمار أينما كان . . والشعوب كائنات حية ، تحس بجوعها للحرية إذا ضاعت منها ، دون حاجة لمن ينبهها إلى جوعها وإن كانت أحياناً فى حاجة إلى من ينبهها إلى كيف تحصل على ما هو حق لها .

ومما يرويه المؤرخ الإنجليزى هيو توماس ، أن هارولد ماكيلان وزير المالية ، قال لزوج ابنته امرى ، أن إيدن سوف يفقد مقعده بعد أسابيع قليلة من هذه الحرب .

ونحن نعلم أن ماكميلان كان متحمساً للعدوان ، ولكن يبدو أن لحماسته هدفاً خاصاً وهو إسقاط رئيس وزرائه ، بعد أن يتورط فى حرب خائبة غير مضمونة النتائج ، فتتاح له فرصة الوثوب إلى مقعد الرياسة ... وهو ما حدث فعلا .

وروى نفس المصدر — ﻫ . توماس — أن ماكميلان كان يقول أن نسبة النجاح العسكرى لهذه الحملة تزيد قليلا عن ٥٠ ٪ . ومع هذا لم يعرف أنه صارح القواد ورئيس الوزراء بهذا الرأى . . وهو يحمل كل عناصر الشك فى الحملة . . فإن المتجه إلى المعركة لا بد وأن يضمن نتائجها ١٠٠ ٪ ، لسبب بسيط ، وهو أنه يخاطر بأرواح بشر ، ولكن السياسة كانت وما تزال لعبة مفضلة عند الإنجليز على الآدميين وحياتهم .

وقد وصف ماكميلان بحق ، بأنه صاحب شخصية زئبقية ، و لعل الرئيس جمال عبد الناصر تذكر هذا كله ، عند ما تقدم له فى قاعة هيئة الأمم بنيويورك ، إنجليزى طويل القامة ، يعلو رأسه شعر أشيب متطاير ، وتعلو شفتيه ابتسامة مهذبة ، وانحنى قائلا :

— سيدى . . أنا هارولد ماكميلان !

فتبسم عبد الناصر وقال :

— . . . تشرفنا .

وربما كان من الآراء فى سياسة الإنجليز ، التى تبعث على الابتسام ما قاله عنهم موسى ديان القائد اليهودى ، الذى رأى الإنجليز يوقعون أمامه على معاهدة سيفر متضمنة تنظيم عملية الاعتداء على مصر . . .

فقد ذعر الملك حسين من الهجوم اليهودى على حدوده ، قبيل العدوان ، فأبرق إلى الجنرال كيتلى مباشرة ، فى مقر قيادته بقبرص ، طالباً نجدة من الطائرات البريطانية .

وعلم اليهود أن طائرات الإنجليز تستعد لنجدة حسين فصاح موسى ديان :

لا يوجد أحد من دون الرب نفسه ، يعقد المسائل على النحو الذى يجرى الآن ، غير الإنجليز أنفسهم .

والرب فى مفهوم اليهود ، يعقد المسائل ، ومن بعده الإنجليز . . ولكنه ليس كذلك فى مفهوم بقية البشر !

والواقع أنه ليس هناك أحد أبرع من الإنجليز فى النفاق ، وتسمية الأشياء بغير أسمائها . . فى ١٣ اكتوبر سنة ١٩٥٦ وقف أحد زعماء حزب المحافظين يدعون إلى تأييد إيدن . ووصفوا حربهم المقبلة ضد مصر كما يلى : نحن لا يمكن أن ننحنى أمام القومية التى تقادم عهدها (أما الاستعمار فلم يتقادم عهده ! !) ، وعلى المحافظين أن يتبعوا إيدن الشجاع ، من أجل الحرية والتقدم وسيادة القانون . . .

وكل هذه الأوصاف كانت تطلق على حربهم المنتظرة ضد مصر .

ومن غرائب المفارقات البريطانية ، أن أسطول الغزو الذى تحرك من مالطة ، وجد فى طريقه بوارج الأسطول السادس الأمريكى ، وكانت إحدى سفنه مكلفة بحمل الرعايا الأمريكان من الإسكندرية على نحو ما ذكرناه من قبل . .

وكانت السفن البريطانية مطفئة أنوارها ، وبعث قائدها الأميرال وركفورسارتر ، بأشارة للسفن الامريكية بأن تبتعد عن طريقه ، فلم يعبأ به القائد الأمريكى ، فما كان من القائد الإنجليزى إلا أن أمر سفنه المائة بأن تضىء أنوارها ، وتمنى أن تجىء الطائرات المصرية فى هذا الوقت وتلقى قذائفها فتصيب — أيضاً — الأسطول السادس ، وبذا تدخل الولايات المتحدة الحرب ضد مصر .

ولم يعرف بعد رأى المارشال بارنيت قائد الطيران الإنجليزى فى هذه العملية ، وهل كان سيتصدى للطائرات المصرية ، أم يتركها تؤدى دورها فى هدوء ، اتماماً للمناورة ، أو المؤامرة . . .

المهم أن الطائرات المصرية كانت مشغولة بأعباء أخرى ، ولم تظهر فى هذا الوقت .

وكل ما حدث أن قائد الأسطول السادس الأمريكى أبرق لحكومته فى وشنطن يسأل :

فى أى جانب أنا ؟!!

وحتى الآن لم يتلق رداً على برقيته !

* * *

وكان موقف تشرشل ، بوصفه أكبر زعماء انجلترا الأحياء موقفاً متناقضاً . . ولا جدال فى أنه شجع العدوان فى أول الأمر ، وكان يزوره قواد الحملة ، وكبار السياسيين . ولم يبد منه اعتراض ، إلا على أن يبدأ النزول فى الاسكندرية لا بورسعيد .

فلما أخفقت الحملة ، تنكر لكل الذى حدث ، ولا عجب فى ذلك ، فالخذلان يتيم الأبوين . . فى حين أن النجاح تجـــد له الكثير يتمنون أن يكونوا آباءه وأمهاته أيضاً .

قال تشرشل عندما علم بقرار إيقاف القتال .

— « رباه لو أننى كنت فى مكانه (أى مكان إيدن) لما واتتنى الشجاعة لكى أبدأ المغامرة التى بدأها فى السويس ... ولما واتتنى الشجاعة لكى أتوقف فى منتصف الطريق كما توقف إيدن بعد انهياره أمام الكارثة ! » .

وكتب تشرشل لجى موليه رئيس وزراء فرنسا يقول : لوكان الأمر فى يدى ، لتابعت . ولمضيت قدما .

وقد حاول الكاتب الصهيونى ، ميشيل زوهار ، أن يجعل انجلترا مسؤولة قبل فرنسا عن اشتراك إسرائيل فى العدوان على مصر . . قال :

« تردد اسم إسرائيل فى لندن قبل أن يقرر الفرنسيون اشتراكها معهم بأسابيع طويلة . ففى خلال الجو الخانق ، المشحون بالتوتر ، وبدخان السجاير الذى يتصاعد فى اجتماعات كبار الضباط من هيئتى أركان الحرب الإنجليزية والفرنسية ، كان بعض

القواد يفكرون فى مشكلة عويصة ، وهى عدم وجود قواعد كافية قريبة من مصر يشنون منها هجومهم المرتقب . وقال قائد فرنسى بصراحة :

— لماذا لاتكون هذه القواعد فى إسرائيل ؟

وبعد أيام قليلة أثارهذا القائد سؤاله مرة أخرى أمام رؤسائه . وكم كانت دهشته عندما طلبوا منه أن يلزم الصمت . وقد اتهمه البريطانيون فيما بعد ، بأنه كان يلعب لعبة مكشوفة . وقالوا له معاتبين :

— أنك تعرف منذ البداية أن الإسرائيليون مشتركون فى العملية . . .

وإذا صحت هذه الرواية ، فإن وقتها كان قبل معاهدة سيفر بأسابيع ، عندما بدأ العسكريون الإنجليز والفرنسيون ، يجتمعون فى مخبأ القيادة العليا الذى أرادت منه الحرب العالمية الثانية ، وكان موقعه تحت مياه نهر التيمز . . وكانت خرائط النزول فى نورماندى أمامهم .. وقد استعانوا بنفس خطط أيزنهاور فى تحطيم حصون حائط الاطلنطى التى أقامتها ألمانيا شمال فرنسا .

وقد وصف هذا الكاتب الصهيونى إيدن بقوله . كانت الحكومة البريطانية تواجه ضغطاً شديداً من الأمم المتحدة ، والولايات المتحدة ، ومن دول الكومنولث وقد هزت هذه العوامل شخصية ضعيفة ، مريضة معدومة الإرادة ، عنيفة ، ولكنها مفتقرة إلى الهيبة وقوة النفوذ ، هى شخصية أنطونى إيدن . .

ولو لم يكن هذا الكاتب من هو ، لجعل فى مقدمة العوامل الضاغطة على إيدن حتى انهارت المقاومة المصرية والصلابة التى لا تنتهى ولا تتنحى ، والتهديد المخيف الذى وجهه الاتحاد السوفياتى ، حتى خيم على العالم شبح الحرب الذرية .

دور الولايات المتحدة

عرضنا فى مناسبات سابقة إلى دور الولايات المتحدة فى حرب السويس . وذكرنا الأدلة التى عرفت بعد العدوان ، والاعترافات الصريحة من الفرنسيين ،

بأن الأجهزة العسكريه والمخابرات والأجهزة الدبلوماسية الأمريكية كانت على علم تام بكل التفاصيل من اليوم الأول . والدليل المادى — أقوى دليل — على المساهمة فى تسليح الحملة ، وقد ذكر الفرنسيون عدد المواد الحربية التى قدمت ، وكان من أهمها المدافع المضادة للدبابات ، وأجهزة الأوكسجين السائل للنفاثات ومن غيرها لاتطير طائراتهم . .

وقد أجمعت المصادر المطلعة ، على أن هيئة أركان الحرب الأمريكية بحلف الأطلنطى ، ساعدت الفرنسيين ، إذ أمدتهم قاعدة « شاتورو » الأمريكية بقطع الغيار اللازمة لهم ، وأكملت باقى ما طلبوا من الولايات المتحدة . وسلم الأمريكان ثلاثة أسراب من الطائرات الأمريكية ، من طراز « ف — ٨٦ » لقيادة العدوان فى قبرص ، وكان عليها شارات حلف الأطلنطى . وقد احتاجت هذه الأسراب لخزانات إضافية للبنزين . فطلبت القيادة الأمريكية هذه الخزانات من قواعدها فى ألمانيا واكملت العدد الباقى من الولايات المتحدة ، الذى نقلته طائرات النقل العسكرية الأمريكية .

وحدث ليلة العدوان الإسرائيلى على سينا ، أن كان الملحق العسكرى الأمريكى فى مطار اللد يشرف على ترحيل الاسر الأمريكية حسب تعليمات حكومته . وكان المطار غاصاً بالطائرات الفرنسية ، التى يضع عليها اليهود شاراتهم .. وقد وقد التقط الملحق العسكرى — وكان برتبة الكولونيل العديد من الصور للطائرات الجاثمة فى المطار ، ولم يعترضه أحد . وأرسل طبعاً صورة إلى قيادته .. وبدا كأنه لم يضف جديداً إلى معلومات رؤسائه .

ولعل مانقل عن سفير الهند فى القاهرة فى كتاب أزمة السويس[١] يعبر عن رأى الرئيس عبد الناصر أصدق تعبير . فقد قال الرئيس للسفير :

« إننى لأوثر موقف العداء الصريح الذى تقفه الحكومتان البريطانية والفرنسية

---

(١) ص ١٦٧ من كتاب (أزمة السويس) .

لأنى أفهمه ، على موقف الأمريكيين الذين يحتدون حيناً ، ويهدأون حيناً آخر . مما يؤدى إلى المزيد من تعقد الموقف .

وقد كتب أيزنهاور رداً على رسالة من رسائل إيدن له ، هذا نصها :

« عزيزى أنطونى

عندما أجد نفسى على خلاف ، ولو بسيط ، معك ، حول أية مشكلة دولية فإننى أشعر من أعماق نفسى بما يرغمنى على إعادة النظر فى موقفى بسرعة وبدقة . ولكن اسمح لى أن أقول بأنك عندما تستخدم عبارات تتعلق بعملية السويس مثل (أبشع نهاية لتاريخنا الطويل) فإنك تغالى . أننا نواجه مشكلة خطيرة تتعلق بمغامرة ناصر الطائشة الخاصة بقناة السويس وأننى لا أختلف معك فى تقديرك لنواياه وأغراضه . النقطة التى لايبدو أننا لا نتفق فيها هى التأثيرات المحتملة فى العالم العربى لردود الفعل المتنوعة الممكنة من جانب العالم العربى . ويبدو أنك تعتقدأن أى جدل طويل لابد أنه سيجعل من عبد الناصر بطلا عربياً . . وهذه ، فيما أعتقد ، صورة قاتمة للغاية . . وأعتقد أننا يمكن أن نتوقع أن يلتفت العرب بحزم لتأييد عبد الناصر (إذا) كان هناك لجوء إلى استخدام القوة بدون اكتشاف دقيق واستنفاذ لكل وسائل سلمية ممكنة لتسوية المشكلة . أن عبد الناصر ينجح فى هذه الدراما . . فإذا تركنا جزء من هذه الدراما يفلت من الموقف وقمنا بالتركيز على أن نجعله « ينكمش » من خلال عمليات أكثر بطئاً ولكنها أكثر ثباتاً (مثل الضغوط الاقتصادية ، المنافسين العرب.أنابيب بترول جديدة إلى تركيا مزيد من البترول من فنزويلا إلى أوربا) . .

أؤكد لك أننا لا نجهل حقيقة أنه قد لا يكون هناك مفر فى نهاية الأمر من استخدام القوة . . أما اللجوء إلى العمل العسكرى فى الوقت الذى يؤمن فيه العالم بأن هناك وسائل أخرى ممكنة . .

فإنه سيحرك قوى قد تؤدى إلى أوخم النتائج . . مع أحر التحيات . .
صديقك على الدوام . .

« أيزنهاور »

وقد علق إيدن بسخط على هذه الرسالة قائلا إن دلاس هو كاتبها . . وأضاف أن : « الشيء الوحيد الذى ينتمى إلى (أيك) فى هذه الرسالة هو توقيعه الذى يمكن قراءته بصعوبة ! ! » .

ولا يهم كثيراً إذا كانت هذه الرسالة تعبر عن رأى دلاس وحده ، أو رأيه مع رئيس جمهوريته أيزنهاور ، فإن علاقات الولايات المتحدة مع مصر ، منذ عقد صفقة الأسلحة الروسية ، كانت غير مستقرة على حال ، ويمكن أن نقول إن طابعها من جانب مصر عدم الثقة . . وطابعها من جانب الولايات المتحدة ، محاولة الضغط بكل ثقل الدبلوماسية والمناورة السياسية . . ولم تكن مصر وحدها هدف هذه السياسة ، ولكن دول عدم الانحياز . التى أثبتت وجودها فى باندونج ، كانت الهدف .

ويكفى دليلا على ما نعنيه ، أن نذكر ما نقل عن دالاس فى مذكراته غير المنشورة ، أنه اختار يوم ١٩ يوليو سنة ١٩٥٦ ، موعداً لإعلان انسحاب بلاده من عملية تمويل السد العالى ، وتوجيه الكلمات اللاذعة لمصر بهذه المناسبة . . وذلك لأن هذا اليوم ، كان نفس الموعد الذى صدرت فيه قرارات مؤتمر بريونى الذى اشترك فيه ناصر ونهرو وتيتو . وذلك « لكى يتقلص حجم هؤلاء الذين يتشدقون بالكلام عن عدم الانحياز » ! !

ولم يكن دالاس يهتم بمفاوضات كانت تدور سراً بين الأطراف المعنية ، لكى تحصل مصر فى ذلك الوقت على نصف دخل القنال ، بوصفها جهازاً ينقل البترول ، الذى تحصل دوله على نصف الدخل . .

وكان الرئيس جمال عبد الناصر يزن هذه الفكرة ، ويقلبها على وجوهها ، حين فاجأته بيانات وشنطن ولندن والبنك الدولى عن السد العالى ومالية مصر . وعندها تبين له ألا فائدة من هذا البحث ، إزاء هذه الموجة من العداء ، لأن الجهد الذى سيبذل فى الحصول على النصف ، هو نفس الجهد الذى سيبذل فى الحصول على الكل . .

ولكننا مع هذا لا نستطيع أن ننكر على أيزنهاور رغبته الملحة فى منع الحرب ، التى كابد أهوالها من قبل . . وقد جعل موقفه أكثر صراحة وصرامة ، أنه داخل فى معركة انتخابات الرياسة ، وما أن وصلته أنباء العدوان على مصر ، وأن القنابل تلقى على القاهرة والاسكندرية والقنال حتى صاح :

— قنابل . . لماذا فعل بى أنطونى ذلك ؟ ! .

ثم أمر بإيقاف الحملة الانتخابية ، التى كان يطوف فيها خطيبا فى أكثر من مكان . واكتفى أنصاره ، بأن وصفوه بأسلوب عملى ، لا كلامى بأنه رجل السلام . . وأنه صادق كل الصدق فى هذا الاتجاه . وله فى هذا سابقة . إذ أنه هو الذى أنهى الحرب الكورية . .

وكان السيناتور وليام نولاند ، وهو عضو بارز فى لجنة العلاقات الخارجية ، فى مجلس الشيوخ الأمريكى ، هو الذى بادر وزير الخارجية بقوله :

— اسمع يا فوستر . . عليك ألا تقحمنا فى حرب أخرى من هذه الحروب الأوربية . ولو فعلت ذلك ، فسوف يسلخ الكونجرس جلدك !

* * *

وهناك سؤال كان حائراً ، ولكنه استقر الآن على جواب . . وهو :
— أى قدر من المعلومات كان لدى الولايات المتحدة عن استعدادات اسرائيل — بمعونة الأسلحة الفرنسية — للهجوم على سينا ؟

لقد ظهر أخيراً ، أن المخابرات الأمريكية ، كانت تلتقط سيل الاشارات اللاسلكية المتبادلة بين اسرائيل وباريس ، من بعد تأميم القنال حتى بداية العدوان . . وتملك المخابرات الأمريكية مفتاح الشفرة الاسرائيلية . . ورئيس المخابرات الأمريكية هو أخو وزير الخارجية ، فوستر . . وآلن ، كلاهما أبناء دلاس . . وفى هذه البرقيات أيضاً ما يقطع بأن انجلترا كانت عضوا فى المؤامرة .

ومن هذه المجموعة برقية بتاريخ ١٦ اكتوبر موجهه من الفرنسيين لبن جوريون ، يقولون له فيها : « تستطيع أن تعتمد اعتمادا تاما على الانجليز » وهى واضحة الدلالة

على طبيعة ومهمة الحلف الدنس . . حلف العدوان الثلاثى . . وقد التقط الأمريكان هذه الرسالة ، وفكوا رموزها ، وكانت تحت أنظارهم من هذا التاريخ .

أما إلى أين وقفت المعلومات فى مسالك الحكومة الأمريكية ، فقد أصبح مقطوعا به أنها وقفت فى البنتاجون مقر وزارة الحربية ، الـ C.I.A. أو جهاز المخابرات ووزارة الخارجية . . ولكنها لم تدخل البيت الأبيض . فإن تصريحات أيزنهاور وانفعالاته الكبرى ضد العدوان ، لم تكن تمثيلا ، ولكنها كانت تدل على واقع فى داخل نفسه .

وفى الوقت الحاضر أفرج عن هذه الوثائق ، ولم تعد بد سرآ محجوبا .

وفى التحليل الصهيونى لهـذه الحرب أن القواد الانجليز كانوا على أتم اتصال بالقواد الأمريكان — بالمعلومات طبعاً — حتى أن الجنرال تمبلر رئيس هيئة أركان حرب القوات الامبراطورية فى وزارة الحرب البريطانية يوم ٥ سبتمبر سنة ١٩٥٦ ، صرح بأنه « ليست هناك أية مشكلة . . ان الولايات المتحدة معنا » وكان كلامه هذا موجها لكل من الجنرال جازان الفرنسى والجنرال كيتلى الانجليزى .

* * *

وإذا كان أيزنهاور قد اعتمد على دلاس فى التعبير عن رأيه ، فقد مرض دلاس ودخل المستشفى . وبرزت على الفور شخصية كابوت لودج رئيس وفد الولايات المتحدة فى هيئة الأمم . فقد كان واضاً ، وصريحاً ، وقاطعاً . حتى أن دول العدوان انزعجت منه . . وبلغ من وضوحه أنه وزملاءه تفادوا حتى تحية ممثلى انجلترا وفرنسا فى أروقة مبنى الامانة العامة .

موقف الهند

الهند احدى دول الكومنولث البريطانى ، وأكبر دولة . . وكان ينبغى ، لكى يسير إيدن حملة كبرى إلى مصر ، أن يستشير الهند وغيرها من هذه المجموعة . ولكن إيدن كان يعلم سلفا ، أن جميع الأعضاء الأفريقيين والآسيويين لن يوافقوه حتى كندا ، وهى من هذه المجموعة ، كانت تعارضه صراحة . ولم يبق معه إلا استراليا ونيوزيلنده كما ذكرنا . . . ولهذا لم يعبأ إيدن بالكومنولث ، كما كان يقضى عليه واجبه أن يفعل .

وكان رأى نهرو واضحاً ، فهو قطب عظيم فى دول عدم الإنحياز . وكان مع عبد الناصر يوم ١٩ يوليو سنة ١٩٥٦ عندما أعلن دلاس امتناعه عن تمويل السد العالى ، وقد قال معلقا : يا لهؤلاء القوم ورعونتهم . .

فلما حدث التأميم ، ساور الانجليز شك مريب فى أن نهرو كان يعلم سلفا بما يحدث ، ولهذا عدوه خصما لموقفهم ، وقد لجأ نهرو إلى أكثر من أسلوب ، لمحاولة الخروج بالعالم من أكبر أزماته بعد الحرب العالمية الثانية . . فقد كتب لأيزنهاور ، زعيم المعسكر الغربى كله يناشده أن يتخذ موقفا واضحا يردع دعاة الحرب ، فرد عليه أيزنهاور فى رسالة رسمية يقول :

أؤكد لك شخصيا ، أن حكومة الولايات المتحدة ، لا تعتزم استعمال القوة فى موضوع قنال السويس . فقد استبعدنا استعمالها منذ البداية[1] » .

وصدر تحذير رسمى من وزارة الخارجية الهندية يقول : أن بريطانيا إذا حاولت أن تخسر مركزها الأدبى العظيم فى العالم ، فستجد الهند من العسير عليها أن تظل ضمن جامعة الشعوب البريطانية (الكومنولث) . . .

وعندما وصل مدير المخابرات الأمريكية لمقابلة نهرو بتعليمات من رئيس جمهوريته ، راح ينسب لعبد الناصر أنه وجه حملات عنيفة لا تنسى للولايات المتحدة (إشارة إلى الرد على سحب تمويل السد العالى) .. وقد أجابه نهرو بأن إيدن صاحب الأعصاب البريطانية ، قد فقد اتزانه وهو يرد على تأميم القنال .

ومن غرائب المصادفات أن موسى شاريت رئيس وزراء اسرائيل الذى خلفه « بن جوريون » فى الحكم ، كى يدبر هذا العدوان . . . موسى شاريت هذا كان فى زيارة الرئيس الهندى ساعة وصول الأنباء بالعدوان الاسرائيلى على سينا . وما أن علم الزائر اليهودى بالنبأ حتى أبدى دهشته وعجبه من أنه لم يعلم ولم يسمع شيئاً عن هذا ، مع أنه قادم من اسرائيل . . وهنا يصدق قول القائل : « إن كنت لا تدرى فتلك مصيبة . . وإن كنت تدرى فالمصيبة أعظم » .

---

(١) تاريخ هذه الرسالة ١٧ سبتمبر سنة ١٩٥٦ كما ورد فى كتاب (أزمة السويس) .

وفى أحاديث لنهرو مع بعض رجال السلك السياسى الأجنبى فى نيودلهى ، قال إنه يحمل إيدن شخصياً مسؤولية العدوان على مصر ، ولا يحملها للشعب البريطانى ، أو الشعب الفرنسى ، وأكد أن « إيدن » إذا استمر رئيساً لوزراء انجلترا ، فإن الهند ستخرج قطعاً من الكومنولث البريطانى .

موقف الصين .. وجاراتها

روى لى صديق الفنان عبد السلام الشريف ، الذى أشرنا إلى أنه كان فى الصين وقت العدوان بمناسبة معرض فنى فى بكين ، تفاصيل مذهلة عن حماسة الشعب الصينى ضد العدوان والمعتدين . والصين بلد الأرقام الضخمة . . وإذا قيل أن مظاهرة سارت أو اجتمعت فإنما تعنى مئات الألوف ، وربما يصل الإحصاء إلى المليون . . وهذا يتناسب تماماً مع أكبر أمم الأرض تعداداً . .

ولعل ما أثار عاطفة كل مصرى حباً وتقديراً لعاطفة الصين نحو مصر ما رواه الفنان عبد السلام الشريف عن السيل الذى لم ينقطع من أطفال المدارس ، وهم يأتون إلى السفارة المصرية ببكين ومعهم حصالتهم ليفرغوها بين أيدى موظفى السفارة ، تبرعاً منهم لشعب مصر .

وقصة المتطوعين الصينيين الذين قيدوا أسماءهم ، راغبين فى مشاركة أبناء النيل كفاحهم الباسل ضد العدوان ، هى قصة لا تنسى ، وبجوارها الأرقام الكبيرة على الطريقة الصينية .

وكميات اللوحات المرسومة المعبرة عن رأى الشعب الصينى فى العدوان ، كانت من الاتساع والضخامة ، بحيث خيل للمصريين أنها تكفى لتغطية الصين كلها . . وقد أحيطت سفارات العدوان بكميات منها غطت المبانى كلها ، فلم يظهر منها شىء .

ولكن كان أهم ما علمناه أن الزعيم « ماوتسى تونج » أخطر البعثة المصرية فى بكين ، أنه إذا استمر العدوان أسبوعاً واحداً فإنه سيأمر بالهجوم على قاعدة «هونج كونج » البريطانية فى الصين . وعلى الرغم من أن قواته تستطيع أن تستولى عليها فى لحظات ، إلا أنه وضع مع القواد خطة الاستنزاف البطىء لدماء البريطانيين فى القاعدة ، حتى تجتذب أكبر عدد ممكن من قواتهم وسفنهم فيخف الضغط عن مصر .

* * *

ونستطيع أن نقول مثل هذا الكلام عن بقية المجموعة الآسيوية ، وعلى رأسها أندونيسيا الصديقة المحبة لمصر وماليزيا المسلمة المتحمسة ، وفيتنام التى ذاقت حلو الكفاح ومره حتى انتصرت على الفرنسيين وتكافح الآن الأمريكان كفاحها الصلب المشهور ، والفلبين ، وتايلاند ، وبورما ، وسيلان ، والأفغان ، والباكستان . . . كان لها صوت مسموع فى داخلها وفى هيئة الأمم . .

وبناء على اقتراح أندونيسيا عقد مؤتمر كولمبو على مستوى رؤساء الوزارات فى نيودلهى واستمر منعقداً من ١٢ إلى ١٤ نوفمبر سنة ١٩٥٦ وحضرته مع الدولتين الكبيرتين : الهند وأندونيسيا ، وبورما وسيلان وأصدر قرارات تؤكد موقف مندوبيها فى الأمم المتحدة .

موقف فرنسا

أشرنا من قبل إلى أن كبار موظفى وزارة الخارجية الفرنسية ، كانوا مبعدين عن الاطلاع على سير عملية العدوان . .

وقد علمت وزارة الخارجية الأمريكية فى وقت مبكر من شهر سبتمبر أن أعداداً كبيرة من طائرات حلف الأطلنطى « ضاعت » من أماكنها التى وضعتها فيها القيادة (قائد عام الحلف أمريكى). وقد كلف سفير الولايات المتحدة فى باريس بالاستفسار رسمياً ، فذهب إلى المدير العام لوزارة الخارجية الفرنسية ، يسأله عن حقيقة الأمر فأجاب :

— لا أعرف شيئاً يا صديقى ، فالموظفون أمثالى ، ليسوا أطرافاً فى اللعبة . . فرد السفير .

— نحن نعلم أن اسرائيل حصلت « فجأة » على مائتين أو ثلاثمائة من طائرات المستير الفرنسية . . فرد الفرنسى يهز كتفيه قائلا :

— حسناً . . ولكنى لا أعرف شيئاً عن هذا الموضوع وليس فينا من يعرف عنه شيئاً . .

وما حدث فعلا أن وزير الدفاع الفرنسى ، وهيئة القيادة كانوا هم الذين يقومون

بتنظيم عملية العدوان ، دون تداخل الجانب الفنى السياسى فى وزارة الخارجية .

وكنا قد ذكرنا — أيضاً — أن موليه عندما تولى رياسة الوزارة فى يناير سنة ١٩٥٦ وعد بلاده بالسلام فى الجزائر ، وقد وصل بعد شهر من تسلمه الحكم إلى الجزائر ، فإذا ثورة الشعب هناك تصدمه صدمة عنيفة ، وغطيت سيارته بأكوام من الفاكهة العفنة التى ألقيت عليه ، فعاد مغيظاً محنقاً بعد هذه الرحلة الخائبة ، ليزيد نشاط فرنسا فى قمع الثورة ، وليبحث عن وسيلة أخرى توقف مدد مصر الروحى والمادى الذى يذكى نار هذه الثورة العنيفة العنيدة .

قال كتاب « الآثمون لعام ١٩٥٧ »: أمطرت حكومة موليه الجزائر بالقوات . ورابط هناك نصف مليون جندى . ولكن الأمور لم تسر فى المجرى الطبيعى ، فقد شهد صيف عام ١٩٥٦ موجات من الاضطرابات . . . أوقف الجنود وهم فى طريقهم إلى الموانى الجنوبية ، القطارات التى تقلهم . ولبثوا وقتا طويلا يجلسون على القضبان احتجاجاً . ولم يخرج آخرون من ثكناتهم . وانضم إليهم المدنيون فى مظاهرات تناهض الحرب عمت مدنا فرنسية كثيرة . . . وفى شهر يونيو من هذا العام ، رفض موليه (الاشتراكى !!) أن يكون لأبناء الجزائر حق المساواة فى بلادهم مع الأجانب المقيمين فيها . وراح موليه يلقى تبعة فشله فى الجزائر على عبد الناصر ، قائلا : إن جبهة التحرير الجزائرية ما هى إلا النقطة الأمامية الذى يريد أن يقيم منها امبراطورية اسلامية تحكم من القاهرة .

وكانت العلاقة بين فرنسا وإسرائيل ، فقد نشأت منذ عام ١٩٤٨ . . فعلى الرغم من عدم اعترافها رسمياً بإسرائيل ، رعاية لعواطف أمبراطوريتها الإسلامية فى ذلك الوقت . فإن فترات الهدنة اثناء القتال بين العرب واليهود ، شهدت السفينة « أتالينا » تغادر سراً ميناء لوبوك الفرنسى ، وهى محملة بالذخائر والأسلحة ، ويروى كتاب الأسرار العليا لحرب السويس(١) أنه كان من بين المتطوعين الذين هرعوا من فرنسا إلى إسرائيل أول عمـــدة يهودى لبير سبع وهو الضابط الفرنسى فى قوات فرنسا الحرة المسيو دوفر . . وعند ما كانت الحرب على أشدها فى فلسطين . طار مسيو

---

(١) Suez Ultra Secret تأليف ميشيل زوهار .

بلومول إلى براغ للمفاوضة فى شراء أسلحة لإسرائيل وواصل رحلته للاجتماع مع جوريون فى فلسطين ، وكانت رحلته على طائرة قدمتها له الحكومة الفرنسية ! !

وحتى تعترف فرنسا باسرائيل حصلت على رشوة سرية وهى معاهدة عقدتها مع العصابة الصهيونية ، تعترف فيها « بمركز فرنسا الخاص بوصفها حامية للأماكن المقدسة المسيحية فى إسرائيل ! ».

إن روح لويس التاسع وحروب الصليبيين تتحرك مرة أخرى . وما الذى يهم إسرائيل . إنها تعطى ما لا تملكه ، وترضى بهذا البابا وعالم الكاثوليكية الذى وقعت فرنسا باسمه هذه المعاهدة . . وهى تعتقد أنها بعد أن طردت من المشرق العربى — سوريا ولبنان — تعود من الباب الخلفى عن طريق اسرائيل ، التى اعترفت بها بعد ذلك ، ولم تهتم بأمبراطوريتها الإسلامية ، ما دام الثمن مدفوعاً .

وقد مدت اسرائيل جسر التعامل مع فرنسا ، إذ باعت لها اختراعا توصل إليه ستروفسكى الكيماوى اليهودى ، وهو إنتاج الماء الثقيل اللازم لصنع القنبلة الذرية بنفقات زهيدة . . وكان ذلك عام ١٩٥٣ وسارعت فرنسا بدورها بعد معونتها فى الأبحاث الذرية للقرصانة الصغيرة فى الشرق الأوسط . ثم امتد هذا التعاون إلى صفقة طائرات نفاثة قدمتها فرنسا لإسرائيل ، وذلك فى عام ١٩٥٤ . . وبتشجيع من منديس فرانس رئيس وزراء فرنسا تتابعت صفقات الأسلحة الفرنسية من كل نوع وكان مندوب اسرائيل يقابل فى وزارة الدفاع الفرنسية بموسيقى عسكرية وحرس شرف ! ! [١] . وكان الجنرال كوينج وزير الدفاع الفرنسى . قد قاد أثناء الحرب العالمية الثانية معركة بير حكيم ، وتراجع منها إلى الاسكندرية ، وهناك وجد الانجليز يدربون الفيلق اليهودى (الهاجناه) فأعجب به !! وفى شهر مايو كانت مائة دبابة فرنسية قد وصلت إلى إسرائيل ، وهذه الدبابات ماركة شيرمان سلمها الانجليز للفرنسيين .

---

(١) كان مبعوث اسرائيل الى فرنسا لعقد هذه الصفقات شيمون بيرنز (٣١ سنة) مدير وزارة الدفاع وجوزيف نحمياس · وقد وصلا الى ما يريدان عن طريق الاتصال المباشر بالحكومة الفرنسية السرية ، وهم جماعة الجنرالات الذين خابوا فى الهند الصينية ، وأرادوا أن يحاربوا مصر الى آخر جندى اسرائيلى !! والسبب معروف ·· واسمه الجزائر ·

وقد كشفت خطب الرئيس عبد الناصر عن هذه العمليات ، ولم تترضجة لدى أحد ، وما أن أعلن فى شهر أكتوبر سنة ١٩٥٥ عن صفقة الأسلحة الروسية لمصر حتى قامت الدنيا ، ولم تقعد .

ويعترف الكتاب الصهيونيون صراحة ، بأن إسرائيل تدخلت فى الانتخابات البرلمانية التى سلمت الاشتراكيين رياسة الوزارة ، فقد كان « لبيرنز » مدير وزارة الدفاع الإسرائيلية مكتب فى مقر رياسة الوزارة ، حيث أخذ يتحدث بالتليفون بالتليفون ويرسل تعليماته إلى رجاله وأعوانه فى جميع أنحاء فرنسا » .

ويقول ميشيل زوهار صراحة ، شن الإسرائيليون حملة انتخابية فى جميع دوائر فرنسا للحصول على تأييد رجال الحكومة القادمة . . وسافر بيرنز إلى شمال فرنسا حيث قابل موليه فى دائرته الانتخابية ، وقد رحب به موليه ، ووعده بالمساعدة ، وفى شهر يناير ١٩٥٦ شكلت « الحكومة الفرنسية الجديدة برياسة موليه وكانت تضم بين أعضائها عدداً كبيراً من أصدقاء إسرائيل » .

ولا عجب فى أن تتداخل الصهيونية فى انتخابات فرنسا ، ويذكر الكتاب هذا بكل صفاقة ، دون خشية من نقمة الرأى العام الفرنسى .

وهل ننسى أن روتشلد اليهودى الفرنسى ، هو الذى تسلم من الانجليز فى عام ١٩١٧ نص وعد بلفور ، ليبلغه إلى شيعته . . بل هل ننسى أن أموال روتشلد — اليهودى الفرنسى — هى التى ساعدت على تكبيل مصر بالديون أيام حكم إسماعيل الخديو ، وكانت المنفذ الذى تسرب منه النفوذ الأجنبى ، ثم الاحتلال . .

أبداً . . لا ننسى . . ولن ننسى !

ولقد دهش الجنود الفرنسيون غاية الدهشة ، عندما وجدوا أنفسهم بعد فترة طويلة من الانتظار فى قبرص ، وفترة قصيرة من الوجود الدامى فى بور سعيد ، يعودون مرة أخرى إلى قبرص . . وقد بلغ بهم الغيظ مبلغه ، حتى أن كثيرين منهم بحثوا عن يونانيين من المنضمين إلى حركة « أيوكا » القبرصية التى أعلنت الثورة على الانجليز الذين يحتلون بلادهم ، لكى يسلموهم أسلحتهم حتى يقتلوا بها عدداً من جنود الامبراطورية العجوز ، مادام لم يصرح بعد للفرنسيين بقتل الانجليز ! !

وكان من المقترحات الفكاهية لقواد فرنسا ، أن ينضموا بجنودهم إلى الجيش الاسرائيلى ، ويلبسوا ملابسه ، ويتابعوا قتال المصريين تحت راية بن جوريون .

وليتهم فعلوا . . فما صنع فى لويس التاسع بالمنصورة كان حريا أن يتجدد ، فالقيد باق ، ودار ابن لقمان على حالها . . ولكن بن جوريون نفسه رغم العبارات الجوفاء التى أطلقها ، كان يود الفرار بجلده من الأرض المصرية ، قبل أن يجد نفسه وحيداً ، ولا شىء يدافع عنه أمام جيش النيل .

وزار راندولف تشرشل ابن ونستون تشرشل تل أبيب أثناء العدوان ، ووصف الأعداد الضخمة من القواد والضباط الفرنسيين الذين كانوا فى فندقه وفى الفنادق الأخرى ، ولكنه لاحظ أيضاً أعداداً أكبر من الفتيات الاسرائيليات أقبلن — كما قال راندولف — لتأكيد العلاقات الفرنسية الاسرائيلية

وكل ما حصل عليه الفرنسيون من هذه الحملة الخائبة التى شاركوا فيها . تجمع أسطولهم حول المدمرة ابراهيم ، وضربها ، قبل أن يعلنوا حرباً ، أو يخوضوا معركة ، مما شرحناه من قبل .

واحتفالا بهذه البطولة النادرة ، والفروسية الهائلة ، أقامت البحرية الفرنسية بعد حوالى عام من العدوان — وفى ١٠ أغسطس سنة ١٩٥٧ — حفلا فى ميناء طولون ، رأسه وزير البحرية الفرنسية ، فرانك أرنال ، ومنح قائد هذه المجموعة البحرية وساماً ! !

وراح هذا الوزير يخطب فى جنود البحرية الفرنسية وقوادها ، مؤكداً أن هجوم الأسطول الفرنسى على المدمرة إبراهيم ، هو الذى حقق لاسرائيل نجاحاً مذهلا ! !

وقد عرفت أسماء القواد الفرنسيين الذين عملوا فى داخل إسرائيل أيام العدوان . فقد تولى القيادة الجنرال « بروهو » ، وكان رئيس أركان حربه الكولونيل « بردريزيه » ، الذى تولى الاشراف على الطيران الفرنسى فى المطارات الاسرائيلية . وهؤلاء طبعاً غير قواد حملة الهجوم على بور سعيد نفسها .

وعلى الرغم من هذا التحالف الوثيق بين الفرنسيين واليهود فى حملة سيناء ، ومعهم الانجليز طبعاً ، فعندما أصدر مجلس الأمن قراراً فى ٤ نوفمبر سنة ١٩٥٦ يطلب فيه وقف إطلاق النار ، وقف أبا إيبان الاسرائيلى ، وقال إنه باسم بلاده يوافق على القرار .

وجن جنون الفرنسيين والانجليز لما قاله أبا إيبان . فإن إيقاف إطلاق النار ، يفقد الانجليز والفرنسيين المبرر الذى يتذرعان به لضرب مصر بالقنابل من طائراتهم ، ولنزول قواتهم فى بور سعيد . فقد زعموا أنهم بمثابة رجال المطافىء الذين يهرعون لإطفاء حريق أشعلته إسرائيل ومصر ، والقول بأن القتال توقف ، يمزق الستار الذى تحركت وراءه الأساطيل وهى فى طريقها إلى الشواطىء المصرية . .

وهكذا اليهود ، عندما انسحبت القوات المصرية من سيناء لتواجه العدو الأهم القادم على بور سعيد ، و « برطعوا » فيها بغير مقاومة ، حسبوا أنهم فازوا بالغنيمة فلماذا الحرب ، ولماذا العناء ، ولماذا استمرار التحالف وبقاء الارتباط بالشركاء ؟

وهرع جى موليه رئيس وزراء فرنسا إلى التليفون ، واتصل ببن جوريون وصاح فيه :

— أريد أن أعرف بالضبط ما قاله أبا إيبان فى الأمم المتحدة ؟

فتلعثم بن جوريون . وزعم أن أبا إيبان لم يقل إنه قبل توقف إطلاق النار . ولكنه قال انه لا توجد مقاومة فى سيناء ! ! . . .

ثم أخذ أبا إيبان بناء على تعليمات رئيسه ، يتراجع عن تصريحه .. ولكن عرفت فرنسا ، ومعها انجلترا ، قيمة حلفهم مع هؤلاء اليهود . وعندما حدث التصويت فى ١٧ يناير سنة ١٩٥٧ على انسحاب إسرائيل وراء خطوط الهدنة ، ردت انجلترا الصفعة لاسرائيل ووافقت على انسحابها مع بقية أعضاء الهيئة باستثناء صوت واحد هو صوت فرنسا ! !

موقف بلجيكا .. واخواتها

من بين الدول الأوربية الصغيرة ، بلجيكا . والمعروف أن هنرى سباك ، وزير خارجيتها هو أكبر السياسيين فيها ، وقد كان له صوت بارز فى أزمة العدوان ضد مصر لعدة أسباب :

أولا — توجد للإنجليز مصالح كبيرة فى دول بحر الشمال ، ثم هولندة وبلجيكا والدول الاسكندنافية . . ورخاء بعضها كان يقوم على الاستثمارات البريطانية ، وعلى

نهب ما كان يرد لها من المستعمرات ، وحسبنا أن نذكر أن نسبة كبيرة (حوالى الثلث) من ناقلات البترول ترفع العلم النرويجى ، وهولندا تشارك انجلترا فى شركة شل للبترول . وبلجيكا تريد مؤازرة قوية من انجلترا وأمريكا لتعزيز قبضتها الاقتصادية على الكونجو ، عن طريق شركة المعادن البلجيكية هناك . وإذا كانت الكونجو قد تحررت عسكريا ، فكان يجب أن تظل خاضعة اقتصاديا لبلجيكا عن طريق بعض العملاء من أمثال تشومبى [مسجون حالياً فى أحد سجون الجزائر] .

واستيلاء عبد الناصر على قنال السويس سوف يكون مثلا يحتذى لبقية الدول الأفريقية المتحررة حديثاً ، بعد أن تفيق من سيطرة مواطنيها من العملاء . وفى سبيل استبقاء هذه السيطرة ، كانت تتبع مؤامرات القتل ، وتدبير الانقلابات (عزل مصدق ، ومقتل لومومبا مثلا) . وإقامة الأحلاف من كل صنف ولون ، حتى الأحلاف الدينية الإسلامية التى تباركها أمريكا المسيحية اليهودية !

ثانيا — توجد رواسب التعصب ، التى تحرك عقول الأوربيين ، وتدفعهم إلى العمل ضد الشرق . . تحقيقا لما عبر عنه الشاعر الانجليزى كبلنج ، من أن الشرق شرق ، والغرب غرب ، ولا يلتقيان !

وهنرى سباك ليس متعصبا من الطراز الأول فقط ، ولكن ابنه متزوج من يهودية وهو متأثر إلى حد كبير بالمال الصهيونى ، إذ ما يكاد يترك منصبه الوزارى ، حتى يجد عملا بأجر ضخم جداً فى السوق المشتركة ، أو غيرها من المؤسسات الأوربية الكبرى الخاضعة للنفوذ الصهيونى .

وقد عبر أنتونى إيدن فى مذكراته عن مخاوف هذه الدول الأوربية الصغيرة بوضوح واضح ، إذ قال :

« أما سباك وزير الخارجية البلجيكية الذى كان فى زيارة للكونجرس الأمريكى ، فقد عاد إلى أوروبا وهو مدرك تمام الإدراك للخطر الناجم عن حركة عبد الناصر . إن هذه الحركة سيكون لها تأثيرها فى أفريقيا كلها ، لا فى الشمال وحسب ، وإنما فى أعماق أفريقية الاستوائية . وكان موقف سباك حازماً فيما يختص بأهمية إعادة الإشراف الدولى على قنال السويس . ولكنه كان مقتنعا بأن المسألة أكبر من ذلك .

وكان يرى أن دول الغرب ستواجه — إن تراخت — سلسلة من الهزائم فى أفريقية والشرق الأوسط . وكان يؤيد بشدة ضرورة الحصول على تأييد دول حلف الاطلنطى » .

وبعد أن يؤكد إيدن أنه يشارك سباك رأيه يستطرد قائلا : « وقد اتفقت المعلومات التى حصلنا عليها مع معلومات سباك ، فقد تلقينا تقارير من شرقى إفريقية وغربها ، وكذلك من الصومال وعدن ، وهذه التقارير - لو أخذ كل منها على حدة - لما كانت له درجة كبيرة من الخطر . ولكنها مجتمعة ، كانت تشـــير إلى الشعور بالقلق ، وعدم الاستقرار فى العالم الاسلامى . . فقد كنا نعلم أن الحكومة المصرية تضع الخطط لحركة ثورية فى العراق . وكان هناك كذلك خطر كامن يهدد حكومة إيران .

ويبدو أن ما توقعه بسمارك السياسى الألمانى الداهية فى أواخر القرن الماضى — بمناسبة العدوان الغربى عام ١٨٨٢ على مصر — تحقق بعد ثلاثة أرباع قرن . فقد كان من رأيه وقت التداخل المسلح فى الثورة العرابية أن استعمار مصر سوف يؤدى إلى قلق عميق فى العالم الإسلامى . . وقد حال دون ظهور بوادر هذا القلق ، أن نفوذ الاستعمار الغربى وقتها كان فى عنفوانه . . أما وقت العدوان الثلاثى فكانت حربان عالميتان قد سلفتا ، واستفاق من كان نائما بين أمم الشرق ، وبدا القلق بهذه الصورة التى تحدث عنها إيدن ، بل بما هو أكثر منها ، عما نراه الآن بعد عدة سنوات فقط من وقوع العدوان، فإن عدن الصغيرة جلدت الاستعمار البريطانى صباح مساء ، مستخفة بأى تضحية فى سبيل استقلالها من الاستعمار وعملائه واستقلت فعلا . . وأبناء فيتنام الحفاة العراة ، يصفعون الاستعمار الأمريكى على وجهه وقفاه من تحت الأسلحة الهائلة التى دجج بها نفسه .

هذه هى روح النصر ، وهذا نداء الحرية .

وإنا لنذكر تصريحاً ألقاه سباك البلجيكى ، قال فيه منادياً شعوب الغرب : إذا حلق نسر فى السماء ، فماذا تصنع الفراخ الصغيرة ؟ . . إنها تنضم بعضها مع بعض طالبة الحماية . . وما كان النسر فى تقديره إلا مصر والقومية العربية ، بل الشرق كله . . والفراخ الصغيره هى دول أوروبا الشمالية .



آخر جندي بريطاني يغادر أرض مصر ...

هذا هو إحساس القوم . . إحساس التعصب ، والكراهية للتعايش السلمى ، دون أن يكون فى العلاقات الدولية ، سيد ومسود .

***

وفيما يتعلق بهولندا ، التى كانت تستعمر أندونيسيا قبل الحرب العالمية الثانية ، ولفترة قصيرة بعد انتهائها ، ثم أخذت الثورة الوطنية تكتسحها (رغم تأييد انجلترا وأمريكا) من هذه الجزر الهائلة فى مواردها وعدد سكانها . . هولندا ، جاءت كمثل آخر على لسان إيدن المعبر عن روح الشر الاستعمارى قبل عشر سنوات قال عنها :

« بعد مضى عام واحد (على حرب السويس) قامت أندونيسيا بمحاولة وقحة (كذا !) لإجبار هولندا على التخلى عن سيادتها على غينيا الجديدة ، واستولت على السفن التى تنتقل بين الجزر ، وصادرت كل الممتلكات الهولندية ، وأجبرت آلافاً من المواطنين الهولنديين الذين لم يعرفوا لهم وطنا آخر غير أندونيسيا على الهرب كأى لاجئين ، ولم يدفع أى نوع من التعويض . ولم تتخذ الأمم المتحدة أى إجراء حيال ذلك . فلم تكن هولندا فى نظرها سوى دولة استعمارية . ولعل من السخرية أن الحكومة الأندونيسية أعلنت أنها لن تدفع أى تعويض ، إلا إذا تخلت هولندا عن غرب غينيا الجديدة . . . » .

ويقول إيدن بعد ذلك :

« وهكذا ساد أسلوب النهب » .

ولسنا نعرف لماذا يكون نهباً عند إيدن أن تسترد مصر قنال السويس ، وأن تسترد أندونيسيا إحدى جزرها وهى غينيا الجديدة ، وتسترد الكونجو شركة المعادن ، وتسترد كوبا مصانع الدخان والسكر . . . لماذا يكون هذا نهباً ، ولا يكون سوق مليونين من اليهود إلى فلسطين وطرد أصحابها العرب منها نهبا وسلبا ، وماهو أكثر من ذلك فى باب الأوصاف . مع الفارق الهائل بين مافعله الإنجليز واليهود فى فلسطين ، وبين ما فعله أهل أندونيسيا ومصر وكوبا والكونجو . . ففلسطين أرض العرب من آلاف السنين ، لا يمار فى هذه الحقيقة أحد . .

ولم تكن هذه الدول التى تحقق كامل سيادتها على مواردها موعزاً لها من ناصر ،

ولكن الصحة تعدى ، كما يعدى المرض . . والمثل الناجح يحتذيه الناس فى كل مكان . ولو أن ثورة مصر على العدوان أخفقت لهدمت قلاع الحرية الجديدة فى أماكن كثيرة .



وإذا كنا قد تحدثنا عن تداخل المصالح البريطانية مع هذه الدول ، وتأثيرها عليها ، الا أن من الانصاف للنرويج ، أن نذكر أن رئيس وزرائها فى ذلك الوقت — جيرهارديسن — زار لندن ، وأنباء العدوان الاسرائيلى تملأ الدنيا ، وأكد له إيدن كذباً ، أنه لا توجد لانجلترا علاقة ولا علم بما يحدث ، حتى أنه قال : ليس فى إمكان جميع السلطات البريطانية ، أن تدعى البراءة كما ادعاها إيدن .

ويروى كتاب أزمة السويس ، أن وزير خارجية النرويج عندما سمع عن الإنذار البريطانى لمصر ، بعث باستنكار عنيف اللهجة جداً ، إلى العواصم المسئولة ، وقال إن مايحدث ، يجعل حلف الأطلنطى مهزلة ما بعدها مهزلة ويسخر من مبدأ التشاور الصريح مع الحلفاء .

موقف الاتحاد السوفياتى

كان الاتحاد السوفياتى صادق النية فى محاربة الاستعمار ، وتأييد حرية الشعوب ، عندما أبرم صفقة السلاح مع مصر . . وكان كذلك عندما أعرب مندوبوه عن استعداد حكومتهم لتقديم قرض يساعد على إقامة السد العالى .

لم يكن لروسيا أطماع توسعية على حساب مصر . وما كانت مصر تقبل هذه الأطماع ، وهى التى تقاتل بكل هذا العناد ، استكمالا لسيادتها على أرضها ومائها وسمائها ، وبهذا المنطق الواضح ، نشأ تعاون سليم بين البلدين كسبت فيه مصر تحقيق مشروعاتها ، وكسب فيه الاتحاد السوفياتى سمعة طيبة ، إنه بدأ عهداً جديداً من العلاقات الدولية غير المشروطة ، وظهر للشعوب كافة بوجه ودود ، غير الوجه العابس الذى طالما قدمته صحافة الغرب ودعايتها ، وساعد على تأكيده عصر ستالين . وما كان يمكن أن تقوم هذه العلاقة الودية بين مصر الملكية الرأسمالية الخاضعة للنفوذ البريطانى ، ولكن ثورة ١٩٥٢ غيرت كل شىء .

وإذا كانت مصر قد كسبت بهذا كله تحطيم احتكار السلاح ، وتزويدها بأحدث مبتكرات العلم فيه ، فإن الستار الحديدى حول روسيا قد صهر وحده وتحطم ، ولم يعد له وجود فى ذهن معظم شعوب — ربما باستثناء شعب الولايات المتحدة .

وفى أزمة القنال كانت مصر تحتاج إلى :

١ — مزيد من السلاح .

٢ — مزيد من المعلومات والخبرات .

٣ — تأييد دولى على نطاق واسع ولا سيما فى هيئة الأمم .

٤ — مواجهة صريحة لدول العدوان منذ وقع عدوان .

وقد قدم الاتحاد السوفياتى هذه المعونات جميعاً، بدون قيد أو شرط ، استمراراً لسياسته التى بدأها فى سنة ١٩٥٥ .

ولقد صاح الغرب بعد فشل العدوان ، ينسب هزيمته إلى محور موسكو القاهرة ، وهى صيحات حاول أن يستر بها خفى حنين اللتين ارتد بهما عن شواطىء مصر .

وكانت لموسكو محاور أخرى معترف بها من الجميع ، مثل محور موسكو بكين ، ومحور موسكو وارسو . ولكنها لم تثر ذعراً على الرغم مما كان للغرب من مصالح كبرى فى الصين ، وما كان له من علاقات ببولندا التى قامت الحرب الثانية من أجل إنقاذها .

إلا أن مصر تمثل فى نظر الغرب شيئاً أهم من الصين وبولندا . . تمثل هذه الطاقة الروحية ، والأصالة الحضارية ، القادرة على تحريك الفكر والقلب، لمجموعة كبرى من الشعوب الإسلامية والمسيحية على السواء . إنها طاقة أهم بكثير من قنال السويس وآبار البترول . . .

وهذا المعنى الكامن وراء كلمات العتاة من فلاسفة السياسة الغربية ، أمثال تشرشل وسباك وكيركباتريك ومولية وبورجيز — مونريه وفوستر دلاس ، وأخوه آلان وأمثالهم . . إنه شيء أكثر من الحقد كان يحركهم . . ربما كان نفس الشيء الذى يحرك بن جوريون وقومه : إنه التعصب ضد كل ما هو شرقى يمكن لمصر أن تمثله أحسن تمثيل . . إنها روح ريتشارد قلب الأسد، ولويس التاسع من جانبهم ، تقابلها روح صلاح الدين من جانبنا .

ولم يكن هذا الإحساس يساور الحكم السوفياتى فى روسيا .. وإن كان أساساً من أسس الحكم القيصرى السابق ، الذى سمح للقيصر اسكندر الثالث أن يتنازل للسلطان عبد الحميد عن ٣٠٠ ألف جنيه ليسلح بها حملة تشترك مع سبع دول أوروبية فى إخماد الثورة العرابية ، على بعد ما بين موسكو والقاهرة من مسافة .

وسوف نتناول تفصيل الموقف السوفياتى ، وتأثيره الحاسم فى المراحل التالية . ولكنا نثبت هنا صورة من الإنذار الروسى لكل من إنجلترا وفرنسا وإسرائيل .. وهو الموجه من الماريشال بولجانين .

سيدى رئيس الوزراء المحترم .

تعتقد الحكومة السوفياتية أنه من الضرورى لفت انتباهكم إلى أن الحرب العدوانية التى شنتها فرنسا وإنجلترا وإسرائيل على مصر ، هذه الحرب التى تقوم فيها إسرائيل بدور المبادرة مشحونة بالعواقب البالغة الخطورة على قضية السلم العالمى .

« ولقد قررت جمعية الأمم المتحدة فى دورتها الاستثنائية وقف الأعمال الحربية دون إبطاء وسحب القوات الأجنبية من الأراضى المصرية ، ورغم ذلك فإن إنجلترا وفرنسا وإسرائيل تتابع أعمالها الحربية وتواصل الغارات الجوية البربرية على المدن والقرى المصرية وقد أنزلت قواتها إلى الأراضى المصرية ، محولة الأماكن المأهولة إلى خرائب ، وقاتلت السكان الآمنين ، إن حكومة إنجلترا بالتعاون مع حكومتى فرنسا وإسرائيل سلكت إذن ، سبيل العدوان غير المسبب على مصر . ولا تستند الأسباب التى آثارتها الحكومة الإنجليزية لتبرير هذا العدوان إلى أى أساس من الصحة . فقد أعلنت بادىء ذى بدء أنها تتدخل بين مصر وإسرائيل ، كى لا تتحول قنال السويس إلى منطقة حربية . على أنها تحولت بعد التدخل الإنجليزى الفرنسى إلى منطقة عمليات حربية كاملة فتعطلت الملاحة عبر القنال بما يلحق ضرراً بليغاً بمصالح الدول التى تستخدم القنال » .

موقف الدول العربية

أما الشعوب العربية فمصر أختها . والكل يكون أمة واحدة . وما وقع عليها من عدوان ، كأنما وقع على أى بلد عربى آخر . . لقد عبرت شعوبنا عن عواطفها ومشاركتها ، بالمال والاستعداد للقتال ، ونسف أنابيب البترول ومنع تدفقه

واستفادة المعتدين منه . كما حدثت محاولات فى ليبيا لنسف مستودعات الذخيرة والبترول للقوات البريطانية فيها .

وفى ١٣ نوفمبر سنة ١٩٥٦ عقد مؤتمر حضره الملوك والرؤساء العرب . وكان انعقاده فى بيروت ، وناب فيه عن مصر سفيرها عبد الحميد غالب وأصدر قرارات علنية مؤيدة لمصر .

وطرد السوريون الموظفين الإنجليز فى خط الأنابيب بعد نسفها فى ثلاثة مواضع . وأوفدت سورية بعثة طبية للإسعاف اعتمدت لها ٢٠٠ ألف ليرة .

وتوالت برقيات الملك سعود رحمه الله على أيزنهاور ، وأعلنت شركة أرامكو أنها توقفت عن إمداد إنجلترا وفرنسا بالبترول طبقاً لتعليمات الحكومة السعودية . وتبرع سعود بمليونى ريال لجمعية الهلال الأحمر المصرى .

أما عراق نورى السعيد ، فقد رد على برقية من الملك سعود بخصوص العدوان ، يندد بالعدوان الإسرائيلى على مصر ، ولم يأت بذكر للعدوان الإنجليزى الفرنسى ، مع أنه كان قد مضى على ابتدائه ثلاثة أيام .. وقامت مظاهرات عنيفة شملت العراق كله ، فعطلت المدارس والمعاهد كلها . وبناء على طلب الأردن ، سحبت الحكومة العراقية قواتها من الأردن خشية أن يفلت الزمام من قوادها .

وكان الملك حسين متجاوباً مع الشعور الوطنى العام ، وأعرب عن استعداد قواته للقتال بمجرد طلب مصر ذلك . وكان كميل شمعون — مثل نورى السعيد — يمثلان يهوذا فى وسط الحواريين .

أما السودان ، فكان مثله كمثل الإسكندرية أو أسيوط : حماسة . . تبرعات . . متطوعين .

وهكذا ثبت أن القومية العربية ظهرت كعملاق جبار فى وسط هذه الأحداث ، وثبت كذب إيدن الذى زعم أن أحداً من العرب لم يتحرك لمساعدة مصر . . فقد غلبته ولا شك الحمى ، وهو يكتب هذا الكلام .

موقف كندا

تحتاج منا كندا إلى وقفة خاصة بها . فهى الدولة الغربية ، التى ينتمى جزء من سكانها إلى أصل إنجليزى ، والجزء الآخر إلى أصل فرنسى ، وتستعمل فيها اللغتان :

ولقد كان لها موقف واضح صريح ضد العدوان على مصر ، تزعمه رئيس وزرائها زعيم حزب الأحرار ، وهو لويس ستيفن سانت لوران ، وقد تولى الحكم لمدة ثمانى سنوات متعاقبة قبل العدوان ، وكان وزير خارجيته ليستر بيرسون .

ما أن عرض أحد السكرتيرين على سان لوران أنباء الإنذار البريطانى ، حتى خرج المسكين مذعوراً ، وهو يقول : إن رئيس الوزراء يحترق غضباً ، ويكاد يصاب بالجنون . وأمر على الفور بإيقاف شحنات السلاح لإسرائيل .

ولقد عنيت كندا بإصدار كتاب « أزمة السويس » تشرح الجهود الضخمة التى بذلتها ، بوصفها أغنى دول الكومنولث البريطانى ، كما تحول دون تدهور الموقف . . فلما حدث ما كانت تحذره ، بعث رئيس الوزراء برسالة لإيدن قال له فيها ن كندا لا تستطيع إقرار وجهة النظر البريطانية بتبرير هجوم إسرائيل على مصر ، أو أن مقاومة مصر الطبيعية والمنتظرة تبرر التدخل البريطانى والفرنسى . وندد فى رده بعدوان إنجلترا وفرنسا فى الوقت الذى كان فيه مجلس الأمن يناقش القضية بصورة رسمية . وأشار إلى الخطر الذى يهدد جامعة الشعوب البريطانية من هذا التصرف والتباين المؤسف فى وجهة النظر بين انجلترا والولايات المتحدة .

وقد كان موقف كندا الحازم ، شديد التأثير على سياسة بريطانيا ، ووصف السفير الكندى فى لندن هذا التأثير بأنه أرعب إيدن ، وأثار الذعر فى وزارة الخارجية .

وطار ليستر بيرسون ، وزير الخارجية القدير إلى نيويورك ، ليبدأ هناك عملا ضخماً ، يحاول أن ينقذ به العالم من حرب لا تبقى ولا تذر . . وقد انتهت جهوده إلى تقديم مشروع القوة الدولية التابعة لهيئة الأمم ، لكى تراقب إيقاف القتال ، وانسحاب المعتدين إلى ما وراء الحدود المصرية ، برية كانت أو بحرية .

وحاول إيدن — بعد موافقته مضطراً — على قرارات هيئة الأمم أن يستعين بكندا ونفوذها الطيب ، كى توافق مصر على أن تقوم أجهزة فنية انجليزية وفرنسية بمباشرة تطهير القنال فوراً ، وجس « لستر بيرسون » النبض فإذا رد القاهرة : لا .

بل حدث أن رفضت مصر اشتراك كندا فى قوات هيئة الأمم ، بعد أن استعدت كندا ، وأعدت الطائرات والجنود ، وسافر بعضهم فعلا يعبر الاطلنطى ليصلوا إلى بور سعيد فى أقرب وقت .

لقد قدرت مصر فعلا جهود كندا فى سبيل إيقاف العدوان ، وانسحاب المعتدين . ولكن أليست كندا عضواً فى الكومنولث ، وهى تنتمى إلى أصل الدولتين المعتديتين؟ إن وجودها ، والعلم الكندى يحمل الشارة البريطانية ، فوق أرض مصرية ، فيه مساس بكل المعانى التى تقاتل من أجلها مصر ، مهما كانت النوايا طيبة . .

وسنروى فيما بعد — ونحن نستعرض الجهود الدبلوماسية فى هيئة الأمم تطورات هذه المسألة .

الكفاح فى هيئة الأمم

فى مساء ٣٠ اكتوبر سنة ١٩٥٦ ، أبلغت مصر رئيس مجلس الأمن ، بضرورة عقد المجلس فوراً للأسباب التى أبدتها . واجتمع المجلس ، لينظر فى طلب مصر وقف العدوان صوناً للسلام . . وعجز المجلس عن اتخاذ قرار لأن فرنسا وانجلترا — بكل تبجح استخدمتا حق الفيتو ، وذلك تأييداً لما تم الاتفاق عليه فى سيفر . .

وحدثت أزمة أخرى ، وهى تقديم داج همرشولد استقالته احتجاجا على هذه التصرفات . فقد كانت مبادىء الأمم المتحـــدة فى نظره أهم من سياسة أى دولة ، ولكن مجلس الأمن لم يقبل استقالته .

وهنا تقدم مندوب يوجوسلافيا ، لدعوة الجمعية العامـة للأمم المتحدة إلى اجتماع عاجل . . حيث لا يستخدم فى اجتماعها حق الفيتو الذى تكون له فاعليـــة فى مجلس الأمن وحده .

وأخذت الأصوات على هذا الاقتراح ، فعارضته أربع دول ، وأقرته باقى الدول وعلى رأسها الولايات المتحدة وروسيا . . أما الدول المعترضة فكانت فرنسا وانجلترا

وبلجيكا ، واستراليا ، وعند منتصف ليلة ٣١ اكتوبر سنة ١٩٥٦ تقرر دعوة الجمعية العمومية للانعقاد فى اليوم التالى ، وهو أول نوفمبر . وبهذا شهدت هيئة الأمم أخطر اجتماعات فى تاريخها كله حتى الآن .

حضر هـــذا الاجتماع ثلاثة آلاف شخص ، هم أعضاء الوفود ومستشاروهم وموظفو الهيئة ورجال الصحافة وكبار الشخصيات ، مما لم يحدث له نظير من قبل .

وكانت الولايات المتحدة شديدة الاهتمام باتخاذ قرار سريع من الهيئة وخشيت أن يعمد ممثلو انجلترا وفرنسا ، إلى إغراق الجلسات فى مناقشات قانونية حول شرعية الاجتماع ، فوزع « كابوت لودج » رئيس الوفد الأمريكى على رؤساء خمسين دولة ، سؤالا عن موافقتهم على عقد هذه الجلسة الاستثنائية لبحث الموقف . . وتسليم الاجابة لهمرشولد الأمين العام . . وقد أجاب جميع من وزع عليهم السؤال بالإيجاب حتى يقطع السبيل على المناقشات البيزنطية .

وبدأت الجلسة بخطاب من الدكتور محمود فوزى رئيس وفد مصر ، وصفه مؤلف كتاب أزمة السويس بأنه « ألقى خطاباً شاعرياً مليئاً بالاستعارات ، حافلا بالحديث عن الجرائم الفرنسية والبريطانية ضد الإنسانية . . . وكان هذا الخطاب كافياً لتعبئة جهود الدول الأفريقية — الآسيوية كى تبذل أقصى وسعها فى وصف المعتدين بكل ما يستحقونه من نعوت مقذعة ، وبهذا ارتفعت حرارة الاجتماع ، ومعنوية المجتمعين إلى حد لا يمكن التكهن بما سيحدث بعده » .

وقد رفعت الجلســة لبضع ســاعات ، حتى تتشاور الوفود فى القرار الذى يتخذ بايقاف القتال . ودارت المناقشــة بين دلاس وزير خارجية الولايات المتحـــدة ، وبيرسون وزير خارجية كندا على النحو الآتى :

دلاس — علينا أن نحصل على القرار فى أسرع وقت ممكن ، فالأحداث تسير بسرعة البرق الخاطف هناك ، إلى الحد الذى لا يدرى فيه المرء ما قد يحدث لو أننا لم نفعل شيئاً لإيقافها ، ونحن نعتقـــد أن هناك احتمالا قوياً فى أن يقوم البريطانيون والفرنسيون بخطوات سريعة لتنفيذ عملياتهم العسكرية . . ولو حدث هذا لوجب علينا أن نواجه الحقيقة الواقعة ، وهى أن الخطر الذى يهدد سلام العالم سيصبح من النوع الذى لا يحتمل . . ونحن نشعر بالقلق من الأفريقيين . والآسيويين ، فهم

لايميلون إلى قرار ناعم . . . ولكن لو تقاعسنا وتباطأنا فى اتخاذ القرار ، فقد يخرجون علينا بشىء جديد يزيد الوضع حرجاً وتعقيداً .

بيرسون — قد يكون رأيك صحيحاً ، ولكن من الضرورى الحصول على قرار يضمن شكلا من أشكال التفاوض ووسيلة ، وتكون هذه الوسيلة فى صورة لجنة استثنائية تقوم بالتحريات اللازمة ، وتوصى بشروط التسوية التى تقترحها .

دلاس — لم يعد الوقت كافياً .

بيرسون — أمامنا ثلاث أو أربع ساعات ويهمنا أن نساعد بريطانيا وفرنسا وإنى لأود أن أمكنهما من التراجع بأقل ما يمكن من المذلة ، وأن أحاول إعادتهما إلى حظيرة التحالف مع الولايات المتحدة .

دلاس — لم يعد هذا ممكناً الآن ، فقد حطمنا قضية الحرية كلها ، بوضعنا فى مركز متخلف عن مركز الشيوعيين .

وهنا ظهرت على لسان المندوب الكندى فكرة الاستعانة بقوة دولية . .

وعادت الجلسة إلى الاجتماع وتتابعت الكلمات من رؤساء الوفود ، تكيل لبريطانيا وفرنسا ما تستحقانه من عبارات التحقير . . ولكن مندوب استراليا حاول أن يلفت النظر إلى أن الجيش الروسى يجتاح بودابست عاصمة المجر فى هذه اللحظة . .

ووقف مندوب روسيا ومندوب الولايات المتحدة كل منهما بإزاء الآخر فى صرامة وعنف . . وهكذا بدت الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتى كالوحشين الجريحين يكتمان غيظهما من بعضهما البعض فى الوقت الذى واصلت فيه الأحداث الخارجة عن إرادتهما التقريب بينهما باستمرار [1] » .

وقد وافقت أغلبية هيئة الأمم على القرار الكندى بأن يقدم الأمين العام خطة لإنشاء قوة طوارىء دولية خلال ٤٨ ساعة ، تضمن وقف العمليات العدائية . . وتمت الموافقة على هذا القرار فى الساعة الثانية من صباح ٤ نوفبر سنة ١٩٥٦ ، وامتنعت ١٩ دولة عن الاقتراع حتى تتلقى تعليمات حكوماتها .

---

(١) أزمة السويس ص ٢٦٩ .

وكان من رأى همرشولد أن هذا القرار غير قابل للتنفيذ ، إذ يتعذر حشد قوة بسرعة توقف بريطانيا وفرنسا عن مهاجمة بور سعيد . ورد وزير خارجية كندا بأن كندا والأسطول السادس الأمريكى والنرويج وكولومبيا تستطيع تأليف قوة دولية فورا . . وهنا رد همرشولد وكان محقا :

— ولكن كيف يمكن لنا أن ننقل جنوداً من هذه الجهات إلى مصر ، إذا كان عبد الناصر يرفض دخولهم ؟ ! !

وكان همرشولد بعيد النظر ، نافذ الفكر . . فإن عبد الناصر رفض اشتراك كثير من الدول « المشبوهة » فى قوة الطوارىء الدولية التى تشرف على اجلاء الأعداء من أرض مصر . ومنها كندا نفسها ، لأنها عضو فى الكومنولث البريطانى ، رغم أنه يعرف جيداً موقفها ضد العدوان .

وفى نفس الوقت تقدمت الكتلة الآسيوية الأفريقية بمشروع القرار التالى :

١ — دعوة بريطانيا وفرنسا وإسرائيل للتقيد بقرار الهيئة العامة للأمم المتحدة بوقف اطلاق النار فوراً .

٢ — تخويل الأمين العام للأمم المتحدة حق اتخاذ التدابير اللازمة مع الدول المعنية ، لتنفيذ قرار وقف اطلاق النار فوراً ، وفى مدة لا تتجاوز ١٢ ساعة اعتبارا من ساعة إقرار هذا المشروع .

٣ — سحب القوات المعتدية من الأراضى المصرية إلى ماوراء خطوط الهدنة تحت اشراف هيئة الأمم المتحدة .

٤ — دعوة الهيئة العامة إلى الاجتماع فور تقديم تقرير الأمين العام عن تنفيذ هذا القرار .

وقد وافقت الجمعية العامة على هذا القرار بأغلبية ٥٩ صوتا . وعارضته استراليا ونيوزيلندة وفرنسا وانجلترا وإسرائيل . وامتنعت عن الاقتراع : بلجيكا والدانمرك والدومنيك (أمريكا اللاتينية) وفنلندة وايسلندة ولاوس ولكسمبورج وهولندا والنرويج والبرتغال والسويد وجنوب أفريقية .

وأبلغ همرشولد القرار إلى الدول المعتدية .

وطلبت روسيا يوم ٥ نوفمبر وقف اطلاق النار فى خلال ١٢ ساعة .

وطلبت الولايات المتحدة تنفيذ قرار الأمم المتحدة فورا وهددت بقطع البترول .

وهكذا اضطرت فرنسا وانجلترا إلى ابلاغ همرشولد أن القتال سوف يتوقف اعتباراً من منتصف ليلة ٦ نوفمبر . وإن كان اطلاق النار استمر بعد ذلك ٥ ساعات أملا فى الوصول إلى مكاسب أكثر دون جدوى .

ولم يكن وقف اطلاق النار هو ما تريده مصر ، ولكن انسحاب الدول المعتدية من أراضيها هو تصميمها . . ولهذا وقف مندوب مصر فى الهيئة العامة يعلن أن بلاده عازمة على مواصلة القتال ، ما لم تنسحب القوات المعتدية من أراضيها فوراً . . وأن العمليات العسكرية لاتزال مستمرة . كما أن مصر لا توافق على إشراك الدول المعتدية فى أى عمل من أعمال الملاحة فى القنال ، وهاجم اسرائيل هجوما عنيفا ، لاعلانها أنها ستبقى فى سينا . . وأكد أن تطهير القنال لن يبدأ قبل خروج آخر جندى أجنبى من أرض مصر .

* * *

نترك نيويورك مقر هيئة الأمم لحظة ، لنلقى نظرة على رد الفعل فى لندن عاصمة الاعتداء . .

فنى صباح الأحد ٤ نوفمبر اتصل إيدن بمولية فى باريس ، وأبلغه قرارات هيئة الأمم ، وطلب عمل مشاورات عاجلة . فطار إليه بينو وزير الخارجية ، وبورجيز — مانورى وزير الدفاع وفى نية فرنسا عدم تنفيذ قرار هيئة الأمم .

وكانت لندن عند وصولهما هائجة مائجة ، ومظاهرة ميدان الطرف الأغر الكبرى ضد إيدن ، تملأ الاسماع طنينا . . بل دويا . ومقر رياسة الوزارة محاصر بآلاف المتظاهرين .

وفكر المجتمعون ، بل المتآمرون فى حيلة . . فلماذا لا تكون قواتهم فى بور سعيد ،



تمثال من القش لايدن رفعه أبناء بور سعيد مشنوقا
وهم يودعون آخر جنود العدوان

هى قوات الأمم المتحدة ، وكل ما سيحدث هو أن ترفع عليها الراية الزرقاء المشهورة.

ولكن همرشولد ، ما أن علم بهذا حتى جاءت منه برقية عاجلة ، قالت :

« رفضت الجمعية العامة ، أن تجعل قيام القوة الدولية شرطا لوقف اطلاق النار.

والرأى السائد هو عدم اشراك الدول المتورطة فى العمليات الحالية فى المنطقة ، من بين عناصر القوة الدولية . . . »

يوم الاثنين الخطير

وحتى تتم المداولات ، تمكن همرشولد من مد فترة الرد على قرار هيئة الأمم إلى الساعة التاسعة من صباح الاثنين ٥ نوفمبر .

وجاء الرد على همرشولد ، بأن قوات المظلات الفرنسية والانجليزية بدأت تلقى على بور سعيد وبور فؤاد . وكان وقتها جالساً يتحدث مع مندوبى كندا والنرويج ، وإذا بهذا النبأ ، يصيبهم جميعاً بالوجوم ، وقد بدا لهم أن حريقاً هائلا اشتعل فى الكرة الأرضية كلها ، يوشك أن يأكل الأخضر واليابس .

قوات مظلات انجليزية وفرنسية . . وقوة الطوارىء توشـــك أن تتكون ورئيسها الجنرال بيرنز عين فعلا ! !

إذن هى الحرب العالمية الثالثة . . هكذا همس عديد من الرجال المسؤولين فى هيئة الأمم ، بمجرد سماعهم بأنباء هذا الصباح العابس . وما أن أذاع إيدن ظهراً أن بور سعيد استسلمت ، حتى تغير موضوع الحديث ، وما أن ابتلع إيدن تصريحه فى المساء ، وقال إن بور سعيد تحارب ، حتى عاد مرة أخرى .

وسمع همرشولد صوت الدكتور محمود فوزى يتكلم تليفونياً من القاهرة ، أثناء تناوله طعام الغداء مع صديقيه الكندى والنرويجى ، وهو يقول : سنواصل القتال طالما أن المعتدين موجودون على أرض مصر .

وفى مساء الاثنين الخامس من نوفمبر ، اجتمع مجلس الأمن لدراسة طلب من المندوب الروسى بأن قوات بلاده مستعدة ، بالتعاون مع الولايات المتحدة ، أن يخرجا الانجليز والفرنسيين من مصر بقواتهما البحرية والجوية .

وقد رفضت أمريكا هذا العرض . . ولكن صحبته تفسيرات ملأت أروقة الأمم المتحدة أن روسيا مستعدة للعمل بمفردها .

وهنا حدثت ثلاثة حوادث هامة :

١ — وجه بولجانين الانذار المشهور الذى أشار فيه إلى امكان ضرب باريس ولندن بالقنابل الذرية ، وكان وقته مساء هذا الاثنين نفسه .

٢ — أبلغت قيادة حلف الأطلنطى ، أن أجهزة الرادار ومراكز المراقبة الجوية فى شرق البحر المتوسط ، سجلت مرور أعداد من الطائرات على ارتفاع كبير ، فوق تركيا متجهة إلى الجنوب ، لم يتيسر إحصاؤها .

٣ — سجلت طائرات التصوير صور أعداد كبيرة من طائرات الميج فى جميع المطارات السورية ، لم يعرف من أين جاءت ، وأن سوريا لم تكن تملك هذا القدر من الطائرات .

٤ — بعثت وزارة الحربية الانجليزية إلى قيادة الجنرال كيتلى بالبرقية الشفرية التالية : « قد تتدخل روسيا بالقوة فى الشرق الأوسط » .

٥ — أرسلت الحكومة التركية لقيادة حلف الاطلنطى برقية تقول فيها إن الاتحاد السوفياتى طلب من حكومة أنقرة السماح بمرور خمس سفن حربية سوفياتية من مضيق الدردنيل ، وتشمل طراداً ، وأربع مدمرات ، أو طرادين وثلاث مدمرات » .

٦ — أرسلت وزارة الحربية البريطانية إلى قيادة حلف الاطلنطى مذكرة سرية للغاية ، تقول إن روسيا قد ترسل قوات إلى الشرق الأوسط ، تشترك فى العمليات العسكرية هناك . .

ولم يعرف إذا كانت تعنى هذه البرقية المذعورة ، المتطوعين أو إنها تخيلت إمكان وصول جيوش روسية إلى المنطقة .

... وجلاء الثلاثاء ٦ نوفمبر

عاش العالم الغربى ليل الاثنين ، وصباح الثلاثاء تحت وطأة الإنذار الروسى ، وأنظارهم كلها معلقة على ما يحدث فى بور سعيد .

وكانت مصر تقاوم فى بورسعيد ، وحال خط الكاب الفولاذى جنوب بورسعيد دون تسرب أى جندى أجنبي جنوب هذا الخط .

وقد تلقى بولجانين رداً غريباً من إيزنهاور . فقد قال له إن حكومة الولايات المتحدة ، سوف تحترم التزاماتها بموجب حلف الاطلنطى ، وميثاق هذا الحلف يقضى بالدفاع الأمريكى عن فرنسا وانجلترا إذا هوجمت أرضهما . . . أما منطقة قنال السويس فلم يأت ذكرها — طبعاً — فى ميثاق الاطلنطى . ومعنى هذا أن الولايات المتحدة لن تدافع عن فرنسا وانجلترا إذا هاجمت روسيا قواتها فى شرق البحر المتوسط ، وعند مداخل قنال السويس .

وفى نفس الوقت بعث أيزنهاور لكل من إيدن وموليه ، برسائل قال فيها : « إن العلاقات بين الشعوب يجب أن تخضع لميثاق الأمم المتحدة . ونحن نستنكر التجاء أعدائنا للقوة ، ولهذا لايمكن أن يسمح لأصدقائنا ، بما ننعيه على أعدائنا .. والموضوع لايعدو أن يكون قضية ضمير أمام الله والناس » .

وفى هذا اليوم — الثلاثاء — حاول إيدن أن يتصل بايزنهاور تليفونياً ، ولكن رئيس الولايات المتحدة رفض الاتصال به . فبعث بسفيره فى وشنطن ليسأل إذا كانت الولايات المتحدة ستحمى انجلترا وفرنسا فى حالة ضربهما بالقنابل الذرية الروسية . . ولم يتلق السفير أيضاً رداً .

وظل إيدن ساهراً إلى صباح اليوم التالى ينتظر نبأين : أولها أن قواته وصلت على الأقل للاسماعيلية . . وثانيهما أن تخرج حكومة الولايات المتحدة عن صمتها .

وانقضى الليل كله دون الحصول على أى من النبأين . . . وكل ما حدث ، أنه تحت ثقل الهزيمة الدولية ، راح الجنرال كيتلى يأمر أسطوله بقذف بور سعيد بقنابل الأساطيل الضخمة ، فقد كاد صمودها يحبس الهواء فى حلقه وحلق بلاده فيموتوا مختنقين من الغيظ .

وأخيراً . . . وأخيراً قابل أيزنهاور السفير الانجليزى فى واشنطن وقال له ، رداً على سؤاله عن موقف أمريكا إذا انطلقت الصواريخ الروسية الذرية تدمر لندن وباريس . .

« عليكم أن توقفوا هذه الحرب ، وأن تنسحبوا من مصر ، فنحن مع ميثاق الأمم المتحدة . ونحن نستنكر أن يتحدى الميثاق أحد من الناس أو من الدول . .

« دعنى أقول لك ياسيدى السفير : لقد اقتربت حياتى من نهايتها . وأنى لا أرغب فى أن ألقى خالقى بأيد نظيفة » .

ولم يستطع السفير أن يقول شيئاً ، وخرج يبلغ حكومته ماسمعه . .

الاسترلينى . . أين هو . . لقد ضاع !

وفى غمرة هذه الأحداث أخذت دوائر وزارة الخارجية الأمريكية تتحدث عن الاسترلينى ومركزه .. إن شيئاً ماحدث لأرصدته . . إن سعره يهوى . . إن كارثة مالية إلى جانب الكارثة الحربية تواجه بريطانيا . .

ماذا حدث ؟ . . لقد كان تقدير ماكيلان وزير مالية انجلترا لنفقات حربه ضد مصر ، هو خمسة ملايين من الجنيهات الاسترلينية ، اعتمدت فعلا . . ولكن عملة بلاده كشفت فجـــأة ، واحتاجت إلى غطاء ، إن لم يتوفر لها ، فهو الإفلاس ولا شك .

لقد بدأت أسواق نيويورك المالية تعرض كميات ضخمة من الاسترلينى للبيع فى مجموعات كل منها تتراوح بين مليون وخمسة ملايين جنيه ، وأخذ بنك الاحتياطى الأمريكى الاتحادى يتخلص من ودائعه الاسترلينية بسعر أقل . وتحمل بنك انجلترا فى يوم واحد ٢٩٠ مليون دولار ـ وهو يوم الاثنين الذى هوجمت فيه بورسعيد ـ وذلك ليحافظ على سعر القطع .

وشاور ماكيلان محافظ بنك انجلترا ، ثم هرع إلى إيدن ، ومجلس الوزراء ، وطلب قرضاً عاجلا قدره ٢٠٠٠ (ألفى) مليون دولار من حكومة الولايات المتحدة وصندوق النقد الدولى . . وكلمة « عاجلا » تعنى اليوم قبل الغد . واتصل ماكيلان تليفونياً يطلب السماح بسحب حصة انجلترا فى صندوق النقد . فقيل له إن وزارة الخارجية الأمريكية لا توافق ! . .

هذا المبلغ الهائل ، المطلوب لدعم الاسترلينى ، كان سببه الضغط المالى الأمريكى ، الذى أظهر أن انجلترا تعيش على صدقة الدولار . . مثلها كمثل إسرائيل تماماً .

ولقد قال إيدن فى مذكراته ، إن هذه الحرب ضد مصر تكلفت ١٠٠ مليون جنيه استرلينى ، أى مايوازى دخلهم من القنال حتى نهاية امتيازها ! ! ولكن هذا التقدير المتواضع ، صاحبته تقديرات أخرى تزيد المبلغ الضائع على الإنجليز إلى أضعاف هذا الرقم ، ولاسيما إذا حسبت المعدات التى صادرتها مصر من مخازن الإنجليز فى قاعدة القنال ، وتعويضات العدوان التى خصمت بعد ذلك من الأموال البريطانية المصادرة .

بل إن خسارة انجلترا فى هذا العدوان كانت تكفى لبناء السد العالى مرتين على الأقل . . وهو الذى بدأوا محاربة مصر ، بمنع بنائه .

انجلترا وفرنسا . . تركعان

وفى صباح هذا اليوم — الثلاثاء — جمع إيدن مجلس وزرائه ، بعد يومين كاملين ، لم ينم فيهما ، وقد شحب وجهه ، واحمرت عيناه ، وارتعش صوته ، فلم يعد يبين . ولذا لازم الصمت معظم هذه الجلسة .

وأثناء الاجتماع أدخل له أحد الموظفين نداء من الحكومة السويسرية ، التى تلتزم الحياد المطلق ، ولكنها تحس بالأمور بغير تحيز . وهذا النداء يقول :

« إن شبح الحرب العالمية الثالثة يخيم على الإنسانية كلها ، وفى الإمكان انقاذ السلام . بل يجب إنقاذه » .

واتخذ القرار ، وهو الانصياع لأوامر هيئة الأمم ، وإيقاف القتال .

كان وصول الإنذار الروسى إلى لندن يوم ٥ نوفمبر سنة ١٩٥٦ ، وحاول إيدن — بعد وصوله — أن يحصل من وشنطن على وعد بحماية أوروبا إذا هاجمها الروس ، فلم يظفر بأى رد ، على الرغم من وجود خط تليفونى مباشر .

وذهب اللورد مونتباتن ، وهو أكبر الشخصيات العسكرية فى انجلترا ، إلى قريبته الملكة ، وعرض عليها الهاوية المهلكة التى دفع إيدن بلاده إلى حافتها . فاستدعت الملكة رئيس وزرائها على الفور ، لكى يعرض عليها الموقف . ولما كان التاج البريطانى لا يتدخل فى إدارة الحكم ، لهذا لجأت الملكة إلى أسلوب غير مباشر لتعبر عن قلقها . فقد طلبت من رئيس الوزراء أن يستشير زعيم المعرضة ، وهو الأمر الذى تجاهله إيدن من أول الأمر . وفى إطار هذا الحق الدستورى ، علم مهندسو هذه الحرب أن الملكة ليست فى صفهم ، وخصوصاً بعد الانذار الروسى .

ولهذا لم يكن بد من اتخاذ هذا القرار ، بإيقاف القتال البرى الذى دام مع الإنجليز والفرنسيين ٤٢ ساعة ، من الناحية الرسمية ، ولكنه ظل بعد ذلك من الناحية العملية ، حتى خرج آخر جندى من البلاد .

الدكتور فوزى فى ميدانه

وعلى الرغم من أن الدكتور محمود فوزى لم يتحدث ، ولم يكشف عن أوراقه ، حتى بعد مضى كل هذه المدة على العدوان ، فإن الكاتب الكندى الذى أرخ هذه الفترة كشف عن صحائف تستحق أن تروى . .

روى السفير الكندى فى القاهرة ، المستر نورمان ، أن الدكتور محمود فوزى وزير الخارجية المصرية ، استدعاه وقال له :

— أريد منك أن تنقل إلى المستر بيرسون (وزير خارجية كندا) تقدير مصر العميق لما تميزت به كندا من استقلال . ولكننى أود فى الوقت نفسه أن أبلغك

أننا نرى من الحكمة ولمصلحة كل من مصر وكندا ، أن لا تضم القوة الدولية المقترحة، قوات كندية . فكندا دولة عضو فى جامعة الشعوب البريطانية كما أنها عضو فى حلف الأطلنطى . ونحن نعترض على اشتراك الدول التى تمت إلى المجموعات والأحلاف والارتباطات الإقليمية ، مهما كان شكلها ، فى القوة الدولية .

ولما حاول السفير أن يناقش هذا الموقف بحججه قال له وزير خارجية مصر :

— القوات الكندية تدين بولائها لملكة انجلترا . وهى ترتدى الزى العسكرى البريطانى . ولا أشك لحظة واحدة فى الدوافع الكريمة التى حفزت كندا على عرض إرسال قواتها . وإن هذه القوات لن تأتى إلى هنا كقوات احتلال . ولكننا نحس بعقولنا الواعية ، ومشاعرنا ، بأن كندا عضو فى جامعة الشعوب البريطانية . فرد السفير :

— ولكن ألا تنظرون إلى القوات المختلفة فى تأليف القوة الدولية بنفس المنظار؟ فرد الدكتور فوزى .

— لا . . فنى وسع الفرد أن يكون موظفاً دوليا . أما الجيش فيظل خاصاً بالأمة التى ينتمى إليها . وعلى البلاد التى تود إرسال قواتها إلى هنا بموافقتنا، أن تكون متحررة من كافة الالتزامات والارتباطات التكتيكية .

وكانت مصر فى هذا القرار ، تستند إلى ما جاء فى نص قرار هيئة الأمم من أن تأليف القوة الدولية ، يتم « بموافقة جميع الفرقاء المعنيين » .

وأبلغ السفير الكندى وزير خارجيته بما حدث ، وقال إن الجنرال بيرنز قائد القوة الدولية مُصِر على حضور قوة كندية ، وإلا فإنه يستقيل من مهمته .

واتصل وزير الخارجية الكندية بأتاوة عاصمة بلاده ، ودار الحديث التالى بينه وبين وزير الدفاع الكندى . . قال وزير الدفاع :

— اهتم الناس هنا اهتماماً بالغاً بمشروعك ، ولا ريب فى أن العملية جهد عسكرى من الدرجة الأولى ، وقد أعددنا كتيبة ممتازة لإرسالها على وجه السرعة . . فسأل بيرسون .

— أية كتيبة ياترى ؟ . . فرد وزير الدفاع .

— كتيبة حملة بنادق الملكة ! ! فصاح بيرسون .

— يا لله يابروك (كلاكستون وزير الدفاع) . . إن المصريين لا يريدون وحدات تحمل مثل هذه الأسماء فى بلادهم ، ترى كيف يكون موقفهم عند ما يبلغهم أننا سنرسل لهم كتيبة الملكة . . لم لا تغير اسمها ؟

فصاح وزير الدفاع هائجاً مائجاً ، عند سماعه ضرورة اختيار اسم آخر وقال :

— إذا كنتم هناك فى نيويورك (مقر الأمم المتحدة) تعتقدون أن فى وسعنا هنا ، ترضية للأمم المتحدة ، أو لرجل القاهرة (ناصر) الهزء بوحدة عسكرية مشهورة ، كتلك الوحدة ، بتغيير اسمها ، فأنتم مخطئون . . .

ورد عليه بيرسون :

— حسناً يابروك . أليست لديك وحدة أخرى ، تستطيع ارسالها ، ولا تحمل اسماً يدل على السيادةالبريطانية ؟

فرد صاحبه :

— أجل . . . هناك كتيبة « الحراسة السوداء » !

فصاح بيروسون :

— انه أسوأ اسم عند العرب ، . على كل حال اترك الأمر لى وسأرى ما يمكن عمله . .

وكان الشيء الوحيد الذى يستطيع بيرسون الكندى عمله . هو أن يطلب عودة حاملة الطائرات « ماجنيفسنت » من عرض المحيط ، فقد أبحرت على ظهرها كتيبة بنادق الملكة بمعداتها ! !

ويروى ليستر بيرسون ذكرياته عن هذه المواقف الحرجة بقوله :

« كان الأمريكيون يقودون حملة المطالبة بإيقاف إطلاق النار ، والهنود يقودون حملة انسحاب القوات المتحاربة فوراً ، وأى تردد من جانب الانجليز والفرنسيين يعرضهما لقرار إجماعى بفرض عقوبات ، منها العقوبات الاقتصـــادية . . والوفد

الكندى لم يكن ليسمح بوصول الدولتين إلى هذا الموقف المهين ، وكان القصد من صورة القوة الدولية هو تجنب هذا الاذلال .

« وقد اصطدمنا مع المصريين لأن الجمعية العامة ، سجلت على نفسها اعترافها بسيادة مصر غير المحدودة على أراضيها (طبعاً ! !) كما وافقت على أن يكون وصول القوة الدولية إلى المنطقة مقروناً بموافقة الأطراف المعنية كلها وتبادل الأمين العام — همرشولد — نحواً عن عشرين برقية فى ثلاثة أيام مع القاهرة حول هذا الموضوع وكانت النتيجة أنه لايمكن عمل شيء دون رضاء مصر وموافقتها » .

وعند ما اجتمعت اللجنة الاستشارية التى كلفت بمعاونة همرشولد فى مهمته ، قال مندوب الهند فى مواجهة اعتراضات كندا والنرويج :

— إننى لا أستطيع أن أرى كيف يمكن للأمم المتحدة أن ترغب فى فرض شروطها على بلاد تعرضت للعدوان من الآخرين . .

فرد بيرسون الكندى :

— أننا لانفرض شروطاً . . أننا نحاول مساعدة مصر .

وحلا لهذا الاشكال حزم همرشولد حقائبه وطار إلى القاهرة .

وكان كريشنا مينون لا يترك تليفونه فى نيويورك ، وهو متصل بالدكتور فوزى وأخيراً توصل إلى حل . قد يرضى كندا بعض الرضا ، وهو أن مصر قد تقبل سيارات كندية ، أو طائرات نقل . .

وكما منعت مصر كندا من الاشتراك فى القوة الدولية ، كذلك اعتذرت عن إشراك قوة باكستانية ، لأنها عضو فى الأحلاف . . ووافقت على إشراك البرازيل وكولومبيا أو الدول الاسكندنافية وفنلندة .

وأخذت طلائع القوات تصل ، وعين ضابط اتصال مصرى ليشرف على تحركاتهم . .

وتأزمت الأمور فجأة ، فقد أعلنت مصر أن الأعداء لم يبدأوا الانسحاب ، وأنها ستواصل القتال ، وأعلنت وكالة تاس فى موسكو أن أعداداً كبيرة من المواطنين

السوفيات تضم أفراد القوات الاحتياطية والطيارين وسائق الدبابات ورجال المدفعية ، أصبحوا متأهبين للسفر متطوعين فى صفوف القوات المسلحة المصرية . . وأن الحكومة السوفياتية لا تستطيع منعهم .

وذعرت الأمم المتحدة ، وصاح أقطابها يطلبون من الولايات المتحدة التدخل ..

وصاحت قيادة حلف الاطلنطى بضرورة عمل شيء يسمح بتدفق البترول مرة أخرى من الشرق الأوسط ، لأن طائرات الحلف توقفت . . لا وقود .

وكان مطلوباً من أيزنهاور أن يتدخل لدى مصر لإقناعها بأن تسمح لوحدات من البحرية الانجليزية والفرنسية بتطهير القنال لأنها أقدر من غيرها على هذا العمل ، فعلق إيزنهاور ساخراً :

— هذا كلام فارغ . فالإيطاليون أكثر خبرة من غيرهم فى عمليات التطهير . وقد خبرت هذا بنفسى أيام خدمتى العسكرية فى افريقية الشمالية .

وطار سلوين لويد الإنجليزى وبينو الفرنسى إلى أمريكا لمحاولة مقابلة إيزنهاور . ولكنه رفض هذه المقابلة ، حتى يتم تنفيذ قرار هيئة الأمم بالانسحاب .

وفى ٢٣ نوفمبر سنة ١٩٥٦ بدأ انسحاب المعتدين ، تحت ضغط المقاومة فى بورسعيد ، وضغط الحاجة إلى البترول ، لا فى فرنسا وإنجلترا فقط . ولكن فى أوروبا الغربية كلها ولا سيما إيطاليا وألمانيا ، وضغط المعارضة فى بريطانيا ، ومرض إيدن الذى اضطره إلى أخذ اجازة والسفر إلى جمايكا للاستشفاء ! !

ومن فكاهات تلك الساعات الحرجة ما دار فى مجلس العموم البريطانى . عند ما وقف أحد الأعضاء ، وسأل : متى تسمح أمريكا لرئيس وزرائنا (إيدن) بالعودة من جمايكا ! ! وصاح عضو آخر يقترح هازئاً ترشيح إيدن لجائزة نوبل للسلام ! !

وفى يوم ٢٢ ديسمبر سنة ١٩٥٦ تم انسحاب آخر جندى أجنبى من بورسعيد .

وعلى الفور وافقت الولايات المتحدة على دفع قرض فورى لإنجلترا ، ووافق صندوق النقد الدولى على تقديم ١٣٠٠ مليون دولار على قسطين .

وكان الجنيه الاسترلينى قد انهار انهياراً خطيراً ، برر هذا الدعم .

وكان إيدن قد عاد من جمايكا فى منتصف ديسمبر ، ولم يرض من الغنيمة بالإياب الذليل ، بل حاول أن يلعب بذيله كما يقولون ، فى انتفاضة يأس ، فطلب من لندن

الأمين العام لهيئة الأمم ودار بينهما الحديث التليفونى التالى[1] :

إيدن : أنا إيدن . أحدثك من مكتبى هنا فى لندن ، ومعى اللورد مونتباتن قائد الأسطول البريطانى . إننا نبحث معاً موضوع السفينة البريطانية الموجودة فى بور سعيد .

همرشولد : أية سفينة ؟ ؟ ؟

إيدن : سفينة التطهير التى تعرفها ، إنها سفينة ممتازة . لكن هناك مشكلة واحدة.. مونتباتن يقول إنها تحمل أحد المدافع على ظهرها .

همرشولد : إذن لا يمكن استخدامها . إذ لا يسمح لأية سفينة عسكرية بالمضى إلى القنال . فقرار وقف إطلاق النار ، يحول دون وجود أية أسلحة .

إيدن : أجل أعرف هذا . ولكن المدفع يكون تابعاً للأمم المتحدة .

همرشولد : ماذا تقول . . . مدفع ، وللأمم المتحدة ؟

إيدن : أنا أعنى أن المدفع للأمم المتحدة . بل لنفترض أنه سويدى . إنه من طراز بوفرز .

همرشولد : . . . آه . . فهمت . ولكنى آسف على كل حال . . لا يمكن استعمال السفينة حتى لو كان المدفع لدولة محايدة .

إيدن : ظننت أن هذه السفينة قد تكون نافعة لكم .. كنت أتحدث مع مونتباتن كما قلت لك ، وشعرت أن واجبى أن أحدثك تليفونياً . وأن أنقل لك ما يتعلق بها . . هل لى أن آمل منك إعادة النظر فى هذا الموضوع . .

همرشولد : لا أستطيع إعادة النظر فى موضوع كهذا . .

إيدن : . . . إذن وداعاً ؟

ولقد ملأت هذه المواقف قلب المعتدين بالحقد على همرشولد . وكانوا يسمونه همرشولد المصرى . . . ولهذا لم تدهش دوائر القاهرة ، عند ما علمت ، أن حادثاً « غامضاً » وقع بعد سنين لهمرشولد ، وهو يطير من الكونجو قضى على حياته . . .

---

(١) نص الحديث كما ورد فى كتاب (أزمة السويس) ص ٣٨٣ .

لقد دفع ثمن استقامته وصراحته ، وعدم انسياقه فى طريق الآثمين . . وهو نفس الثمن الذى دفعه برنادوت فى فلسطين . إننا لا نملك الدليل على أن الصهيونيين قتلوا همرشولد . ولكنا نملك الدليل على أن الاغتيال هو أحد أساليب الصهيونية .

المصير ...

اندحر العدوان ، وارتد عن الشواطىء والحدود المصرية ، وتجرع منظموه والقائمون به كئوس الخذلان . . وارتدوا ليبحثوا عن وسيلة أخرى لضرب القومية العربية ضربة أكثر إحكاماً وهو ما حدث عام ١٩٦٧ ، أى بعد عشر سنوات من اندحار العدوان الحالى الذى ندرسه الآن .

وفى تقييم هذه المعركة نذكر أنه لم يحدث أن تجمع هذا الحشـــد العسكرى ، ولا هذه الأساطيل ، ولا هذه الطائرات لغزو أمة خارج القارة الأوربية . .

لم يحتج استعمار الهند ، أو الملايو ، أو الهند الصينية فى آسيا ، ولم تحتج حرب البوير أو حروب السودان إلى هذه القوى أو ما يقاربها . وعندما استولت فرنسا على شمال أفريقية ، لم تجمع هذه القوة فى مرة واحدة . .

وكانت معركة السويس أول معركة من نوعها فى التاريخ يكون من معداتها السلاح بأحدث أنواعه فى جانب ،والسلاح والرأى العام العالمى فى جانب ، ثم ينتصر الجانب الذى معه عطف الأمة الإنسانية . . . هذا العطف الذى تحول إلى عمل فى مناطق كثيرة . . تحول إلى منع البترول من التدفق على المعتدين ، وعلى معظم أوروبا . . وتحول إلى خلل واضطراب كامل فى سير الملاحة العالمية . . وتحول إلى تهديد جاء من موسكو بأن تزيل قنابلها الذرية لندن وباريس من الوجود . وتهديد جاء كذلك من بكين بأن تستنزف الدم البريطانى فى هونج كونج حتى آخر قطرة منه يمكن أن تصل إلى المحيط الهادى ، وتهديد ، بل تدمير لمركز الجنيه الإسترلينى ، حتى احتاج دعمه فى أسابيع قليلة إلى ما يقرب من مليار من الجنيهات ، وتفكيك لعرى جامعة الشعوب البريطانية (الكومنولث) حتى كادت تتساقط . فلا تقوم لها قائمة .

وكانت مقاومة مصر ، والتصميم الذى استقبلت به العدوان ، مثلا عظيماً ضرب

لجميع الشعوب التى تخوض معارك الحرية ، مثلا سارت على أثره الجزائر ، فلم يقو نصف مليون جندى فرنسى على إخضاعها وما لبثت الجزائر أن فازت وانتصرت ، ومثلا احتذته فيتنام ، وها نحن أولاء نرى مايقرب من نصف مليون جندى أمريكى ومتحالف معها عاجزين عن إخضاع الحفاة العراة من أبناء هذا الشعب الباسل، ومثلا سار على هديه أبناء الجنوب العربى ، وهم يلهبون الاستعمار البريطانى ومعاونيه بسياط ثورة نبيلة رائعة . .

اسرائيل .. هذه

إن المتتبع للنشاط الدولى الضخم خلال معركة العدوان عام ١٩٦٥ ، يجد مصر قد ركزت كل حربها ، وكل ضغطها على دولتى العدوان : إنجلترا وفرنسا . . أما إسرائيل فقد ظلت فى كل هذا النشاط كماً مهملا ، أو شيئاً ليس فى الحساب على الإطلاق . . ذلك أن إسرائيل ، كانت فى عملية السويس بمثابة الظل ، فمتى زال الأصل ، إختفى الظل على الفور .

ولقد بعث هذا الموقف المتعالى من مصر ، المشوب بالاحتقار والازدراء ، دماء الغضب المجنون فى عروق بن جوريون ، فراح يزعم أن عمليته العسكرية ، فى سينا ، ما هى إلا درس يلقى فى المعاهد العسكرية !! .

ولكن قائده موشى ديان ، أحس بأن مذكرات سمحونى القائد القتيل تلهب وجهه وقفاه ، فلم يلجأ إلى الصراخ والصياح ، ليقول : نحن هنا .. وإنما ذكر فيما ذكر ،أنه لولا أن فرنسا وانجلترا شجعتانا على مهاجمة مصر ، لما تحركت جنودنا عبر حدود سيناء . ثم راح يدرس كيف يحسن وسائل بلاده العسكرية ، لكى تستطيع أن تخوض معركة منفردة ، واحتاج هذا الإعداد إلى عشر سنوات كاملة .

ومعركتنا مع إسرائيل فى عام ١٩٥٦ ، إنتهت بانسحابهم ، بعد أن صاحت فيهم هيئة الأمم صيحة منكرة ، وبعد أن زأرت أوروبا وأمريكا تأمرهم بالانسحاب فوراً ، حتى تسمح مصر بتطهير القنال ، والسماح للبترول الثمين بالمرور . أن مصر كانت تضغط على عنق الغرب كله ، فلم تتعجل تحريك جندى لشرق القنال ، قبل الأوان . .

ولقد كان انسحاب اليهود من سينا ، يدل على طبيعتهم . . فقد نهبوا كل شيء كان فى وسعهم حمله معهم . . جميع منشآت البترول ، وموجودات محجر الطور ، ومعدات مناجم المنجنيز ، وأعمدة التليفون وأسلاكها . . كل هذا حملوه معهم . .

حتى دير سانت كاترين ، أغاروا عليه ، وحملوا نفائسه ومقتنياته القديمة المقدسة لدى العالم المسيحى كله . . وكان الضباط الذين قاموا بهذه العملية القذرة ، غاية فى الصلف وسوء الخلق مع رجال الدين المسيحى هناك .

وفى طريق عودتهم الذليلة أحضروا محاريث أزالوا بها الأسفلت من الطرق المرصوفة ، وحطموها ، ولغموها وراءهم ، خشية أن تكر عليهم القوات المصرية .

وقد قاموا بنفس هذه الفظائع ، فى منطقة غزة وشرم الشيخ ، مضافاً إليه النكال الذى أوقعوه بالسكان . . وهى أمور تذكر مرة أخرى بدير ياسين ، وتضاف إلى القائمة السوداء ، التى لن ينسى العرب أنها ستكون مما يحاسب عليه مجرمو هذه الحرب .

وكان جلاؤهم عن العريش فى ١٤ يناير عام ١٩٥٧ . . وانسحابهم النهائى من قطاع غزة وشرم الشيخ فى ٦ و ٧ مارس . .

وقد بذلوا أقصى ما يمكن من جهد ، لكى تتسلم القوة الدولية التابعة لهيئة الأمم الإدارة فى قطاع غزة . .

وبعد صلاة الجمعة يوم ٨ مارس عام ١٩٥٧ خرجت من الجامع العمرى الكبير فى غزة مظاهرة كبرى ترفع صور الرئيس عبد الناصر ، وتطالب بعودة الإدارة المصرية فوراً . . واستمرت المظاهرة ، فى الأيام التالية ، وصعد شاب من أبناء يافا اللاجئين ، هو محمد المشرف ، إلى سطح دار القيادة فى غزة ، وأنزل علم الأمم المتحدة ، ورفع علم مصر ، فأطلقت عليه رصاصة من أحد جنود الأمم المتحدة ، فقتل . . وكانت دماء هذا الشهيد ، تعبيراً صارخاً عن رغبة الرأى العام فى القطاع ، وأصدر الرئيس عبد الناصر قراراً بتعيين اللواء محمد حسن عبد اللطيف بأن يكون حاكماً لغزة ، وقد وصل إلى غزة يوم ١٤ مارس . . وبذا هدأت الحالة واطمأن الشعب الفلسطينى .

... وانجلترا

كان الجنرال الكسندر ، هو القائد العام الذى أشرف على معركة العلمين عام ١٩٤٢ وقد ظل بعد تركه الخدمة على اتصال بالسياسى العجوز تشرشل ، وعدمن بطانته المقربة.. وعندما سئل فى عام ١٩٥٦ ، عن القوة والوقت الذى يحتاجه إخضاع مصر ، قال :

— إخضاع مصر يحتاج إلى فرقتين على الأكثر وعشرة أيام !!

ويبدو أن تشرشل تأثر بآراء هذا القائد ، حتى وافق على الحملة أول الأمر بحماسة .. ولكن كلا الرجلين كانا يعيشان بمعلومات يرجع تاريخها إلى ١٤ سنة ماضية ، عندما أدارا معركة العلمين ..

والغريب أن هذا الوهم ، ساور أيضاً قواد الحملة . فقد كان من رأى الجنرال ماسو الفرنسي أن من الممكن الوصول إلى احتلال قنال السويس كلها فى ٤٨ ساعة .. وقال سلوين لويد للصحفيين الأمريكيين وهو موجود فى نيويورك : إن كل ما كانت قوات العدوان فى حاجة إليه هو ٤٨ ساعة ، إن الوصول إلى السويس من بور سعيد يحتاج إلى سبعة أيام !!

والذى أثبته الواقع ، دل على أن مصر رتبت نفسها على حرب طويلة الأمد ، وهذا هو السبب فى توحيد جبهة القتال ، وعدم خوض المعارك الكبيرة إلا بعد أن تخرج قوات العدو من تحت حماية الأسطول ، وتنظيم حرب الشوارع جعل الاستيلاء على بور سعيد يتطلب هدمها حجراً بعد حجر . وكان هذا باعثاً لقيادة العدو ، كى تعيد تقدير موقفها ، وخططها . وهذا الاختلاف الكبير فى تقدير قوة مصر المحاربة ، وقوتها السياسية فى نفس الوقت ، هو الذى دعا إلى إدخال ١٧ (سبعة عشر) تعديلا على خطط الغزو ، مما لم يحدث له مثيل فى أى حرب من الحروب .

وقد قال الصحفى راندولف تشرشل (ابن ونستون تشرشل) فى كتابه عن سقوط إيدن ما نصه :

« إن القادة العسكريين البريطانيين كانوا لا يعرفون بالضبط كفاية القوات المصرية ، ضباطاً وجنوداً ونظاماً وتسليحاً » .

ويرى هذا الكاتب أنه لو عمد إيدن إلى فرض نظام البطاقات لتوزيع البترول ومواد التموين الرئيسية ، بعد تأميم القنال مباشرة لتمكنت بريطانيا من مواجهة

الأزمة وحالة الطوارىء ، وهى تملك مخزونات ضخمة من المؤن ، ولكان احتياطيها من الدولار كبيراً . هذا بالإضافة إلى أن اتباع سياسة كهذه ، من الناحية النفسية ، يشعر الشعب البريطانى بما هو مقدم عليه .

وهذا رأى لايجد ما يسنده . إذ كيف تعمد حكومة فى إنجلترا إلى تقييد استعمال البترول ، فى وقت تسير فيه الملاحة فى القنال بأتم نظام ، ويتدفق البترول كالمعتاد من موانيه ! ! إن اتباع سياسة كهذه كان يكون مدعاة لسخرية الرأى العام البريطانى، لا لتعبئته للمعركة .

والذى يمكن أن نقوله ، كخطأ أساسى فى إدارة هذه العملية العسكرية ضدمصر، والذى أكسبنا المعركة فعلا ، هو :

أولا : الخطأ الفادح فى اعتماد إيدن على أراء بعض الحاقدين على ثورتنا ، وزعمهم أن ضرب المدن بالطائرات ، سوف يكفى وحده ، لإنقلاب الرأى العام المصرى عليها ، وإسقاط حكومة عبد الناصر . .

والرأى العام المصرى ، يعلم أن عبد الناصر خاض معركة الجلاء وإزاحة الملكية والأحزاب والإصلاح الزراعى،وخاض معركة تسليح الجيش من الاتحادالسوفياتى ، ومعركة تمويل السد العالى ، ومعركة تأميم القنال ، والتأهب لمنازلة إسرائيل ، لا لكى يستمر حاكماً ، ولكن لكى يخدم مواطنيه . . كل مواطنيه . . فكيف ينقلب عليه شعبه ؟ ! . .

لقد زعم كتابهم إنه كان فى الإمكان تأليف حكومة أخرى ، تحت أزيز الطائرات وانفجار القنابل . . ولكن هذا كان أمراً مستحيلا بالنسبة لخلق هذا الشعب الذى لم يسبروا أغواره بعد ، وبالنسبة لطبيعة المعركة .

ولهذا عجب إيدن فى مذكراته ، لأن الثورة ضد الحكومة لم تقم فى مصر ! !

ثانياً : والغلطة الكبرى الثانية التى ارتكبها إيدن ، هو أنه سمح لإسرائيل بأن تشترك فى المعركة ، واسرائيل بالنسبة للعالم العربى ، مثار اشمئزاز كل عربى . . وقد حرك وجودهم فى المؤامرة ، ضمير كل مسلم من ٥٠٠ مليون مسلم فى مشارق الأرض ومغاربها ، وهذا فضلا عن أعداء الصهيونية فى أنحاء العالم ، وهم عدد كبير جداً فى كل دولة ، ومن بينها أمريكا نفسها . . وألمانيا التى يستقر فى أعماق معظم أفراد شعبها ما ذاقوه من ذل على أيدى اليهود بعد هتلر . .

وكانت نتيجة الهزيمة التي منى بها العدوان ، أن تحقق ما تحدث به ماكميلان إلى روبرت مورفى المبعوث الخاص لأيزنهاور ، من أن انجلترا ستصبح مثل هولندا . . أى دولة صغيرة . . والذى حدث هو أكبر مما تخيل ماكميلان ، فإن انجلترا تحولت إلى بلد مسلوب الإرادة بالنسبة للولايات المتحدة . . ولهـذا نحن نراها تستجدى وجودها فى السوق الأوربية المشتركة ، وفرنسا ترفض بكبرياء . . وعلى الرغم مما هو معروف من أن حكومة العمال ضد العدوان الأمريكى على فيتنام ، إلا أن رئيسها ويلسون ، كان كلما أراد مناقشة هـذا الموضوع مع جونسون رئيس الولايات المتحدة ، أقفل السماعة فى وجهه ، تليفونياً . . وكاد يرفض مقابلته ، عند زيارته لأمريكا . .

لقد تضاءل شأن انجلترا ، بعد عدوان السويس ، إلى حد أننا قطعنا العلاقات معها مرتين بعد الجلاء ، مرة بمناسبة العدوان ، ومرة بمناسبة قرار الدول الأفريقية بخصوص روديسيا ، وقد حمل سفيرها حقائبه مع موظفيه فى المرتين ، ورحل عن بلادنا . وذكريات الماضى تطوف بخياله . . الماضى الذى كانت إشارة من أسلافه تقيم دنيا الحكم فى مصر وتقعدها !! وسبحان مغير الأحوال . .

أما إيدن . . شبح الماضى ، الذى أراد أن يعيش بعد النصف الثانى من القرن العشرين ، فقد اعتزل الحكم ، واعتزل السياسة ، وسافر بعد استقالته من رياسة وزارة المحافظين وحزبهم ، إلى نيوزيلندة ، أقصى بلاد الدنيا ، يجتر آلامه ، ويدون مذكراته ، التى بدت مليئة بالكذب والتلفيق ضد مصر ، والحملة المرة ضد الولايات المتحدة . .

... وفرنسا

لم يتحقق لفرنسا ما أرادته من إخضاع الروح العربية ، بضرب مصر حتى الهزيمة ، وكانت النتيجة ، أن انهارت الجمهورية الرابعة ، وقام على أنقاضها ديجول وعهده ، الذى استطاع فى شجاعة أن يسحب بلاده من الجزائر ، وأن يقيم سياسة جديدة فى أوربا ، تحارب السيطرة الأمريكية . .

وقد دارت إسرائيل حول السياسة الديجولية . . ولكن ديجول منع هذه الصلات المريبة المشبوهة التى كانت تبثها إسرائيل عن طريق بعثاتها وعملائها فى جميع أجهزة الحكم

الفرنسية . ولاسيا إدارات الجيش . وجعل علاقتها قاصرة على وزارة الخارجية ، شأنها شأن الدول الأخرى . . .

وماأن أحست إسرائيل ، أنها غيرقادرة على امتصاص ماتريده من عصارة الليمونة الفرنسية ، أخذت تتجه تدريجياً ، إلى الولايات المتحدة . . وهو وضع لا يرتضيه ديجول ، الذى يواجه السياسة الأمريكية فى موقف صلب لايلين ، وقد فضلت إسرائيل أن تبيع علاقتها بفرنسا ، وما اغترفته من ترساناتها ومصانعها ، لتشترى مرة أخرى ود أمريكا . . وإذا بحكومة جونسون تفتح بدورها ترساناتها لإسرائيل لكى تغترف ماتشاء من السلاح . .

وعندما امتنعت شركة رينو الفرنسية للسيارات عن تجديد عقدها مع إسرائيل استجابة للمقاطعة العربية ، اتجهت إسرائيل إلى توجيه نداء لليهود فى جميع أنحاء العالم ، كى لا يشتروا السيارات الفرنسية . . وبجهد بالغ لم يصدر هذا النداء بطريقة علنية ! !

وهكذا اتضح لفرنسا أن إسرائيل سلعة لمن يشترى ، ويدفع أكثر ... وهكذا ينتظر للعلاقات الفرنسية العربية أن تنمو وتزدهر مرة أخرى ، وقد بدأ هذا التحسن فى العلاقات منذ اتفاق التعويضات عن أسهم قنال السويس الذى قبلت فيه مصر أن تدفع ٢٨,٣٠٠,٠٠٠ جنيه للمساهمين القدامى على ست سنوات أى أقل من دخل عام عند التأميم ، وأقل من ثلث دخل عام بعد عشر سنين من العدوان . وكان توقيع هذا الاتفاق فى ١٢ يوليو سنة ١٩٥٨ .

وبعد مضى هذه الأحداث ، رأينا باريس تستقبل آثار الفرعون المصرى « توت عنخ آمون » بحفاوة كبرى ، وتفتح صدرها وذراعيها لنفحة من نفحات المجد المصرى القديم ، وذلك على أثر زيارة وزير الثقافة الفرنسى مارلو للقاهرة ، الذى أبدى تقديراً كبيرا لتقدم مصر ونهضتها .

كما رأينا فرنسا تقف بزعامة ديجول موقف حزم ووفاء لكلمتها ضد العدوان الإسرائيلى على مصر فى عام ١٩٦٧ ، وتوقف صفقة طائرات حربية لإسرائيل ، ثم توقف قطع الغيار والذخيرة .

وتحاول إسرائيل جاهدة أن تعوض هذا النقص من سبع مصانع أخرى لقطع غيار الطائرات الفرنسية خارج فرنسا منها مصنعان فى جنوب أفريقية واستراليا وهما بلدان معاديان لنا . .

إسرائيل

من ١٩٥٧ إلى ١٩٦٧

إنتهت حرب العدوان الثلاثى ، بانسحاب القوات المعتدية من مصر ، وتصفية هذه المعركة الخائبة فى أوائل عام ١٩٥٧ . وفى خلال الأعوام العشرة التالية تمكنت إسرائيل من دراسة بنيانها الداخلى ، والتعرف على الأسباب التى أدت إلى سقوطها فى امتحان القوة الذى خاضته مع مصر فى صحراء سيناء . . . لقد صاح بن جوريون صيحات الفخر بأن قواته تمكنت من الوصول إلى قنال السويس . ولكن كان هذا الكلام للتصدير إلى يهود العالم خارج إسرائيل . أما فى الداخل ، فقد تصارح القوم بينهم وبين أنفسهم بالحقيقة حتى أن أحدهم قال إن إسرائيل كانت فى هذه المعركة أشبه براكب الدراجة ، الذى تشبث بسيارة منطلقة ، تسحبه إلى أمام دون أن يبذل جهداً فى تحريكها . . ويعنى بالسيارة المنطلقة جيوش إنجلترا وفرنسا ، ويعنى بالدراجة جيش إسرائيل .

نظام التعبئة اليهودى

ونظام التعبئة اليهودى كان أول ما اتجه إليه النظر فقد وضع على الورق ، بطريقة تبدو فيها الدقة والأحكام ، وهذا بيان له ، يجب أن نعرفه ، وأن نمعن النظر فيه إذ أن معرفة العدو على حقيقته أول خطوة فى سبيل التغلب عليه .

وصف بن جريون التنظيم العسكرى الإسرائيلى بأنه أشبه بجبل الجليد العائم فى الماء لا يبدو منه إلا قمته ، أما كتلته الكبرى فتظل مختبئة تحت الماء . . وهو يعنى بقمة هذا الجبل ، الجيش النظامى . أما كتلته الأساسية ، فهى جيش الاحتياط .

وتقوم التعبئة العسكرية فى إسرائيل على قاعدة تجنيد الفتيات والشبان دون تفرقة بين الجنسين ، فى التدريب ، وإن كان هناك شىء من التفرقة فى توزيع الأعباء بعد ذلك . .

وتبدأ صلة الفرد الإسرائيلى بالعمل العسكرى على النحو الآتى :

١ — من سن ١٦ إلى سن ١٨ سنة يلتحق جميع الشباب من الجنسين بكتائب الشباب التى تسمى « الجدناع » بالعبرية . وهى تضم طلبة وطالبات المدارس العادية وتختار منهم فئات تحول إلى معاهد عسكرية فنية للتخصص فى المهارات التى يحتاج إليها الجيش ، من قيادة سيارات وصيانة ، وطيران وهندسة طيران وصيانة جوية ، وأعمال البحرية بكافة فروعها ، وعلوم الالكترون ولا سيما الرادار والإشارة ، والتدريب على الأسلحة المختلفة وصيانتها والذخيرةوإنتاجها ، وبعض أعمال الهندسة المدنية من إنشاء وخرسانة ، وقياس أحمال وما إلى ذلك .

ويختار فريق آخر من هذا الشباب ، للتدريب على عمليات التجسس فى مدارس خاصة ، وتشمل هذه الدراسة تعلم اللغات المطلوبة ، وعمليات التسمع والتصوير النهارى والليلى ، والأحبار السرية ، والإرسال اللاسلكى والاستقبال . كما تشمل عمليات التخريب والنسف ، وقراءة الخرائط ، والإغارات الليلية وأعمال الاستطلاع ، والهبوط بالمظلات ، والتنكر . . وهذا الفريق من الشباب ، واسمه « الناحال » يتدرج أفراده إلى مستويات أعلى من التعليم حسب قدراتهم ليكونوا ضباطاً دائمين فى الأقسام الفنية بالقوات المسلحة .

٢ — التجنيد الاجبارى الذى يكون الجيش النظامى يبدأ من سن ١٨ إلى ٢٠ سنة، وكانت فترة التجنيد تمتد إلى عامين ونصف (٣٠ شهراً) ثم انقصت ستة أشهر لزيادة تعزيز الجانب الأهم من القوات المسلحة ، وهو جيش الاحتياط .

ويضم الجيش النظامى الضباط الدائمين بمختلف رتبهم ، الذين يتولون مسؤولية العمل العسكرى كله إلى جانب المجندين .

٣ — ويأتى بعد هذا جيش الاحتياط ، وهو يتكون من جميع الذين أدووا الخدمة الإجبارية ، ويستمرون أعضاء فى جيش الاحتياط حتى سن ٤٩ سنة . أى أن صلتهم بالقوات المسلحة تستمر حوالى ثلاثين سنة .

ووحدات جيش الإحتياط ، وحدات إقليمية مرتبطة بأماكن السكن والعمل . فالإسرائيليون فى بلدة أشدود مثلا أو الفالوجة ، يكونون قوة الاحتياط فى أشدود أو الفالوجة موزعة إلى كتائب وألوية بحسب عددهم ، وتخصصاتهم العسكرية . وبهذا يسهل استدعاؤهم بمعرفة رؤسائهم العسكريين المحليين ، وعـــودتهم إلى أعمالهم بعد ذلك . .

ويكلف جندى الاحتياط ، بأن يذهب لمدة يوم كل شهر إلى مقر قيادته ليثبت وجوده ، ويصحح ظروف معيشته إن كان طرأ عليها أى تعديل . وعليه أن يلتحق بوحدته لمدة شهر كل عام ، يقوم خلالها مع زملائه بالتدريب على السلاح الذى يعمل به . أو آخر تطور وصل إليه هذا السلاح وأصبح فى حوزة إسرائيل .

وتجرى فى إسرائيل مناورات سنوية تستمر من أسبوعين إلى ثلاثة أسابيع يشترك فيها الجيش النظامى ، وجيش الاحتياط ، وكتائب الشباب ، ووحدات الناحال ، وحرس قرى الحدود التى سنتكلم عنها فيما بعد . وفى هذه المناورات يتم التنسيق بين كافة عناصر الجيش ، وكافة أسلحته ، وتظهر هذه المناورات السنوية مدى الاستفادة من كافة الطاقات البشرية ، ووجوه النقص فيها ، ومــدى المرونة فى تحركاتها ، فتسد الثغرات ، لتختبر مرة أخرى فى المناورات القادمة .

وأهم ما تعنى به القيادة الاسرائيلية إلى جانب التدريب النهارى والليلى ، سهولة استدعاء المجندين للإلتحاق بوحداتهم ، فى سرية تامة ، وبإشارات شفرية فى الراديو ، وبالتلغراف ، وبالإتصال الشخصى حسب ظروف الأحوال .

كما أن حسن توزيع الأسلحة ، وصيانتها من الأمور التى تلقى عناية كبــيرة . فالأسلحة الصغيرة تترك لدى الجنود النظاميين والاحتياط مع كميات مناسبة من الذخيرة . والأسلحة المتوسطة والثقيلة ومعدات النقل توجد تحت تصرف القيادة المحلية فى مراكز التجمع .

٤ ــ وهناك تشكيل أخير ، لا يقل أهميـة عن سابقه ، وهو حرس القرى والمزارع على الحدود . وإذا عرفنا أن إسرائيل كلها تكاد تتكون من حدود ، وإنها قرى مغتصبة من أصحابها الذين يقيمون على مرمى حجر منهم ، تبينت أهمية تكوين دروع واقية فى هذه القرى من الغارات العربية المفاجئة .

وتسمى هذه القوات «بالحامار» أى القوات الاقليمية . وقد أنشئت مستعمراتها بحيث تكون حصيناً ، ومخابىء قادرة على الصمود ، ولها مسالك خروج غير مرئية ، حتى إذا دوهمت ، تمكن الأهالى من التسرب من مسالك أرضية ، وتطويق المهاجين ، إذا تعذر وصول النجدات ، وتيسر اقتحام المستعمرة .

ولا يشترط أن يكون تسليح هذه القرى بأحدث الأسلحة ، إذ أنها فقط عوامل تعويق ، وتكفى فيها الأسلحة المستغنى عنها ، مع كميات كبيرة من ذخيرتها .

تجربة ١٩٥٦

ويبدو هذا الكلام على الورق منمقاً ودقيقاً . ولكن تجربة « زاهال[١] » — وهو اسم الجيش اليهودى بالعبرية — عام ١٩٥٦ أثبتت أن التخطيط على الورق شيء ، والتجربة على الطبيعة شيء آخر .

ومذكرات القائد « آصاف سمحونى » التى تحدثنا عنها قبل ، ليست الدليل الوحيد على هزال هذا التكوين ، ولكن العجز الكبير عن مواجهة واقتحام المراكز المصرية فى سينا كان دليلا واضحاً على أن الأمر لا يسير كما قدر اليهود .

يبلغ تعداد الجيش النظامى اليهودى من ٦٠ إلى ٨٠ ألف فرد ، ولكن جيش التعبئة الكاملة وصل إلى ٢٦٤ ألف فرد ، أى حوالى ١١ ٪ من عدد السكان .

وقد كلف موسى ديان — بعد حرب ١٩٥٦ — بأن يتولى دراسة ظروف جيش الاحتياط ، ومظاهر الضعف فيه . . وتبين من هذه الدراسة أن نقص الاعتمادات المالية ، جعلت التدريب السنوى شكلياً تقريبا ، فألح فى طلب اعتمادات كافية ، وأن يكون التدريب بالذخيرة الحية ، وفى مدى عشر سنوات ، أى بتدريب هذه الكتلة الكبيرة حوالى عشرة أشهر مستمرة . غير فترة المناورات ، أمكن سد الثغرات فى هذا التنظيم ، وكفالة فاعليته .

وفى الدراسة العميقة الممتعة التى قام بها القائد العراقى اللواء الركن محمود شيت خطاب ، وألقاها محاضرات فى معهد البحوث والدراسات العربية التابع لجامعة الدول العربية ، فى هذه الدراسة نظرات نافذة على الموقف العسكرى فى إسرائيل قال[٢] :

« لكى لا تتضاعف نفقات إسرائيل العسكرية . ولكى تحصل على الفائدة الكاملة المرجوة من المبالغ التى تنفقها على قواتها المسلحة ، فإنها تعتمد على العسكريين الاحتياط . والذين لا تدفع لهم الدولة رواتب معينة ، هم العسكريون النظاميون فقط.

---

(١) هذه الكلمة اختصار لكلمات : زفاها — هاجاناه — لى — اسرائيل .

(٢) صفحة ٦٧ وما بعدها من كتاب الوجيز فى العسكرية الاسرائيلية — ١٩٦٨ .

وهؤلاء يكونون العمود الفقرى لجيش الدفاع الإسرائيلى فى وحدات هيكلية [أى تضم الأشخاص المهمين فقط من ضباط وضباط صف دون الجنود عدا عدداً قليلا منهم] . وتكمل أثناء التدريب السنوى أوالحرب بالعسكريين الاحتياط من ضباط ، وضباط صف وجنود .

« وبما أن مساحة إسرائيل صغيرة نسبياً ، وبما أن أعداءها يطوقونها ، فمن الضرورى أن يكون تغيرها فعالا وفورياً . لذلك يقتضى أن يكون جنودها الاحتياط، وضباطها ، وضباط صفها الاحتياط قادرين خلال ساعات قلائل من دعوتهم ، أن يكونوا تحت السلاح فعلا .

« وبالإضافة إلى ذلك ، فإن سكان إسرائيل قليلون نسبياً . لذلك فهى لا تتحمل أعباء جيش نظامى ثابت كبير يكفى للدفاع عنها ، ولصد هجوم مفاجىء عليها . لذا عالجت هذه المشكلة بالعسكريين الاحتياط ، رجالا ونساء ، المدربين على واجباتهم العسكرية ، ومنها الالتحاق بوحداتهم بأقصى سرعة ممكنة بعد دعوتهم للخدمة العسكرية . وهؤلاء يقضون أوقاتهم عند ما يكونون خارج الخدمة العسكرية فى أعمالهم الإنتاجية فى مجال الاقتصاد الوطنى .

« وخطة نفير [تعبئة كاملة] إسرائيل مقتبسة من خطة حربية وضعها الملك سليمان قبل ثلاثة آلاف سنة ، وهذه الخطة الحربية — كما تنص عليها الكتب المقدسة لليهود — تتلخص فى أن الملك سليمان كانت له قلعة هى قلعة مجدو ، وهى تحفة أثرية لا تزال قائمة فى غرب مدينة (جنين) العربية ، وبالقرب منها ، تحتوى على مخازن للطعام والشراب ، تكفى لخمسة آلاف ، وأماكن لتجميع ٣٠٠ عجلة حربية . وفيها اصطبل يتسع لثلاثين حصاناً فقط . وقد دلت البحوث التى أجريت على هذه القلعة ، بأنها تحتوى على حامية سلمية لا تزيد على مائة رجل . فإذا ما ظهرت بوادر الحرب ، امتطى ثلاثون رجلا من حاميتها السلمية الثلاثين جواداً الموجودة فى القلعة ، وأسرعوا فى البرية إلى الفلاحين لدعوتهم إلى الخدمة العسكرية ، وجمعهم فى القلعة ، حتى يتسلمون أسلحتهم الجاهزة للقتال من مستودعات القلعة .

« هذه الخطة — خطة نفير سليمان — يطبقها الجيش الاسرائيلى اليوم ، نصاً وروحاً » .

* * *

تعبئة عام ١٩٦٧

وبتطبيق الأنظمة المعدلة للتعبئة الإسرائيلية فى حرب سنة ١٩٦٧ ، نجدها على النحو الآتى .

١ — فى منتصف مايو سنة ١٩٦٧ كان الجيش الإسرائيلى معبأ تعبئة جزئية ، وتسمح هذه المرحلة الأولى بتكوين سبعة ألوية مشاة مدرعة ومظلات ، وعددخمسة من الكتائب غير المنضمة إلى ألوية . وكانت الحجة المعلنة للتعبئة الجزئية ، هى الاستعداد للعرض العسكرى الذى أقاموه فى القدس المحتلة وسط احتجاجات عربية ودولية قوية . وذلك لأن اتفاقية الهدنة تمنع مثل هذا العمل .

٢— وفى ١٩ مايو تم تعبئة الجزء الأكبر من احتياط الخط الأول ،وهم الذين ذكرنا قبل أنهم أتموا الخدمة العسكرية فى الجيش النظامى ، ولم يتجاوزوا ٣٩ سنةمن أعمارهم ويقول اللواء محمود شيت خطاب عن قيادات هذه الوحدات إنها مؤلفة من الضباط وضباط الصف الذين يشغلون مناصب رئيسية ،ومن الفنيين. وكل هؤلاء هم من العسكرين النظاميين المتطوعين فى الجيش ، والمتخذين العسكرية مهنة لهم . أما باقى قوات هذه الوحدات ، فهم من الضباط وضباط الصف و مراتب الاحتياط. [وقد صعدت هذه المرحلة بعدد القوات المقاتلة عندهم إلى ١٤ لواء مشاة وميكانيكى ومظلات. و ٤ ألوية مدرعة،وعدد من الكتائب المستقلة.

٣— ما بين ٢٤ مايو و٢٦ مايو كانت اسرائيل قد أتمت تعبئة الخط الثانى من جيش الاحتياط ،وهم الذين يزيد سنهم عن ٣٩سنة ويقل عن خمسين سنة(اللواء خطاب يهبط بالحد الأدنى للسن إلى ٤٥ سنة) . وكذلك استدعت كل الشباب الاسرائيلى فى البعثات التعليمية فى الخارج، لينضم إلى وحداته العسكرية وباتمام هذه العملية وصل تعداد الجيش الاسرائيلى كله إلى حوالى ٢٦٤ألف رجل وأمرأة.

الحرب النفسية

فى حروب اليهود القديمة ، التى وصفتها التوراه ، كان اليهود يعتمدون على أمرين :

١ — تضليل عدوهم ، وعدم إشعاره بتحركاتهم . مع استطلاع قوة خصومهم .

٢ — الاعتماد على قوة « الرب .. إله الجنود » كى يقود معاركهم . فإذا تخلى عنهم كفوا عن الحرب وحاقت بهم الهزائم .

وفى العصر الحديث لجأ اليهود إلى نفس الأسلوب ، ولكن بمسميات جديدة . . ويتلخص أسلوبهم الآن فى نقطتين :

١ — الحرب النفسية ، وإطلاق الإشاعات ، وحجب تصرفاتهم ، والاعتماد على جهاز مخابرات يتكون من كل يهودى ، وكل عميل يشتريه المال ، خارج أرضهم .

٢ — الاعتماد على قوة خارج جماعتهم تقودهم ، وتحارب معظم حربهم .. ومنذ قرروا فى أواخر القرن الماضى ، العودة إلى فلسطين ، بعد أن تكامل لهم المال ، والتسرب إلى أجهزة الحكم فى كثير من الدول ، بدأوا فاعتمدوا على انجلترا فى حرب ١٩٤٨ ، ثم استعانوا بانجلترا وفرنسا فى حرب ١٩٥٦ ، ثم كانت الولايات المتحدة هى سندهم وموجهة خططهم فى حرب يونيو سنة ١٩٦٧ .

* * *

والحرب النفسية ، سلاح خطير ممهد للحرب المسلحة ، وضعت قواعده ، واستعانت به الدول على نطاق واسع فى الحرب العالمية الثانية . . وكان الألمان يطلقون على أعوانهم الذين يبثون الإشاعات ، ويقومون بالتخريب : الطابور الخامس .

ثم تحولت الحرب النفسية ، إلى ما يطلق عليه الآن بالحرب الباردة ، ومؤداها أن كل أساليب المعارك تتبع ما عدا إطلاق النار ، وزاد فى تعقيد هذا الأسلوب من أساليب

التنافس الدولى ما أدخل على وسائل الإعلام من أساليب حديثة ، وسريعة وناجزة ، سواء فى الكلمة المطبوعة أو المنطوقة أو المصورة .

كما أن أجهزة استراق السمع ، وإرسال المعلومات السرية تطورت تطوراً خطيراً ، أمكن معها انتهاك كل حرمة ، والوصول إلى أخفى همسات الناس ، وتصويرهم فى ظلام الليل بالأشعة تحت الحمراء . وقد اضطرت مناطق الأسرار التابعة للدول ، أن تكون مداولاتها وراء جدران مزودة بحوائط من المعادن المعاملة معاملة خاصة تمنع استراق السمع ، أو اختراق الأشعة ..

وفى تجربتنا الخاصة مع اليهود خلال السنوات العشرين الماضية ، استعمل اليهود ضدنا من وسائل الحرب النفسية وأساليب التجسس ، ما وصلوا إليه بأنفسهم ، وما زودهم به حلفاؤهم ، وما سرقوه هم من كل مكان لهم فيه أذن أو عين أو يد ...

ولكن أهم ما رصدناه من أساليب اليهود ، هو الطاقة الكبرى لهم على الكذب ، وتمويه المعلومات ، وإخفائها .. فأظهر الأسماء فيهم ، وأبرزها ، لا يتورع عن الإدلاء ببيان رسمى فى الصباح ، يغيره بنفس العلانية ظهراً ، وينقضه عصراً . . .

فقد أكد « بن جوريون » عقب هزيمة العدوان الثلاثى فى نوفمبر سنة ١٩٥٦ ، أن الجيش الاسرائيلى لن يجلو عن سيناء ، ولن يجلو عن غزة . ثم ما لبث بعد أيام قليلة جداً ، أن سحب جنوده ، حتى بغير كلمة اعتذار عن تصريحاته السابقة .

وفى حرب يونيو سنة ١٩٦٧ ، كانت كمية الأكاذيب التى أطلقها الرسميون اليهود بحيث لا يمكن حصرها .

فقد صدروا إلى مخابرات دول كثيرة صديقة ومحايدة ، أنهم استعدوا للزحف على دمشق بـ ١٥ لواء ، جهزت للعمل ، حتى أن الاتحاد السوفييتى اقتنع بهذا الاتجاه ، وبعث به تحذيراً إلى القاهرة مع السيد أنور السادات الذى كان وقتها فى موسكو .

وراح « ليفى أشكول » وغيره من المتحدثين الرسميين يؤكد أن اليهود مصممون على غزو سوريا والاستيلاء على عاصمتها بحجة أن سوريا هى قاعدة الفدائيين الذين يعملون فى أرض فلسطين لتحرير وطنهم .

والحقيقة أن عين اليهود لم تكن فى عام ١٩٦٧ على جيش سوريا، ولا على دمشق، كما أنها لم تكن على جيش الأردن، عندما هاجمت قرية السموع الأردنية بقوة كبيرة، وقتلت بعض سكانها، وهدمت مساكنها . . . وإنما كانت عين اليهود على جيش مصر . . ومن وراء اليهود جهاز المخابرات المركزية الأمريكى . وكل ماحدث هو إطلاق دخان فى سوريا، ودخان فى الأردن، يحجب الرؤية عن حقيقة نواياهم، التى بيتوا عليها الأمر فى عدوان ١٩٥٦، والتى أرادوا تكرارها فى عام ١٩٦٧ .. إنها مصر، ولاشىء إلا مصر عدوهم الأكبر اليوم. وعدوهم، من فجر التاريخ كما تحدثت توراتهم، ونقلت عن أنبيائهم. وعدوهم غداً إذا بقيت لهم فى الشرق الأوسط باقية .

امريكا ... ودورها فى الحرب النفسية

الولايات المتحدة، هى مهندسة هذه المعركة، وراسمة خطوطها وأبعادها، وقد قررت أن تخوض معركتها المستترة ضدنا من عام ١٩٥٧ عند ما حسبت أن معونتها السياسية لنا فى دحر العدوان الثلاثى، سوف توقعنا فى دائرة نفوذهم. فلما تبين لهم أن مصر لا ترضى أن تتخلص من استعمار الإنجليز، لتسلم سيادتها — ولو من وراء ستار — للإستعمار الأمريكى . وثبت موقف مصر، عند ما قاومت مشروع إيزنهاور الذى قصد منه « ملأ الفراغ » فى الشرق الأوسط بعد انسحاب الإنجليز من المنطقة . . . ثم كانت الوحدة مع سوريا، وثورة العراق التى حطمت حلف بغداد . . . ثم كانت مساندتنا لثورة اليمن ، وذلك بعد معاونتنا الصادقة لثورة الجزائر حتى نالت استقلالها . . كل هذه المواقف أقنعت الولايات المتحدة ألا سبيل لفرض سلطانها على الشرق الأوسط إلا بعملية حاسمة ضد مصر، تكون إسرائيل رأس الرمح فيها .

وفى أوائل عام ١٩٦٧ نشرت مجلة « النيوز ويك » وهى مجلة وثيقة الصلة بالمخابرات الأمريكية والدوائر اليهودية ، بحثاً عن المخطط الأمريكى الجديد للعمل فى البحر المتوسط والبحر الأحمر . . قالت المجلة بصراحة صريحة إن العمل سوف يشمل اليونان وسوريا والعراق ومصر واليمن والجزائر، للتخلص من الحكم المتحرر والاتجاهات التقدمية التى تندفع إليها هذه البلدان . .

وقد شـــهد عام ١٩٦٧ تحركات الاستعمار الجديد فى معظم بلدان هذه المنطقة ، بادئة باليونان ، والانقلاب العسكرى الذى حدث فيها ، وما لبث التخطيط ضد مصر أن ظهر فى حرب اليهود ، وقد رأينا جمهورية اليمن تدخـــل أيضاً فى نطاق حرب زودت بالمرتزقة . وشهدنا قلاقل فى الجزائر ، وسمعنا عن الأصابع التى تحرك منطقة الأكراد فى العراق ، ويبدو أن تعديلا حدث على الخطة ، بإضافة قبرص إلى دائرة النشاط الذى تباشره المخابرات المركزية ، وذلك لأن حكومة الرئيس مكاريوس كانت واضحة التعاون مع مصر فى أزمة يونيو سنة ١٩٦٧.

لـــماذا ...؟

وهنا سؤال يخطر على ذهن كثيرين وهو : لماذا قررت الولايات المتحدة التحرك ضد مصر وضد حركة القومية العربية ، وضد حركات التحرير بصفة عامة ؟

يوجد سبب مباشر لمعركتها ضدنا ، وهو إيجاد ميدان لو انتصرت فيه ، فإنه يغطى موقفها فى حرب فيتنام ، الذى تجد العداء له يتصاعد ، فى أنحاء العالم ، وفى بلادها هى بالذات . كما أن خسائر الولايات المتحدة فى هذه الحرب — الخسائر التى تعترف بها — تبلغ درجة من الضخامة لم يسبق لها مثيل[1] . وتبلغ نفقات هذه الحرب ٣٨,٠٥٢ دولاراً فى الدقيقة وجملة نفقاتها فى عامين اثنين أكثر من ٢٥ مليارا من الدولارات ... وتقول مجلة نيوزويك الأمريكية : إنه لم يحدث أن كانت الولايات المتحدة مستنزفة بهذه الدرجة الهائلة فى الرجال والمال خلال تاريخها كله.. وقد تضاءلت بجانب هذه الحرب معارك الحرب الكورية ، وبيرل هاربرل ، ومعارك السين .

وفى نفس الوقت الذى أذيعت فيه هذه البيانات ، وهى بيانات صيغت بحرص وعنايه لكى لاتزيد من قلق الرأى العام الأمريكى ، راحت الصحف تتحدث عن نصر الشرق الأوسط (بعد حرب يونيو) الذى رفع من معنويات جونسون المنهارة وتقول نفس المجلة السابق الإشارة إليها مانصه : إن جونسون خرج من أزمة الشرق الأوسط ، ومن اجتماعه بكوسوجين رئيس وزراء الاتحاد السوفيتى فى جلاسبرو ، وكأنه سيد الموقف ! !

---

(١) الاعتراف الامريكى فى أوائل عام ١٩٦٩ صعد بقتلى الحرب الفيتنامية من الامريكان الى ٣٣ ألف قتيل وأربعة أمثال هذا العدد من الجرحى .

وعقدة الثراء هي التي تحرك ساسة أمريكا ، في الوقت الحاضر ، وتملأ نفوس حكامهم إحساساً بأن فرصة السيطرة على مقدرات العالم أصبحت متاحة .

إن انهيار الامبراطورية البريطانية لم يكن درســـاً كافياً . . واندحار النازية ، وأسطورة الجنس السيد لم تعلمهم شيئاً . .

يقول جونسون في مؤتمر صحفي له في أوائل يوليو سنة ١٩٦٧ ، وقد ملأت رأسه روح التعالي والتشامخ :

نحن — أي الأمريكان — نملك ثلث طرق العالم الحديثة ، وثلثي سيارات العالم، ونصف سيارات النقل ، ونصف أجهزة الراديو ، وثلث كهرباء العالم ، وربع الصلب. وبالإجمال نصف ثروة العالم . .

اخلاق .. هؤلاء السادة

هؤلاء الأمريكان الذين يساورهم كل هـذا الاحسـاس بالسـيادة على العـالم ، لم يتورعوا عن قتل رئيسهم كنيدي ، لأنه آثر ألا يستجيب لملوك الصلب في مطالبتهم برفع الأسعار ، وصمم على المعايشة السلمية مع المعسكر الشرقي ، ولم يأمر الجنود والطائرات بإسقاط كاسترو في كوبا ، ونبذ طريق الحرب بين بلاده والاتحاد السوفياتي .

وكان يمكن في النصف الثاني من القرن العشرين أن يكون لمدعى السيادة على العالم بعض الأخلاقيات ، فلا ينزلون إلى مستوى الكذب العلني الصريح ، ولا الدخول — برئيس جمهوريتهم — في مناورة تثبيت القوات المصرية على الحدود ، وإعطائها كل تأكيد بأن اسرائيل لن تهاجم ، والتهديد بالدخول ضدنا في حرب ، إذا نحن تحركنا وذلك لكي تتمكن إسرائيل من مهاجمتنا في جنح الظلام ، وتحت مظلة واقية صنعتها هذه التصريحات :

إن جونسون — تنفيذاً منه لخطة مفاجأة مصر — استعان بالخط التليفوني المباشر بينه وبين الكرملين ، لكي يقول للمسؤولين هناك ، إن العالم مهدد بخطر حرب عالمية ، إذا تحركت القوات المصرية وهاجمت إسرائيل ، وطلب التدخل ، فاقتنعت موسكو ، وتدخلت لدى الرئيس عبدالناصر ، لكي لا يأمر الجيش بالهجوم . . فقد ضمنت الولايات المتحدة ألا تتحرك إسرائيل ، وكان ضمانها لنا أولا ، ثم لحكومة

موسكو ثانياً ، واحتراماً من الاتحاد السوفياتى لهذا الوعد ، قدمت لنا بدورها ضمانها بأن إسرائيل لن تهاجمنا . .

وفى الوقت الذى آثرت فيه مصر ألا تكون هى الدولة التى تشعل حريق الحرب العالمية الثالثة ، وقد تكون حرباً ذرية ، قررت أن ترسل نائب رئيس جمهوريتها إلى وشنطن ، ليبحث بطريق مباشر مع جونسون وسائل إقرار السلام فى المنطقة ، وفى الوقت الذى جاء يوثانت إلى القاهرة نائباً عن الأمم المتحدة ، ليحمل معه وهو عائد قرارنا بألا نهاجم إسرائيل بادئين . . فى هذا الوقت ، كان جونسون يعطى تعليماته لإسرائيل ، بأن تفاجئنا بالهجوم . . .

هذه هى أخلاقيات الدولة التى تملك نصف ثروة العالم كما تقول ! !

وفيما يلى النص الرسمى للرسالتين الهامتين اللتين تبادلها الرئيس المصرى ، والرئيس الأمريكى خلال الأيام العشرة السابقة للحرب .

وسنرى من نصوص الخطابين ، ومن المذكرة الشفوية التى أعدتها السفارة الأمريكية شرحاً لوجهة نظر بلادها . إن الرئيس جونسون ردد ما تقوله إسرائيل بالحرف الواحد وطلب لها من الضمانات والحقوق ، ما لم يكن لها منذ عام ١٩٤٩ على ضوء اتفاقيات الهدنة ، وإن كان قد غلف هذه المطالب بشدة حرصه على السلام وبتقديره لما تبذله حكومة الرئيس عبد الناصر من جهود لتنمية اقتصاد بلادها ، مما سيكون موضوع اهتمام خاص من أمريكا . . وهذا هو أسلوب من الرشوة ، أو دفع الثمن مقابل التنازل عن المبادىء .

وكان رد الرئيس عبد الناصر وافياً جداً ، فى إبراز نقطة النزاع الأساسية ، وهى ليست المضايق ، ولكن فلسطين نفسها سكاناً وأرضاً ، وما حل بهم على يد اليهود .

رسائل بين جونسون وعبد الناصر

فى الفترة بين ٢٣ مايو سنة ١٩٦٧ و ٣ يونيو أى على مدار تسعة أيام تبادل رئيس الولايات المتحدة ورئيس الجمهورية العربية المتحدة الرسائل التالية :

رسالة جونسون لعبد الناصر :

سرى ٢٣ مايو ١٩٦٧

صاحب الفخامة الرئيس جمال عبد الناصر رئيس الجمهورية العربية المتحدة .

عزيزى الرئيس ناصر :

لقد أمضيت معظم هذه الأيام الماضية أفكر فى الشرق الأوسط ، وفى المشاكل التى تواجهونها ، والمشاكل التى نواجهها فى المنطقة وقد فكر لى عدد من أصدقائنا المشتركين بمافيهم السفير « باتل » أنكم قلقون لأن الولايات المتحدة قد أبدت اتجاهات غير ودية تجاه الجمهورية العربيــة المتحدة ، وأود أن تعلموا بصورة مباشرة أن هـذا أبعد مايكون عن نوايانا . .

ولقد راقبت من بعد جهودكم لتنمية بلادكم والنهوض بها ، وأظننى أفهم كبرياء شعبكم وأمانيه — وتصميمه على أن يدخل العالم العصرى ويشارك بدوره الكامل فيه بأسرع وقت ممكن ، وآمل أن نتمكن من إيجاد الوسائل العامة والخاصة على السواء للعمل معاً بطريقة أوثق .

كذلك فإنى أفهم القوى السياسية التى تعمل فى منطقتكم . . أفهم المطامع وأسباب التوتر ، وكذلك الذكريات والآمال .

وبطبيعة الحال ، فإن من واجبكم وواجبى فى الوقت نفسه ألا ننظر إلى الوراء ، وإنما أن ننقذ الشرق الأوسط ـ والمجتمع الإنسانى كله ـ من حرب أعتقد أنه ليس هناك من يريدها : ولست أعرف الخطوات التى سيقترحها عليكم السكرتير العام للأمم المتحدة يوثانت ، ولكننى أحثكم على أن يكون واجبكم الأول تجاه أمتكم وتجاه منطقتكم وتجاه المجتمع العالمى كله ، هذا الهدف السامى : وهو تجنب أعمال القتال .

إن المنازعات الكبرى فى عصرنا هذا ، يجب ألا تحل باجتياز غير المشروع للحدود

بالسلاح والرجال — لا فى آسيا — ولا فى الشرق الأوسط أو أفريقيا أو أمريكا اللاتينية ، فذلك اللون من النشاط قد أدى إلى نشوب الحرب بالفعل فى آسيا ، وهو يهدد السلام فى مناطق أخرى . وكنت أتوقع أن أطلب إلى نائب الرئيس — هيوبرت همفرى — أن يتوجه إلى الشرق الأوسط لإجراء محادثات معكم ومع غيركم من الزعماء العرب . وكذلك الزعماء الإسرائيليين . وإذا ما خرجنا من هذه الأيام بدون أعمال القتال فإنى سأظل آمل أن تتم على الفور هذه الزيارة التى يقوم بها الصديق الذى يحظى بأوفى قدر من ثقتى .

إن كلا منا ممن يحملون مسئولية قيادة أمة ، يواجه مشكلات متباينة صاغها التاريخ ، والموقع الجغرافى ، وأعمق المشاعر لدى شعوبنا ، ومهما كانت الخلافات فى نظرتنا واهتماماتنا بالنسبة لبلادكم وبلادى ، فإننا كلينا نشترك فى الاهتمام باستقلال وتقدم الجمهورية العربية المتحدة وبالسلام فى الشرق الأوسط .

إنى أتوجه إليكم بهذا الخطاب فى هذه اللحظة الحرجة آملا أن تشاركونى هذا التقييم ، وأن يكون فى إمكانكم التصرف وفقه فى الساعات والأيام المقبلة .

المخلص

ليندون ب . جونسون

* * *

وقد ألحقت بهذه الرسالة مذكرة شفوية توضيحية هذا نصها :

مذكرة حكومة الولايات المتحدة الأمريكية إلى حكومة الجمهورية العربية المتحدة .

سرى :

فى الأيام الأخيرة ، ساد التوتر مرة أخرى على طول خطوط الهدنة بين إسرائيل والدول العربية . وإننا نتفق مع وجهة نظر السكرتير العام للأمم المتحدة أن الموقف فى هذه المنطقة موضع اهتمام المجتمع الدولى بأكمله ، وأنها لرغبتنا الصادقة أن تعاون الجهود التى تضطلعون فيها بدور قيادى لتخفيف حدة التوترات ، واستعادة أحوال الاستقرار والثقة .

وليس لدينا أى سبب للاعتقاد ، فى هذا الموقف الحالى ، بأن أحداً من أطراف اتفاقات الهدنة بين الدول العربية وإسرائيل لديه النية فى ارتكاب عدوان . والواقع

أن الخطر — وهو خطر جسيم فعلا — يكمن فى المغامرة الخاطئة وسوء التقدير فهناك احتمال بأن يقع أولئك الذين يتولون السلطة فى المنطقة فى أساءة فهم أو أساءة تفسير نوايا الآخرين وأفعالهم .

وهناك ثلاثة وجوه للموقف تسبب لنا قلقاً خاصاً .

أولها : أعمال الإرهاب المستمرة التى تجرى ضد إسرائيل بموافقة سوريا ، التى تقوم فى بعض الحالات على الأقل من الأراضى السورية ، وهذا يتنافى مباشرة مع اتفاقات الهدنة العامة التى تنادى الدول الموقعة عليها أن تضمن ألا يرتكب عمل شبيه بأعمال الحرب ، أو من أعمال العدوان ، من أرض إحدى هذه الدول ضد الطرف الآخر . أو ضد المدنيين فى أرض يسيطر عليها هذا الطرف الآخر . ونحن نعتقد أن اتفاقات الهدنة العامة مازالت تشكل القاعدة المثلى لأن تسود الأحوال السلمية على امتداد الحدود ، ونحن نأمل أن تشاركنا الجمهورية العربية المتحدة ، هى والحكومات الأخرى ، فى مناشدة كل أطراف اتفاقات الهدنة أن تحترم مواد هذه الاتفاقات بحذافيرها .

وثانياً : فإننا قلقون من أن يؤدى الانسحاب السريع لقوة الطوارىء التابعة للأمم المتحدة ، إلى جعل مشكلة المحافظة على السلام على طول حدود الجمهورية العربية المتحدة مع إسرائيل أكثر صعوبة ، وفى رأينا فإن وجود قوة الطوارىء التابعة للأمم المتحدة يشكل عاملا مساعداً هاماً فى المحافظة على الأمن الأساسى على امتداد هذه الحدود . وتؤيد حكومة الولايات المتحدة مهمة السكرتير العام يوثانت فى القاهرة وكلها ثقة صادقة فى أن حكومة الجمهورية العربية المتحدة ستبحث معه ، على نطاق شامل ، إمكانيات استمرار المحافظة على السلام بشكل من الأشكال ، على الحدود بين الجمهورية العربية المتحدة وإسرائيل .

وثالثاً : تعتقد حكومة الولايات المتحدة أنه من الضرورة بصفة خاصة أن يتوقف الاتجاه الحالى لتعبئة القوات وحشدها على الجانبين وأن يقلب هذا الاتجاه . ولقد أخذنا بعين الاعتبار أن بيانات الجمهورية العربية المتحدة وإسرائيل تشير إلى أن تحركات قواتها المسلحة ذات غرض دفاعى ، ولعلنا نأمل فى أن يبدأ الطرفان ، هما وغيرهما من الدول الأخرى التى اتخذت احتياطات عسكرية ، فى إعادة قواتهم إلى

قواعدها الطبيعية ، فإنهم إذا قاموا بذلك يصبح فى إمكانهم أن يؤدوا خدمة هامة فى سبيل تخفيف حدة الموقف الحالى المتوتر .

ونحن ننتهز هذه الفرصة لنعيد تأكيدنا بالتزامنا المستمر لمبدأ حرية المرور إلى خليج العقبة لسفن جميع الدول ، فإن حق المرور الحر والبرىء إلى هذه المياه ، يعد جزءاً من المصلحة الحيوية للمجتمع الدولى . ونحن موقنون بأن التدخل فى هذه الحقوق الدولية قد تكون له عواقب دولية خطيرة .

وفى الموقف الحالى فإن حكومة الجمهورية العربية المتحدة ، والحكومات العربية الأخرى ، تستطيع أن تتأكد بيقين ، وأن تعتمد على أن حكومة الولايات المتحدة تعارض معارضة صارمة أى عدوان فى المنطقة من أى نوع — سواء كان مكشوفاً أو فى الخفاء ، وسواء أقامت به القوات المسلحة النظامية أو قوات غير نظامية ، ولقد كانت هذه سياسة هذه الحكومة تحت قيادة أربعة عهود أو حكومات مختلفة ، وسجل أعمالنا العقدان الماضيان — سواء داخل الأمم المتحدة أو خارجها — يوضح هذه النقط بجلاء .

وختاماً ، فإن حكومة الولايات المتحدة تعبر عن أملها الصادق فى أن تشترك الجمهورية العربية المتحدة معها هى ودول متعددة أخرى فى جهودهم داخل الأمم المتحدة ، وخارج نطاق هذه الهيئة ، للوصول إلى تخفيف التوتر وإعادة الاستقرار إلى المنطقة .

سفارة الولايات المتحدة الأمريكية

القاهرة فى ٢٣ مايو ١٩٦٧

* * *

وقد أجاب الرئيس جمال عبد الناصر على جونسون بالرد التالى :

عزيزى الرئيس ليندون ب . جونسون رئيس الولايات المتحدة الأمريكية :

إننى أرحب بمبادأتكم فى الكتابة إلى حول الوضوع الراهن فى الوطن العربى ، اعتقاداً منى بأنه مهما بدت نقطة الالتقاء بيننا خارج نطاق رؤيتنا فى هذه المرحلة ،

فإن أية محاولة مشتركة من جانبنا ، لإيجاد حوار مباشر ، قد يساهم على الأقل فى تبديد جزء من السحابات المصطنعة التى يراد لها أن تصور ممارسة الحق وكأنه أمر حرام ، وأن تصور حق الدفاع وكأنه عدوان ولقد يكون من المفيد — فى مجال الحكم على أحداث الساعة — أن نراها فى ترابطها الزمنى والمنطق المتكامل ، حتى نتجنب سوء الفهم ، وحتى نصل إلى تقييم سليم ومعقول وعادل لواقع الأمور التى نعيش فى وسطها .

ومن أجل ذلك فسأحاول أن أشير إلى عدة حقائق أود أن أصفها بأنها حقائق مبدئية :

أولا : علينا أن نعود بذاكرتنا إلى الأيام القليلة السابقة على الإجراءات التى اتخذتها الجمهورية العربية المتحدة مؤخراً ، وأن نتذاكر الموقف العدوانى الخطير الذى خلقته السلطات الإسرائيلية إزاء الجمهورية العربية السورية ، والتهديدات العدوانية التى أعلنها عدد من المسئولين الإسرائيليين ، وما اقترن به ذلك من حشد قوات ضخمة على الحدود السورية ، تدبيراً لعدوان أكيد على سوريا . لقد كان طبيعياً عندئذ أن تقوم الجمهورية العربية المتحدة بمسئولياتها وأن تتخذ كافة الإجراءات التى يتطلبها العمل دفاعاً عن الوطن العربى ضد العدوان المدبر .

ثانياً : تطلبت الإجراءات الدفاعية التى اتخذتها الجمهورية العربية المتحدة أن تتقدم قواتنا المسلحة إلى مواقعها الأمامية على الحدود حتى تكون قادرة على مواجهة تطورات الموقف ولتكون بوجودها قادرة على التدخل ضد الغزو الإسرائيلى المدبر ، وحرصاً منا على سلامة قوات الطوارىء الدولية فقد قررنا ضرورة انسحابها ، وأصبح هذا أمراً منتهياً .

ثالثاً : كان منطقياً بعد انسحاب قوات الطوارىء الدولية أن تتقدم القوات المسلحة العربية لاحتلال مواقعها واحتلت من بين هذه المواقع منطقة شرم الشيخ المطلة على مضيق تيران ، وكان منطقياً أيضاً أن نمارس حقوق سيادتنا الثابتة على المضيق وعلى مياهنا الإقليمية فى الخليج .

وهنا أيضاً أود أن أعود بك بضعة سنين إلى الوراء ، إلى العدوان الثلاثى ضد الجمهورية العربية المتحدة ، وهو العدوان الذى مازلنا نذكر بالتقدير الموقف العادل الذى اتخذته بلادكم إزاءه .

لقد مارست الجمهورية العربية المتحدة قبل العدوان ، حقوقها القانونية الثابتة إزاء الملاحة الإسرائيلية فى المضيق وفى الخليج — وهى حقوق لا تحتمل التشكيك — وبعد رحيل قوات الطوارىء وحلول القوات المسلحة العربية محلها فى هذه المنطقة لم يكن من المتصور أن يسمح بمرور السفن الإسرائيلية أو المواد الاستراتيجية المرسلة لها — وموقفنا فى ذلك فوق أنه ثابت شرعاً — فهو يستهدف فى الواقع إزالة آخر أثر للعدوان الثلاثى ، إعمالا لهذا المبدأ الأخلاقى الذى يقضى بعدم مكافأة المعتدى على عدوانه .

وفى كل ما اتخذناه من إجراءات دفاعاً عن أراضينا وحقوقنا أوضحنا أمرين :

أولهما : أننا سندافع ضد أى عدوان يقع علينا بكافة ما نملك من قدرات وإمكانيات .

وثانيهما : أننا سنظل نسمح بالمرور البرىء للسفن الأجنبية فى مياهنا الإقليمية .

هذه حقائق تتصل بالموقف المباشر الذى أعلنته الجمهورية العربية المتحدة والتى لانرى فيها أى مدعاة لكى يتخذها البعض مبرراً لفرض جو من الأزمة أو لشن هذه الحملة النفسية الموجهة ضدنا ..

وفى الوقت الذى تأخذ فيه هذه الحملة أبعاداً وأشكالا متزايدة ، نرى تجاهلا كاملا ومؤسفاً ، لعدد من الحقائق الأخرى التى أود أن أصفها بأنها حقائق أساسية ، فهذه الحقائق هى التى تفرض فى الواقع حكمها على مجرى أحداث اليوم ، وستظل تفرض حكمها فى المستقبل إلى أن يصل الجميع إلى تقدير كامل لها ولأبعادها ولجذورها ، وسأشير هنا إلى حقيقتين :

أولاهما : هى حقوق شعب فلسطين وهى فى نظرنا أهم حقيقة ينبغى الاعتراف بها . لقد استطاعت القوة المسلحة المعتدية أن تطرد هذا الشعب من وطنه وتحوله إلى لاجئين على حدود هذا الوطن ، وتقف قوى السيطرة والعدوان اليوم حائلا دون حقهم الثابت فى العودة إليه والعيش فيه . رغم قرارات الأمم المتحدة التى كان آخرها فى العام الماضى .

وثانيتهما : تتصل بموقف إسرائيل إزاء اتفاقات الهدنة ، وهو موقف لا يتمثل فى مجرد انتهاك مستمر لأحكام هذه الاتفاقيات ، بل وصل إلى حد إنكار وجودها

أو الالتزام بها . بل وإلى احتلال المناطق المجردة من السلاح وطرد مراقبي الأمم المتحدة منها ، وإهانة المنظمة الدولية والاعتداء على علمها . هاتان هما حقيقتان أساسيتان لا بد من تقدير لهما الحكم على مجرى أحداث اليوم وتطوراتها . .

ولقد أشرتم فى رسالتكم إلى نقطتين :

أولاهما : ماأشرتم إليه من أننا ينبغى أن ننسى الماضى جانباً وأن نعمل على إنقاذ الشرق الأوسط بل والعالم كله بتجنب الأعمال العسكرية ، فبالنسبة لهذه النقطة أود أن أشير إلى أن سياسة الجمهورية العربية المتحدة لا تكتفى باتخاذ السلام العالمى هدفاً بل إننا فى سبيل هذا الهدف نأخذ دوراً إيجابياً لا أرى الاستطراد فى بيانه تجنباً للوقوع فى دائرة التمجيد الذاتى ، أما بالنسبة للقيام بتجنب الأعمال العسكرية فيكفى هنـــا أن ما سبق أن أعلنت من أن كافة ما قمنا به من إجراءات فرضتها قوى العدوان . ومع ذلك فإن قواتنا لم تبدأ بأى عدوان ، ولكننا بلا شك سندافع ضد أى عدوان يقع علينا أو على أى بلد عربى بكل ما نملك من قدرات وإمكانيات .

وثانيتهما: هو ما أشرتم إليه من أن مشاكل العصر لايمكن حلها عن طريق اختراق الحدود بين الدول بواسطة الرجال والسلاح ، وأنا اتفق معك فى هذا الرأى . ومع ذلك فينبغى أن ننظر فى كيفية تطبيق هذا المبدأ على كل حالة ، فإذا كان قصدكم هو عبور بعض أفراد شعب فلسطين خطوط الهدنة فإننى أود هنا أشير إلى ضرورة بحث هذا الجانب فى نطاق النظرة الشاملة لقضية شعب فلسطين ، وهنا أيضاً أتساءل عن مدى قدرة أية حكومة فى أن تسيطر على مشاعر أكثر من مليون فلسطينى ، فات ما يقرب من العشرين عاماً دون أن تهتم العائلة الدولية — ومسئوليتها هنا مسئولية لا يمكن الفرار منها — بإعادتهم إلى وطنهم . وتكتفى الجمعية العامـــة للأمم المتحدة فى كل دور من أدوار انعقادها بتأكيد هذا الحق . أن ما يقوم به بعض أفراد الشعب الفلسطينى من عبور خطوط الهدنة إن هو فى الواقع إلا مظهر من مظاهر الغضب الذى أصبح — عن حق — يتملك هذا الشعب إزاء الإنكار الكامل لحقوقه من جانب العائلة الدولية ومن جانب القوى التى تقف مع إسرائيل وتعاونها مادياً وأدبياً .

وفى الواقع أننا مهما حاولنا أن نفصل بين جوانب المشكلة فلا بد أن نعود فى

النهاية إلى جوهرها وأصلها الذى يتمثل فى حق شعب فلسطين فى أن يعود إلى بلاده ومسئولية العائلة الدولية فى أن تكفل له ممارسة هذا الحق .

وختاماً فلقد يبدو هذا الخطاب مطولا بعض الشىء ولكنى حاولت به أن أوضح فى اختصار بعض الملامح الأساسية للموقف الذى نواجهه اليوم فى الوطن العربى .

وفى الختام فإننى أود أن أؤكد لكم أننا سنرحب بالاستماع إلى مستر هيوبرت همفرى نائب رئيس الولايات المتحدة فى أى وقت يرى فيه زيارة الجمهورية العربية المتحدة ، كما سنعمل على إعطائه صورة الموقف كما نراه وسط الأحداث المصيرية التى تعيشها الأمة العربية فى هذه الأيام . كما إننى على استعداد لإرسال السيد زكريا محي الدين نائب رئيس الجمهورية فى الحال إلى وشنطن للالتقاء بكم وشرح وجهه نظرنا.

وتقبلوا تحياتى وتقديرى . .

إمضاء

(جمال عبد الناصر)

القاهرة فى ٢ يونية سنة ١٩٦٧

* * *

وإذا كان هناك شك يخامر أحداً فى أن الولايات المتحدة صاحبة هذه الحرب ، ومهندسة تفاصيلها ، فهذه مجلة « لايف » كبرى مجلات أمريكا والعالم ، تقول :(١) فى عدد ١٠ يوليو سنة ١٩٦٧ [طبعة آسيا] إن الرئيس جونسون طلب من الجنرال إيرل هويلر رئيس هيئة أركان الحرب الأمريكى تقديراً للموقف بين الجيشين المصرى والإسرائيلى . . . ثم طلب نفس التقرير من ريتشارد هيلمز رئيس المخابرات المركزية . وعاد فأمر الجهتين : رياسة أركان الحرب والمخابرات ، بعمل اجتماع مشترك عن احتمالات الحرب ، إذا نشبت . وعلى ضوء هذا التقدير المشترك ، أذن جونسون لإسرائيل بمباشرة عملياتها العسكرية ضد مصر . . ويقول كاتب هذا البحث ، إن المخابرات الأمريكية وجهت للمخابرات الروسية ضربة قاصمة فى هذه المعركة ،

---

(١) أشار الرئيس ناصر الى هذا البحث فى أحاديثه بعد ذلك .

لأنها أخفت عنها حقيقة نوايا أمريكا . . ووجهت نظرها إلى الجبهة السورية فى حين أن المقصود هو مصر بالذات . وقد كسبت المخابرات الأمريكية هذه الجولة عما مسح عنها التهم التى ألصقت بها بتدخلها فى اتحادات الطلبة الأمريكيين وغيرها من النشاط الداخلى . .

وتضيف مجلة لايف إن حماسة جونسون ، وهو يقنع كوسيجين على خط التليفون المباشر ، بأن يتداخل لمنع مصر من الهجوم ، كأنه كان هو إسرائيل نفسها ، وكأنه صاحب ملفات التوراة القديمة التى وجدت بجوار البحر الميت . . وتقول المجلة إن أنجح دور لعبه جونسون فى حياته ، هو دوره فى حرب إسرائيل ضدنا ، ولقد أحب منصب الرياسة ، من أجل ما قام به فى هذه الحرب كما لم يحبه فى أى وقت آخر ! !

قالوا عن هذه الحرب

تحدث الرئيس جمال عبد الناصر مرتين عن الحرب ، مرة فى ٢٣ يوليو سنة ١٩٦٧ ، والمرة الثانية أمام مجلس الأمة فى ٢٣ نوفمبر سنة ١٩٦٧ .

الحديث الأول

عبد الناصر يتحدث عن الحرب

تحدث الرئيس جمال عبد الناصر فى ٢٣ يوليو سنة ١٩٦٧ عن الظروف التى أدت إلى معارك ٥ يونيو سنة ١٩٦٧ وعن سير هذه المعارك ، وأجمل الموقف فى عدة مسائل هذا نصها :

لم نكن البادئين فى الأزمة :

المسألة الأولى : التى يجب أن تكون واضحة أمامنا جميعاً أننا لم نكن البادئين بتأزيم الموقف فى الشرق الأوسط . كلنا نعرف أن هذه الأزمة بدأت بمحاولة إسرائيل غزو سوريا . من المؤكد لنا أن إسرائيل فى هذه المحاولة ما كانتش بتعمل لحسابها . وإنما كانت تعمل ، أيضاً ، لحساب القوى التى ضاقت ذرعاً بحركة الثورة العربية . .

المعلومات التى جت لنا عن غزو سوريا كانت مصادرها متعددة . كانت هناك معلومات إخواننا السوريين أن إسرائيل قد حشدت أمامهم ١٨ لواء قنا إحنا بتحقيق هذه المعلومات وتأكد لنا أن إسرائيل تحشد أمام سوريا ما لا يقل عن ١٣ لواء . . والوفد البرلمانى بتاعنا كان فى زيارة لموسكو برياسة السيد أنور السادات وقام الأصدقاء السوفيت فى هذا الوقت بإبلاغ السيد أنور السادات بأن غزو سوريا

وشيك . . كنا نعمل إيه . . كنا نستطيع أن نسكت . . وكنا نستطيع أن ننتظر . . وكنا نستطيع أن نكتفى بإصدار البيانات الإنشائية والتأييد بالبرقيات ، ولكن هذا الوطن إذا قبل التصرف على هذا النحو كان يتخلى عن رسالته وعن دوره بل وعن شخصيته . كانت بيننا وبين سوريا اتفاقية للدفاع المشترك ونحن لانعتبر اتفاقياتنا مع شعوب أمتنا العربية أو مع غيرها حبراً على ورق ولكننا نقدس هذه الاتفاقيات ونعتبرها شرفاً والتزاماً . . وكان بيننا وبين سوريا كما كان بيننا وبين أى شعب عربى وكما سيكون بيننا وبين كل شعب عربى ما هو أبقى وأكبر من الاتفاقيات والمعاهدات . . كان هناك وسوف يكون هناك دائماً إيمان بالنضال المشترك وبالمصير المشترك . .

ولذلك فقد كان محتماً علينا أن نتحرك عملياً لمواجهة الخطر على سوريا خصوصاً وأن تصريحات القادة السياسيين والعسكريين لإسرائيل فى هذا الوقت وتهديداتهم العلنية لسوريا ، قد أشارت إليها الصحافة وأشير إليها صراحة فى الأمم المتحدة ، لم تترك لأحد فرصة الشك فى أية معلومات وبهذا أيضاً لم تترك لأحد فرصة الانتظار أوالتردد . .

المسألة الثانية : أننا عندما قررنا التحرك نتجت عن تحركنا آثار عملية . . أول حاجة إننا طلبنا سحب قوة الطوارىء الدولية . بعدين أعدنا تطبيق حقوق السيادة المصرية على خليج العقبة . وكان ذلك من الأمور التى ألح علينا إخواننا العرب دائماً وطالبونا بها . ومن الطبيعى كانت لهذه الآثار نتائج كبيرة فى المنطقة وفى العالم .

لماذا لم نبدأ الضربة الأولى ؟

المسألة الثالثة : أننا بتحركنا وأخذنا المبادأة لدفع الخطر عن سوريا ، كنا ندرك أننا خصوصاً من وجهة نظر دولية لن نبدأ الضربة الأولى فى معركة مسلحة ، ولو كنا فعلنا ذلك لكنا عرضنا أنفسنا لعواقب وخيمة تزيد عما كان فى مقدورنا احتماله ، ولقد كان ماسوف نواجهه هو عمل عسكرى أمريكى مباشر ضدنا يجد الحجة والعذر من أننا أطلقنا الرصاصة الأولى فى المعركة . .

وأريد فى هذا الصدد أن ألفت نظركم إلى نقاط هامة :

أول نقطة : التحذيرات الامريكية ويمكن قرأتم عن هذه التحذيرات الأمريكية

وكان مستشار الرئيس الأمريكى لندون جونسون طلب سفيرنا فى وقت متأخر من الليل فى وشنطن ، وقال له إن فيه معلومات عند إسرائيل أنكم هتهجموا . وقال انده يعرضنا لوضع خطير وناشدنا ضبط النفس ، وقال إنهم أيضاً يعملوا نفس الشىء مع إسرائيل من أجل ضبط النفس ، والرسائل اللى جاءت لنا من الرئيس الأمريكى جونسون اللى بيتكلم فيها عن الأمم المتحدة ويناشدنا فيها ضبط النفس .

النقطة الثانية أيضاً يمكن اتكلمت عليها قبل كده أن السفير الروسى أيضاً فى اليوم التالى طلب مقابلتى وبلغنى رسالة من رئيس وزراء الاتحاد السوفييتى يطلب منا فيها ضبط النفس ، ويبلغنى رسالة بعتها لرئيس وزراء إسرائيل ، ويقول فى رسالته إن أى عمل من ناحيتنا بيعرض العالم لأخطار كبيرة .

النقطة الثالثة المجتمع الدولى كله كان يعارض البدء بالحرب وكان حديث الرئيس الفرنسى الجنرال ديجول واضح فى أن فرنسا سوف تبنى موقفها على أساس من يبدأ بإطلاق الرصاصة الأولى .

الخديعة الأمريكية :

المسألة الرابعة : إننا تعرضنا لخديعة دبلوماسية . . لعملية تضليل سياسى خطيرة لم نتصور أن تقدم عليها دولة كبرى أو قوة كبرى . . الخديعة السياسية كانت من أمريكا . خطابات الرئيس الأمريكى ومناشدات الرئيس الأمريكى . وطلبه مننا أن احنا نتعاون مع السكرتير العام للأمم المتحدة . . وكلامه إنه مستعد يبعت نائب الرئيس وأنه مستعد يبحث معانا كل الأمور والوسائل اللى تخرج العالم كله من الأزمة . . جه الأمين العام للأمم المتحدة . . تعاونا مع الأمين العام للأمم المتحدة إلى أقصى حد . . وطلب منا مهلة واحنا وافقنا بالنسبة لخليج العقبة . . وقال أنه عايز هذه المهلة لكل الناس علشان تستطيع أن تتنفس وأن نتدبر أمورها . . النقطة الأولى إن مافيش سفن إسرائيلية تمر فى الخليج ومافيش شحنات استراتيجية أيضاً لإسرائيل تمر فى الخليج وفى نفس الوقت احنا مانمارسش عملية التفتيش . . قبلنا هذا الموضوع واعتبرناه حل من السكرتير العام للأمم المتحدة بحيث يدى مهلة ووقت للجميع ليبحثوا الموضوع .

بعد كده وصل مبعوث الرئيس الأمريكى هنا وقال . . اتكلم المبعوث على أساس

أن أحد نواب الرئيس يسافر إلى أمريكا وأنا وافقت على الفكرة على أساس أنه يقابل الرئيس جونسون وأن يشرح له الموقف . وبعت بعدكده للرئيس الأمريكى وقلت له أن إحنا بنرحب بسفر نائب الرئيس زكريا محى الدين إلى واشنطون علشان يقابلك ويشرح لك وجهة النظر العربية . . طبعاً فى اليوم التالى جالى الرد إنهم يرحبوا بسفر زكريا محى الدين إلى واشنطون لمقابلة الرئيس الأمريكى وطلبوا مننا تحديد الموعد وحددنا الموعد يوم الثلاث ٦ يونيه . كلنا نعرف أن العدوان بدأ يوم الاثنين ٥ يونيه معنى ده . . إن معناه فيه نشاط سياسى ودبلوماسى واسع المدى وكان يحق لنا معه أن نصور أن الإنفجار لن يجىء سريعاً .

المسألة الخامسة : مع ذلك وبرغم ذلك كنا غير مطمئنين لهذا كله وكنا ندرك أن شيئاً يدبر وأنه لن يتأخر . . وكان باين أن فيه حاجة تدبر منذ زمن . . والحقيقة أنا فى إحساسى كنت أشعر دائماً من سنتين أن فيه شىء بيدبر ضدنا من أيام قطع المعونة ومن أيام التهديدات اللى وجهتها لنا أمريكا بأن إحنا ما نسلحش جيشنا ولا نكبره ولا نسير فى التطوير الفنى أو التطوير العسكرى . . ولما حشدت القوات فى تقديرى كان احتمال الحرب بالنسبة لى ٢٠ فى المية .

اجتماعات اللجنة التنفيذية العليا :

وقبل غلق خليج العقبة عملنا اجتماع للجنة التنفيذية العليا كان أول اجتماع عندى فى البيت وبحثنا موضوع غلق خليج العقبة . . الاجتماع ده كان يوم ٢٢ مايو وقلت لهم فى هذا الاجتماع إن احتمالات الحرب ٥٠ فى المية وفى اجتماع آخر قلت أن احتمالات الحرب ٨٠ فى ألمية . . واجتمعنا فى اللجنة التنفيذية العليا كلنا . . كان من الواضح إن عملنا عمل دفاعى ، وإننا لن نقوم بالهجوم إلا إذا حصل عدوان على سوريا وإننا نكون على وضع الاستعداد .

فى هذا الاجتماع ما حدش أبداً اتكلم عن الهجوم على إسرائيل ، وماكنش فيه أبداً أى فكرة إن إحنا حانقوم بعمل هجومى على إسرائيل . وزى ما وضحت من الأول اللى كان باين من كل تحليلاتنا أن أى عمل هجومى على إسرائيل حا يعرضنا لمخاطر كبيرة . .

أول هذه المخاطر هجوم أمريكا علينا نظراً للتصريحات اللى أعلنتها أمريكا ،

وقالت فيها إنها تضمن حدود الدول فى هذه المنطقة . . وكان باين لنا إن أمريكا لما بتقول أنها تضمن حدود الدول فى هذه المنطقة ، ولا تسمح بأى تغييرات فى هذه المنطقة ، ماكنتش أمريكا تقصد بهذا أبداً الدول العربية ولكن أمريكا كانت تقصد بهذا ، إسرائيل ، كانت تقصد إنه إذا كان حصل عدوان على إسرائيل أن أمريكا حتنفذ التصريح اللى قاله الرئيس كيندى قبل كده إن أمريكا تضمن جميع الحدود فى هذه المنطقة .

على هذا الأساس ماكنش فيه أبداً أى بحث عن موضوع البدء بالهجوم على إسرائيل . . ولكن عمليتنا كلها فى القيادة المشتركة كانت عملية دفاعية . . وكان حشدنا فى تقديرنا فى هذا الوقت ، هو عملية ردع حتى لا تقوم إسرائيل بالعدوان على سوريا . .

فى يوم ٢٣ مايو ، أعلنا إغلاق خليج العقبة بالنسبة للسفن الإسرائيلية بعد كده بالتغيرات السياسية التى تمت فى إسرائيل فى بداية شهر يونيو ومع متابعتنا لما يجرى هناك أصبح احتمال الحرب ١٠٠ فى الميه . معنى هذا إيه .. معناه إننا ماكناش أبداً مطمئنين لكل العمليات الدبلوماسية والسياسية اللى بتعملها أمريكا وكنا أيضاً ندرك أن فيه شىء يدبر وأن هذا الشىء لن يتأخر .

توقع العدوان فى يوم حدوثه :

يوم الجمعة ٢ يونيو ذهبت بنفسى إلى القيادة العليا للقوات المسلحة وحضرت اجتماع حضره كل المسئولين العسكريين الكبار فى القوات المسلحة وأبديت فى هذا الاجتماع وجهة نظرى قبل ما اسمع شرحهم للموقف ، وقلت فى هذا اجتماع يوم الجمعة ٢ يونيو أنه لا بد لنا أن نتوقع من العدو ضربة فى خلال ٤٨ ساعة إلى ٧٢ ساعة لا تتأخر عنها أبداً . . على أساس ما كانت تشير به دلائل الحوادث والتطورات ، وقلت أيضاً فى هذا الاجتماع إنى أتوقع أن يكون العدوان يوم الاثنين ٥ يونيو وأن الضربة الأولى ستوجه إلى قواتنا الجوية . . وكان موجود فى هذا الاجتماع قائد القوات الجوية . .

معنى هذا إيه . . معناه أن إحنا ماكناش مستهينين بالموقف نتيجة كل العمليات الدبلوماسية والاتصالات ، وإرسال الأمين العام للأمم المتحدة ، وموافقة جونسون

على أن زكريا محي الدين يروح . . ولكن كان من الواضح جداً بأى حسبة سياسية أن إسرائيل لا بد أن تقوم بعمل عسكرى خصوصاً بعد تحرك القوات العراقية وأيضاً بعد ما دخلت الأردن ضمن اتفاقيات الدفاع المشترك .

أنا راضي بأى حكم :

وبعدين المسألة السادسة : بعد ما حدث . إنه من الضرورى أن نسلم بأمانة وكرامة أن المعركة المسلحة لم تسر كما كنا نتوقع . . وكما كنا نتمنى ولقد جاءت مصداقاً للحكمة القائلة . . « لا يغنى حذر من قدر » ، لست أريد الآن أن أتحدث عن الأسباب ولا أرضى لنفسى ولا لهذا الشعب أن نقوم والمعركة ما زالت مستمرة بتوزيع المسئوليات . . هذا موضوع يملكه تاريخ شعبنا ونضاله ، ولكنى أستطيع أن أقول راضياً وبطيب خاطر وبضمير مستعد للحساب فى أى وقت ، أنه مهما كان ويكون ، فإن المسئولية أولا وأخيراً يجب أن تقع علىّ . . وقلت هذا الكلام فى خطابى . ؟ فقد قلت ذلك فى خطابى إلى الأمة يوم ٩ يونيو الماضى ، وأقوله الان وسوف أظل أقوله متحملا لجميع نتائجه راضياً بأى حكم يترتب على ذلك .

ولقد كان هذا دافعى فى حقيقة الأمر إلى قرار التنحى فى ٩ يونيه . . كنت أريد أن يعرف أعداء الشعب المصرى وأعداء الأمة العربية أن المسألة ليست عبد الناصر ولا مطامع عبد الناصر كما يقولون . . إن نضال الشعب المصرى بدأ قبل عبد الناصر وسوف يمضى بعد عبد الناصر ، والأمة العربية سعت إلى وحدتها قبل عبد الناصر وستسعى بعد عبد الناصر . ولقد كنت أقول دائماً وما زلت أقول إننى لست قائد هذا الشعب ، وقصارى ما يمكن أن أتمناه لنفسى من شرف أن أكون تعبيراً عنه فى مرحلة معينة من نضاله المستمر قبل أى فرد وبعد أى فرد .

أمريكا لعبت دوراً فى العدوان :

المسألة السابعة : تتعلق بالدور الأمريكى — الكثير من الدور الذى لعبته أمريكا ما زال غامضاً ، والقليل منه هو الذى نعرفه — حرب سنة ١٩٥٦ أسرارها كلها ما اتعرفتش إلا السنة اللى فاتت ، انتشرت السنة اللى فاتت بعد عشر سنين ، حرب سنة ١٩٦٧ مش هانقدر نعرف أسرارها كلها دلوقت ، ها نعرف أسرارها بعد

سنوات، ولكن أمريكا لعبت دوراً فى هذا العدوان ، الكثير من هذا الدور مازال غامضاً ولكن عرفنا منه بعض حاجات .

فيه أسئلة كثيرة فى اللى عرفناه . . إيه معنى الدور السياسى الدبلوماسى الذى قامت به الولايات المتحدة الأمريكية . . قبل المعركة . . الجوابات وطلب ضبط النفس وتهديدنا بأن أى عمل منا قد يعرض المنطقة كلها لمخاطر . . وعرض إرسال نائب الرئيس الأمريكى إلينا للكلام فى الموضوع ، والموافقة على سفر زكريا محيى الدين إلى واشنطن لمقابلة جونسون للكلام فى الموضوع ، ومحاولة الوصول إلى حل . . كل ده حصل قبل العدوان قبل المعركة ، فالخديعة لحساب مين ؟ . . طبعاً علينا أن نتساءل . . طبعاً خديعة لحساب العدوان الإسرائيلى الاستعمارى . . الخديعة لحساب خطة أمريكية وضعت ودبرت لنا ، بأقول من سنتين الغرض منها القضاء على الأنظمة الثورية الحرة اللى ما بتسمعش كلام الدول الكبرى ، واللى ما ترضاش تقعد فى مناطق النفوذ . . إيه معنى الدور اللى قام به الأسطول السادس فى الأيام القليلة السابقة للمعركة قرب شواطئنا وقرب حدودنا ؟ . . إيه هى الأسلحة اللى شحنت لإسرائيل فى فترة ما بين الأزمة إلى يوم العدوان ؟ إيه عدد الطيارات اللى وصلتها ؟ إيه هو عدد المتطوعين من الطيارين ؟ ما هو التفسير لقوة الطيران الضخمة التى عمل بها العدو على الجبهات العربية جميعاً ؟ — كانوا يهاجمونا فى مصر ويهاجموا الأردن وفى نفس الوقت يهاجموا سوريا وفى نفس الوقت يبعثوا طيارات تهاجم مطارات العراق .

٤٠٠ طائرة تهاجم الأردن :

ليلة ٧ يونيو اتصل بى الملك حسين بالتليفون الصبح قرب الفجر ، وقال لى إن فيه ٤٠٠ طيارة بتهاجم فى الجبهة الأردنية ، وأن أجهزة الرادار اللى عنده تبين هذا العدد الكبير من الطيارات — منين جاءت هذه الطيارات ؟ ؟ — ما هو التفسير لدور باخرة التجسس الأمريكية ليبرتى ؟ . كلكم قرأتم فى الجرايد إن كان فيه قرب مياهنا الإقليمية ، أو حتى داخل مياهنا الإقليمية مركب أمريكى اسمها ليبرتى ، وأن الإسرائيليين افتكروها مركب مصرى وبعتوا لها قوارب طوربيد ضربتها وقتل فى هذا الهجوم ٣٤ ضابطاً وبحار من رجال الباخرة الأمريكية ليبرتى . . لحساب مين

المركب دى كانت بتشتغل بما عليها من الأجهزة العلمية . اتقال إن المركب دى بتحل شفرات العمليات ، واتقال إنها بتتبعت لأمريكا ، واتقال إنها بعد كده بتتبعت لإسرائيل . . طبعاً الإرسال باللاسلكى عملية سريعة أو بتتبعت لسفارات أمريكية فى المنطقة — طب وإيه اللى كان حصل لو كانت قوارب الطوربيد بتاعتنا هى اللى ضربت الباخرة الأمريكية ليبرتى ؟ . . كانوا عملوا إيه الأمريكان . لما ضربوهم الإسرائيلين لملوا أنفسهم وغطوا الحكاية ، وطلعوا على مالطة علشان يصلحوا المركب - لو كنا احنا اللى ضربنا المركب الأمريكانى فالأمريكان كانوا ادونا انذار ، لأن احنا مش مستعمرة أمريكية ولا راس جسر للاستعمار — ولا داخل مناطق النفوذ الأمريكى .

طائرات أمريكية فوق جبهتنا :

هناك سؤال آخر ليه كانت هناك طائرات أمريكية فوق جبهتنا ؟.. يوم الأربعاء ٧ يونيو شوهدت طائرتان بالعلامات الأمريكية فوق خطوطنا — فى أول الأمر لم أصدق ، ولكن المعلومات كانت مؤكدة بعدين أذعنا بيان ، وقلنا إن فيه طيارات أمريكية طارت فوق خطوطنا وفوق الجبهة وقلنا ان احنا بنعتقد بهذا أن الأمريكان مشتركين فى العملية — وقلنا على الطيارات اللى كانت بتهاجم الأردن ، وقلنا إن هناك هجوم بالطيران غير إسرائيلى على الأردن — وأذعنا بيان وذكرنا فى البيان تفاصيل الطائرتين اللى شفناهم مارين . . بالليل جاءتنى رسالة من الرئيس جونسون .. اتصل هو بالرئيس السوفيتى ، وطلب منه انهم يبعتوا لنا رسالة لأن احنا ماكانش لنا علاقات فى هذا الوقت معاه ، وقال إن حقيق كان فيه طيارتين أمريكانى فوق خطوطنا ولكن الطيارتين دول كانوا رايحين لنجدة الباخرة ليبرتى باخرة التجسس .

السؤال الأول هل كانت هناك طائرات أمريكية أخرى ؟ — السؤال الثانى هل كان ممكن يعترفوا لو ماكناش أذعنا البيان — أسئلة الحقيقة الواحد بيسألها لنفسه بالنسبة للحاجات اللى يعرفها .

ما هو تفسير الموقف الأمريكى فى الأمم المتحدة وبعد انتهاء العملية ؟؟ إيه الموقف الأمريكى فى الأمم المتحدة وبعد انتهاء العملية ؟ . . الموقف الأمريكى فى الأمم المتحدة وبعد انتهاء العمليات يتبنى كلية وجهة نظر إسرائيل . . الموقف الأمريكى فى الأمم المتحدة معناه استسلام العرب بلا قيد ولا شرط — ده الموقف الأمريكى فى الأمم المتحدة بعد انتهاء العمليات . . . يعنى إيه هذا الموقف ؟

فارق مخيف بين موقفين أمريكيين :

فيه فارق مخيف بين موقفين أمريكيين موقف سنة ١٩٥٦ حين فوجئت أمريكا بالعدوان الثلاثي ضدنا ، وموقف سنة ١٩٦٧ حين لم تفاجأ — أمريكا سنة ١٩٥٦ فوجئت بالعدوان الثلاثي ضدنا — أمريكا سنة ٦٧ رغم الرسائل ورغم الموافقة على إرسال زكريا محي الدين ، ثم نفاجأ بالعدوان الإسرائيلي ضدنا .. حين فوجئت أمريكا وقفت موقفاً حازماً من العدوان وطالبت بوقف وبانسحاب القوات المعتدية — وحين لم تفاجأ أمريكا كانت مع العدوان وأيدت العدوان وضغطت على كل دولة تملك عليها أي نوع من التأثير ، حتى كانت النتيجة ما رأيناه من فشل الجمعية العامة للأمم المتحدة . . من الأكيد أن أمريكا لم تفاجأ ، والقصص ابتدت تنقال والصحف الأمريكية هذه الأيام مليانة بأنباء تقول إن الموضوع كان مثار مناقشات على أعلى المستويات فى أمريكا — اتقال فى الصحف الأمريكية واتقال فى مقال فى مجلة لايف الأمريكية أن إسرائيل عرضت على الرئيس الأمريكى رأيها فى أن تقوم بالهجوم ، وقالت إنها تشعر بالتفوق ، واتقال أيضاً فى الصحف الأمريكية إن الرئيس الأمريكى أخذ رأى رئيس الأركان الأمريكى ، وأخذ رأى رئيس المخابرات الأمريكى ، وأنهم وافقوا وبهذا صرح لإسرائيل وسمح لإسرائيل أنها تقوم بالهجوم وتقوم بالعدوان — فى نفس الوقت أخذت إسرائيل ضمانات من أمريكا بأن إذا العرب دخلوا إسرائيل يتصدى لهم الأسطول السادس .. إذا إسرائيل هاجمت البلاد العربية أمريكا ستساند إسرائيل — نشر هذا الكلام فى الجرايد ونشر هذا الكلام فى الصحف . . وأشكول رئيس وزراء إسرائيل قال أنه يشكر الرئيس الأمريكى ، الذى قال له إن الأسطول السادس موجود علشانكم وموجود علشان يساعدكم ، وأن رده عليه بدلال على الرئيس الأمريكى . وقال له إننى أخاف فى الوقت إللى إحنا قد نكون فيه معرضين للخطر تكون مشغول بمشاكل فيتنام أو تكون فى أجازة نهاية الأسبوع فى المزرعة بتاعتك فى تكساس . . ولكن الرئيس الأمريكى أكد له وطمأنه على أن الأسطول السادس هايحميهم إذا دخل العرب داخل الحدود الإسرائيلية — المقالات دى ، الكلام ده كله طلع فى الجرايد .. الحكايات دى كلها طلعت فى الصحف . إذن أمريكا لم تفاجأ بالعدوان . إذن كان هناك تواطؤ بين أمريكا وإسرائيل .

أمريكا تواطأت :

دى كلها الحقيقة موضوعات الواحد يسأل نفسه فيها قطعاً مفيش جواب مقنع إلا أن أمريكا تواطأت مع إسرائيل وأمريكا إللى أعلنت قبل الحرب أنها متمسكة بالتصريح اللى يضمن الحدود فى كل هذه المنطقة لم تكن تعنى بهذا الحدود العربية .. ولكنها كانت تعنى بهذا حدود إسرائيل .. وأمريكا ضمنت إسرائيل على حدودها .. ولكن أباحت لإسرائيل أن تنتهك حرمة الأراضى العربية . وأمريكا طلبت مننا إن إحنا نضبط نفسنا وإن إحنا ندى فرصـــة للتنفس وفى نفس الوقت سمحت لإسرائيل بالعدوان .

أنا قلت قبل بدء القتال نحن لانريد أن نكون فى حرب مع أمريكا ، فيه بعض الناس يمكن أخذوا فى مؤتمرى الصحفى إللى قلته قبل المعركة ، قبل القتال ، إنى كررت أكثر من مرة أن أمريكا أقوى وأغنى دولة فى العالم ، هذا أمر صحيح لايجدى إنكاره .

التصميم على الحرية :

المواقف السياسية لايمكن أن تبنى على الأوهام أوعلى خداع النفس ، وإنما تبنى على الحقائق . . وحين أقول أننا لانريد ولانقدر على حرب مع أمريكا فأنا مش شايف أن فى هذا عيب ولا فيه ضرر . . لانريد ولا نقـــدر أن نحارب أمريكا ، ولكن ذلك لايمكن أن ينزع منا تصميمنا على الحرية ، ولا يمكن أن ينزع إرادة الثورة فينا ، ولا يمكن أن ينزع آمالنا فى مستقبل نبنيه وفق مشيئتنا ومصالح شعبنا مهما كانت الظروف ومهما كانت الضغوط ومهما بلغت أمريكا فى طغيانها ضـــد حركة التحرر الوطنى والثورة الوطنية .

التهديد بعد رفض التفتيش :

من سنتين قابلنى وكيل الخارجية الأمريكية ومعاه رسالة من جونسون وقاللى بما أنكم ما قبلتوش الحاجات اللى إحنا طلبناها منكم قبل كده ، حق التفتيش ، وأنا قلت لكم القصة دى قبل كده ، كانوا طلبوا حق التفتيش عندنا بالنسبة للأعمال الذرية وحق التفتيش بالنسبة للصواريخ وتحديد الجيش المصرى بحد معين . واحنا كنا رفضنا هذا ، وقلنا لايحق لأمريكا أن يكون لها حق التفتيش . جالى تلبوت وكيل وزارة

الخارجية الأمريكية وقاللى بما أنكم رفضتم هذا، فاحناشايفين أننا فى حل ندى إسرائيل ما طلبته من السلاح ، وإنكم إذا شهرتوا بينا ، واتكلمتوا ، إن إحنا بندى إسرائيل سلاح وحنديها سلاح أكثر ، فأنا قلت له وإنتوا إذا اديتوا إسرائيل سلاح احنا أيضاً حنشترى سلاح ولا يمكن إن إحنا نترك العملية بهذا الشكل .

فى الوقت ده قرروا يدوا إسرائيل أعداداً من الدبابات وأعداداً من الطيارات يمكن أعلنوا همه فى الأعداد اللى أعلنوها شىء ، والشىء اللى إدوه لإسرائيل شىء آخر.

ده كان تهديد من أمريكا وكان تهديد واضح ، إنهم حيدوا إسرائيل ويساعدوا إسرائيل ويعاونوا إسرائيل ، إذا لم نقبل نحن حق التفتيش ، ونقبل طلباتهم فى تحديد الجيش المصرى ، بعدد معين وسلاح معين .

الحـــديث الثانى

الحديث الثانى عن الحرب :

وفى ٢٣ نوفمبر سنة ١٩٦٧ تحدث الرئيس جمال عبد الناصر عن الحرب للمرة الثانية فقال :

الشعور بالصدمة :

فى يوم ٨ قررت التنحى لسبب واضح وهو المسئولية ، وأنا كنت أعتقد أنه لن يكون هناك رد فعل لخطاب التنحى ، لأن أنا كنت أشعر بالصدمة وكنت أشعر أن كل واحد فيكم ، وكل واحد من أبناء هذا الوطن يشعر بالصدمة ، وكان لابد أن يكون هناك مسئول عما حدث ، ولابد أن يكون هناك مسئول يتحمل مسئولية الآمال والوعود ، والتطلعات الكبيرة إلى كانت بتتقال واللى كنا بنحس بيها كلنا . . وكنت أعتقد أن الشعب بعد ما هزمت قواته هزيمة عسكرية سريعة بهذا الشـــكل سيفقد الأمل إلى حد كبير فى قدرتنا على الصمود وعلى المقاومة . . . وكنت اعتقد نتيجة لهذا أن الشعب سيرحب بالحلول السلمية،سواء مع الولايات المتحدة الأمريكية أو مع الدول الغربية المعادية لنا ، فكنت أعتقد أن الشعب سيرى فى جمال عبد الناصر عقبة ضد هذا . . وعلى هذا الأساس يوم ٨ بالليل قررت هذا القرار ، ويوم ٩ أعلن هذا القرار فى حديثى إليكم . . وكانت ثقة الواحد إتهزت تقريباً فى كل شىء ، زى

ما قلت لكم لم أكن أتصور رد فعل لا بالشكل الذى حصل ولا أقل من اللى حصل لأنى كنت باعتبر أن الهزيمة والصدمة تكون أثرت فينا كلنا إلى درجة الانهيار . . كنت غلطان يمكن فى هذا الاعتقاد . . وأعتقد أيضاً أن أعداءنا كلهم كانوا متوقعين أن ننهار تحت وطأة الصدمة ، فى هذا الوقت اللى كان أعداؤنا فيه معتقدين إن إحنا سننهار تحت وطأة الصدمة . . خرج الشعب ليؤكد قوة إرادته ، وأن هذه الإرادة لا تقهر ، وأنه لايكفى لقهرها أى خسارة فى المعدات أو فى الأرض . .

لم يكن عندنا دفاع :

بدى أقول لكم يوم ٩ و ١٠ يوم الناس ما خرجت فى الشـــوارع بالآلاف أو بالملايين ما كنش عندنا دفاع عن الضفة الغربية لقنال السويس ، النهاردة الظروف اختلفت وباقدر أقول هذا الكلام . . كان العدو موجود فى الضفة الشرقية للسويس وكان الطريق اللى بين السويس والقاهرة مفيش فيه ولا عسكرى . .

كانت الطريق إلى القاهرة مفتوحة دون أدنى مقاومة ، نتيجة الشلل الكامل اللى حصـــل فى قواتنا المسلحة . . فى بور فؤاد كانت المقاومة الشعبية هى إللى احتلت بور فؤاد ، فى بورسعيد كانت المقاومة الشعبية هى اللى احتلت بور سعيد . .

زكريا تولى المسئولية :

فى الحقيقة كان بدى أقول إن زكريا محي الدين باعتباره قائد المقاومة الشعبية تولى المسئولية يوم ٨ يونيه بالليل ، حوالى الساعة عشرة بعد الحال الذى وصلت إليه قواتنا نتيجة المعارك إلى حصلت إبتداء من يوم ٥ وبرغم هذه الظروف ، وبرغم الحالة إللى كنا وصلنا إليها ، وأعتقد أن الشعب كان يعلم إيه هى الحالة اللى وصلنا إليها لأن بلاغاتنا كانت واضحة . . بل البلاغ إللى طلع يوم ٩ الصبح عن تحرك العدو وعبوره قنال السويس إلى غرب القنال فى بعض المناطق كان يبين الحالة إللى وصلنا إليها فى هذا اليوم . .

فعلا . . كل واحد كان يبص لحالتنا مكانش من الصعب عليه أن يشعر أو يحس أننا وصلنا إلى حالة انهيار كاملة ، ولكن خروج الشعب لتأكيـــد قوة إرادته

ولتأكيد أن هذه الإرادة لا تقهر وأن هذه الإرادة لا يكفى لقهرها خسارة معركة عسكرية أو خسارة نسبة من المعدات ، أو خسارة جزء من الأرض ، خرج الشعب وأكد هذا . .

تغـــيير الموقف :

بتأكيد الإرادة الشعبية تغير الموقف . . تغير الموقف كلية . . تغير الموقف كلية بدون أن يطرأ عليه أى تغيير جديد عادى ، بتأكيد الإرادة الشعبية أصبح الموقف البالغ السوء ، أصبح على الفور وليس فى ذلك أدنى قدر من المبالغة ، أقل سوءاً . . وبالتحقق اليومى من صلابة هذه الإراده الشعبية ، أصبح الموقف قابلا للتحسن وأصبح قابلا للتحول ، وذلك ما نستطيع أن نلمسه الآن ، وقد مرت بعد النكسة ، شهور أصبح بعدها ممكناً للتراكمات الكيفية أن تحدث أثراً كمياً نستطيع أن نضعه فى الحساب ، هذا التغيير الذى أحدثته الإرادة الشعبية بدأ فى يوم كانت الحقائق المادية وحدها من الناحية العسكرية — وهى التعبير الظاهر للصراع المسلح — تقول بأننا خسرنا ما يقرب من ٨٠ ٪ من معداتنا الحربية فى معارك الأيام الستة ، كما أن قواتنا كانت بتأثير الصدمة مبعثرة وشبه تائهة . وكان معنى ذلك فى هذا الوقت أننا لم نعد قادرين لا على الهجوم ولا على الدفاع .

أصبحت قواتنا قادرة :

واليوم إذا أخذنا نفس القاعدة وأجرينا على أساسها الحساب لمجرد القياس فإننا نستطيع أن نقول باطمئنان إن قواتنا المســلحة قد استعادت جزءاً لا يستهان به من قوتها الحربية . كما أنها الآن تقف على جبهة قوية تقدر فيها على العمل المؤثر والفعال . ولست أريد الآن أن أخوض فى أية تفصيلات عسكرية تفيد العدو ولا تفيدنا .

ولكننى أكتفى بالقول بأن المقدرة الحقيقية لقواتنا المسلحة الآن تفوق مقدرتها الحقيقية قبل بدء المعارك . وذلك تغيير ضخم وهائل لم نكن نحلم بالوصول إليه فى هذا المدى القصير من الزمن .

خطوات التغيير :

الذى أحدث هذا التغيير الضخم أو الذى أتاح له أن يحدث ، هو الإرادة الشعبية التى تمركزت فى جبهة الصمود ، هذه هى الحقيقة التى سمحت لخطوات العمل الوطنى أن تتقدم ، وأن تتحرك ، وأن تحدث التغييرات المادية اللازمة والضرورية ، وقد رفضت رفضاً كاملا أن تخضع أو تلين . .

إن خطوات التغيير تلاحقت . وكان بعضها فى تلاحقه يبدو وكأنه غير مرئى ولكن ونحن نستعرض الآن ما حدث ، ونعبر عنه بنظرة شاملة ، فإننا نستطيع أن نرى وأن نربط الخطوات ببعضها . نستعرض معاً :

أولا : أول حاجة ، مواجهة الحقيقة فى النكسة والمقدرة على استيعاب هذه الحقيقة ، والمقدرة على تماسك النفس ، واستبقاء الإيمان ، بالقدرة على تجاوزها .

ده أول تغيير حل بيننا بعد الهزيمة والنكسة .

كانت انجلترا فى الحرب العالمية الثانية مهزومة فى دنكرك ، وسحبت قواتها من دنكرك ، ورجعتها ما قلتش أنها نكسة ، ولكن اعتبروا العملية عملية أساسية لرفع المعنويات . . وصمموا على القتال وقال القادة إن احنا ما عندناش غير العرق والدموع . . . ما سموش هذه الهزيمة نكسة . . إشمعنى احنا اللى سميناها نكسة !! . .

إحنا سميناها نكسة . . وأنا قبل ما أكتب النقط الخاصة بهذا الخطاب كنت باراجع جوابات جت لى فى آخر وقت . . فيه واحد بيقول إحنا ليه سمينا اللى حصل نكسة ، ما انجلترا فى الحرب العالمية الثانية طلعت مهزومة فى دانكرك وسحبت قواتها من دانكرك ورجعت ما قلتش إنها نكسة . . ولكن اعتبروا العملية أساسية لرفع المعنويات وصمموا على القتال وقال القادة هناك إن احنا ما عندناش غير العرق والدموع . . ما سموش هذه الهزيمة نكسة .

واشمعنى احنا اللى سميناها نكسة .

الحقيقة الراجل إللى كتب الجواب ده ليه حق . . ليه إحنا سميناها نكسة ؟ . . بقول إن احنا سميناها نكسة . . يمكن أنا أول واحد قال هذا التعبير . . نتيجة

لما كنا نشعر بيه فى هذا الوقت يوم ٨ ويوم ٩ يونية .. الحقيقة أنا أيضاً كنت أشعر إن احنا حصلت لنا مصيبة كبيرة . وحالنا زى حال الراجـــل اللى طلع فى الشارع خبطته عربية .. خبطه ترماى .. أصبح عاجز عن أنه يتحرك .. إترمى على الأرض . . . مش عارف يعمل إيه .. الحقيقة ده كان حالنا يوم ٨ وكان حالنا يوم ٩ ولـكن حصل تغيير كبير قوى بعد ٨ وبعد ٩ ..

والسبب فى هذا التغيير ، الصمود .. لولا الصمود اللى وقفه هذا الشعب . . والشعب العربى أيضاً فى كل بلد عربى .. مكنش ممكن إن احنا نقف على رجلينا . . مكنش ممـكن إن احنا نعلن للعالم كله إن احنا رغم فقداننا قطعة من الأرض . . ورغم فقداننا لمعركة عسكرية .. لم نفقد إرادتنا .. ولم نستسلم فى إرادتنا .

. . بعد هذا ، خطوات التغيير تلاحقت بسرعة وأهم حاجة هى قدرة هذا الشعب بالتاريخ الطويل فى النضال أنه يواجه الحقيقة .. من أول يوم واجـــه الحقيقة . . واستطاع أن يستوعب هذه الحقيقة ولم ينهار .. بل تمالك نفسه .. وآمن بنفسه . . آمن بقدرته على أنه يستطيع أن يتجاوز هذه الهزيمة وأن يتجاوز هذه النـكسة . . ما هو معنى إن احنا نفقـد ٨٠٪ من معداتنا .. ونحن ما زلنا نواجه العدو ، والعدو ما زال يحتل أرضنا . .

. . ما هو معنى إن احنا نفقد العدد الـكبير من القتلى ؟ ؟ . .

العدد الـكبير من القتلى عشرة آلاف جندى قتلى و ١٥٠٠ ضابط قتلى فى هذه المعارك من يوم ٥ إن يوم ٨ ، غير الأسرى ٥ آلاف جندى أسير ، ٥٠٠ ضـابط أسرى .. فقدنا أيضا جـــزء كبير من أبناء قواتنا المسلحة وفقدنا عدد كبير من أولادنا ، الضباط والعساكر ، إللى ماتوا فى ميدان القتال . .

نحن بعد هذا .. بعد يوم ٨ كنا مكشوفين زى ما قلت لـكم قدام العدو جبهة القتال مكشوفة .. والمدن أيضاً مكشوفة .. زى ما قلت لـكم ما كانش عندنا خط دفاعى غرب القنال والمدن مكشوفة ما كانش عندنا طيارات خالص علشان نجابه بيها طيران العدو إذا أراد أن يعتدى على مدننا .. رغم الـكارثة إللى حصلت بالطيران يوم ٥ ، فإن ضباطنا الطيارين رغم تفوق العدو طلعوا بالطيارات اللى فضلت

وكانت المعركة بالنسبة لهم معركة إنتحارية جابهوا طيارات العدو ، وأسقطوا من طيارات العدو . . وإحنا فقدنا فى هذه الفترة أربعين ضابط طيار ما بين قتيل ومفقود . ناس أدوا الواجب على قد القدرة إللى كانت موجودة فى أيدين قيادتهم . . قيادة الطيران لم تقدر الموقف تقدير صحيح ، وتسببت فى الكارثة اللى حصلت الطيران صباح يوم ٥ ، وبالتالى تسببت فى أن تنتهى المعركة بالطريقة إللى انتهت بيها .

إستطعنا إن إحنا نواجه الحقيقة رغم كل إللى حصل لنا . . إستطعنا أن نواجه الحقيقة بعد هذا بأيام . .

صممنا على أن نقاتل :

طبعاً من أول يوم بدأنا نلم نفسنا . . ننظم دفاعنا وصممنا على أن نقاتل من شبر إلى شبر . . وحينما أراد العدو أن يتقدم إلى بور فؤاد فى أواخر شهر يونيو لم نتركه فى معركة رأس العش واشتبكنا معاه . . تصدت قواتنا المسلحة ليه . . قبلنا بالمخاطرة ، والطيران فى هذا الوقت ما كنش استعاد وضعه الطبيعى ، والعدو كان قادر على إحداث إنتصار ، ولكنا قبلنا المخاطرة ، وده يبين التغيير إللى حصل فى هذه الأيام . . أن نتبين هذا من غير خديعة النفس . .

الخديعة للنفس فى ذلك الوقت كان يمكن أن تصبح كارثة كاملة لا أمل بعدها . . لم نخدع أنفسنا وإحنا لم نخدع . . . لم نخدع الشعب ولم نخدعكم . .

إن إحنا نستوعب هذا كله ، والمشاعر إللى تتفرع من كل الأمور إللى بأكلمكم عليها ، إن إحنا نقدر نفوق من الصدمة ونفوق من الجهد النفسى ، والجهد النفسى اللازم ، لكى نفيق بعد أن كان الواحد يشعر أنه عايش فى كابوس ولا يصدق أن ما حدث قد حدث . .

* * *

إلى هنا انتهى الحديث الذى عرض لحرب ١٩٦٧ بتفاصيلها السياسية والعسكرية .

الهجوم الجوى

ثمت مصدر، يستحق الإشارة إليه، وهو كتاب رندولف تشرشل — حرب الأيام الستة — الذى نشر على حلقات فى جريدة الصنداى تلغراف البريطانية.

ويعد هذا الكتاب عن حرب يونيو ١٩٦٧ أوسع الكتب شهرة، فقد عنى اليهود باستغلال اسم مؤلفه، وهو ابن ونستون تشرشل بطل الإنجليز المعروف.. وقد استدعاه اليهود إلى إسرائيل، واشتركوا معه فى تأليف كتابه، بإمداده بالبيانات التى تصلح لتصديرها إلى العالم، وتضمنت معلومات قليلة صحيحة، ومعها إضافات مضللة يقصد بها التمويه والتعمية، والدعاية ضد مصر، ثم عمدوا إلى نشر هذا الكتاب على أوسع نطاق، ولا سيما فى آسيا وأفريقيا.

ولعل أخبث ما ورد فى هذا الكتاب الأسلوب الذى صور به الهجوم اليهودى الجوى على مصر. ومن الواجب أن نفضح ما تضمنه من خبث وخديعة:

التمويه الأول

يركز اليهود طائراتهم، فى مطارات اختاروها بعناية فى المنطقة الشمالية من إسرائيل، كما مدوا العديد من الطرق البرية المحفوفة بفروع الشجر التى تصلح لطلوع ونزول الطائرات، واستعداداً للحرب، وتوقياً من المفاجآت فإنهم أخرجوا هذه الطائرات من مخابئها، ووضعوها على امتدادات كبيرة فى هذه الطرق، بحيث يصعب أن تصور جوياً، وإن كانت الأقمار الصناعية تستطيع التصوير لارتفاع مدارها عن سطح الأرض، وتزويدها بعدسات التقاط لا توجد حتى فى طائرات التجسس المعروفة.

وهناك سببان حملا اليهود على تركيز طائراتهم فى هذه المنطقة الشمالية، وهو أن تكون على بعد لا يسمح للمقاتلات المصرية أن تطولها من قواعدها الرئيسية، إذ أن مدى الطيران لكل طراز من الطائرات معروف، ومذاع دولياً.

وكان يمكن أن تكون الطائرات الإسرائيلية فى متناول الطيران المصرى مهما بعد مكان إيوائها ، أو موه ، لو أن المطارات العربية كانت متاحة لطائراتنا .

ويبدو أن المخابرات الأمريكية واليهودية ، كانت على علم تام بهذا الموقف ، فقد أكد « مردخاى هود » قائد الطيران اليهودى ، أن إسرائيل لن تضرب من مطارات فى الشمال ، أو فى الشرق ، وأعطى تعهداً لمجلس وزرائه بهذا المعنى ، وكان وزراء إسرائيل يملؤهم خوف قاتل من إمكان تعرض منطقة تل أبيب وحيفا وما يليها شرقاً للقصف الجوى ، وفيها ثلثا سكان ومرافق إسرائيل ، وفيها مطاراتهم .

وعلى ذكر هذه المطارات ، نقول إن الإنجليز - فى فترة الحرب العالمية الثانية - أنشأوا اثنى عشر مطاراً غائرة تحت المناطق الجبلية ، حتى لا تتعرض للغارات الجوية الألمانية . . وعند جلائهم فى ١٥ مايو سنة ١٩٤٨ . سلموا هذه المطارات ، بكافة معداتها لليهود .

وكان هناك استعداد فنى استغرق مدة طويلة ، نفذته أداة الحرب الإسرائيلية مع أجهزة المخابرات الأمريكية ، وقد تناول هذا الاستعداد أربع نقط حيوية هى : التدريب ، والمدد الخارجى ، ونوع السلاح ، وقدرة الطائرات ومداها .

التــدريب

لقد درس اليهود المواقع المصرية كما أولوا اهتماماً خاصاً للطيران الليلى ، والطيران المنخفض ، فى حالة المرور العابر ، وفى حالة القذف الجوى .

وبلغ من شدة اهتمامهم بهذه التدريبات ، وباتفاق مع المخابرات الأمريكية على إرسال حوالى ١٥٠٠ (ألف وخمسمائة) طيار وفنى إلى فيتنام ، يلبسون الملابس الأمريكية ، لكى يقوموا بتدريبات عملية على أرض الفيتناميين ، وأملاكهم ، وأرواحهم . وربما كان منهم أمريكيون غير يهود تعاقدوا معهم على العمل عنـــد اللزوم . وقد وقعوا مع هذه الفئة المختارة عقوداً لمدة عامين أجر الشخص فيهـا عن مدة التعاقد ٧٠ ألف دولار [وقد أيدت دراسة بمجلة « دير شبيجل » الألمانية الغربية هذه الواقعة] .

وعندما سافر موشى ديان إلى فيتنام ، فى عام ١٩٦٦ ، ولم يكن يشغل منصباً رسمياً ، قيل وقتها إنه سافر لدراسة حرب العصابات ، على الطبيعة . والواقع أنه سافر للتأكد من سير هذه التدريبات على كافة الظروف والاحتمالات .

وهذه الرحلة بالذات ، تعد دليلا — لمن كان فى حاجة إلى دليل — على أن حرب يونيو ، كانت تحت الإعداد التنفيذى من عامين سابقين قبل الهجوم ، بل من أعوام أكثر ، من الإعداد والاختبار ، والدراسة ، وجمع المعلومات . .

يروى القائد اليهودى « هود » إنه أنفق ١٦ عاماً فى الإعداد لخطة الهجوم الجوى ، وظل خبراء الحرب معه ينامون ويستيقظون ويتغذون بهذه الخطة .

وقد تناول التدريب والإعداد ، القسم الميكانيكى من العملية ، مثل أسرع الوسائل لإصلاح الطائرات المعطوبة أو المصابة ، وأقصر وقت يمكن أن تستغرقه الطائرة ، فى شحنها بالوقود والذخيرة ، وإعدادها للتحليق . .

وقد بالغ اليهود كثيراً فى ذكر ما توصلوا إليه فى هذا المجال ، حتى بدا كلامهم غير عملى على الإطلاق ، مثل قولهم إن الطائرة يمكن أن تزود بالوقود ، والذخيرة ، فى سبع دقائق ونصف ، وإنها تستطيع تكرار هذه العملية ثمانى مرات فى اليوم لنفس الطيارين بعد أن يحققوا أغراضهم من الهجوم على مراكز العدو . وهذا طبعاً أسلوب صغير من المفاخرة ، يحمل معه دلائل سخفه . أو وسيلة من وسائل التضليل والحرب النفسية التى يقصد بها اعطاء مستوى لا يستطاع تحقيقه لمنافسيهم . . والعيب الوحيد فى هذه البيانات أنها غير صحيحة .

المدد الخارجى

ذكر الرئيس جمال عبد الناصر فى بياناته عن هذه الحرب أن عدد الطائرات الإسرائيلية ، التى شاركت فى هذه الحرب الأخيرة ، يفوق ثلاث مرات قدرة المطارات والمهابط الإسرائيلية على الاستيعاب .

ويعزز هذا البيان أن الطائرات اليهودية كانت تعمل فى أربع جبهات ، وقد تعرضت الأردن لهجوم قدره العسكريون فيها بـ ٤٠٠ طائرة كما ضربت مطار الحبانية فى العراق ، وضرب مطاران فى سوريا ، وهما الضمير والمزة . وضرب مطارا عمان والمفرق فى الأردن . وهذا غير المطارات المصرية الممتدة على رقعة واسعة من الأرض من شواطىء البحر المتوسط حتى الأقصر [٣٢ مطاراً عربياً فى المنطقة المحيطة باسرائيل] .

وكان الفرض المحتمل ، هو أن حاملة الطائرات الأمريكية فى البحر الأحمر كانت مطاراً قريباً للهجوم الشرقى ، وذلك بعد أن أثبتت الدراسات أن قوة اليهود الجوية فى هذه الحرب قدرت بـ ٤٠٠ طائرة .

وهناك دراسات ، ومعلومات هامة ، عن هذه النقطة ، تسربت إلى بعض المجلات العسكرية ، ومجلات الطيران بصفة خاصة .

ففى عدد ٢٢ يوليو سنة ١٩٦٧ من مجلة « إير — كوزموس » الفرنسية إشارة صريحة إلى أن معونة للطيران الإسرائيلى قامت من مطارات تركية ، ومعلوم طبعاً أن الولايات المتحدة قواعد فى الأراضى التركية لا تخضع للرقابة المحلية ، ومن المستبعد أن تكون الحكومة التركية على علم بما تم ، لأن موقفها بعد ذلك فى هيئة الأمم كان موقف استنكار صريح للعدوان الإسرائيلى على البلدان العربية . . كما أن المجلة الفنية التى نشرت هذا النبأ هى مجلة فرنسية وفرنسا جهة حياد فى هذا النزاع .

وعلى كل حال فإن هذا الاحتمال موضع دراسة ، ولاسيما أن معركتنا مع إسرائيل مستمرة ، ومن الضرورى توضيح كل غموض فى هذه المسألة .

وفيما يلى صورة فوتوغرافية لما نشرته المجلة الفرنسية :

Les indices

Il y a eu unanimité pour admettre que les préparatifs israéliens étaient détectables au moins 24 heures avant l'attaque du 5 juin à 9 h 15. Ils l'on été par d'autres pays. Le repli des Américains de Jordanie était un indice de première valeur. L'USAF avait mis à la disposition de l'aviation jordanienne un détachement d'une centaine de pilotes et spécialistes et quelques avions pour l'entraînement sur F-104. Le départ précipité d'un contingent aussi important par des avions venant de Turquie ne pouvait passer inaperçu. Dans le cas fort improbable où ce trafic aurait pu échapper aux moyens de surveillance de l'espace aérien, les services de renseignements installés en territoire jordanien n'auraient pas manqué de souligner la signification du mouvement

قبرص .. ومطار ليماسول

وهناك منطقة أخرى خارج إسرائيل ، كانت مدداً لهم فى الطائرات ، وهى القواعد البريطانية فى جزيرة قبرص ..

يوجد فى جنوب قبرص ميناؤها الرئيسى ، وهو « ليماسول » وقد سلمت حكومة قبرص مساحة كبيرة من الأرض المجاورة للمدينة للإنجليز، لتكون قاعدة بحرية وجوية لهم ، بمقتضى اتفاقيات خاصة .

وحتى تتم دراستنا لحرب يونيو ، على الطبيعة كلما أمكن ، فقد قمت بزيارة قبرص مرتين [١] ومررت بقاعدتى « لارنكا » فى الشمال الشرقى للجزيرة ، وقاعدة «ليماسول» فى الجنوب . وشاهدت عن قرب مرافق الميناء البحرى ، وشاهدت عن بعد المطار الذرى الهائل ، الذى يديره الإنجليز هناك ، ويعدمن أكبر المنشئات فى حوض البحر المتوسط .

ووجود هذه القاعدة وأبعادها الضخمة ، هى معلومات متاحة للجميع ، والانجليز لا يمنعون — بمقتضى المعاهدة — أحدا من أهل قبرص من المرور فيها ، وعدد كبير منهم فيها .. وتنفق القاعدة الجنوبية حوالى ١٦ مليون جنيه سنويا .

ولكن مايعنينا هو ما سمعناه من عدد من القبارصة الأصدقاء [ومنهم مناضلون فى حركة أيوكا الوطنية] أنهم راقبوا عددا من الطائرات العسكرية ، ظل فنيون من الانجليز ، يضعون عليها علامات اسرائيلية ، وذلك لمدة اسبوع سابق على ٥ يونيو سنة ١٩٦٧ ، وأن طيارين كانوا يأتون تباعا لاستلام هذ الطائرات وقيادتها .

وبالطبع لم يعرف عدد هذه الطائرات ، ولكنها فى الغالب طائرات فرنسية قادمة من قواعد تابعة الأطلنطى ، وطائرات انجليزية كذلك . أما الطيارون فكانوا معدين سلفا .

وهكذا يمكن أن نضيف جهد الإنجليز عن طريق قاعدة ليماسول ، إلى جهد الأمريكان فى قاعدة أزمير أو غيرها ، فى إعداد وإيواء المدد الجوى الذى ساعد إسرائيل فى هجومها على مصر .

نوع السلاح

أهم الطائرات التى استعملها اليهود أربعة أنواع . ميراج ٣ التى حملت هذه القنبلة « ماترا » وطائرة « الفوتور » ، وهى قاذفة قنابل فرنسية الصنع سرعتها ٦٨٦ ميلا ، ومداها ٢٤٠٠ ميلا .

---

(١) تمت هذه الزيارات فى مارس ونوفمبر سنة ١٩٦٨ .

وكذلك ثلاثة أنواع أخرى بيانها كما يلى :

١ — طائرة « سوبر ميستير » يملكها العدو الإسرائيلى وقد طليت بألوان خاصة للتمويه وتبلغ سرعتها ٧٤٣ ميلا على ارتفاع ٣٦ ألف قدم .

٢ — طائرة « نراتس ١٩ » استعملها الفرنسيون فى هجوم على مصر سنة ١٩٥٦ صالحة لإنزال المظليين ، سرعتها ٢٧٣ ميلا .

٣ — طائرة « ميستير ٤ » سرعتها ٦٦٥ ميلا ، وهى مقاتلة للهجوم الأرضى .

مدى الطائرات

والأشكال الكبير يتركز فى مدى الطائرات ، أى المسافة التى تستطيع أن تقطعها ذهاباً إلى هدفها ، وإياباً إلى قاعدتها .

والمعروف أن الطيران المنخفض الذى لجأت إليه إسرائيل فى عملياتها ضد مصر يستهلك خمسة أمثال الوقود فى الطيران المرتفع ، لأنه طيران بطىء . .

والحكمة فى اختيار الطيران المنخفض هو تفادى شبكات الرادار على السواحل المصرية . وكان من وسائل التضليل التى لجأ إليها مؤلف كتاب حرب الأيام الستة ، أنه ذكر أن الطائرات اليهودية كانت تستطيع الوصول إلى أى هدف مصرى فى أربعين دقيقة . . فكيف يتأتى هذا والطيران المنخفض يخفض السرعة إلى الحد الذى ذكرناه؟!

لقد رقت الحكومة الإسرائيلية « مردخاى هود » إلى درجة لواء ، وتسمى باللغة العبرية رتبة « حالوف » . ولعله استحق أن يكون حالوفا ، لأنه خدع المؤلف تشرشل الإبن ، وغيره من الكتاب ، وواهمهم أنه أتى بالمعجزات الفنية ، وطور علم الطيران . وليس فيما قام به من شىء جديد أو معجز لا يمكن الرد عليه . وكل الجديد ، هو عنصر المفاجأة ، الذى وفره لإسرائيل الرئيس الأمريكى جونسون ومخابراته . . لا أكثر . . أى أن العامل السياسى هو الذى كسب المعركة .

ذكر لنا صديق فاضل كان فى طرابلس الغرب ، عند حدوث الحرب ، وقال أن الأمريكان فى قاعدة هويلس ، كانوا يحسبون ألف حساب للطيران المصرى ، وأن كل المجهود الذى بذله ساسة بلادهم ، هو منع طائراتنا من التحرك فى الوقت المناسب .

وعما قريب سنسترد بالقوة ، ما أخذ منا غدراً وخديعة ، وعندها ستعلم الدنيا كلها أن نسورنا فى الجو ، هم النسور ، وأنهم سادة هذه السماء التى تظلنا . . ولن تنفع وقتها رسائل ولا اتصالات على أى مستوى كان ، ومهما كان مصدرها .

أما وقد أعطينا لمحة عن الجانب اليهودى من الاستعداد للمعركة الجوية ، فمن الواجب أن نقدم بياناً عن السلاح الجوى فى جانبنا ، وفى جانب أصدقائنا الذين يمدوننا بالطائرات ، وعن التطور الكبير الذى وصلت إليه قدرة السوفيات فى إنتاج هذا السلاح ..

وفيما يلى بيان عن سبعة أنواع منها :

١ — قاذفة ثقيلة بعيدة المدى من طراز « مياسيشيف ٢٠٠ » وهى ذات أربعة محركات سوبرسونيك ومصممة ضد القطع البحرية وخاصة الغواصات وقد أطلق عليها إسم « الثور الوحشى » لضخامتها .

٢ — المقاتلة من طراز « ميج ٢٣ » وسرعتها ٣ مرات سرعة الصوت ولها محركان وتستطيع أن تصل إلى ارتفاع ٣٠ كم .

٣ — قاذفة من طراز « سوخوى ٧ » مطورة وذات أجنحة متحركة تفرد وتطوى عند الإقلاع والهبوط ، وسرعتها ضعف سرعة الصوت .

٤ — مقاتلة سوبرسونيك من طراز « ميج ٢١ » موديل « فيشبد — ف » ومزودة بصواريخ إضافية من أسفلها لسرعة الإقلاع .

٥ — قاذفة مقاتلة من طراز « سوخوى ٧ ب » سرعتها مرتان ونصف سرعة الصوت ومزودة بصواريخ إضافية من أسفلها لسرعة الإقلاع .

٦ — قاذفة مقاتلة سوبر سونيك من طراز « ياك ٢٨ ب » ومزودة بصواريخ من الجو إلى الجو التى توجه بالأشعة تحت الحمراء . ومقدمة الطائرة تحتوى على أجهزة رادار للتتبع وإطلاق النيران .

٧ — مقاتلة نفاثة ترتفع عمودياً صممها « ميكويان » وسرعتها تقترب من سرعة الصوت .

ونحن إذ نقدم هذه البيانات المتاحة فى كل صحف العالم ، وقد نشرت جريدة الأهرام لمحررها العلمى بعضها مشكورة ، نشعر أن من واجب وسائل الأعلام ، والمؤلفين أن يعطوا اهتماماً خاصاً لنشر وعى خاص بالطيران بين شبابنا وفى معاهدنا ، وللمواطنين كافة . . . فإن هذا الوعى — ولا شك — جزء هام من كسب المعركة القادمة إن شاء الله .

من أين جاءوا

ذكر الأستاذ هيكل فى جريدة الأهرام أن اليهود نفذوا بطيرانهم المنخفض إلى أراضينا من فوق بحيرة البرلس وهذا صحيح ، إلا أن هناك أكثر من منطقة عبروا منها لكى يصلوا فى وقت واحد إلى الأهداف التى قصدوها .

وقد نشرت جريدة « الصنداى تايمز » فى عدد ١١ يوليو سنة ١٩٦٧ رسماً للهجوم الجوى اليهودى جعلت فيه منطقة العبور إلى الأرض المصرية غرب الأسكندرية قرب سيدى عبد الرحمن . . .

وذكر السيد الرئيس جمال عبد الناصر أننا كنا نتوقع قدوم العدو من الشرق . فإذا هو يجىء من الشمال والغرب أى من وراء مطاراتنا . .

التمويه والتعمية

بذل العدو مجهوداً ضخماً فى عمل طلعات جوية كاذبة من جميع الاتجاهات ، وكان تركيزه فى هذه الغارات الوهمية من النقب إلى خليج السويس . فلما تكررت هذه العمليات، عرف أن المقصود بها إجهاد قواتنا ، حتى تظل فى حالة الاستعداد الأقصى ، طول الوقت ، فيتسرب إليها الملل ، وحتى تفقد تطلعها وتوقعها للجهوم .

وساعد على هذه التعمية ، أنهم بذلوا مجهودات كبيرة ، لعمل ستار كاذب عن حقيقة نواياهم ، حتى تتفق مع البيانات الرسمية الصادرة من وشنطن ، والتى أبلغتها موسكو لمصر ، والصادرة — أيضاً — من كثير من البلاد الصديقة والمحايدة الأخرى .

فمن ذلك مثلا :

١ — اجتمع مجلس الوزراء اليهودى الذى تحدد فيه موعد الهجوم على مصر والبلاد

العربية الأخرى . ونشرت فى صحف إسرائيل بيانات عن الاجتماع ورد فيها أنهم ناقشوا موضوع إصدار سندات جديدة ، وصدقوا على اتفاقية ثقافية مع بلجيكا ، وغير ذلك من الأمور الروتينية .

٢ — وصل راندولف تشرشل إلى إسرائيل بوصفه صحفياً يمثل جريدتى إيفننج نيوز ، ونيوز أوف ذى وورلد ، وفى يوم الجمعة ٢ يونيو ، ذهب إلى منزل موشى ديان فى إحدى ضواحى تل أبيب التى تسمى « زحالا » ، ونشر أن وزير الدفاع الجديد يقضى وقتاً مريحاً ، ونقل عنه تصريحات يفهم منها أن الحرب ليست قريبة ، وأنه لابد من إفساح مجال للعمل الدبلوماسى . وعلى هذا ركب تشرشل الابن الطيارة ، وعاد إلى لندن ، إذ ليس هناك ما يهم ، وأن مسرح الحوادث لا يجذب النظارة فى الوقت الحالى .

وكانت هذه العمليات مقصودة ومحسوبة . . . لأن الهجوم تحدد يوم الاثنين . وقد كرر موشى ديان ، وعميله تشرشل الابن نفس اللعبة التى قام بها بن جوريون فى أواخر أكتوبر سنة ١٩٥٦ ، إذا أكد أن الحرب بعيدة الوقوع ، وما لبث أن تحرك الهجوم الإسرائيلى .

٣ — وإكمالا لسلسلة الأكاذيب اليهودية عقد موشى ديان مؤتمراً صحفياً فى مساء السبت ٣ يونيو ، وأكد فيه ماذكره يوم الجمعة لتشرشل الابن ، وكان مما قال « إن الوقت قد تأخر كثيراً للقيام برد عسكرى مباشر ضد الحصار الذى فرضته مصر على مضايق تيران . وذكر أن الحكومة التى هو عضو فيها تسير فى طريق العمل الدبلوماسى ، ولابد من اعطائها فرصة كافية »

٤ — وفى يوم الأحد ٤ يونيو سنة ١٩٦٧ ظهرت صحف الأحد فى أنحاء العالم ، وفيها صور التقطت على شواطىء إسرائيل ، وآلاف الجنود الإسرائيليين يقضون أجازات نهاية الاسبوع ، وكان لدى اليهود أمل كبير بأن المخابرات المصرية تتبعت هذه الحركة وعلمت منها أن منظر المستحمين والأجازات لا يدل على أن معركة قريبة توشك أن تقع ! ! وقد عرف بعد ذلك أن هؤلاء الجنود كانوا يخفون أسلحتهم وملابسهم العسكرية ، حتى إذا غابت الشمس وتعذر التصوير الجوى ، عادوا إلى ارتدائها ، واسرعوا إلى وحداتهم . .

بدء الهجوم

قرر اليهود أن تكون ساعة الصفر للهجوم الفعلى على مصر الساعة الرابعة والنصف من فجر الاثنين ٥ يونيو سنة ١٩٦٧ .

وفى هذا الوقت بدأت قواتهم تتحرك . . وكان على القوات الجوية أن تتحرك أيضاً لتصل إلى أهدافها فى ساعة — ودقيقة واحدة ، وهى حسب تقرير مدير عملياتهم « وايزمان » ٥٨ دقيقة من ساعة التحرك لأبعد الأهداف ، وأقل منها للأهداف القريبة . وهذا الوقت سوف يزيد طبعاً بالنسبة للطيران البطىء . وقد حسب حسابه فى العملية الجوية .

ولكن قبيل التحرك ، تلقت القيادة الإسرائيلية أن غواصة مصرية توجد شمال الإسكندرية بحوالى ١٤٠ ميلا ، وأن الغواصة قادرة على كشف حركة الطائرات مهما كانت منخفضة ، ومتفادية لشبكة الرادار الساحلى المصرى .

وارتبك موشى ديان ، وداخله خوف شديد من أن يؤدى تنبه القيادة المصرية للهجوم المفاجىء ، إلى الاشتباك ، وبذا يدمر السلاح الجوى الإسرائيلى بواسطة الأسلحة المصرية وتنتهى إسرائيل !

وأدى به خوفه على طائراته إلى أن يأمر بتأجيل الهجوم ساعة ، مع مراقبة الغواصة المصرية . .

ثم أمر بتأجيل العملية ساعة أخرى ، للتأكد من أن طائراته سوف تؤدى مهمتها الخبيثة غير منظورة . .

وهنا يتبادر إلى الذهن سؤال هام : وماذا كان مصير الهجوم البرى !

لم يستطيع موشى ديان ومعاونيه — فى ارتباكه — أن يأمر بتوقفه ، حتى ينسق حركته مع الهجوم البرى . فقد تحرك فى اتجاه القوات البرية للخطوط المصرية . ولعله رجح إذا كشف أمر قواته الجوية ، وانسحبت من العملية ، أو دمرت ، أن يأمر بسحب قواته البرية ، ويستغيث بأمريكا ، لإيقاف الاشتباك المضاد من جانب مصر .

مهما يكن تفكير المعتدين فى هذه اللحظة ، فقد ساعدتهم الظروف ، وتحركت

القوات الجوية اليهودية ؛ فى مخاطرة محسوبة ، ولم تتنبه لها أجهزة الإنذار المصرية . وقامت بالهجوم المفاجىء حسب الخطة الموضوعة . . .

أما لماذا لم يصل إخطار فى وقت مبكر من جهة القتال فى سيناء إلى غرفة العمليات فى القيادة المصرية ، فلهذا أسباب منها .

١ — إن العدو قبيل الهجوم البرى أنزل مخربين بطائرة هليكوبتر ، فقطعت الاتصال التليفونى من مركز تجمعه بمنطقة سيناء ، ووضعت ألغاماً تدمر كل من يحاول إصلاحه . وتم هذا التخريب قبيل المعركة .

٢ — قامت عملية تشويش لاسلكى خطيرة ، ساهمت فيها سفينة التجسس الأمريكية « ليبرتى » .

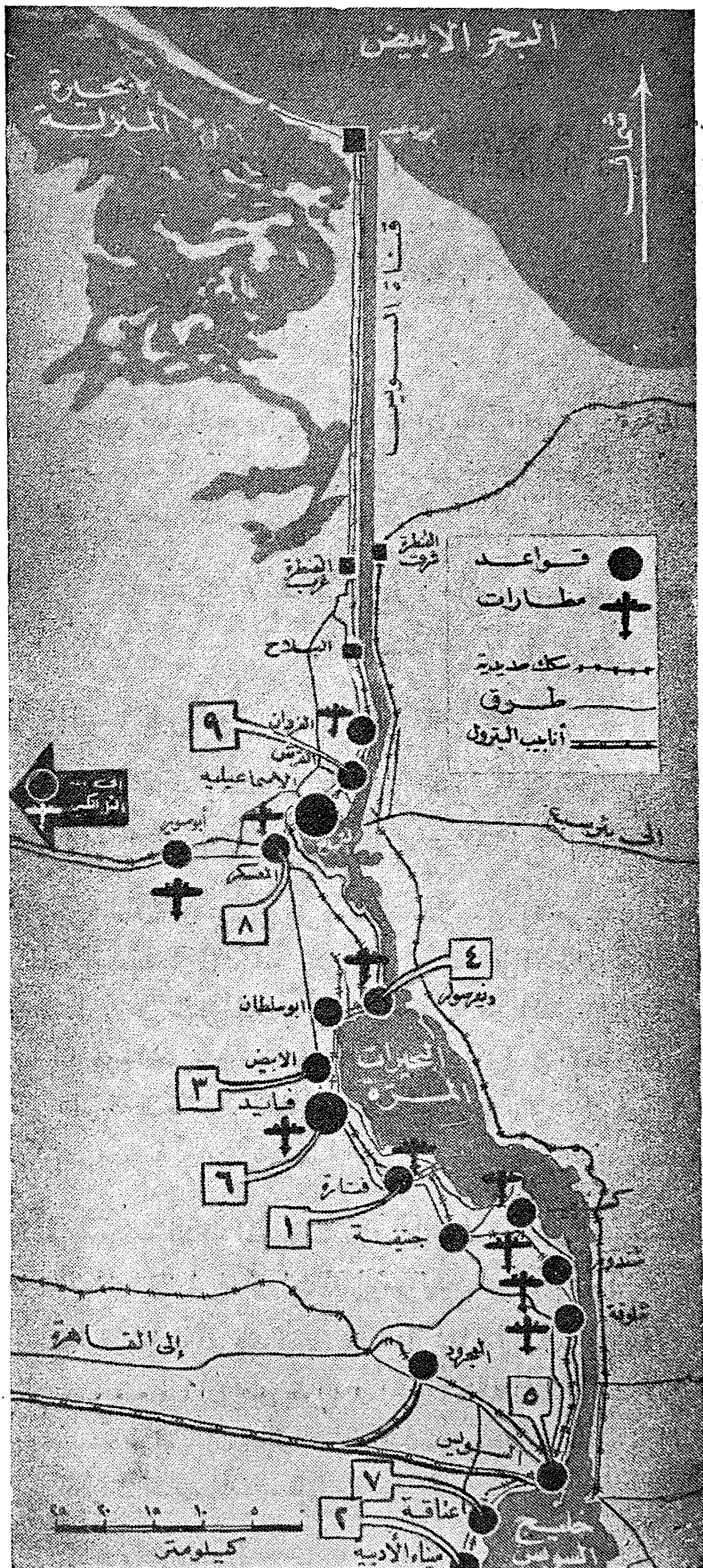
تعليق الايكونومست البريطانية

وقد علقت مجلة الأيكونومست البريطانية على العمليات الجوية فى حرب يونيو تعليقاً يستحق أن نثبته هنا . . قالت فى عدد ١٧ يونيو ١٩٦٧ :

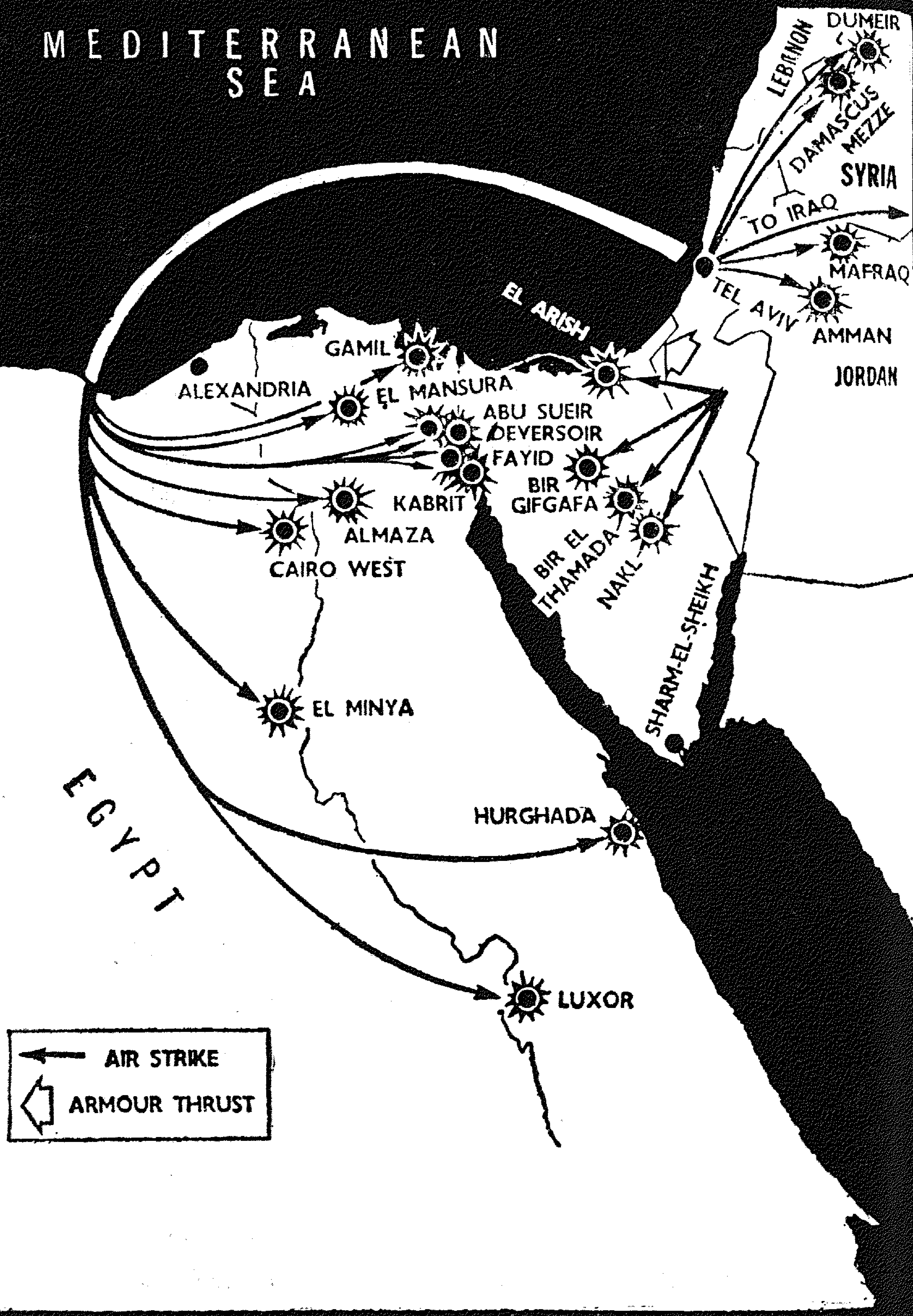
إنه ليس من الحكمة أن يحتضن الغرب نفسه جذلا على مظاهر عدم الكفاءة العسكرية المصرية هذه ، ذلك أنه ليس من الواضح على الإطلاق ما إذا كان فى وسع بريطانيا ، على سبيل المثال ، أن تفعل خيراً مما فعل المصريون ، فى نفس الظروف ، لقد هزم المصريون ، أساساً ، لأنهم لم يتمكنوا من الإقلاع بطائراتهم من الأرض بالسرعة الكافية . ذلك أنه بدون غطاء جوى لا يمكن لأية قوات — سواء كانت مصرية أو من أية جنسية أخرى — إلا أن تقاتل فى الغابات .

وإنه لتقليل من قدر الذكاء المصرى الفطرى أن يعتقد المرء أن الطائرات كانت على الأرض لأن المصريين لم يفكروا فى أن الإسرائيليين سوف يهاجمون .

إن أصعب قرار يواجه أى قائد جوى يقف على شفا الحرب هو أن يعلم اللحظة الصحيحة التى يجب عليه فيها أن يحلق بقواته فى الجو ، ذلك أن الطائرات لا يمكنها أن تبقى فى الجو مدة طويلة . إن الطائرات المقاتلة ليست كطائرات الركاب العابرة القارات ، بل طائرات قصيرة المدى ، فإذا صدر لها الأمر بالتحليق بأسرع مما يجب ،



البحر الأبيض
بحيرة المنزلة
القنطرة شرق
القنطرة غرب
البلاح
الفردان
الإسماعيلية
أبو صوير
المعسكر
أبو سلطان
فايد
فنارة
جنيفة
إلى القاهرة
السويس
عتاقة
ميناء الأدبية
كيلومتر
قواعد
مطارات
سكك حديدية
طرق
أنابيب البترول
٩
٨
٤
٣
٦
١
٥
٧
٢



MEDITERRANEAN SEA
LEBANON
DUMEIR
DAMASCUS
MEZZE
SYRIA
TO IRAQ
MAFRAQ
TEL AVIV
AMMAN
JORDAN
EL ARISH
GAMIL
ALEXANDRIA
EL MANSURA
ABU SUEIR
DEVERSOIR
FAYID
BIR GIFGAFA
KABRIT
ALMAZA
CAIRO WEST
BIR EL THAMADA
NAKL
SHARM-EL-SHEIKH
EL MINYA
EGYPT
HURGHADA
LUXOR
AIR STRIKE
ARMOUR THRUST

تحتم عليها أن تعود إلى الهبوط للتزود بالوقود . وهنا أيضاً ليس هناك شبه بينها وبين الطائرات التابعة للخطوط الجوية لأن إعادة تزويد الطائرات المقاتلة بالبترول يعنى أيضاً التفتيش من جديد على جميع أجهزتها الألكترونية المعقدة ، ومن ثم ، فإذا اختار العدو هذا الوقت بالذات للهجوم كان شأنها كشأن الشخص الذى يفاجأ « وسراويله مدلاة فى ركبتيه » .

إن هجوم إسرائيل لم يحدث عند الفجر ، أى فى نفس الساعة الثالثة صباحاً ، وهو الذى كان منتظراً أن يتم فيه الهجوم ، وإنما تم حوالى الساعة السابعة صباحاً ، الأمر الذى جعل المصريين يواجهون أسوأ الظروف الملائمة .

وعند ما واجه الهجوم ، كانت الطائرات المهاجمة تطير على ارتفاع منخفض دون أى إنذار على الإطلاق .

وإنه لمعروف ، على الورق فحسب ، أنه توجد طائرات للإنذار المبكر تحمل معدات للكشف عن هذا النوع من الهجوم ، وتحلق ببطء وكأنها أجهزة رادار محلقة فى الجو . غير أن المصريين لم يكن لديهم طائرات من هذا النوع ، بل إن مثل هذه الطائرات لا توجد — ولن توجد — لدى أية دولة أخرى لفترة قصيرة من الزمن على الأقل .

وعند ما جاءت الطائرات المهاجمة هناك ، كانت الطائرات المصرية مصفوفة فى خطوط منتظمة على المطارات ، بالضبط كما يمكنك أن تراها مصفوفة فى خطوط مستوية ، بنظام عسكرى محكم ، وفى أى مطار عسكرى آخر فى أى جزء من العالم . ولم تكن هناك أية محاولة لتفريق الطائرات فى أماكن متناثرة أو لإخفائها . غير أن المصريين لم يفعلوا ذلك بدافع من الثقة المتزايدة بالنفس ، بل لأن هذا هو النمط العسكرى الغربى السليم والجيد .

* * *

واستطردت هذه المجلة الإنجليزية تقول :

ولقد تصرفوا تماما مثل الغالبية العظمى من القادة لو كانوا فى مكانهم ، وأبرزوا بوضوح الضعف الكبير فى فنون الدفاع الغربية ، فإن نوع الدفاع الجوى — غير

الذرى — الذى يستخدم حالياً بواسطة جميع الدول العسكرية ذات الشأن يمكن أن يكون فعالا فقط إذ أمكن الحكم على الوقت الذى سيتم فيه الهجوم لأقرب ساعة أو نحو ذلك . وإلا فإن الاحتمال الغالب هو أن تفاجأ الطائرات على الأرض دون أن تكون مبعثرة على مسافات متباعدة ، كما حدث للمصريين . ومن هنا تتبين أهمية ما يفعله الأمريكيون بالنسبة لتصميم الطائرات حيث يقومون بصنع طائرات مقاتلة يمكنها أن تمكث طويلا فى الجو مثل الطائرات من طراز ف ١١١ كما أنهم يقومون بصنع مقاتلات وطائرات كبيرة حاملة للجنود يمكنها أن تطير من الحقول المغطاة بالحشائش بدون مدارج للطائرات ، وذلك لكى يتجنبوا نقطتى الضعف الكبيرتين المذكورتين ، ولكنه فى نفس الوقت لايجب أن نعتقد أنه كان فى وسعنا أن نفعل أفضل بكثير مما فعله المصريون (انتهى التعليق) .

ولسنا هنا نحاول تصيد كلمات عزاء . . أو تبريراً لفقد عدد كبير من طائراتنا بهذه المفاجأة ، ولكنا نريد الإشارة إلى بعض الدول استفادت ، وسوف تستفيد من هذه المعركة ، وأول هذه الدول مصر بالذات ، مما سيكون موضوع دراسة منا بعد قليل .

السفينة ليبرتى

قصة السفينة الأمريكية « ليبرتى » الموصوفة بسفينة التجسس ، معروفة وأصبحت متداولة . . . وقد عرضتها مجلة « نيوزويك » الأمريكية وثيقة الصلات بالمخابرات المركزية فى عدد ٣ يوليو سنة ١٩٦٧ كما يلى :

كانت السفينة الأمريكية ليبرتى تقف فى أحد الأحواض الجافة بميناء فاليتا فى مالطة بعد أن تمزق أحد جانبيها بفعل أحد زوارق الطوربيد ، وظهرت على سطحها ثقوب خلفتها طلقات المدافع ، وحول مائدة طويلة داخل غرفة الطعام بالسفينة . جلس أعضاء هيئة المحكمة البحرية الثلاثة ، وقد ظهر من فوقهم أثر قذيفة صاروخية اخترقت جدران الغرفة ، وراحوا يستعرضون بطريقة منظمة الظروف التى أحاطت بالهجوم الإسرائيلى الوحشى على سفينة الاتصالات الأمريكية التى كانت تقف بالقرب من ساحل سيناء . ولكن الشخص الذى لوحظ أنه كان متغيباً خلال هذه المداولات هو السيد الحقيقى للسفينة ليبرتى — أى مجلس الأمن القومى الذى خلف نشاطه ستار

كثيف من السرية — والذى يحمل معه المفتاح الأخير لهذا الحادث الذى يعد من أكثر الحوادث مدعاة للحيرة خلال حرب الشرق الأوسط .

ولقد استكملت البحرية ذاتها فى الأسبوع الماضى تحقيقاتها الواسعة حول هذا الهجوم . وكانت تستعد لإزاحة جانب من ستار الأمن الذى أحاط بمهمة هذه السفينة حتى تعرضت للهجوم . ولا شك إن التقرير الضخم الذى أعدته محكمة التحقيق سوف يساعد على توضيح سؤال هام ، وذلك بعد أن مر على جهاز الرقابة التابع للبنتاجون . وهذا السؤال هو : هل كان الإسرائيليون يعرفون أن السفينة أمريكية ؟ الجواب بالنفى والإيجاب معاً . فاستناداً إلى ما تقوله البحرية الأمريكية قامت الطائرات الإسرائيلية بالتحليق فوق السفينة ليبرتى قبل مهاجمتها بست ساعات وكان واضحا أنها عرفت أن السفينة أمريكية . ولكن هذه الحقيقة لم تعلن قط للطائرات وزوارق الطوربيد الإسرائيلية التى هاجمت السفينة فى منطقة الحرب وهى تقف على بعد ٣٢ ميلا من ساحل سيناء .

وتقرير البحرية — عند عرضه على الرقابة كان يصف الهجوم الإسرائيلى الذى تسبب فى مقتل ٣٤ أمريكياً وإصابة ٧٥ آخرين بأنه عمل متهور وعنيف ، وأنه يمثل خرقاً لقوانين الملاحة الدولية ، ولكن البحرية لم تقدم أى دليل يشير إلى أن الهجوم لم يكن خطأ مؤسفاً .

وقد أعفى التقرير قبطان السفينة — الكوماندر وليام ماكجوناجل — من أية مسئولية فى هذا الحادث . والواقع أن المسئولين فى البحرية ألمحوا إلى أن ماكجوناجل البالغ من العمر ٤١ عاما والذى أشرف فى هدوء على عمليات الاصلاح العاجلة قد يمنح ميدالية الشرف البحرية .

ومضت المجلة تقول :

وفيما يتعلق بمهمة ليبرتى الغامضة . فإن تقرير البحرية يردد قصة التمويه الرسمية التى تقول أن السفينة كانت ترسو بالقرب من الشاطىء لإرسال معلومات تساعد على إجلاء الرعايا الأمريكيين من مناطق الحرب . ولكن الحقيقة التى ترفض وزارة الدفاع الأمريكية الاعتراف بها . هى أن السفينة كانت مشتركة فى الجهود الأمريكى

الشامل الذى يستهدف معرفة كل ما يمكن معرفته عن سير المعركة فى حرب الصحراء وعن الأسلحة السوفيتية الحديثة .

وجزء من شبكة الإلتقاط الإلكترونية المنتشرة فى جميع أنحاء العالم ، والتابعة لمجلس الأمن القومى ، كانت السفينة ليبرتى مليئة بأجهزة بالغة الحساسية وبعقول ألكترونية . وكانت مهمتها ، تحديد مواقع أجهزة الرادار العربية وقواعد الصواريخ ، والتقاط الأوامر التى يصدرها العرب والإسرائيليون من ميدان المعركة . ولما كانت معظم أجهزة اللاسلكى فىالميدان تعمل على موجات قصيرة ، ذات تردد قصير المدى ، كان على السفينة ليبرتى أن تخاطر بالاقتراب من الشاطىء .

ولقد أعلن متحدث باسم الجمهورية العربية المتحدة أن المهمة الحقيقية للسفينة ليبرتى كانتالتشويش على أجهزة الرادار المصرية أثناء الغارات الجوية الإسرائيلية .. ومضى المتحدث قائلا : لقد كان الإسرائيليون صادقين للمرة الأولى عندما قالوا إن ضرب السفينة كان خطأ . .

* * *

وراحت مجلة تيم الأمريكية تلتمس عذراً آخر لليهود ، فقد نشرت صورة للسفينة المصرية « القصير » ، إلى جانب صورة « ليبرتى » ، وقالت إن المنظرين متشابهان ، وراحت تبحث عن مبرر فيما صنع اليهود بأخيهم العم سام .

ولكن يبدو أن القصة لم تتم فصولا ، فقد عرف بعد ذلك أن قائد الأسطول السادس الأمريكى كان يتتبع سير المعارك على أجهزة تليفزيون خاصة ، وكان أحد الأقمار الصناعية يرسل تصويراً تلفزيونياً مفصلا لما يحدث ، وكانت السفينة «ليبرتى» تساعد عملية التجسس التى تتم على هذا المدى الدقيق ، إلى جانب تداخلها فى عملية الإرسال والاستقبال اللاسلكى العربى بالتشويش وحل الشفرات . . . وقد أذاع راديو لندن ، ذات يوم تقريراً غريباً ، وهو أن التحقيق النهائى فى حادث السفينة « ليبرتى » ، أثبت أن اليهود كانوا يعلمون حقيقة جنسية السفينة ، وأنها أمريكية ، بعد أن ثبت أن السفينة كانت ترفع أعلاماً أمريكية ذات أحجام كبيرة حددت مساحاتها ، ووضح أنه يمكن رؤيتها للطائرات فى أى ارتفاع . وعلى هـــذا يكون

الضرب عمـــداً ، وقد أوقفت حكومة وشنطن المضى فى هذا التحقيق وأعفت اللجنة من عملها . بعد أن سلمت تقريرها المبدئى . . . وإذا صحت هذه الروايات ، فإن تعليلها هو أن اليهود ، بعد أن تأكدوا من نجاح مفاجأتهم للقوات المصرية ، لم يعودوا فى حاجة إلى الأمريكان ، وبالتالى لم يعودوا فى حاجة إلى أن يكشف « أصدقاؤهم » كل التفاصيل عن الخطط التى قاموا بها ، ولا سيما خسائرهم الجوية ، والتى زادت عن مائة طائرة [١٠١ طائرة بالضبط] فى جميع الجبهات .

الهجوم البرى

ما حدث فى الأيام الستة لمعركة سيناء . كان حرب صحراء . .

الضربة الأولى لك أو عليك ، ثم يكون أروع مايحدث ، عند تلقى الضربة ، أن يتراجع من تلقاها على عجل إلى خط يصلح للوقوف عنده .

إن حرب الصحراء ، مثل حرب الأساطيل فى الماء ، ليس لها خط ثابت ، وقد دارت عام ١٩٤٠ إلى عام ١٩٤٢ معارك فى صحرائنا والصحراء الليبية ، وأعطت للأكاديميات العسكرية دروساً ثمينة جداً فى طبيعة هذا النوع من الاصطدام المسلح ، ولا شك فى أن جهد الحرب بيننا وبين اليهود استفاد من هذه الدروس ، وبنى عليها خططه . .

وفى أوائل شهر مايوسنة ١٩٦٧ زار المارشال مونتجمرى القائد الإنجليزى لمعركة العلمين . مصر ، واجتمع مع كبار العسكريين المصريين ، ودارت مناقشات ممتعة عن طبيعة حرب الصحراء ، وتجاربه فيها ، وكان مما دار عند الحديث ، كيفية سير المعركة فى حالة عدم وجود الغطاء الجوى ، وقد كتب أحد شهود هذه الندوة[1] بحثاً ذكر فيه ما استقر عليه الرأى خلال المناقشة عن المدرعات التى تتعرض للقصف الجوى ، وهل يحسن تثبيتها فى الرمال حماية لها ، أم تركها حرة الحركة . .

وكأن هذه الندوة كانت على موعد مع سير الأحداث . وبمراجعة يوميات المعركة نستخلص منها ما يأتى :

* فى شهرى أكتوبر ونوفمبر سنة ١٩٦٦ تكررت عمليات منظمة فتح الفلسطينية ، فرد اليهود بهدم ١٢٤ منزلا فى قرية السموع الأردنية ، ومدرسة ومستشفى .

---

(١) الوزير حسين ذوالفقار صبرى فى سلسلة مقالاته بمجلة «المجلة» فى أواخر عام ١٩٦٧ .

* فى شهر ابريل سنة ١٩٦٧ هاجمت إسرائيل بالطائرات مراكز المدفعية السورية ، على جبل الشيخ ، وتصدى لها الطيران السورى ، واصيبت ست طائرات ميج ، وفقد اليهود طائرات لم يعلن عن عددها .

* فى ١٠ مايوسنة ١٩٦٧ أعلن إسحق رابين رئيس أركان حرب الجيش اليهودى ، أن قواته قد تهاجم دمشق فى أى وقت ، وتسقط الحكم القائم فى سوريا .

* فى ١٤ مايوسنة ١٩٦٧ أذاع ليفى أشكول بياناً قال فيه : «إن حكومة اليهود سوف تتخذ إجراءات انتقامية ضد سوريا . وفى نفس اليوم جاءت إشارة للقاهرة من الحكومة السورية بوجود حشد يهودى من ١٥ لواء . وبعد ست ساعات أبلغ الملحق العسكرى الروسى القيادة المصرية بوجود هذا الحشد نقلا عن حكومته فى موسكو .

* فى ١٤ و ١٥ مايو سنة ١٩٦٧ سافر الفريق أول محمد فوزى إلى سوريا ، مع بعض مرافقيه العسكريين ، وطاف على الجبهة السورية بالطائرة .

* فى ١٥ مايوسنة ١٩٦٧ بدأ تحرك القوات المصرية لمساعدة سوريا ، وهو اليوم الذى كان اليهود يقومون فيه بعمل عرض عسكرى فى القدس بمناسبة « عيد » استقلالهم ، وهذا على الرغم من اتفاقية الهدنة التى تحرم دخول قوة مسلحة إليها .

وأخذت القوات المصرية مواقعها على طول ١٤٠ كم .

* فى ١٦ مايو سنة ١٩٦٧ طلب سحب قوات الطوارىء الدولية من الحدود ، وذلك استناداً إلى التصريح الرسمى الذى أعلنه الدكتور عبد القادر حاتم وزير الثقافة والإرشاد السابق فى ١٢ نوفمبر سنة ١٩٧٦ ، من أنه يجب سحب قوات الطوارىء الدولية فوراً بمجرد أن تطلب مصر ذلك .

* فى ١٩ مايو سنة ١٩٦٧ أنزل علم القوات الدولية فى غزة ، وأعلن انتهاء مهمتها ، بناء على أوامر من يوثانت أمين عام هيئة الأمم . وكان لكندا ٨٠٠ جندى بين قوات الطوارىء الدولية ، وقد اعترضت على سحب هذه القوات ، فى مجلس الأمن ، وأيدتها الدانمرك فى احتجاجها .

وكان الاتحاد السوفييتى قد أعلن أن القوات الدولية ، ماهى إلا القناع الذى تستتر وراءه المخابرات الأمريكيه ، ولهذا امتنعوا عن دفع حصتهم فى نفقاتها ، وإلا أصبحوا ممولين لمخابرات الامريكان .

• فى ٢٠ مايو سنة ١٩٦٧ أعلنت إسرائيل التعبئة التى وصفتها بأنها جزئية ، ولكنها كانت تعبئة عامة ، وتمت قبل هذا الإعلان . وقد اجتهدوا فى إحاطة عملية التعبئة بكل طرق السرية الممكنة ، فلم يذع عنها بيان فى الراديو ، ولا فى الصحف ، ولكن أرسلوا إلى رؤساء وحداتهم فى المستعمرات والأحياء برقيات أو رسلا ، حتى يتم كل شىء فى هدوء ، واستعملوا فى الابلاغ شفرات رمزية متفق عليها .

• فى ٢٣ مايو سنة ١٩٦٧ أعلنت القاهرة إغلاق مضايق تيران ، وذلك لتحطيم آخر بقية من عدوان عام ١٩٥٦ ، وكان تركها مفتوحة ، مثار كثير من الغمز واللمز من بعض الدول العربية . وكانت هذه المضايق مقفلة قبل العدوان الثلاثى من عام ١٩٤٨ إلى عام ١٩٥٦ .

• فى يوم ٢٣ مايو سنة ١٩٦٧ ، وصل الجيش الإسرائيلى إلى الجبهة الجنوبية فى حشد كامل من ثلاث فرق كاملة وعدد من الألوية .

• كان إغلاق مضايق تيران أشبه بقنبلة انفجرت فى إسرائيل وفى الولايات المتحدة وسارع ليفى أشكول يصرح بأن هذا عمل حربى ، وأيده على الفور جونسون الأمريكى يردد نفس المعنى . وانضمت انجلترا إلى النادى اليهودى الأمريكى ، وأعلنت بدورها أن خليج العقبة ممر دولى !

• فى ٢٤ مايو سنة ١٩٦٧ قررت أمريكا وانجلترا ضرورة فتح خليج العقبة ، مع عدم استبعاد الحل العسكرى . وكانت حاملة الطائرات البريطانية «نكتوريوس» عائدة من الشرق الأقصى إلى بلادها عن طريق البحر المتوسط ، فأمرت بالبقاء فى مالطة .

• اجتمع مجلس الأمن ، بناء على طلب كندا والدنمرك ، وطلبت روسيا فى الاجتماع سحب أساطيل انجلترا وأمريكا من البحر المتوسط ، وأعلن أن قوات عراقية فى طريقها إلى الجبهة الأردنية .

• ناقش الكونجرس الأمريكى الموقف فى الشرق الأوسط ، وأعلن فيه أن حرباً واحدة تكفى الولايات المتحدة ، وهى حرب فيتنام .

• دارت تحركات سريعة على المستوى الدبلوماسى . فذهب وزير خارجية إسرائيل إلى واشنطن لمقابلة جونسون ، ثم هرع إلى باريس ، وسافر هارولد ولسن رئيس

وزراء انجلترا إلى وشنطن كذلك . كما سافر جورج براون وزير خارجية انجلترا إلى روسيا .

* فى ٢٦ مايو سنة ١٩٦٧ ، أعلن الرئيس عبد الناصر أنه ثابت على موقفه ، وأن أى اصطدام مع إسرائيل ، سوف يتحول إلى حرب شاملة .

* أرسل جونسون إلى السفير المصرى فى واشنطن رسالة يطلب فيها «ضبط النفس» وظهر بعد ذلك أن هذا الطلب كان يقصد منه منع مصر من الحركة ، حتى تعد إسرائيل نفسها للضربة المفاجئة . ودبت الحياة فى الخط التليفونى المباشر بين واشنطن وموسكو ونتيجة للمحادثات بين الطرفين ، تلقى السفير الروسى تعليمات بأن يتصل على الفور بالرئيس عبد الناصر ، ويبلغه بإلحاح رأى حكومته بألا تبدأ مصر الهجوم .

* فى يوم ٢٥ مايو مرت سفينة ألمانية من مضايق تيران ، وأعلن أن المرور غير مباح ولكن هذه الحركة لم تخفف من اندفاع دعاة الحرب الغربيين الذين كانوا يعدون العدة لها ، وكانت حكاية المضايق سبباً ، خشى ألا يصلح وحده للحرب .

* بناء على اتصال يوثانت بالقاهرة ، قدم إلى مجلس الأمن تقريراً فى ٢٧ مايو سنة ١٩٦٧ ، أكد فيه أن مصر لن تكون البادئة بالقتال ، وذلك استناداً إلى وعد صريح من الرئيس عبد الناصر ، ومن السيد محمود رياض وزير الخارجية .

* فى ٢٨ مايو ، أعلن الرئيس عبد الناصر بأن قنال السويس سوف تغلق ، إذا نشبت حرب مع إسرائيل ، وتدخلت دولة أخرى .

* فى ليلة ٢٩ مايو ، اقترح مجلس الأمن فتح مضايق تيران لفترة تلتقط فيها الأنفاس ، ولكن هذا الاقتراح لم يعرض للتصويب .

* فى ٣٠ مايو سنة ١٩٦٧ ، أخطرت روسيا تركيا ، بأن عشر سفن حربية سوفيتية ، سوف تمر من البوسفور والدردنيل إلى البحر المتوسط . وفى نفس اليوم ، ٣٠ مايو — وصل الملك حسين إلى القاهرة وفى ست ساعات قضاها ، وقع اتفاقاً للدفاع المشترك .

* فى آخر مايو سنة ١٩٦٧ ، كانت التعبئة تامة فى إسرائيل ، وترك المزارعون القمح فى المزارع بغير حصاد ، وهبط العمل فى المصانع إلى أقل مستوى ، بسبب التجنيد .

* إنتهت الأزمة السياسة فى إسرائيل ، بتسلم موشى ديان وزارة الدفاع . وهو من مواليد عام ١٩١٥ والتحق بجيش الهاجناه اليهودى فى سن ١٤ . واعتقله الإنجليز عام ١٩٣٩ وصدر الحكم ضده بالسجن عشر سنوات . ولكن أفرج عنه بعد عام ، وانضم مع الفيلق اليهودى إلى الجيش البريطانى . وفى أثناء معركة بين الإنجليز ، وقوات حكومة فيشى الفرنسية فى سوريا ، فقد عينه اليسرى . وفى حرب ١٩٤٨ التى قامت على أثرها إسرائيل قاتل مع كتيبة من الفدائيين ، وفى سنة ١٩٥٦ كان رئيس أركان حرب الجيش اليهودى . وفى عام ١٩٦٠ عين وزيراً للزراعة ، فى حكومة بن جوريون .

* وفى هذا التعديل الوزارى اليهودى الذى تم فى مساء الأربعاء أول يونيو سنة ١٩٦٧ ، عين مناحم بيجين أحد رؤساء العصابات الإرهابية ، فى إسرائيل ، وزيراً للدولة . وبقى « بيجال ألون » أكبر منافسى ديان ، وزيراً للعمل ،

* عين الفريق المصرى (المرحوم)عبد المنعم رياض قائداً عاماً للجيش الأردنى ، تنفيذاً لاتفاقية الدفاع المشترك مع مصر ، وتسلم عمله ، واتخذ مقر قيادته فى موقع متقدم بالجبهة .

وواضح أن تجنيد ربع مليون رجل وامرأة من إسرائيل لا يكون جيشاً ذا كفاءة عالية ، وإنما تتركز قوته الضاربة فى عـــدد قليل من الكتائب ، تعد الجيش الثابت لإسرائيل المكون من جنود محترفين . وهى القوة التى تكلف بالإغارة على الحدود كلما مست الحاجة إلى أن تظهر إسرائيل شراستها . . .

وقد تحدث الذين كتبوا عن هذه الحرب الأخيرة ، ووصفوا عربات الخضر ، التى تجرها بغال ، ويقودها رجال عجائز ، وهى تنقل القنابل والتموين . . وقد يكون هذا الوصف صالحاً للدعاية ، وإعطاء فكرة عن حماسة اليهود للحرب ، وإطاعة رؤسائهم فى النفير لها . ولكنه بعد ذلك يدل على أن إسرائيل لا تملك الرصيد الكافى من الطاقة البشرية التى تساعدها على الصمود فى حرب ، وإن عربات الخضر ، إذا ما فوجئت إسرائيل بالغزو ، كما فاجأت جيرانها ، لن تصلح لصد الغزاة ، ولا هى قادرة على الصمود لحظات . . وعدد الجنود المحترفين فى جيش إسرائيل ، وتقدره كتب الدعاية لها مثل [كتاب تشرشل] ـ ١٢ ألف رجل ، تبيدهم هبة واحدة من هجوم مفاجىء .

ومن هنا كانت صيحة إسرائيل الدائمة ، في البحث عن حليف قوى يبسط عليها حمايته ، وكانت انجلترا ، ثم فرنسا ، ثم الولايات المتحدة . . وحجة إسرائيل ، أنها الحارسة للمصالح الغربية فى المنطقة ، ولو فكر الغربيون قليلا — قليلا جداً — لتبينوا أن هادمة مصالحهم فى الشرق الأوسط هى إسرائيل ، لما تبثه من كراهية عميقة ، لها قوة العقيدة الدينية ، فى المجتمع الذى يحيط بها .. وتنسحب هذه الكراهية بالتالى إلى حمايتها . فكيف يتأتى أن تفلح هذه الحراسة للمصالح المزعومة ، وهذا القدر من الكراهية موجود ، ويتزايد يوماً بعد يوم ! !

لقد كتب باحثون منصفون ، وهم كثيرون الآن فى العالم الغربى ، ينتقدون سياسة أمريكا فى حرب يونيو نقداً مراً ، وذكروا أن ما سعت إليه روسيا خلال أربعة قرون من محاولة الوجود فى البحار الدافئة ، قدمته لها سياسة جونسون الحمقاء فى أربعة أيام . . ولكن الوجود الروسى هذه المرة ، لا يسير على أرض الحروب والأحقاد والإكراه لشعوب البلاد الدافئة ، ولكن تحمله أجنحة المودة والتعايش السلمى . . وتحمله — أيضاً — المصالح المشتركة . . .

وإذا كانوا يتحدثون عن منابع الثورة المعدنية فى منطقتنا وأولها البترول والغازات الطبيعية ، ويتحدثون عن طرق المواصلات العالمية التى تمر بالمنطقة ، وهى جوية وبحرية وأرضية ، أفلا يكون من الخير أن تتولى الصداقة وتبادل المنافع بغير استغلال ، ضمان التعامل ، بدلا من الـ ١٢ ألف جندى الذين يكونون القوة الدائمة للجيش اليهودى ؟ ! !

وثمة نقطة لابد من إيضاح فكرنا فيها ، وهى طبيعة الجندى اليهودى كمحارب .

اليهودى بطبعه ، ليس جندياً محارباً ، لأن طاقته كلها موجهة إلى اهتمامات أخرى ، ليس منها الحرب ، وأهمها جمع المال .

وما دفع اليهود إلى مغامرتهم الأخيرة ، وما سبقها من مغامرات هو السلاح الكثير الذى سلمه لهم الأمريكان ، ومن قبلهم الفرنسيون ، ومن قبلهم الإنجليز .

اليهودى فى دبابته يحارب لأن درع الصلب يحيط به . . ولكنه لا يخرج إلى العراء مطلقاً ، ولهذا كانت ألوية المشاة ، هى أضعف ما فى جيش إسرائيل من

قوة ، على الرغم من أن موشى ديان يباهى بأنه لا يوجد لديه من يمشى على قدميه . . ولا تعنى كلمة المشاة « المشى » ولكنها تعنى الجندى المقتحم الذى يتسلم المواقع بعد أن تمهد له المدفعية والمدرعات والطيران .

وربما كانت عقدة الخوف من الموت ، هى التى تتملكهم — إذ أنهم لا يدخلون « البعث » فى حساب عقيدتهم الدينية ، ولهذا فالحياة لديهم هى تمتع بكل لحظة من لحظاتها . . ولهذا كان اهتمامهم البالغ بالحصول على جثث قتلاهم ، حتى تذهب إلى قبورها فى بيئة يهودية ، ومنها إلى « الهاوية » التى عبرت عنها التوراة .

وقد حدث فى أحد الاشتباكات الجوية فى منطقة السويس أواخر عام ١٩٦٧ ، أن سقطت طائرة أو طائرتان يهوديتان فى الخليج ، وجن جنون اليهود للعثور على الطيارين الذين سقطوا أحياء أو أمواتاً ، وقد حشدوا ثمانين طيارة للبحث عن هذه الجثث خوف التعرض لهم من الجانب المصرى ، حتى بعد أن تعهد مراقبوا الأمم المتحدة بألا يتعرض لهم الجانب المصرى . . وبلغ ثمن وقود الطائرات التى كلفت بالبحث والغطاء الجوى فى ليالى متعاقبة حوالى ثلاثة ملايين من الجنيهات .

وربما كان حرص اليهود على العثور على هذه الجثث ، هو نوع من المعالجة النفسية الأحياء من اليهود ، وهو اهتمام حكامهم فى إسرائيل ، بعقائدهم .

وسوف نتحدث عن التكنولوجيا والطاقة العلمية لليهود فيما بعد . وهى حقيقة لاشك فيها . ولكن سؤالنا هو : هل هذه الطاقة العلمية ، من الأمور التى لا ننالها ، ولا نقدر عليها ؟

سوف نبقى هذا السؤال معلقاً لفترة قصيرة من الزمن . . .

الجندى المصرى . . فى هذا الميدان

نشرت جريدة الأهرام يوم ٢٨ يناير سنة ١٩٦٨ البرقية التالية :

باريس فى ٢٧ — ا . ش . ا — صرح الجنرال بوفر مدير المركز الفرنسى للدراسات الاستراتيجية بأنه إذا طالت الأزمة الراهنة فى الشرق الأوسط يكون ذلك

فى المدى الطويل لصالح العرب وعلى حساب إسرائيل . وقال أن إطالة أمد هـــذه الأزمة سيشجع الدول العربية على الالتحام معها . والتآزر فيما بينها وإدراكها ضرورة العمل الموحد .

وقال الجنرال بوفر إن النصر العسكرى الذى أحرزته إسرائيل فى حرب يونيو الماضى لم يحقق لها النتائج السياسية التى كانت تنتظرها لأنه قد خلق لإسرائيل مشكلات سياسية أكثر مما كانت تواجهها إسرائيل فى الأراضى المحتـــلة . وأنه على نقيض ادعاءات إسرائيل فأن هذه المقاومة ظاهرة لا يمكن التغلب عليها .

وتحدث الجنرال الفرنسى — الذى اشترك فى حرب السويس عام ٥٦ — عن الجنود المصريين فقال إنهم على عكس ماتريد أن تصورهم به الدعايات المعادية لبلادهم مقاتلون حقاً ، يصدقون فى القتال إذا ما أتيحت لهم الفرصة .

وقال إنه لم يكن فى وسع أى جيش آخر مكان الجيش المصرى أن يفعل أحسن مما فعل منذ اللحظة التى فقد فيها سلاح طيرانه . ا . هـ .

والجنرال « بوفر » كان قائد القوات الفرنسية ، التى هاجمت مصر ضمن العدوان الثلاثى أواخر عام ١٩٥٦ . وإذا تكلم ، فلا ينقل عن كتاب ولكنه كابد الحرب والمصريون هم أعداؤه .. فإذا جاء اليوم يتحدث ، فإنما يتحدث عن خبرة ومعاناة .

سيناء ... ومواقعها

الحرب البرية التى دارت فى رقعة محدودة ـ هى سيناء ـ وشبه الجزيرة كما نعرفه تحكمه ثلاثة طرق برية : الطريق الشمالى الذى يسير فى محاذاة الساحل ، ويربط القنطرة والعريش ورفح . والطريق الأوسط الممتد شرقاً من الاسماعيلية . والطريق الجنوبى الممتد من السويس ، والذى يمر بممر متلا حتى يصل إلى خليج العقبة ثم بساحل جنوباً إلى مضايق تيران .

وأكبر مطارات سيناء ، مطار المليز ، ثم مطار العريش . وتوجد مواقع هامة دارت فيها معارك ضارية : هى شرم الشيخ والكونتيلا والقسيمة والعوجة وأم بسيس والشيخ زويد ورفح وخان يونس . وبير العبد التى تقع غربى العريش وجنوب بحيرة البردويل ، وطوقت منها العريش . وفى قلب سيناء توجد مواقع بالغة الأهمية ،

نذكر منها بير تماده ، ونخل ، وجبل لبنى ، والجفجافة ، وأبو عويقلة ، والحسنة ، وخرم والتمد .

كما توجد فى جنوب سيناء على خليج العقبة نويبع ، ودهب ، وجبل صباغ ، ثم شرم الشيخ . وفى الوسط الجنوبى دير سانت كاترين ، وعلى خليج السويس جنوباً توجد الطور ، وأبو زنيمة ، وسدر ، وعسل .

وقد وجدت مع اليهود خرائط تفصيلية لهذه المواقع ، وورد ذكرها فى الكتب الأجنبية التى تحدثت عن هذه الحرب . كما وردت بيانات عن مطارات أخرى من بور سعيد وما يليها جنوباً على القنال وشاطىء البحر الأحمر ، مثل أبو صوير ، وديفرسوار ، وفايد ، وكبريت ، والغردقة ، ورأس بناس ... وهذا غير المطارات الموجودة داخل البلاد . . .

ومن الواجب الآن ، أن نشير إلى أن كمية المعلومات المتاحة للعدو ، كثيرة جداً . وأن من الأوراق التى وجدت مع البعض خرائط تفصيلية لمواقع آبار فى سيناء ، منها ما تعرفه مراجعنا الزراعية ، ومنها ما لا تعرفه ، وقد تكون آباراً مهجورة ، ولكنها صالحة للاستغلال بمعالجة يسيرة .

أما وقد أصبحت سيناء جزءاً من نضالنا القومى ، وطريق عبورنا إلى آسيا العربية ، وما يليها إلى العالم الأسيوى كله ، فمن الواجب أن تتوفر لطلابنا فى مراحل تعليمهم الأولى كل البيانات عن شبه الجزيرة ، وأن تزداد هذه المعلومات سعة وشمولا مع التقدم فى مراحل التعليم . إذ ليس من المستساغ أن يعرف كل يهودى ممر متلا ، أو جبل لبنى ، وقد دارت فيها معارك ضارية بالغة الشدة ، ورويت بدمائنا . واستشهد من حولها أبطالنا ، وكبدنا العدو على جوانبها خسائر فادحة ما زال يلعق جراحه منها . . . ونحن لا نعرفها .

وهناك مواقع ، تدخل فى دائرة الأسرار العسكرية ، ولكن ما دام العدو قد عرف هذه المواقع ، وكان الصراع دائراً فيها ، فلا تصبح لكلمة الأسرار العسكرية الحكمة المقصودة منها .

نقول هذا الكلام لنضع سيناء فى دائرة اهتمامنا العام . فالرأى السائد عنها ، أنها منطقة صحراوية ، قاحلة جرداء . . والحقيقة أن فيها الصحراء ، وفيها الجبال . ويكفى

أن الله سبحانه وتعالى تجلى على عبده موسى بن عمران فى واحد من جبالها الجنوبية .

وكانت العناية بسيناء قد بدأت فى السنين الأخيرة ، وأنشأت عملية مياه ، تنقل إليها ماء النيل من تحت قنال السويس . . ومن الواجب أن يمتد هذا الماء فى مواسير حتى حدودنا الشرقية . كما أن الطرق والمستعمرات الزراعية هى وسيلة التعمير . . وكلما كثر عدد السكان والعاملين المدنيين فى هذه البرية ، أصبحت عسيرة المنال على المغامرين . . وفى اعتقادنا أن الانفاق على تعمير سيناء ، أولى من التوسع فى النفقة على الوادى الجديد ، وأن جزءاً مما ينفق على الصحراء الغربية ، لاستثمارها زراعياً ، يؤدى إلى نتائج استغلالية أفضل وأسرع ، لو أنها أنفقت فى سـيناء ، حيث الجو أكثر اعتدالا ، والاستجابة للحياة أقرب منالا . .

توزيع قواتنا فى سيناء

ولو أن الأنباء كانت متاحة من جبهة القتال ، لتنبه السلاح الجوى المصرى ، ولصدرت له الأوامر بالتدخل فى المعركة فى وقت مبكر جداً ، عن الوقت الذى تحركت فيه الطائرات اليهودية . . .

ويقول الخبراء العسكريون ، إن سوء الحظ البالغ الذى صادف مصر فى هذه العملية لايحدث إلا مرة كل مليون مرة . . .

وحتى بعد أن حدث الهجوم الجوى . فإن القيادة العليا لم تتلق التفاصيل الكاملة عما حدث ، فى وقت مناسب ، نتيجة للارتباك الخطير . الذى ساد الموقف كله .

فقد النفس

ماحدث فى القيادات العسكرية ، وقد تحطم سلاح الطيران ، هو شىء يشبه الدوامة ولا سيا بعد فقد وسائل الاتصال كلية .. وقد أعطت دراسة المجلة الألمانية التى قدمنا بها هذا البحث ، صورة تقريبية للموقف .

وفى حديث المصارحة الذى ألقاه جمال عبد الناصر عن هذه العمليات قال :

« لقد كانت الأخطاء التى وقعت فى إدارة المعركة أكبر من شجاعة هؤلاء الرجال ، ومع ذلك فإنهم أعطوا وبذلوا واستبسلوا ، وبرز من بينهم الأبطال ، وسقط من وسطهم الشهداء » .

وهذا حق عن دور المحاربين فى المعركة . . ولا عبرة بالكلام الذى تناثر عن وجود أفراد تخلوا عن واجبهم ، وآثروا النجاة بأنفسهم ، فالفرار من الجيوش أثناء المعارك أمر معروف ، وقد حدث ويحدث على مر التاريخ ، ولكنها أمثلة نادرة وقليلة . . . وما حدث فى سيناء كان أقل من القليل وفى مجال المصارحة قال الرئيس جمال عبد الناصر أيضاً من هذه النقطة :

« هناك أفراد تصرفوا بغير تقدير للمسؤولية ، ولكن ليست هناك وحدة تركت موقعها بغير أوامر .

« كان واضحاً أن جهاز القيادة أصيب بارتباك فور بدء المعركة وفور تلقيه مفاجأة الضربة الأولى فى الطيران ونتائجها » .

ونذكر بعض أمثلة على قدرة وحداتنا على الصمود . بعدزوال التأثير المفاجىء، لعملية الهجوم الغادرة ، التى تحركت وأمامها ستار الأمان الذى نسج فى واشنطن ، وحملته الرسائل ، والرسل . . .

من هذه الأمثلة ما حدث فى أبو عجيلة ، فقد التقى لواء مدرع من الفرقة السابعة ، مع لواء يهودى ، وأثمر الاصطدام الأول تحطيم ١٧ دبابة يهودية فى لحظات . وتبعتها ٨ دبابات أخرى وأزاء هذه الحالة أصدر القائد اليهودى أمره بالانسحاب ، وتوارى عن الأنظار حتى أنجدته أربع طائرات « مستير ٤ » من قاذفات الصواريخ ، وهاجمت دبابات مصر .

وفى معارك الكونتيلا ، كانت خسائر اليهود ثلاثة أمثال الخسائر المصرية . وظهر بوضوح كيف أن القائد المصرى أكثر كفاءة من خصمه اليهودى ، والجندى المصرى أثبت قدماً وأقوى على المواجهة .

وفى معركة العريش الضارية فقـــد العدو ١٢ طائرة وجمع مقاتلونا بطاقات الطيارين القتلى .

ونتيجة لأوامر الانسحاب السريعة : التى كان سببها الارتباك ، لم يتيسر حتى أتاحة الفرصة لوضع خطة انسحاب منظمة على أصول عسكرية سليمة ، إذ أن القائد كان يرسل أوامره مباشرة مع أفراد دون الرجوع إلى هيئة العمليات .

وترتب على هذه الحالة أن نصف القوات الأرضية التى لم تكن على الحدود ، لم تر العدو ، وأخذت تنسحب دون تنظيم ولا أوامر تفصيلية .

ولكن فى وسط هـــذا الجو ، برزت نقط مضيئة جديرة بكل إجلال .. فإن اللواء العاشر الذى حارب معركة جبل لبنى ظل صامداً مدة يومين ودبابات العدو تحيط به دون أن تجسر على الاقتراب منه . وعلى الرغم من القصف الجوى المستمر الذى لم يتوقف لحظة واحدة ، فإن مدافع هذا اللواء المضادة المركبة فى الدبابات ، أفسدت عليه كل خطط الهجوم ، حتى أن بعض مواسير هذه المدافع انصهرت من كثرة الضرب ، ولم يتيسر وجود بديل لها أثناء المعركة .

وقد أصيب قائد هذا اللواء فى المعركة ونقله الأطباء إلى خط خلفى ، فأفلت منهم ودماؤه تنزف من صدره ، وعاد عودة بطل وسط جنوده وضباطه ، وظل فى موقعه حتى غاب عن وعيه ، وبهذا وحده أمكن نقله لإسعافه .

وعلى الرغم من الجحيم الذى كان يصبه العدو على هؤلاء الجنود البواسل ، فإنه عندما بلغتهم الأوامر فى اليوم الثالث بترك موقعهم فى القتال ، تحركوا فى نظام تام ولم يفقدوا إلا ١٨٪ من مدرعاتهم ، فى حين أن العدو فقد أضعاف هذا الرقم . فلما عبروا إلى الضفة الغربية ، طلب منهم متطوعون مع ١٤ دبابة للتوجه فى هجوم مضاد إلى العريش تقدم جميع الضباط والجنود لأداء هذه المهمة الانتحارية ، وتم اختيار العدد المطلوب بالقرعة .

وقد صاحبت هذا « القول » طائرتان سوخوى ، تمكنتا من طرد طائرات العدو التى هربت من أمامها مذعورة وزحفت القوة سبعين كيلو متراً فى اتجاه العريش ، حتى امتلأت السماء من فوقهم بالطائرات المستير والميراج ، وسقطت طائرة سوخوى وعادت الثانية إلى قاعدتها ، واستعمل العدو قنابل النابلم ، التى دمرت دباباتنا ، وأوقفت هذا الزحف الجرىء . . .

لم تكن نزهة عسكرية

وما حدث فى شرم الشيخ ، تقدم وصفه عن طريق المراسل الألمانى لدير شبيجل بتفصيل واف ، وقد ذكر قبل ، كيف أن موشى ديان أوشك أكثر من مرة أن يطلب من أمريكا دعوة مجلس الأمن لإيقاف القتال ، وهو فى شك مريب من إمكان نجاح حربه الخاطفة ، ووصول الاختـــراق للجبهة ، والتطويق فى « ممر متلا » بالسرعة التى تم بها ، ولا سيما بعد أن جاءته أنباء الخسائر الفادحة التى وقعت لعدد من لواءاته .

سأل ونستون تشرشل الإبن ، بن جوريون ، كبير اليهود المعاصرين عما إذا كان سعيداً بنتيجة الحرب ، فأطرق فى حزن وصفه الكاتب فى كتابه ، وقال :

« دفعنا ثمناً عزيزاً وغالياً جداً . . .

« قتلت زهرة شبابنا فى هذه الحرب .

« . . . الثمن غال كما ترى » .

وفى شهر نوفمبر الماضى ، أى بعد خمسة أشهر من هذه الحرب ، أذاع التلفزيون الفرنسى حديثاً مصوراً لموشى ديان ، قال فيه للفرنسيين بكلمات واضحة صريحة ، إن الجيش المصرى ، قاتل فى حرب الأيام الستة بطريقة تثير الدهشة والعجب ، فإن كل جندى لم يتخل عن سلاحه ، حتى بعد أن نفذت ذخيرته ، وأنهم قاتلوا قتالا لم يره اليهود منهم فى الحربين الماضيين . ثم عرض التلفزيون لقطات سينمائية للجنود المصريين فى حربهم الأخيرة ، وهم يواجهون اليهود فى بسالة عظيمة . . .

وقد دهش المصريون فى فرنسا الذين رأوا هذه الإذاعة التلفزيونية ، وعجبوا كيف تحول موشى ديان إلى مدافع عن بسالة المصريين ، مع أنه كان يرفع عقيرته بحديث عكس هذا فى شهر يونيو ، وخمر النصر ما تزال تدير رأسه . . .

وتفسير هذا الإنقلاب أن القائد اليهودى لم ير داعياً لإنكار حقائق عن الجيش المصرى ظهرت بها أقلام المعلقين المحايدين . . . كما أنه كان يتحدث إلى فرنسا ، ويريد اكتساب عطفها من جديد ، بعد أن وقف رئيسها ديجول موقف شهامة ورجولة صادقة من حرب اليهود القذرة ضد العرب .

وقد جرب اليهود « المسكنة » ونالوا من خيرات المحسنين الكثير والكثير.. نالوا الطائرات والمدافع والقنابل ، التى كادت تشعل الحرب العالمية الثالثة ، وما زالت نذرها مستمرة ، وعودة ثقاب أحمق قد يؤدى إلى الإنفجار الخطير . . فلماذا لايعود اليهود بالذات فى فرنسا إلى أسلوبهم القديم . وحتى يصدقهم الفرنسيون ، فقد عرضوا مستنداتهم ، وهى أشرطة جنود مصر فى الحرب الأخيرة . . الأشرطة التى تظهر بلاء هؤلاء الجنود وصدق معدتهم .

الموقف الآن

الموقف الآن ، وقد دخلت سنة ١٩٦٩ ، ومضى المعتدين حوالى عامين فى سيناء . . ما هو ؟

هنا نقف ، ومن الواجب أن يكون كلامنا بحيث يفيدنا ، ولا يستفيد منه العدو..

وقد قال الرئيس فى خطاب ٢٢ نوفمبر ، أى قبل ثلاثة أشهر من كتابة هذا الكتاب ، إن قواتنا البرية والجوية أقوى مما كانت قبل العدوان فى ٥ يونيو سنة ١٩٦٧ .

وهذا الكلام بالغ الدقة والأهمية . .

فإن ما فقدناه فى سيناء هو نصف فرقة من الجنود ، وكثير من السلاح . .

أما السلاح فقد عوضناه بما هو خير منه ، وكذلك الطائرات ، فإن أنواعاً حديثة جداً منها قد وصلت ، وقد عرف الآن أن قواتنا الجوية فى الرجال لم تنقص إلا أربعين طياراً عوضوا ، وزاد عددهم كثيراً . .

ويكفى فى تقدير عدد جنودنا المتأهبين للمعركة القادمة أن فرقتين كانتا فى اليمن ، عادتا إلى الخدمة فى مصر ، بكامل السلاح ، وكامل الخبرة المستفادة فى معارك السنوات الخمس هناك . وإن كان هناك فارق كبير بين حرب الجبال ، ومواجهة العصابات والقبائل المتمردة ، والحرب الحديثة ضد إسرائيل .. إلا أننا مع هذا فى أمس الحاجة إلى صلابة هؤلاء الرجال البواسل ، وإخوانهم الذين سبقوهم إلى شرف الخدمة هناك . . فالقتال المنتظر فى سيناء ، ستكون فيه جبال أيضاً .. ومستعمرات اليهود عند تطهيرها من العدو ، سوف تحتاج إلى كثير من الحيل وضبط الاعصاب الذى تعلمه مقاتلونا فى اليمن .

والرجال جميعاً يملأ نفوسهم معنى واحد ، وهو الثأر لما حدث ، ولهذا فإنهم يقبلون على التدريب الشاق العنيف بصدور وقلوب واعية .

وقد ثبت بعد التجارب التى مرت بنا بعد ٥ يونيو الكثير مما نريد أن نقوله ، ومما تزال فى ذاكرة الناس الكثير فى هذه التفاصيل .

فمعركة رأس العش ، وإغراق المدمرة إيلات ، والمبارزات بالمدفعية عبر القناة ، وكان من أهمها الرد العنيف القاسى الذى رده المصريون بالمدفعية الثقيلة فى قطاع القنطرة على اليهود ، لأنهم تعرضوا بالرشاشات لزوارق اختبار القاع فى مواقع معينة بقناة السويس . وقد ظل العدو ساعات يحمل قتلاه وجرحاه ويحاول إخماد النار التى اشتعلت فى مراكزه على الضفة الشرقية لقناة السويس . وقد هز هذا الرد اليهود وراحوا يحسبون ألف حساب للمستقبل .

ولقد تتابعت مبارزات المدفعية ، حتى أصبحت عملية مستمرة تقريباً ، وأخليت منطقة القناة من المدنيين والمصانع تقريباً ، حتى لا يكون هناك قيد على معاملاتنا مع العدو فى المستقبل . كما أن أسلحة حديثة دخلت المعركة من جانبنا ، ووردت لها إشارات فى البلاغات الرسمية ، منها الصواريخ والطائرات المروحية والطائرات العمودية ، وقد كبدت العدو خسائر فادحة حملت موشى ديان على أن يصف جبهة سيناء بأنها أكثر الجبهات حركة .

وقد نشرت جريدة الأهرام فى عدد ١٩٦٩/٤/٧ برقية من تل أبيب ، تتحدث عن العبء المالى الذى تكبده معارك الجبهتين الشرقية والغربية لإسرائيل ، وكذلك المقاومة الشعبية فى الأراضى المحتلة . وهذه البرقية قاطعة الدلالة على أن تصعيد الحرب ، يوشك أن يصل بإسرائيل إلى حالة الانفجار فى داخلها على الحدود .

وهذا نص البرقية :

تل أبيب فى ٦ — و . ا . ف — أعلن الجنرال باكوف هيفتز المستشار المالى لرئيس الأركان أن ميزانية الحرب الإسرائيلية لعام ١٩٦٩ / ١٩٧٠ هى أعلى ميزانية عسكرية فى العالم بالمقارنة بالدخل القومى .

فميزانية أمريكا العسكرية لاتصل إلى ١٠ ٪ من الدخل القومى بينما ميزانية اسرائيل تزيد كثيراً عن هذه النسبة .

وأضاف هيفتز — وكان يتحدث على راديو القوات المسلحة الإسرائيلية أن الميزانية العسكرية قد ارتفعت إلى ضعف ميزانية ماقبل حرب يونيو مرتين ونصف مرة .

وقال هيفتز أن آخر ٤ معارك مدفعية على قناة السويس قد كلفت إسرائيل ذخائر يبلغ ثمنها مليوناً و٦٠٠ ألف دولار ، وأن متوسط الانفاق الحربى اليومى يبلغ مليونى دولار .

وقال إن هذه الميزانية التى تصل إلى ٢٥٠٠ مليون جنيه إسرائيلى (٢٩٧ مليون جنيه استرلينى) تعتبر نسبياً أعلى من الميزانية العسكرية فى أمريكا .

الحرب فى الجبهة الشرقية

عندما تحركت القوات اليهودية لاحتلال القدس القديمة ، حشدت معها عدداً من الصحفيين والمصورين الذين يمثلون جرائد وإذاعات العالم الغربى ، ومن بين هذه الكوكبة ، كان دونالد ماكولين المصور ، وكولين سمسون المراسل الحربى ، يمثلان الجريدة اللندنية المعروفة الصنداى تايمز .

ومن عجب أن محطة الإذاعة البريطانية ، أذاعت صباح يوم الثلاثاء ٦ يونيو أن المدينة المقدسة سقطت فى يد اليهود ، فى حين أن القتال كان لا يزال دائراً على أبوابها ، مما يدل على أن عناصر كثيرة فى العالم الغربى ، كانت على علم بما سيحدث ، وتحدثت عنه ، على أنه وقع فعلا . . . إن المؤامرة الكبرى كانت مفاجأة لنا فى العالم العربى ، ولكنها لم تكن كذلك لدى البعثات العسكرية الإنجليزية والأمريكية ، التى انسحبت فى هدوء من الأردن قبل الحرب بأيام ، وبغير ضجة ولا إعلان . . ولم تكن سراً على عناصر الإعلام والدعاية التى أزدحمت بها إسرائيل ، واستخدم أفراد منها فى عملية التغطية ، وإطلاق ستائر الدخان كما حدث مع راندولف تشرشل الذى سافر من إسرائيل يوم الأحد ٤ يونيو سنة ١٩٦٧ معلناً قبلها أن الحرب لن تقع . . وذلك عن لسان موشى ديان ! !

* * *

تمتد الحدود بين الأردن وإسرائيل أكثر من ٦٠٠ كيلو مترا وحراسة هذه الحدود [حوالى أربعة أمثال الحدود المصرية مع اليهود] يتطلب قوات كثيفة على طول هذا الامتداد . ومع ذلك فإن روح القتال لدى الجيش الأردنى كانت فى أوجها . فإن التسمية الخادعة ـ شرق الأردن وغربه ـ لم تخدعهم عن الحقيقة ، وهى أن فلسطين كلها هى بلادهم ، وترابها هو معاشهم ومعادهم ، والأجداد من آلاف السنين ، هم الذين كونوا فلسطين إسماً ، ورسماً . . . وما كانت ألاعيب الاستعمار فى هذا القرن ، بقادرة على محو الحقيقة التاريخية الكبرى ، وهى أن غرب الضفة وشرقها ، هما كباطن اليد وظاهرها يكونان معاً شيئاً واحداً لا انفصال له . . .

بدأت معركة القدس بعد ظهر الاثنين ٥/٦/١٩٦٧ بقليل ، وكانت القوات الأردنية ، قد احتلت موقعاً منعزلا لليهود ، فى وسط الأرض الأردنيـة ، تقع فيه جامعتهم القديمة ، وهو جبل المكبر .

وتحرك لواء ميكانيكى يهودى من الرملة عبر ثلاثة طرق للوصول إلى شمال القدس . كما انضمت كتيبة مظلات للهجوم على موقع مدرسة البوليس وسور بحير ، زيدت إلى لواء كامل من جنود المظلات اليهود .

وعند ما أقبل الليل كانت الطائرات اليهودية قد أفقدت اللواء الأردنى المدرع رقم ٦٠ كثيراً من فاعليته ، واستولى العدو على جبل عبـد العزيز ومركز الرادار . وبرغم الضرب المركز العنيف من المدفعية الأردنية لمواقع اليهود وتعويق زحفهم ، إلا أنهم اخترقوا فى الظلام حقول الالغام ، وبمساعدة ثمينة من سلاح الطيران ، ومن العمل الليلى المستمر .

وكان على اليهود أن يجتازوا خمسة أسوار وخنادق ، ليصلوا إلى المدفعية العربية التى كبدتهم خسائر فادحة فى القطاع الشمالى من المدينة .

وفى القطاع الأوسط — الشيخ جارة — كان على اليهود أن يصلوا إلى موقع مدرسة البوليس وبوابة مندليوم . وقد دافع الأردنيون عن موقعهم دفاعاً بطولياً ، وصفه اليهود بقولهم : « لقد حارب الفيلق العربى كأن أفراده شياطين من الجحيم . وقد استشهد فى هـذا الموقع ١٠٦ جندياً من ٢٠٠ كانوا يدافعون عنه ، وذلك من قصف الطائرات المستمر ، والمدفعية الأرضية ، وقد عمد اليهود إلى أنارة الموقع بكشافات سلطت عليه من فوق مبنى اتحاد العمال اليهودى فى المدينة الجديدة [الهستادروت] . وبهذا لم تطش قنابل الطائرات ، ولم تتوقف العمليات الجوية خلال الليل .

وفى الساعة السادسة من صباح اليوم التالى ، استولى اليهود على المستعمرة الأمريكية فى القدس القديمة ، وفندق الامبسادور . وبذا سقط الخط الأمامى فى الدفاع عن القدس ، وانسحب الجيش الأردنى . وبدأت حرب المنازل والشوارع . وكان لا بد من دخول الدبابات اليهودية المعركة فى محاولة السيطرة على النيران المتدفقة من النوافذ ومن خلف الجدران ، فتقدم لواء مدرع إلى باب هيرود . .

وفى نفس الوقت كانت قوات يهودية أخرى تحاول الاستيلاء على اللطرون ،

التى دارت فيها معركة رهيبة عام ١٩٤٧ وقتل فيها ٦ آلاف يهودى ، دون أن يتمكنوا من الاستيلاء عليها . وفى الهجوم الجديد على هـذا الموقع سقط من اليهود ٧٠٠ فقط حسب بياناتهم .

وفى داخل القدس اتجهت كل القوات اليهودية نحو هدف واحـد . وهو المسجد الأقصى ، وحائطه الغربى ، الذى يبكى عنده اليهود . وقاد موشى ديان هذا الزحف بنفسه رغبة فى الوصول إلى المبكى قبل أن يصدر قرار مجلس الأمن بإيقاف القتال ، وحتى يكون هو — دون القواد الآخرين — قائد هذا الانتصار الدينى . . . ولـكن المقاومة العنيفة زادت فى المسالك المؤدية إلى المسجد الأقصى ، وتحول القتـال إلى مجزرة ، واضطر ديان إلى أن يسحب نفسه من المعركة ، ويركب طائرة هيلوكوبتر ويعود إلى تل أبيب .

وإزاء تمزق لواء المظلات من عنف المقاومة العربية ، توقف زحفهم ، وانسحب جنودهم إلى الخلف لإعادة تنسيق قواتهم ومواصلة الزحف ، مع كتيبتين من الدبابات ، وأسرعت دبابات أردنية للنجدة متجهة من أريحا إلى القـدس فى هجوم مضاد ، وتفرغ الطيران اليهودى كله — تقريباً — للعمل فى الجبهة الأردنية ، وتحرك المظليون تحت ستار كثيف من نيران المدفعية ، ومن نيران مدفعية الدبابات التى كانت تطلق قذائفها فى كل اتجاه ، حتى تداعى كل شيء أمامها .. وكان اليهود يبعدون قذائفهم عن اتجاه حائط المبكى ، إلا أن القنابل الضخمة كانت تهز كل شيء وكأنهـا زلزال ، فتساقطت بعض أحجار الحائط . ووصل اليهود إلى بوابة ستيفن والجسر المقام تحتها . وخشية إطلاق القنابل ، على المسجد الأقصى ، قررت قيادة الجيش الأردنى سحب قواتها إلى التلال المحيطة . .

وأمام حائط المبكى وقف حاخام اليهود الأكبر ، ومن حوله قواد هذه المعركة . وبعد ساعات وصـل ديان إلى المبكى حيث أودع ورقة فى ثقوب الحائط . . وجاء بن جوريون ليقول إنه شهد أروع يوم فى حياته . وكانت توجد لافتة باللغة العربية على الحائط ، فطلب بن جوريون إزالتها ، وتقدم جندى بسونكى بندقيته وخلعها ، واليهودى العجوز يحذره من أن يخدش حجر الحائط !!

كان المرحوم الفريق عبد المنعم رياض يتولى قيادة القوات الأردنية تنفيـــذاً لاتفاقية الدفاع المشترك ، ومعه مجموعة من أكفأ الضباط الأردنيين والمصريين .

وكان أول نبأ تلقته عمان عن قيام الحرب ، هو ما أذاعته محطات اذاعة القاهرة ، وصدرت على الفور أوامر لطائرات السلاح الأردنى المحدودة العدد [طراز هوكر هنتر] بضرب بعض مطارات العدو ، القريبة ، فى ثلاث إغارات متتابعة ناجحة ، ولكن ما لبث الطيران الإسرائيلى ، أن أقبل فى أعداد كبيرة جداً ، وكان ذلك بعد ظهر الاثنين ٥ يونيو بقليل ، وهاجم مطارى عمان والمفرق ، ودمر مافيها من طيارات ومنشئات ، وعلى الرغم من تصدى الطيارين الأردنيين العائدين من عمليات الأغارة للاسرائيليين فى بسالة ، فقد أسقطت طائراتهم .

وبقى للقيادة الأردنية أربعة عشر طياراً ضموا على الفور إلى القيادة العراقية ليكونوا تحت تصرفها .

وكما حدث فى الجبهة المصرية ، بعد امتناع الغطاء الجوى ، فقد تابعت الطائرات الإسرائيلية مهاجمة المدرعات العربية التابعة للواء خالد بن الوليد فى قطاع جنين ، واللواء الأربعين فى ضواحى أريحا . وجزء من اللواء الستين فى هذا القطاع الأخير ، والذى كلف جزء منه بالاشتراك فى الدفاع عن القدس . .

وعلى الرغم من المدرعات التى قذف بها العدو تساعد الطائرات ، لتحطيم المقاومة فى الخطوط العربية ، فإن رجالها كانوا يستميتون فى الدفاع عن أرضهم ومواقعهم ، حتى أن معظم لواء « خالد بن الوليد » أبيد عن آخره .

استمر هذا الصراع الرهيب غير المتكافىء يومى ٥ و ٦ يونيو .

وصول القوات العراقية

وكانت الأوامر قد صدرت فى بغداد بتحرك أربعة من ألوية الجيش لدخول المعركة ، وهى اللواء الثامن ولواء المشاة الأول ، ولواء المشاة السابع والعشرين ولواء المدرعات السادس . . وكان معظم هذه القوات يعمل فى منطقة الأكراد بشمال العراق ، وما أن وصلت إلى الحدود ، حتى تعقبتها طائرات العدو بقصف عنيف مستمر .

وقد كافح الجنود العراقيون البواسل هذا الهجوم ورغم خسائرهم الكثيرة ، فقد تابعوا الزحف سبعة أيام كاملة . . وما أن وصلوا إلى ساحة القتال ، حتى كان قرار إيقاف إطلاق النار قد صدر من مجلس الأمن .

وكان صمود نابلس فى وجه قوات متفرقة أمراً مثيراً للدهشة ، فإن المدفعية ظلت مسلطة عليها ١٨ ساعة ، وهى تقاوم مقاومة صادقة حتى لم تبق طلقة تطلق فسلمت وكذلك اجتاح العدو أريحة والخليل ، ورام الله وحنين أما طولكرم وقليقلة فقد نسفهما اليهود تماماً حتى سويتا بالأرض .

أما القدس ، فقد سقطت ظهر الاربعاء ، والقتال فيها يصور صفحة . . مكتوبة بدماء الأبطال . . وفيما يلى وصف تفصيل لمعركتها .

* * *

وحتى نأخذ صورة مكبرة عن مأساة سقوط القدس ، فسوف نسير مع المراسل الحربى للصنداى تايمز ، الذى صحب أول قوة يهودية أخترقت المدينة حتى المسجد الاقصى .

كان كوابن سمبسون فوق أحد التلال المشرفة على طريق يؤدى إلى باب يافا . وكان الوقت قبل الظهر بساعة ، واليهود يحاولون الاستيلاء على جبل صهيون . وعندما سمع المراسل محطة الإذاعة البريطانية تعلن نبأ سـقوط القدس ،كانت طائرات الميراج قد ألقت حمولتها من القنابل ، ودوت الانفجارات العنيفة ، ثم تبعتها المدفعية الثقيلة التى أطلقت قنابلها ، وهى ترسل الحمم ، وكأنها الزلازل تميد بها الأرض . . ثم توقف الضرب ، وبدا أن كل شىء هدأ وسكن .

انحدر صاحبنا بسيارته من سفح التل ، متجهاً إلى باب يافا ، الذى كان يقع فى منعطف الطريق ، وقبل أن يصل إليه ظهر له أن القوات العربية — لا اليهودية — هى التى ستقابله ، وفى سرعة مجنونة اندفع عائداً وقنبلة مورتار تدوى فوق رأسه ، وقد تفاداها بأعجوبة . . ولجأ إلى المكان الذى تركه من قبل .

وكان جبل صهيون يخفى وراءه طريق أريحا ، وقبر زكريا والباب الشمالى الشرقى للمدينة ، وهو باب القديس أستفان . .

ولمح المراسل بمنظاره المكبر طابوراً يهودياً يتحرك عن بعد ، فاندفع نحوه ، وقال لقائده بخبث .

— ماذا تصنعون ؟ فرد الضابط اليهودى بتفاخر .

— نحن نصنع التاريخ ! ! فقال المراسل :

— وهل يصنع أحد التاريخ بغير الصنداى تايمز ! ؟ دعنى أشاهد ما تعمل وأسجله فى جريدتى ! !

وسار هذا الطابور محنيا ظهره ، حتى لا يصيبه سيل القـذائف المندفع فوقه فى اتجاه المدينة ، وتسلل المعتدون اليهود ، ومعهم المراسل الانجليزى فى حذر ، على سفح الغطاء العشبى ، والشجيرات التى تغطى جبل صهيون وكان لابد لتجاوز هذه المنطقة من تسلق حوائط حجرية قصيرة . . وهذه العملية وحـــدها ، تكشف ولا شك المهاجمين الأردنيين ، ولكن قذائف المورتار الإسرائيلية كانت ستاراً لم يسمح إلا لرصاصات قليلة توجه للطابور اليهودى ، وما أن وصل هـــذا الطابور إلى كنيسة الفرنسسكان ، حتى وجد ١٢ خيمة كانت تستعملها نقطة حراسة أردنية ، تركت فيها بعض متاعها وهى تنسحب ، وأسرع اليهود ، يخلعون أحذيتهم ، ويقيسون أحذية جديدة وجدوها فى هذه الخيام . . وعلى البعد شاهد المراسل الدمار الذى ألحقته قذائف المورتار بالمنطقة ، وكان لابد لاجتياز الطريق إلى الطرف الجنوبى لحائط المبكى والمسجد الأقصى من حماية أوفر . . فطلب قائد الطابور دبابات ، وبعد قليل أقبلت ثلاث دبابات شيرمان تشق الطريق للبوابة الفاصلة . وباستعمال اليهود ، لقنابل وقذائف المورتار تحركت القوة ببطء ، لتجد بعد عشرة أمتار الألغام تنفجر تحتها ، وسيلا من الرصاص يغمرها . . ولو استعمل الأردنيون قذائف المورتار لأفنوا هذا الطابور كله . . ولكنهم كانوا يتفادون رصاص المدافع الرشاشة بالوثب وراء أى ساتر وتساقط اليهود قتلى وجرحى .

وفى هذه اللحظة ، كانت الدبابات الأردنية قد انسحبت فوق المرتفعات وأخذت تصب نيرانها على المهاجمين من عدة أماكن .

ورداً على هذه النيران العربية ، وجه قائد الحملة مدافع البازوكا إلى أبواب المسجد الأقصى ، ودمروها . . وعندها وجد قائد القطاع العربى ، أن استمرار الالتحام سيؤدى إلى مزيد من التدمير للمسجد الأقصى ، فتوقف عن الضرب .

وزاد عدد الدبابات اليهودية المتدفقة إلى الساحة من كل اتجاه ، والقناصة العرب مستمرون فى إطلاق قذائفهم على المعتدين ، وكانت مدافع الدبابات ترد فى كل اتجاه ، حتى أسكتت المقاومة ، بعد أن أصبح الدمار وسط المدنيين شاملا . .

وهدأ كل شيء ، وهنا أقبل موشى ديان ، ليقول لمراسل « الصنداى تايمز »: إننا نستحق هذه المدينة !!

وأقبل زعماء اليهود بعد ذلك ، والشمس الحارقة تلهب رؤوسهم ، ينتظرون دورهم لكى يقبلوا حائط المبكى ، ويغرقوه بدموعهم . وفى المساء أقبل ليفى أشكول مختالا كالطاووس ، وكانت قذائف متناثرة ما تزال تسمع هنا وهناك . . وانهمك الجنود اليهود ، فى فتح السيارات العربية الخاصة على جوانب الطرق ، وأخـذوا يفكون منها أجهزة الراديو ، وأى شيء يمكن الحصول عليه . . وبينما كان اثنان من اليهود يهرعون إلى الحائط ، عاجلهما زميل ثالث لهما بمدفعه الرشاش ظنا منه فى غسق الليل أنهما عربيان يريدان الانتقام .

وقد حرص اليهود على إخفاء خسائرهم فى مهاجمة المدينة ، ولكن من اللمحات القصيرة التى نشرت ، ظهر أن الثمن كان فادحاً .

* * *

الجبهة السورية

والقليل يمكن أن نقوله عن الجبهة السورية . . لم تكن الجبهة السورية مواجهة بقوات إسرائيلية ذات شأن ، اللهم إلا أهل المستعمرات اليهودية ، الباقين بعد تجنيد الشباب المشتركين فى الجيش العامل ، وهؤلاء رحلوا إلى الجنوب فى حرب سيناء . .

فمستعمرة « دان » مثلا ، يبلغ عدد سكانها ٥٠٠ شخص أخذ منهم خمسون فى التعبئة العامة ، و ٢٤ للعمل فى الخنادق التى انشئت كخط دفاع شمالى ، والباقون فى القرية سلحوا مدفعين مورتار غير الأسلحة الخفيفة . . .

وكل ما عمله اليهود فى مواجهة الزحف السورى المحتمل ، هو أنهم أغرقوا طريق المرور بين الجبال ، حتى صيروه أوحالا لاتصلح لزحف المدرعات . . وكانت المدفعية السورية فى أعلى السفوح الجبلية تسيطر على السهل تحتها تماماً . .

* * *

وقد شن الجيش السورى ثلاث هجمات برية ، قوام كل هجوم كتيبة واحدة ، وذلك للإستيلاء على مستعمرات تل دان ، ودان ، وشيار باشوف . وكلها تقع قرب الحدود الشمالية الشرقية . وكان ذلك يوم الأثنين ٥ يونيو . والغرض من هـذا

الهجوم ، هو تحويل أنظار اليهود إلى هذه المنطقة ، وسحب قواتهم إليها ، ثم دفع كتلة الجيش السورى المحتشد بين القنيطرة والجرك ، إلى اجتياح مستعمرة مشمار هاياردن ، والاتجاه غرباً نحو حيفا ، مع اتجاه طابور آخر متفرع من هـذا الزحف إلى الناصرة ، كما كان هناك خط زحف ثان عن طريق وادى الأردن يتجه غرباً نحو عفولة . وفى حالة نجاح الهجومين ، فقد وضعت خطة للزحف إلى عـكا عن طريق الأراضى اللبنانية ..

ولـكن ما حدث غير ما وضعت عليه الخطة . فقد بدأ للقيادة السورية ، أن تتريث فى التنفيذ ، وأن تعتمد على خط دفاعها المتين فوق الجبال الفاصلة بينها وبين الحدود ، والذى زودت بمدفعية ذات فاعلية شديدة ، عددها ٦٥ مدفعاً ، حسب تقديرات اليهود ، وهذا غير الدبابات (٣٠٠ دبابة) وقاذفات الصواريخ التى تصل قذائفها إلى مسافة ستة عشر كيلو متراً . .

وهذه غلطة كبيرة ، وهى الاعتماد على خط دفاع حصين ، يظن أنه غير قابل للاختراق أو التطويق ، فإن عقلية « ماجينو » انتهت فى أوائل الحرب العالمية الثانية عندما أئتمنه الفرنسيون على حدودهم مع الألمـان ، فإذا بفرق البانزر الألمـانية تطوقه ، فتقع فرنسا كلها من ورائه فى يد العدو .

وربما كان هذا هو الموقف فى تحصينات أبو عجيلة على حدود سيناء الشرقية ، التى التف العدو من حولها وترك حصاراً يثبت قواتها .

إن الحرب الحديثة ، هى حرب الحركة لا الوقوف ، وهى حرب الهجوم لا الانتظار والدفاع . .

وفى انتظار الأيام الثلاثة التى لم تتحرك فيها القوات السورية ، أمكن للعدو أن ينقل قواته وأسلحته إلى جبهته ، وأن يركز هجوماً جوياً مروعاً على كل الاستحكامات السورية ، وفى يومى الخميس والجمعة ٨ و ٩ يونيو ألقى اليهود كميات هائلة من قنابل المـاترا زنة ٥٠٠ رطل ، وقنابل النابالم التى تصهر صلب الدبابات .

وقد أثرت هذه الهجمات المركزة على المـدافع المضادة وكل ما يتحرك على عجل أو جنزير ، أما المدافع الضخمة الغائرة فى تحصينات الجبال فلم تنل منها . . .

وعلى الرغم من الأمر بإيقاف القتال صباح الجمعة ٩ يونيو ، فقد انهمك اليهود فى إحضار تعزيزات من الجبهة الأردنية والجبهة الجنوبية ، ثم شرعوا فى اختراق الحدود والتسلق على سفوح الجبل الشديد الانحدار من نقطتى «عين نيسا» و «زاوورا» وعلى الرغم من الخسائر الفادحة التى منى بها اليهود ، فقد تمكنوا من تطويق الاستحكامات السورية والاستيلاء عليها ، لأن الضرب السورى على الطوابير الزاحفة لم يكن مركزاً ومانعاً من التقدم .

وفى يوم السبت ، اتجه اليهود إلى القنيطرة ، وكانت حكومة دمشق أعلنت سقوطها ، ولم يجد اليهود فيها غير الأهالى الذين دافعوا عن مدينتهم مستبسلين ، ولكن بعد ساعة ونصف ساعة من القتال اليائس انتهت المعركة .

وكان هناك طابور يهودى آخر دخل سوريا من الطرف الجنوبى لبحر الجليل واستولى على منطقة التوافيق الوعرة .

وقد استعمل اليهود فى معركتهم بجبال سوريا طائرات الهليوكبتر ، بوفرة ، سواء فى نقل المظليين إلى الخطوط الخلفية ، أو الإرشاد عن أماكن الاستحكامات أو المدفعية . . .

وسارعت عناصر من السلطات المسئولة فى سوريا إلى حلب وبدء توزيع السلاح على أهالى دمشق استعداداً لحرب الشوارع فيها ، ولكن اليهود ، لم يتقدموا من القنيطرة . . .

وكان يوم السبت فى معركة سوريا هو اليوم السادس لحرب اليهود ضدنا .

دروس النكسة

ألقى تشرشل الأب بياناً أورده فى مذكراته عن معركة دنكرك التى خسرها الإنجليز أمام الزحف الألمانى فى الحرب العالمية الثانية ، قال (الكلام موجه لمجلس العموم) :

« إن على المجلس أن يعد نفسه للاستماع إلى أنباء قاسية وشديدة . ولكننى أود أن أضيف أنه مهما حدث فى هذه المعركة ، ومهما يحدث فى المستقبل . . . فلن يضعف من إيماننا بقدرتنا على شق طريقنا . كما وقع لنا فى ظروف مماثلة فى تاريخنا الطويل ، حيث سرنا عبر الكوارث والآلام ، لنلحق الهزيمة الأخيرة بأعدائنا » .

وكان على انجلترا أن توجد وسائل لنقل جنودها من دنكرك على الشاطىء الأوربى إلى شواطىء إنجلترا ، بأسرع ما يمكن ، مع الاستعداد لتحمل خسائر فادحة فى الجنود وهم على الشاطىء الرملى ينتظرون بغير سلاح تقريباً ، وهم فى البحر يحاولون العبور .

وكان كل ما أمكن العثور عليه أربعين زورقاً بخارياً ولنشاً . وذلك بواسطة البحث السرى السريع . ولكن ما أن أذيع نداء بحاجة الإمبرالية البريطانية إلى زوارق ، حتى اندفع من يملك زورقاً شراعياً أو بخارياً ، إلى شاطىء دنكرك ، وإذا بحشد لا يقل عن ٨٦٠ قارباً يندفع لأداء الواجب : وقد أمكن بهذا الخليط الغريب من إنقاذ مائة ألف جندى ونقلهم إلى أرض الأمان ، وذلك تحت سماء امتلأت بالطائرات الألمانية التى لم تنقطع عن إرسال شواظ من النار على هذه الزوارق .

قال تشرشل الكبير فى مذكراته .

« كان العدو يتابع مطاردة عملية الانسحاب . . . وصمد عشرات الألوف من الجنود على الشواطىء ، وبين الكثبان الرملية ، حوالى خمسة أيام ، أمام قصف جوى

مستمر لا يرحم . . ولكن ثبت أن القصف المستمر من الجو لهذه الحشود الكبيرة من الجنود على الشاطىء لم يلحق بهم أضراراً كبيرة . وفى المراحل المبكرة ، وبعد غارة جوية صاعقة ، ذهل الجنود أشد الذهول عندما رأوا أن أياً منهم تقريباً لم يقتل أو يصب بجراح ، وقد وقعت الانفجارات فى كل مكان ، ولكنها لم تصب أحداً تقريباً . ولو كانت الشواطىء صخرية ، لكانت النتائج قاتلة وعميتة » .

وقال تشرشل عن أسطول الإنقاذ :

« كان عدد هذه الزوارق الهائل ، هو وحده الذى تحدى الغارات الجوية . وثبت أن أسطول البعوض (كما أسمى وقتها) الجبار لا يغرق . وهكذا تألق المجد ، وسط الهزيمة . وسطع على شعب الجزر البريطانية ، وقد اتحد فى مشاعره ، فغدا صعباً على الهزيمة . وستظل قصة شاطىء دنكرك متألقة فى كل ما نحتفظ به من سجلات » .

وكثير من الألفاظ التى استعملها تشرشل ، تصلح وصفاً لانسحابنا من سيناء بأقل ما يمكن من خسائر الأرواح ، وصمودنا غرب قناة السويس الآن ، استعداداً لاستمرار المعركة هو تكرار لما حدث فى الحروب الأخيرة . وقد أشار الرئيس عبد الناصر إلى دنكرك ، وتحدث عن ارتداد الروس أمام جيوش هتلر حتى أبواب موسكو ، على خط طويل نهايته فى ستالينجراد ، ثم ما لبث الجزر أن تحول إلى مد ، واندحر المعتدون . . وأشار إلى ما حدث للأمريكان أمام الهجوم اليابانى فى بيرل هاربور ، والفلبين ، والإنجليز فى الملايو ، وكلنا يعلم كيف انتهت هذه الحرب .

إن الهزائم الأولى فى المعارك الحاسمة لا تعنى شيئاً ، لأنها فاتحة عمل وليست خاتمته . وهناك عوامل هامة يجب أن نضعها فى حسابنا ، ونحن نرسم صورة المستقبل ونمهد الطريق الذى سننطلق فيه . . .

دروس النكسة :

وأول شىء ، هو ألا نضيع الوقت فى التماس أعذار للنكسة ، ولكن علينا أن نمعن فى دراسة أسبابها ، والوقوف عند أهم وأصغر التفاصيل . . .

لقد رأينا خطة العدو انصبت على عدة أمور منها :

١ — تفادى شبكة الرادار المصرية بالطيران المنخفض .

٢ — الضرب المنخفض .

٣ — زيادة مدى الطيران لطائراته .

٤ — استعمال متفجرات محسنة ، ذات حفارات تخترق الغطاء الخراسانى وتنفجر تحته انفجارات متعاقبة .

ومعروف علمياً ، أن الرادار يكشف حركة الطيران ، على ارتفاع كبير ، وذلك بسبب كروية الأرض . فإذا قل ارتفاع الطيارة عن ٥٠٠ متر تعذر على أشعة الرادار الإنذار بالحركة .

وكان يمكن فى أحداث ٥ يونيو سنة ١٩٦٧ أن تقوم أجهزة رادار الأردن برصد الطائرات وهى تتحرك من إسرائيل .

والرد على صعوبة الكشف عن الطائرات المنخفضة، ممكن جداً بداوريات الطائرات المستمرة . وقد عرف العدو مواعيد الداوريات المصرية ، فدخل المجال الجوى المصرى ، مابين ورديتين . ولهذا يجب أن تكون عمليات التحليق الكاشف مستمرة ، وتقوم بها طائرات صغيرة ، قليلة التكاليف ، ولكنها تحمل أجهزة لاسلكى جيدة .

وأما عمليات التشويش ، فتتم عادة إذا أمكن للعدو الحصول على موجة الارسال وما جرى عليه العمل فى بعض الجيوش الكبيرة ، هو أن مجال الإرسال يتم على عديد من الموجات ، يمكن التبادل بينها ، وتخصص موجات لوقت الاشتباك . وقد ظهر خطأ الاقتصار على موجة أصلية وأخرى احتياطية وإصلاح هذا الخطأ ميسور جداً .

وزيادة مدى الطيران ، أمر بالغ الأهمية . إذ أن طائراتنا عند معركة ٥ يونيو لم تتمكن بحسب مداها المحدود ، من الوصول إلى المطارات الشمالية فى إسرائيل ، وهى التى ركزت فيها طائراته . ولهذا فن الواجب الاعتماد على طائرات بعيدة المدى ، مع تزويدها بخزانات بطن إضافية .

وقد قيل كلام كثير عن المخابىء التى تحمى الطائرات من القصف الجوى ، وهو أمر مستطاع جداً . . إلا أنه لايحمى مدارج الطائرات .

ومن تجارب الحرب العالمية الثانية ، عملت أنواع من شبكات الحديد التى تنفصل وتتصل حسب الطلب ، وتوضع عقب القصف الجوى ، فوق الفجوات التى تحدثها القنابل فى ممرات الطيران . وذلك حتى يصلح العطب .

ولكن الزيادة الكبيرة فى قوة التدمير، حتى أمكن لقنبلة واحدة أن تحدث فجوة عمقها ٤٥ متراً ، دعا إلى إعادة البحث فى تصميم الطائرات نفسها ؛ بحيث أمكن الوصول إلى طائرات تستطيع الارتفاع عمودياً ، أو بعد مسافة قصيرة من حركتها على الممرات الأرضية.

وأما الأشعة تحت الحمراء التى توجه القنابل على مسارها حتى تصل إلى الهدف ، فيمكن تلافيها بحركة يسيرة ، وهى إغلاق جهاز الرادار لفترة ثوان ... وذلك لأن الشعاع المنطلق من الطائرة يلتقى بشعاع الرادار ، فإذا قطع الاتصال ، ضل شعاع الطائرة طريقه فى الهواء ، وهو بطبيعته متموج ، وبهذا يوجه القنبلة فى مسار بعيد عن الهدف بعداً كبيراً . . .

ومن هنا نأتى إلى نقطة هامة جداً ، وهى التعاون بين دوائر العلم عندنا ، وقياداتنا العسكرية . .

العلم والمعركة

فقد وضح لنا ، فى الحروب الحديثة ، أنه لا غنى للجيوش الحديثة عن معونة العلماء . وقد رأينا فى الحرب العالمية الثانية ، كيف إن أكبر العقول المفكرة وضعت نفسها فى خدمة قواتنا المحاربة . . حتى كبار الأدباء طلبوا أماكنهم فى العمل ، لإدارة عمليات الحرب النفسية والمخابرات .

وكلنا يعلم أن الذرة انفجرت ، أول ما انفجرت فى معمل جامعى بالولايات المتحدة ..

ولدى مصر طاقة علمية ضخمة ، وفى جامعاتها ، وفى مجتمعها العلمى ، ومن الواجب أن تؤدى دورها فى حل مشكلات الحرب الحديثة ، وتيسير حلول محلية ، وقاية لهذا الوطن من المخاطر التى تحيط به . .

ومن المسلم به ، فى بلاد العالم المتقدم كله ، أن هناك فجوة تحيط عادة بين العسكرية وما يحيط بها من أسرار ، وما تستلزمه من كتمان ، والعلم ورجاله ، وما يتمتعون به من حرية التفكير ، وعدم التزام الأوامر فى الصمت . .

ولكن عندما تكون المعارك ناشبة ، فإن التقدير السليم يجب أن يسود الجانبين وعلى العلماء أن يتقدموا هم لتطوير الفن العسكرى . وإيجاد حلول ملائمة ، وعملية ، وسريعة ، للمشكلات التى ينتدبون لها .

وفى محيط الكيمياء ، والميكانيكا ، واللاسلكى وغيرها من العلوم ، يوجد مجال واسع جداً للتعاون بين العسكريين والعلماء .

والحلول التى أشرنا إليها فيما سبق ، سمعناها من بعض علمائنا . وهم ولا شك قادرون على نقل أفكارهم هذه إلى مرحلة التطبيق .

ومما يزيد فى اطمئناننا على المستقبل ، هو أن العناصر المتعلمة الشابة أخذت مكانها الآن فى صفوف الجيش العامل . فان الجامعى الذى يجلس وراء جهاز الرادار ، يستطيع أن يؤدى دوره خير الإداء ، ولاسيما فى اللحظات التى يحتاج الأمر فيها إلى حسن التقدير ، وتمكن السلامة ، ودحر العدو ، متوقفة على حركة من أصابعه ، فى الوقت المناسب تماماً وفى الاتجاه السليم جداً . . وكذلك الأمر فى سائق الدبابة مثلا ، وقد أصبحت الدبابات قلاعاً متحركة مزودة بأجهزة بالغة التعقيد . فإن مجموعة إدارتها يجب أن يتوفر لها العلم والوعى الكامل ، ولا سيما أن رموزها مكتوبة بلغة أجنبية ، وحساباتها من الدقة بمكان .

وهذا الرقم الضخم ، لايمكن مطلقاً تجنيد كل أفراده ، ولهذا فمن المصلحة الاختيار منه . وكلما كان الاختيار من أوساط المتعلمين تعليما متوسطا وعالياً ، كان ذلك أفضل فى بناء قوة الطيران ، وقوة المدفعية ، وقوة المدرعات ، والبحرية أما المشاة وأسلحة الامداد والتموين ، فإن الجند المصرى العادى هو خير أجناد الأرض طاعة وفهماً وقوة احتمال وصبراً على المعارك .

التموين

قيل كلام كثير ، نشرناه قبل ، عن « ضياع » كميات البترول التى كانت مودعة فى غزة ، وكان فقدها سبباً فى عدم فاعلية الدفاع عنها ضد الهجوم اليهودى . . [كانت المستودعات قد نقلت إلى موقع صحراوى خوفاً على غزة من الحريق] .

وقيل أيضاً كلام أكثر — وهو ثابت — أن الهجوم اليهودى الذى كان مركزاً على المطارات ، صحبه هجوم جوى ، بنفس الدقة فى التوقيت والتنظيم على قوافل ومراكز التموين فى سيناء ، وكلها كانت معروفة للعدو ، وتحركات قوافلها كانت مرصودة .

وتاريخ الحروب فى القرن الحالى ، هو تاريخ التموين ، والقدرة على الاحتفاظ بمراكزه ، وإحسان نقله وتوزيعه . ومعركة العلمين ، ضاعت من الألمان بسبب

تحطيم قوافل التموين البحرية ، وقد ظهر أن أميرال الأسطول الإيطالى بنفسه كان يعطى للحلفاء أنباء تحرك السفن ، ولهذا كان ضربها ذا فاعلية ، وأن نسبة الفاقد تعادل بالضبط نسبة عدم قدرة الجيش على الحركة .

ومعارك الشرق الأوسط التى تدور الآن هى عمليات تموين ونقل .. أى ضمان مصدر من أهم مصادر الحركة فى السلم ، وأهم عوامل التفوق فى الحرب وهو البترول ، ويلى مادة الوقود تماماً وسائل نقلها .

وكان من أهم ماعنيت به حكومة مصر بعد الثورة ، أنها عملت تدريجياً على أن تتمكن الأيدى المصرية من السيطرة على عمليات البترول فى بلادنا .

واذكر أننى اشتبكت — بالقلم — فى معارك صحفية ضارية عام ١٩٥٠ إلى ١٩٥٢ مع الوزراء الحاكمين ، لكى يكون لمصر وجود فعلى بجانب الشركات الأجنبية المشتغلة بشئون البترول فى بلادنا ، وأطلقنا وقتها شعاراً لخص المعركة فى جملة ، وهى أنه « لاتصدير للبترول (الخام) إلا بعد التكرير ، ولا تكرير إلا بعد التمصير » . وينبغى أن ننوه فى مجال هذه المعارك برجلين من أنبل من عرفت بين المصريين ، هما المرحوم الدكتور محمود أبو زيد مدير مصلحة الوقود فى ذلك الوقت ، وأكبر خبراء البترول فى بلادنا ، والصديق الأستاذ محمود فهمى مدير الجمعية التعاونية للبترول السابق . فقد آزرا ووجها صيحة البترول لمصر ، مع المخاطر الكثيرة التى تعرضا لها ، حتى إذا قامت الثورة ، كان من أول القرارات التى رأيت عليها توقيع جمال عبد الناصر قراراً يعطى الجمعية التعاونية ثلث حصة توزيع البترول فى مصر ، وأراضى لاستنباط الخام على شاطئ البحر الأحمر .

وما لبثت أن قامت شركات مصرية أخرى ؛ فى نطاق الملكية العامة ، تؤدى هذه المهمة ، ووضعت للمرة الأولى برامج مدروسة متقنة لتخزين احتياجات البلاد من الوقود وتوزيع عمليات البحث التكرير على نطاق واسع ، شمل شواطئنا كلها ، وموانينا البحرية ، وداخل البلاد أيضاً .

وكانت الخطوة الأخيرة ، هى تمصير جميع عمليات البترول فى بلادنا تطبيقاً للقوانين الاشتراكية ، مع فتح المجال لرأس المال الأجنبى ، والخبرات الأجنبية للعمل معنا فى هذا المجال ، بغير استقلال ولاسيطرة . ونستطيع أن نقول الآن إن مصر هى أغنى بلاد الشرق الأوسط بالخيرات البترولية على جميع المستويات .

بق بعد هذا — شيء هام — وهو الوسيلة التى نضع بها بترولنا فى خدمة المعركة القادمة بغير مفاجآت . ولا جدال فى أن العقل المصرى وصل الآن إلى وضع خططه الشاملة موضع التنفيذ .

ولعل أهم دروس الحرب الحالية ، هى عدم تركيز أجهزتنا البترولية فى منطقة واحدة ، قريبة من ميدان المعارك . وسيظل قطاع السويس ، وما يليه شرقاً حتى نهر الأردن هو ميدان المعارك ، حتى تطهر الأرض كلها من هذا العدو الخطر الخبيث .

وقد أشرنا قبل إلى الماء وأهميته فى حرب الصحراء . . وسيناء صحراء ، والنقب صحراء ، وفى وسع التنظيم الدقيق ، والجرأة فى التنفيذ ، أن نجعل من الماء فى المعركة القادمة ، رحيقاً يروى جنودنا ، ليس بالشحيح ، ولا هو مما يشوى الحلوق فى حرارة الصيف .

ومن التفاصيل الصغيرة فى حرب يونيو — عند الصيف — أن كميات ضخمة من المثلجات أرسلت إلى جنودنا فى الخطوط الأولى دون الاستعانة بأجهزة التبريد ، فتلفت . . وإذن فمن الواجب العناية بالتبريد . .

وما أروع العناية بالتسخين أيضاً ، فإن مطابخ الميدان حين تقدم الوجبات الساخنة ، تشعر الجندى بالعناية به . وكلنا يذكر ما قاله نابليون ، وهو أن أقوى الجيوش هى التى تحارب ببطنها . أى بمعدة ممتلئة .

وقد دفعت الحماسة بعض منتجى « الشربات » إلى إهداء عشرات الألوف من الزجاجات إلى جنودنا فى الميدان . ولكن جنودنا رفضوا تناولها ، حتى يدخلوا تل أبيب . . ، مسألة نفسية ولا شك يحسن أيضاً مراعاتها .

وقرأت لتشرشل الكبير أن الجنرال مونتجمرى اعتذر عن تناول العشاء مع عدد من الضباط ، لأنه اتخذ قاعدة تناول طعامه منفرداً حتى يحتفظ للقيادة بحدودها . فى حين أن رئيس وزرائه والقواد الذين كانوا معه أكلوا معاً بغير كلفة ... إنها مذاهب فى التفكير على كل حال . ولكننا نفضل القائد الذى يكون دائماً مع جنوده ، حتى يطمئن إلى نوع وكم ما يقدم لهم من طعام .

التدريب

لعل أهم ما استفدناه من معركة يونيو سنة ١٩٦٧ ، هو الثغرات التى ظهرت فى تدريب جنودنا . .

نحن لا نعلق على هذا الكلام كثيراً . . ويكفي أن ننقل بعض ما شهد به الأعداء عن صلابتنا في المعركة .

ورد في كتاب « معركة الأيام الستة » ما يأتي :

« يقول الجنرال تال قائد معركة سيناء البرية : إن القوات المصرية كانت حسنة التوزيع والانتشار ، بحيث كانت في أحسن حالاتها لتحركات الدفاع والهجوم وكانت من ناحية في مركز يسمح لها بالاندفاع شرقاً ، عبر الجزء الجنوبي من صحراء النقب ، والاتصال بالأردن ، وبذلك تعزل ميناء إيلات من بقية إسرائيل . ومن ناحية أخرى فمن وجهة النظر الدفاعية ، كان المصريون يسدون جميع خطوط التقدم عبر الصحراء ، وبتجمعات هائلة من القوات في مواقع محصنة تحصيناً قوياً ، بعضها كان معداً من قبل خلال العشرين عاماً الماضية » .

وقال في مكان آخر ما نصه :

وعند ما لاح فجر الثلاثاء ، كان الجنرال تال ، ومعه لواءان كاملان من المدرعات في العريش نفسها ، وقد وصف الجنرال تال المعركة بأنها كانت وحشية . . وقال إن قوة المدفعية المصرية المضادة للدبابات ، ودقة إصابتها للهدف سببت متاعب هائلة لقـــواته » .

وفي مكان آخر قال :

« المدفعية المصرية المضادة للدبابات ، التي كانت تختبيء بين الكثبان الرملية في نظام دقيق ، كانت تضرب الدبابات الإسرائيلية بشدة . وكانت طلقاتها أشبه بموجات الرعد على طول جبهة المعركة . وكان من المستحيل أن نعرف أين توجد مواقع هذه المدفعية . . . » .

وإذن فقد كان هناك قتال ، وكانت هناك معركة كبرى ، وكان في ذهن موشى ديان في كل لحظة أن يطلب إيقاف القتال عن طريق مجلس الأمن . . . وما كان هذا يتم في طلائع الهجوم الإسرائيلي ، إلا لأن بسالة جنودنا وضباطنا : حملتهم على أن يقولوا هذا الكلام . . . وهل كانوا يقولونه إذا لم يكن القتال على مستوى المعركة !

معركة بور فؤاد الفاصلة

قامت مجلة « دير شبيجل » الألمانية بدراسة مفصلة عن طريق مراسليها الذين كانوا في إسرائيل عن معركة ٥ يونيو سنة ١٩٦٧ ، وتضمنت هذه الدراسة بالفقرات التالية :

وكانت خسائر إسرائيل متوسطة وتعادل النصر الذى أمكن تحقيقه حتى الآن[١] ولكن فى يوم ٧ يونيو ارتكبت تل أبيب أول خطأ كبير لها فى المعركة فقد كان ديان مصراً على الوصول إلى بور فؤاد ، ولهذا أرسل ١٨٠ دبابة من العريش إلى جنوب رأس العش ، لتحاول الاندفاع من الجنوب ، تعمل على تطويق القوات العربية كما حدث فى غزة والعريش ، وقد رأت القيادة العربية فى هذه المعركة فرصة لتسديد ضربة قوية للقوات المدرعة الإسرائيلية ، فتركت تلك القوات تتسرب من الجنوب ثم هاجمت الجناح الشمالى للقوات الإسرائيلية وفصلتها تماماً عن بقية القوات الإسرائيلية فى سيناء .

ولأول مرة منذ بداية المعارك كانت القوة الجوية للطرفين متكافئة ... ودارت معارك رهيبة بالدبابات ولكن الوقت قد مضى على انتصارات سيناء . . . ورمت القيادة الإسرائيلية بكل ما لديها فى المعركة لتفك الخناق الذى ضرب على المدرعات ولكن بدون جدوى . . .

ومع طلوع يوم جديد وجد موشى ديان أنه فقد كل قواته المهاجمة وأن مغامرته للإستيلاء على بور فؤاد ومدخل قناة السويس قد فشلت وأصبحت قواته المتمركزة أمام القنطرة ضعيفة . . . وكان الطيران المصرى قد بدأ يعود إلى السماء وإلى جانبه الطيران الجزائرى .

وجاء وقف إطلاق النار ليجلس الطرفان المتحاربان ويقدرا الأخطاء التى ارتكبت فى الحرب ومدى تأثيرها على المستقبل .

قال مراسل المجلة الألمانية :

لقد كنت فى تل أبيب يوم توقف إطلاق النار وكنت أرى على وجه اليهود إحساساً بالقلق بأن المعركة لم تنته بعد .. وقد زاد هذا الشعور عندما قطعت روسيا علاقاتها مع إسرائيل ، لا لأن روسيا كانت صديقة لإسرائيل ولكن لأن قطع العلاقات كان علامة على أن روسيا ستساعد العرب بشكل أفضل الآن أو فى المستقبل .

---

(١) أدق تقدير لهذه الخسائر أن اسرائيل خسرت فى معركة سيناء وحدها ستة آلاف جندى وضابط .

كيف حدثت الهزيمة

ونسأل جميعاً : إذن كيف حدثت الهزيمة . . . كيف حدث كل هذا ؟ والجواب يتلخص فى كلمتين :

« الطيران . . . » وما حدث له . وكلمة « الانسحاب . . . » بغير خطة انسحاب

وقد ظهر فى محاكمة المقصرين خلال حرب الأيام الستة أمام المحكمة العسكرية أن قواعد الطيران تلقت قبل المعركة بيومين — يوم ٣ يونيو — إشارة بأن الهجوم أصبح وشيك الوقوع فى مدى ٤٨ ساعة . ومع هذا لم يتسع خيال قواد الطيران ، لتصور خطة العدو ، وأن الهجوم سوف يتم بالطريقة التى حدث بها ، ولعل من أهم — بل أهم — ميزات القيادة الرشيدة ، هو تصور كل الاحتمالات ، وإيجاد الحلول المناسبة لها . فإذا أفلت منها حل . قد يكون إفلاته وعدم التأهب له سبب الكارثة .. وهو ما حدث .

قال رندولف تشرشل :

« كان النجاح الجوى الذى حققه السلاح الجوى الإسرائيلى خلال الساعات الثلاث الأولى من الحرب ، هو العامل الوحيد الذى ضمن تقدم القوات الإسرائيلية بسرعة من رفح إلى العريش » .

ولكن فى مجال محاسبة النفس ، ورسم خطط المستقبل ، يجب أن نمعن الفكر فى عدة أمور ، وأن نوجد لها حلولا .

فمنها : كيف تقدم العدو من العوجة إلى أم بسيس وقطع حوالى ١٨ كيلو متراً ، فى حوالى ساعة ، مع أن الطريق رملى ، والمعروف فى هذه الأحوال ، أن هذه المسافة تقطع فى أضعاف هذا الوقت حسب طبيعة الأرض .

هذه مسألة تحتاج إلى دراسة : الزحف الليلى ، والزحف السريع جداً مع عوائق الأرض الرملية وصعوباتها ؟

إن الأمر يحتاج إلى مراجعة فنية لنوع المعدات ، ولطبيعة الاختراق التى تمت ، وما من شىء يعز على الدراسة . وكل هذا يدخل فى دور التدريب الجديد ، الذى تم بعناية تامة ، وعقل متفتح بعيد عن التقيد بالنظريات التقليدية . وجهد منقطع النظير قامت به القيادات على جميع المستويات .

استطاع العدو خداعنا مرة .. وأخذ يعد العدة لهذه الخديعة على أوسع نطاق دولى ممكن ، ولكنه يحتاج إلى عشرين سنة أخرى لكى يوجد أسلوباً آخر ، وقوماً يخدعهم على هذه الصورة . .

ومن هنا يجىء وجوم اليهود ، لا فى إسرائيل وحدها ، ولكن فى العالم كله . . فقد شحنوا مصر — مصر إياها — التى تحدثت عنها توراتهم وأنبياؤهم وكهانهم ما تحدثوا . . . شحنوها بكمية من الكراهية ، سوف تكون أقوى من كل الأسلحة ، وأفعل من كل الجيوش .

كلمات لها وزنها

وفى هذا المعنى تحدث الرئيس جمال عبد الناصر إلى الشعب والأمة العربية فى ٢٣ نوفمبر سنة ١٩٦٧ . . قال :

نحن أولا وقبل كل شىء نحتاج إلى وقت لإتمام استعدادنا العسكرى ،لقد استكملنا ، وليس هذا سراً ، مقدرة الدفاع . وكان من العبث غير المسئول فى رأيى أن نتكلم عن العمل العسكرى ونحن غير قادرين على الدفاع . وفى وقت من الأوقات بعد النكسة كانت خطوطنا غير قادرة على صد الهجوم وكانت سماؤنا مكشوفة ، مصانعنا . . مدننا . . قرانا . . كانت كلها مكشوفة للعدو وإذا كنت أقف فى مثل هذا الوقت وأتحدث عن العمل العسكرى فمعناه إننى أتاجر أو أنى أضلل وهذا ما لا أرضاه ، وبعد ذلك فنحن إذا جاء وقت العمل العسكرى لن نكون على موقف الدفاع أى أننا يجب أن نتقدم باستعداداتنا لنستطيع أن نتحمل مسئولية الهجوم . .

أننا سنهاجم لتطهير أرض لنا يحتلها العدو وهذا حق مشروع لنا ، ولكن يجب أن نكون قادرين عليه والتقدم إلى ذلك قبل امتلاك القدرة عليه خطأ فادح وجريمة ، لا يمكن أن نتقدم إلى نكسة عسكرية أخرى . . النكسات ليست مثل نوبات البرد أو الأنفلونزا يمكن أن يتعرض لها الإنسان بين فترة وأخرى كل شهرين أو كل ٣ شهور أو ٤ شهور أو ٦ شهور . ماحدث بالنكسة يجب أن يكون حادثة فى تاريخ مصر لا تقبل التكرار . والمسألة أو صميم المسألة أنه بعد النكسة ليس هناك بديل أمامنا عند ما نقرر ضرورة العمل العسكرى غير تحقيق النصر . . ليس هناك بديل للنصر . . بمعنى ألا يكون هناك نصر ، أى ألا تكون هناك حياة . . شىء أكثر من مجرد الهزيمة . . الاستعداد العسكرى الهجومى بعد استكمال الاستعداد العسكرى الدفاعى يحتاج إلى وقت وعمل . . أقول ذلك صراحة وأقوله من موقع المسئولية .

كلمات للفريق اول فوزى

وإكمالا لهذه المعانى ، وكلها تمهيد للمعركة القادمة ، نشير إلى كلمات حديثة للفريق أول محمد فوزى وزير الحربية ، وجهها للأسرى العائدين إلى الوطن يوم ٢٥ يناير سنة ١٩٦٨ . . والمعنى الهام المستفاد من هذا الحديث وغيره ، أنه واجه المسئولية بصراحة تامة . . قال إن الشعب أصبح الآن يتابع القوات المسلحة وإمكانياتها ، ويسأل عن تطورها ، وهذا حقه ، لأنكم من بين أبنائه ، ولأنه فوجىء بنتيجة المعركة الأولى .

وإذن فهناك وعى كامل لدى قواتنا المسلحة ، بأن ما حدث هو معركة أولى خسرناها . . وأن الجيش « أصبح داخل الإطار الحقيقى للدولة ، ولم يكن كذلك قبل المعركة » . وأكد وزير الحربية الجديد أنه « حصل تكامل بين العناصر الثلاثة الرئيسية للقتال : القائد والمعدات والجند الفرد ، وعندما يتم هذا التكامل تصبح الفاعلية موجودة .

والشواهد على صحة هذا الكلام كثيرة ، وبعضها يدخل فى نطاق الأسرار ، ولهذا فإن هذا القلم الذى احتمل أمانة التعبير عن النضال الوطنى قرابة ثلث قرن ، يستطيع أن يؤكد بذمة المواطن الشريف ، إن ما حدث فى الشهور التالية للهزيمة ، وهو أمل ضخم كنا نترجاه . . هو تفاعل كبير بين إرادة العصر ، والوسائل المؤدية له .

والنصر لايعنى طرد اليهود من سيناء ، ولكن يعنى الثأر لهذه الضجة الظالمة ، والمهانة المرة التى وجهت لنا من معظم منابر الإعلام فى العالم . . والثأر يعنى القضاء على التهديد اليهودى نهائياً على حدودنا . . .

وما يدور فى دخيلة النفس المصرية ، غير ما يبدوا على الوجوه . إن اللا مبالاة التى يلمحها بعض زوارنا من الأصدقاء الأجانب ، هى القناع الذى يضعه شعبنا ، ويخفى به ما يملأ قلبه ! ويحرك وجدانه . . هذا هو سره القديم . . سر شعب أصيل الحضارة ، متين التكوين والبناء ، عقيدته أغلى عنده من أن يضعها فى راية يهتف لها . إنها عقيدة النصر أو الموت ، عند ما تحين الساعة وإن موعدها لقريب بإذن الله . . وعندها سيلقى المعتدون مصيرهم . .

لقد زرعوا فى أرضنا الريح ، وسوف يحصدون الزوبعة . وهذا تعبيرهم فى توراتهم . . ولله مصير الأمور .

نظرة إلى المستقبل...

الولايات المتحدة .. واسرائيل

من العرض التاريخي والعملي الذي سبق تقديمه في الفصول السابقة ، يمكن أن نصف « إسرائيل » بأنها ولاية « منتسبة » إلى الولايات المتحدة ، إذا جاز أن نستعير الألفاظ الجامعية في وصف طلابها . . وربما زادت هذه العلاقة قوة في عهد رياسة لندون جونسون ، الذي كان لم تكن له دراية بالشؤون الخارجية لبلاده ، مثل دراية كنيدي أو إيزنهاور أو روزفلت وهم ألمع رؤساء الولايات المتحدة أثناء وبعد الحرب العالمية الثانية . ولهذا فقد اختار جونسون مستشاريه للشؤون الخارجية من اليهود الضالعين في التطرف الصهيوني ، أمثال جولد نبرج والأخوان روستو . . وكادت هذه المجموعة تدفع الولايات المتحدة إلى حرب عالمية ، دون مبالاة إلا بشيء واحد ، وهو إسرائيل ، ودعمها . وإذا كان « دلاس » قد ابتكر سياسة دفع الأمور إلى حافة الحرب ، دون المغامرة بخوضها اللهم إلا أن تكون حرباً محلية ، فإن الذين ورثوا هذه السياسة ، عمدوا إلى زيادة الحرائق في العالم ، فأضافوا إلى فيتنام حرب الشرق الأوسط . والحرب الأخيرة قريبة جداً من مخازن البارود العالمية ، فهي تقع في أكثر مناطق العالم حساسية . . أنها قلب العالم كله .

ولكن إلى متى تستمر هذه السياسة ؟ إلى متى تظل العلاقة بين إسرائيل والولايات المتحدة قائمة على هذه الصورة ؟

الجواب على هذا السؤال سهل : تظل العلاقة قائمة ، ما دامت السلطات الحاكمة وراء ستار الديمقراطية الأمريكية مستفيدة منها . . ونعني بهذه السلطات : المخابرات الأمريكية ، والجهاز العسكري فيها ، وتكتلات الصناعة والمال فيها . . .

ولا جدال في أن الولايات المتحدة استفادت من هذه السياسة فائدة كبيرة . . . ولا نعني بذلك حراسة مصالحها البترولية ، فهذا وهم ضخم ، إذ أنه كان يمكن حراسة

هذه المصالح بصداقات حقيقية ، وتعاون حر مع بلدان الشرق الأوسط . . فضلا عن أن الاستثمارات الأمريكية فى الشرق الأوسط لا تمثـــل إلا نسبة صغيرة من الاقتصاديات الهائلة لها فى داخل بلادها وفى أمريكا اللاتينية وأوروبا واستراليا . وحتى إذا حرمت الولايات المتحدة من دخول هذه المنطقة ، فإنها تستطيع مواصلة حياتها دون ارتباك كبير . . وذلك بعكس أوروبا ودول البحر المتوسط خاصة .

إذن ما وجه الحاجة الأمريكية لإسرائيل ؟

إنها تريد تبادل المنفعة ، على أساس أنها قاعدة مفيدة لها فى هذه المنطقة الحساسة من العالم . وأهم ما حققته هذه القاعدة ، حتى الآن ، هو استغلال الخبرة اليهودية العريقة فى أعمال التجسس سواء فى الشرق الأوسط ، أو فى أى مكان آخر يوجد فيه يهود ، ولا سيما فى أوروبا الشرقية ، والاتحاد السوفياتى ، وفى أوروبا الغربية نفسها . فضلا عن عيون اليهود المنبثة فى قارتى أفريقية وآسيا . .

لقد كانت ضربة اليابان للولايات المتحدة فى « بيرل هاربر » أوائل الحرب العالمية الثانية ، من العنف بحيث نبهتها إلى ضرورة تدعيم أجهزة التجسس المتصلة بها ، حتى لا تفاجأ مفاجأة أخرى . . وإذا كانت ضربة « بيرل هاربر » قد أفقدتها جزءاً ثميناً من أسطولها أودعه اليابانيون قاع البحر فى لحظة مفاجأة ، فإن الدنيا تغيرت بعد ربع قرن ، بظهور الصواريخ عابرة القارات وهى تحمل الرؤوس الذرية ، وبالتقدم الخطير فى البحث العلمى ، والذى تظهر من خلاله مبتكرات تلغى كل ما سبقها ، ولا سيما فى عالم الطيران ، والفضاء والكيمياء ، وعلوم البحار والأشعة بأنواعها . .

التجسس العلمى ، فى العصر الحاضر ، هو أخطر من التجسس على قاعدة عسكرية . . وفى هـذا المجال تدور منافسات مذهلة بين الدول الصديقة والمحايدة والمعادية على حد سواء .

الطائرة المسروقة

ولنضرب الآن مثلا بحادث « سرقة » كانت له تأثيرات بالغة فى وقته . .

فقد لاحظ الأمريكيون فى حربهم الفيتنامية ، أن الطائرات الميج التى يستعملها الفتناميون تشكل بطائراتهم المقاتلة — ومنها الفانتوم — وكان عليهم أن يبحثوا

عن الأسرار الكامنة وراء هـذه الطائرة الروسية . ولم يتيسر لهم الحصول على المعلومات اللازمة لهم من مصادر إنتاجها ، ووجدوا أن الوسيلة الوحيدة هى «سرقة» طائرة من هذا النوع . . وأطلقوا كلب الصيد الإسرائيلى ليباشر هذه المهمة .

وفى شهر أغسطس سنة ١٩٦٦ ، أذيع أن طائرة « ميج ٢١ » قامت من قاعدة عراقية ، ونزلت فى مطار جنوبى بإسرائيل ، بعد أن استنفدت آخر قطرة من وقودها ! !

وبعد عامين ، وبعد جهود مضنية بذلتها سلطات الأمن العراقية ، أمكن وضع اليد على شبكة تجسس تضم عراقيين ويهوداً هى المسئولة عن هـذا الحادث ، وقد علق المدانون من أفرادها على أعواد المشانق .

وقد أذاعت إسرائيل وقتها أنها لن تسمح للأمريكان أو غيرهم بفحص الطائرة المسروقة ، وهذا طلب كذب وقح . فقد نشرت مجلة « أسبوع الطيران وتكنولوجيا الفضاء» الصادرة فى يوليو سنة ١٩٦٧ دراسة مستفيضة على طائرة الميج ٢١ ، التى عرفت بإسم « الميج ٧ » إشارة إلى جاسوس المغامرات فى قصص السينما الذى كان إسمه الرمزى « ٧ » ! ! وكان صاحب هـذه الدراسة ، هو خبير الطيران الأمريكى وراين ويتمور . . . وبدأ هذا الخبير دراسته المنشورة على الملأ بقوله : لقد طرنا على متن هـــذه الطائرة (ميج « ٧ ») أكثر من مائة ساعة . . . وهى مقاتل ممتاز فى الارتفاعات الشاهقة على عكس الطائرة الميراج . . . ألخ »

وليس مجالنا هنا البحث الفنى ، ولكن مجالنا هو دور إسرائيل فى تقديم هذه « الخدمة » للولايات المتحدة وسلاح طيرانها . . وقد أشرنا قبل إلى أنواع كثيرة من الطائرات السوفياتية ظهرت بعد « الميج ٢١ » ذات كفاءة تفوق كل ما سبقه .

وفى دراسة اللواء محمود شيت خطاب عن العسكرية الاسرائيلية بحث عن الدراسات العلمية فى إسرائيل جاء فيه :

« قامت دائرة النظائر فى معهد وايزمن [فى مدينة رحبوت بإسرائيل] بإنتاج الأوكسجين المقوى المعروف بالماء الثقيل ، وتشير الاحصاءات العلمية إلى أن إسرائيل تؤمن ٩٥ ٪ من متطلبات العالم من هذه المادة . والمعروف أن قيمة الجرام الواحدة

من الماء الثقيل تبلغ ألف دولار امريكى »[1] .

وقد ساعدت فرنسا على إنشاء المفاعلات الذرية فى إسرائيل ، وأكبرها مفاعل ديمونه الذرى الذى أقيم عام ١٩٥٨ . كما ساعدت الولايات المتحدة فى إنشاء مفاعلات أخرى عرف منها أربعة حتى الآن . وغرض الدول وأولها الولايات المتحدة أن تكون إسرائيل محطة تجارب ورصد ، وأعينهم متجهة دائماً إلى الاتحاد السوفياتى ، صاحب أكبر طاقة نووية مواجهة للغرب .

ومواد الحرب الكيماوية من أهم ما تشترك فيه الولايات المتحدة مع إسرائيل . وكذلك الخواص الفيزيائية للمادة .

ومن ذلك ما ورد فى المصدر السابق عن جهاز تغيير اتجاه القذائف . . قال :

« هذا البحث بدأت به جامعة شيكاغو بالتعاون مع إحدى عشرة شركة أمريكية ، بناء على عقود خاصة مع وزارة الدفاع الأمريكية . . . وانتقلت بعد ذلك بعض أسرار هذا البحث إلى علماء معهد التكنيكون الإسرائيلى عن طريق أحد العلماء اليهود فى جامعة شيكاغو ، ويدور البحث حـــول دراسة إمكانية خلق موجات مغناطيسية لتدمير القذائف الموجهة فى الجو ، وعلى الأقل تحويل خط سيرها عن الهدف المرسوم لها » .

وواضح أن هذا البحث ما يزال بعيداً جداً عن التحقيق ، وإلا لما اعتمدت حكومة نيكسون أول تسلمها المسئولية مبالغ هائلة لعمل شبكة صواريخ مضادة للصواريخ ، بحيث تتصيدها وتدمرها فى طبقات الجو العليا . ولكن ما يعنينا ، هو أن حكومة الولايات المتحدة — حتى الآن — لا ترى فى انتقال بعض أسرارها الصناعية أو العلمية إلى إسرائيل مخاطرة أمن بالنسبة لها .

الى متى ٠٠ ؟!

ولكن إلى متى يستمر شهر العسل بين إسرائيل والولايات المتحدة . . .

نرى أن هذه العلاقة ، تستمر طالما كانت فوائد هذه العلاقة ، ترجح أو تزيد على مضارها . وقد رأينا أن علاقة إسرائيل مع انجلترا تضاءلت بعد فترة ، وقامت علاقة

---

(١) المـاء الثقيل الذى يستعمل فى الانتاج الذرى يمكن استخراجه من مساقط الماء التى تدير توربينات مولدة للكهرباء ٠ وكثير من محطات الكهرباء المائية تنتجه ٠

مع ألمانيا الغربية ، ثم أخذت تضعف ، وهذا ما حدث مع فرنسا . . . ونفس الشيء يمكن أن يتحقق بالنسبة للولايات المتحدة ، إذا شعر أى من الجانبين بضرر هذه العلاقة .

وما يعنى الولايات المتحدة ألا تخوض حرباً من أجل اليهود وأطماعهم ، فإن تكاليف الحرب أغلى بكثير من الاحتفاظ بإسرائيل ، لأن امتدادها ممكن جداً .

ولا يعنى امتداد الحرب أن تكون المواجهة الأمريكية دائماً مع الاتحاد السوفياتى.. فإن هناك عالماً آخر يمكن أن يتصدى للولايات المتحدة . ونعنى به العالم الآسيوى الأفريقى .

وأنا أعلم أن كثيراً من القراء سوف يرفعون حواجبهم دهشة ، أو يهزون كتفيهم شكاً وإنكاراً .. فالولايات المتحدة ذات الثراء والجاه ، ذات الأساطيل والصواريخ ، لا يقف فى وجهها أحد .

وهذه خرافة . . .

فقد ضربت فيتنام المثل فى حربين : الأولى ضد فرنسا والثانية ضد نصف مليون جندى من الولايات المتحدة وحلفائها . وضربت الجزائر نفس المثل ضد عدد مماثل من جنود فرنسا . . وسكان فيتنام والجزائر معاً يقلون عن أربعين مليون نسمة . ولم تستطع القوة المادية الهائلة أن تحمل شعباً مكافحاً على أن يركع على قدميه أبداً . .

وإذن فالسؤال هو : هل يمكن أن تحدث مواجهة بين شعوب آسيا وإفريقية ، وبين الولايات المتحدة ؟

والجواب : نعم . . .

فهناك نقطة تفجر هائلة فى حرب الشرق الأوسط ، اسمها « القدس » . والقدس مدينة تعيش فى ضمير وعاطفة المسلمين والمسيحيين الشرقيين . وعالم الديانتين هو بحر فسيح مترامى الأطراف . . ودفع أمواجه عند نقطة التفجر ، يحتاج إلى بعض الوقت ، ولكنه ليس وقتاً طويلا .

إن كل مسلم من ٥٠٠ مليون فرد يعتنقون هذا الدين ، يتمنى الآن أن يكون طريقه إلى الجنة ، استشهاداً فى سبيل الله ورسوله ، مروراً بالقدس . .

وكذلك المسيحيون الشرقيون ، يعلمون أن مقدسات المسيحية كلها فى فلسطين ، وأن الحفاظ على هذه المقدسات ، وعودتهم إلى مباشرة القوامة عليها ، كما كان الحال منذ وصول عمر بن الخطاب رضى الله عنه إلى القدس حتى الآن ، باستثناء سبعين سنة تحكم فيها الصليبيون ، أو القساوسة اللاتين فى هذه المقدسات ، وقد حارب المسيحيون الشرقيون تحت راية صلاح الدين ، وكان نصرهم على « اللاتين » من نصره . .

والذى يزعم أن الحروب الدينية ، انتهى وقتها واهم كل الوهم . . فماذا يصنع اليهود فى فلسطين خلال عشرين سنة ؟ إنهم خاضوا ثلاثة حروب ، وفى يد كل مقاتل منهم التوراة ، وتحت فقرات منها خطوط حمراء ، وهى تقول إن ملك إسرائيل يمتد من النيل إلى الفرات . .

هل يشعل اليهود حرباً دينية ، بكل هذه الضراوة ، ثم نجد فينا من يقول إن الحرب الدينية انتهى وقتها ، أو أنها ضد التقدم ؟ ! . .

حقيقة لقد تعلمت الإنسانية ، بعد الحروب الصليبية ، كيف تتعايش الأديان ، ولا سيما الإسلام والمسيحية ، وخلفتها الحروب الاستعمارية . .

وعندما أبديت هذا الرأى فى الطبعة الأولى من هذا الكتاب ، كتب لى ، وتحدث معى بعض قرائه سائلين : هل تريد العودة إلى صيحة « الجهاد » ، التى كانت تبعثها الخلافة العثمانية الزائلة ؟ وقد تكون صيحة الجهاد هذه غير مفهومة لنا اليوم ، لأن القدس ، أو مكة أو المدينة المنورة ، لم تحق بها أخطار طوال ثلاثة عشر قرناً وبعض قرن . . وعندما حدثت هذه الأخطار على أيدى التتار والصليبيين ، حارب الجميع تحت قيادات إسلامية .

نفس الموقف يتكرر اليوم . . وبالأمس احتجنا إلى مائتى سنة لرد الغارتين من أقصى الشرق ، ومن أقصى الغرب عن القدس . . وقد نحتاج الآن إلى زمن أقل ، لوفرة وسائل الإعلام والتعبئة النفسية ، وسهولة المواصلات . .

الانسان .. والقنبلة

وسوف يسأل كثيرون : وهل تستطيع شعوبنا أن تواجه قنابل أمريكا الذرية ، وغير الذرية ؟ وقد أجبت على هذا السؤال بمثلين من الجزائر وفيتنام . وأزيد ، أن الإنسان المقاتل ، القادر على الاستشهاد عن عقيدة ويقين ، هو أقوى الأسلحة فى هذا الوجود منذ نزل آدم إلى هذه الأرض .

أن أ كبر دبابة ، تهدم مدينة كاملة ، يمكن لفدائى أن يدمرها فى مقتل معروف للمحاربين جميعاً . وقد رأينا الفدائيين فى معاركنا الحالية يصنعون من قصص البطولة ما يعجز عن تصوره الإنسان . . وليس معنى هذا أن تتحول حربنا كلها إلى حرب الفدائية ، فلا غنى عن مواجهات مسلحة بالجيوش النظامية . ولكن عندما تملأ الفدائية الجيوش النظامية نفسها فالنصر معقود بألويتها فى مواجهة أى قوة مهما كانت باطشة . . وهذا بالضبط هو ما صنعته جيوش الفتح الإسلامى تحت قيادة خالد والمثنى وسعد وابن عوف وعمرو بن العاص وعقبة بن نافع . . .

سوف تصبح شعوبنا طاقة غضب هائلة .

سوف تهدد كل مصلحة لأمريكا ، وأشياعها فى أوروبا .

ولست وحدى الذى أقول هذا الكلام . فقد قاله كثير من الساسة الغربيين أصحاب الوعى والإدراك ، بل من خوف من هذه المواجهة الشاملة استقال أحد وزراء إيدن أثناء العدوان الثلاثى ، وعرضنا له من قبل . .

لا توجد قنبلة ، أقوى من إرادة إنسان مؤمن . . . ولتكن هذه عقيدتنا ، نبعثها ، ونستمد منها الزاد المعنوى الذى نحتاج إليه .

جون بادو ... ومخاطر المستقبل

لا سبيل إلى معاندة حركة التاريخ . هذا هو ما انتهى إليه مفكر كبير ، ومؤرخ عالمى من مؤرخى الحضارة ، هو أرنولد توينبى ، عندما عارض فى شدة وعنف الوجود الإسرائيلى فى أرض فلســـطين ، وحكم بزواله ، مهما كانت قوة القهر التى يستعين بها .

ولكن باحثاً آخر من رجال العلم والسياسة عرض رأياً يستحق أن نقف عنده بعض الوقت .

فى عدد شهر يناير سنة ١٩٦٨ من مجلة الشؤون الخارجية الأمريكية ، بحث عن عواقب حرب يونيو سنة ١٩٦٧ فى الشرق الأوسط بقلم « جون بادو » .

هذا البحث يستوقف النظر . لأن صاحبه عاش فى الشرق الأوسط ، وفى مصر

بصفة خاصــة مدة طويلة مديراً للجامعة الأمريكية ، وتعلم اللغة العربية ، ودرس تاريخنا وحضارتنا . فلما تقاعد ، أراد الرئيس الأمريكى الراحل جون كنيدى أن يستعين بخبرته وثقافته وصلاته القوية بمصر ، فعينه سفيراً له فى القاهرة ، على أن يكون له حق الاتصال المباشر برئيس جمهوريته ، دون عقبات من وزارة الخارجية فى وشنطن .

وقد بذل جون بادو جهده ، حتى بدت العلاقات بين مصر وأمريكا ، وكأنها تسير فى طريق آمن ، وفهم متبادل . ومن هنا جاءت أهمية الآراء التى يبديهـا هذا الباحث الأمريكى ، وكانت لديه كل الفرص للاطلاع على أعماق كل شىء فى منطقتنا ، قبل العدوان بأمد ليس بالبعيد . .

قال هذا السفير السابق والعالم المستشرق :

« أن السؤال المطروح فى الغرب ، كما هو الحال فى روسيا ، هو سـؤال أساسى وبسيط ، مامقدار المشقة والقلق الذى يستحقه الشرق الأوسط ؟.. ويبدو أنهما بدءا يقدران ، أكثر فأكثر ، الفائدة التى يمـكن أن تعود عليهما من التنصل — بقدر الإمكان — من منطقة تتميز بالمخاطرات الـكبرى والتـكاليف الباهظة والدفع المشكوك فيه ، كما تتميز فوق كل شىء بتضاؤل أهميتها بسبب التطورات الإستراتيجية والإقتصادية والفنية ، وتطغى عليها المشكلات العاجلة التى يتعين مواجهتها فى شرقى آسيا . وأن هذه الاعتبارات لابد أن تسيطر على التفـكير السياسى والإسـتراتيجى فى كل من وشنطن وموسكو[١] » .

« فبالنسبة بين الـكتلتين الشيوعية والغربية ، إذن ، يوجد أمامها احتمال التخلص من رمال الشرق الأوسط اللينة التى قد تدفنهم تحتها — مهما كان هذا الاحتمال بعيداً . ولـكن لا يوجد هذا الاحتمال أمام دول الشرق الأوسط التى عليها أن تروض نفسها على التلاؤم على خير وجه ممـكن مع الأحوال السائدة فى المنطقة ، بما فى ذلك سياسات الدول الـكبرى والدول التى تأتى فى المرتبة الثانية . ومن ثم ، فإن دروس الحرب تبدو لهذه الدول فى شكل يختلف بعض الشىء عما تبدو عليه هذه الدروس للدول الأخرى .

---

(١) يشير الى حرب فيتنام ، وموقف كل من روسيا والولايات المتحدة من الصين الشعبية ، ونموها الخطير .

« إن ما تعلمته إسرائيل هو نفسه الذى تعلمه المنتصرون دائماً من النصر وهو أنها كانت دائماً على صواب ، ولقد أكدت الأزمة والحرب معتقدات اسرائيل فى نقطتين على وجه التخصيص ، وهما : أن وجودهم يتوقف فى نهاية الأمر على استعدادهم وقدرتهم على القتال من أجله ، وأنه لايمكنهم أن يثقوا فى الأمم المتحدة حيث يتمتع أعداؤهم بمركز متميز ، وأن الائتلاف المكون من الكتلة الشيوعية والدول « غير المنحازة » فى الجمعية العامة كاف لمنع صدور أى قرار مقبول لإسرائيل ، وإن لم يكن كافياً لفرض قرار يقبله العرب ، وفى ذلك قال أحد الوزراء الإسرائيليين : « إذا قدم العرب غدا مشروعاً بقرار يقول أن الأرض مسطحة ، فيمكنهم أن يعتمدوا على ٤٠ صوتاً على الأقل . . . » ! !

« اعتماد إسرائيل على قوتها العسكرية والسياسية الخاصة فى الشرق الأوسط وعدم الثقة فى « رعاية الأمم المتحدة النتيجتان الرئيسيتان اللتان استخلصتهما إسرائيل من الأحداث الأخيرة ، والدولة الوحيدة ذات الأهمية الحقيقية بالنسبة لإسرائيل ، من بين جميع دول العالم الخارجى ، هى الولايات المتحدة ، وحتى فى نشوة النصر ، يعلم الإسرائيليون إن النية الحسنة الأمريكية لها أهمية أساسية بالنسبة لهم .

وثمة ثلاثة أشياء رئيسية تريدها إسرائيل من واشنطن ، وهى : أولا — مواجهة الروس كما حدث فى يونيو عام ١٩٦٧ ، لمنعهم من التدخل العسكرى المباشر ضدها ، وثانياً — الامتناع عن فرض أى قرار تراه إسرائيل منافياً لصالحها ، سواء فعلت أمريكا ذلك بمفردها أم بالاشتراك مع آخرين ، وثالثاً — أن تضمن أمريكا لإسرائيل ألا ينخفض مستوى تسليحها تحت مستوى تسليح العرب ، وبعبارات أخرى ، ترغب إسرائيل أن تطمئن إلى أن الأمريكيين لن يقوضوا مركزها ، ولن يسمحوا لروسيا بتقويضه . وإذا توفر لهم هذا الضمان يشعر الإسرائيليون بأنهم قادرون على مباراة جيرانهم العرب ، أما المشكلة الخاصة بمواطنى إسرائيل العرب — وهى أخطر المشكلات فى نهاية الأمر بما تنطوى عليه من احتمالات بالنسبة لمستقبل دولتهم ومجتمعهم — فلا زالت بلا حل ، ولا يوجد حتى الآن سوى قدر ضئيل من الاتفاق داخل إسرائيل على كيفية حلها .

« ولقد كان أثر الأمم المتحدة على المشاكل فى الشرق الاوسط وفى مناطق أخرى من العالم شبيه بأثر الأدوية الحديثة على الأمراض المستعصية ، فهى كافية لمنع المريض

من الموت موتاً طبيعياً ، ولكنها ليست كافية لشفائه ، إن حالة العجز المزمن لا تبعث على السعادة .

« ولعل خير أمل للشرق الأوسط يكمن فى تضاؤل أهمية المنطقة نفسها الأمر الذى قد يؤدى بمرور الوقت إلى فقد اهتمام الدول الكبرى بها . ولن تكون هذه هى المرة الأولى ، لأن تضاؤل الاهتمام الأوربى بالشرق الأوسط فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر ، وأثره ، هو أمر معروف جيداً . وثمة مثال آخر يرجع تاريخه إلى القرن الرابع الميلادى عند ما انتهت الحلقة الأخيرة من سلسلة الحروب الطويلة بين روما وفارس . فطالما كان الصراع مستمراً بين الدولتين الكبرتين فى العالم العتيق ، كان لهما نشاط كبير فى شبه الجزيرة العربية سياسياً وعسكرياً وتجارياً ، وفى خلال فترة السلام الطويل التى استمرت بين عام ٣٨٤ و ٥٠٢ فقد كلاهما الاهتمام بشبه الجزيرة فتحولت عنها طرق التجارة وهجرت مدن القوافل وعاد الجزء الأكبر من شبه الجزيرة إلى حياة البداوة .

ولن يكون من السهل على الدول الكبرى أن تفقد اهتمامها بالمنطقة كما أن ذلك قد يكون مؤلماً للشرق الأوسط حيث يمكن أن يكون لتحقيق المطلب الذى طال عليه الأمد « بانهاء عهد الامبريالية ، آثار سياسية واقتصادية ضارة بالمنطقة ، ذلك أنه ، بدون حافز أجنبى ، سوف تتعرض المنطقة لخطر التحلل والتأخر ، وبدون المنغصات الأجنبية — من جهة أخرى ، قد يكون هناك بعض الأمل فى السلام » ا . ه .

إلى هنا انتهت مقتطفاتنا من هذا المقال ، ونراه فى حاجة إلى تعليق . . .

الشرق .. والغرب

وعلى الرغم من أن هذا البحث ، أخذ طابعاً علمياً ، إلا أن الروح الصليبية ، هى التى تسوده . . مع روح الاستعلاء ، وافتراض أن القوة العسكرية هى وحدها موجهة الحضارة ، ورافعة منارها .

فالسفير السابق جون بادو ينادى بدعوة جديدة ، وهى أن تتفق كل من روسيا وأمريكا ، على ترك الشرق الأوسط ، دون تداخل من أى منهما ، وستقوم فيه حروب ، وينتهى أمره وأمر شعوبه إلى الخمول والتضاؤل ، كما حدث للجزيرة العربية بعد انتهاء الرومان والفرس من صراعهما فى القرن الخامس الميلادى ، إذ

انتقلت طرق التجارة وأخذت مسالك برية فى الشمال ، وأخرى بحرية ، ودفنت أهمية العرب وجزيرتهم تحت رمال الإهمال ! !

وهذا فهم قاصر وخاطىء للتاريخ . فإن الجزيرة العربية التى أصبحت فى تقديره خواء ، لأن هرقل انتصر انتصاراً حاسماً على الفرس ، فى أوائل القرن السادس الميلادى . . . هذه الجزيرة هى التى ظهر فيها سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام ، ومن وحى دعوته الإسلامية انطلق العرب من جزيرتهم ايزيلوا الامبراطوريتين العنيدتين: فارس وبيزنطة . وليقيموا أمبراطورية الحضارة والعرفان والإيمان .

لم يصب العرب بالخمول لأن حروباً فى الشمال توقفت ، وان تحدث النتيجة التى توقعها « جون بادو » إذا امتنعت الحرب الأوروبية الأمريكية . سواء بين بعضهم البعض ، أو بينهم وبين الاتحاد السوفياتى .

إن الدعوة إلى أن ينسحب كل من الاتحاد السوفياتى والولايات المتحدة من الشرق الأوسط ، ترمى إلى أن يترك الغرب بلادنا تسقط فى مهاوى الظلام . . والانسحاب يعنى عدم المرور براً وجواً وبحراً من المنطقة . . ويعنى عدم التداخل فى تنميتها الاقتصادية ، أو العلمية على صورة من الصور .. ويعنى أيضاً عدم الاعتماد على موارد الشرق الأوسط من بترول أو حاصلات زراعية أو خامات . . .

إذا حدث هذا ، فإن العالم الغربى ومنافسوه فى بلاد اليسار يريحون ويستريحون . وهذا تقدير غريب لرجل من أهل العلم عايشنا عشرات السنين ، وتعلم لغتنا ، وجاس خلال حاضرنا وماضينا . . .

إنه وحى علم مشبوه ، يخفى فى طواياه أبغض أنواع التعصب والعنصرية . . . فالشرق بمفهومه العلمى لا السياسى المعاصر ، لم يعش عالة فى فكره أو نموه على الغرب ، إلا منذ قرون قليلة ، صاحبت نشأة الاستعمار والسيطرة على الممرات المائية العالمية. ولكن الاستعمار يلفظ أنفاسه الآن . وتفيق شعوب أفريقية وآسيا من كابوس مخيف ، لتنفض عنها غبار الفترة الماضية ، وتمسك مصائرها بأيديها ، وتنطلق فى المستقبل ، كما انطلقت فى الماضى .

هل أمسكت أوروبا وأمريكا بالفضاء ، وجعلت مسالكه بين أصابعها ؟ حسناً . . فالفضاء الآن ليس كل شىء . . إنه صورة من صور التقدم . ولكنه ليس كل التقدم .

إن مرتادى الفضاء ، يتحركون فى حياتهم بطاقة العقل وحده ، وعلى ذلك ففى بلادهم الجائع والمحروم . . وفى بلادهم من يصب الهلاك على بنى الإنسان مثلما يحدث فى أنجولا وفيتنام ولاوس ، دون أن تتحرك فيه شعرة رحمة أو أسى . . وفيهم من يتسلط على غيره من بنى الإنسان بالحديد والنار وأقسى وسائل الإرهاب مثلما يحدث فى جنوب أفريقية وروديسيا ؟ ! ! أيسمى الغرب هذه البقع السوداء فى حياة رواد الفضاء ، تقدماً إذا لم نصل إليه فقد وقعنا فى الهاوية ؟ !

إن التقدم غير الأخلاقى الذى تعيش فيه أمريكا ، ويفخر به السياسى العالم جون بادو ، يحمل فى طياته جراثيم فنـــائه ، وهو بالضبط مسيرة الامبراطورية الرومانية والامبراطورية الهولندية والامبراطوريتين البريطانية والفرنسية .

ومن أين تأتى الأخلاق ، وهى أعظم دعائم الحضارة ، لقوم يظهر فيهم آينشتين اليهودى ، العالم الكبير من غير شك . . أن صاحب نظرية النسبية كتب قبيل وفاته ينادى بالقضاء على عرب فلسطين ليحل محلهم اليهود !

إذهبوا من بلادنا ، إن أردتم بصواريخكم ، وأقماركم الصناعية ، وكل ماتقفون بإزائه من تقدم مادى ، فهذا أمر سنصل إليه ، وإلى ماهو أقوى وأقوم .

ولكننا نلمح فى هذه الدعوة أيضاً ، ضيقاً باليهود ، وما يجرون إليه العالم من كوارث ، فحربهم الآن فى الشرق الأوسط ليست كل المصائب التى يتسببون فيها ، ولكنهم مسئولون عن حروب كثيرة فى مناطق مختلفة فى العالم ، منها الحربان العالميتان الأولى والثانية ، بفضل ما مهدوا به من دسائس ومؤامرات ، ورشاوى ومكاسب خيالية من تجارة الحروب .

وإذا نحن سمعنا ، رجلا من حمق اليهود هو موشى ديان ، يقول أنه يستطيع أن يحارب ويهزمها . . فهو لايعنى جيشه الإسرائيلى ، ولكن يعنى دسائس قومه التى تظن أنهـا قادرة على تحريك أزرار الحرب الذرية الأمريكية ، ودخول المعركة إلى آخر جندى أمريكى وأوربى ! !

هذا هو الاحساس الدفين للولايات المتحدة وأوربا . . وقد سمعت من صديق فاضل هو الدكتور يحيى الخشاب ، أن عاش فى مدينة جامعية كتبت على مبانيها من نحو

قرن من الزمان ، إنه لايصرح بدخول اليهود إلى أى معهد من معاهد الجامعة ، وقد بذل اليهود أقصى جهدهم لمحو هذه العبارات ، ولدخول أبنائهم وبناتهم إلى هـــذه المعاهد ، ولـكن طلبهم رفض بشدة . . وكذلك نجد عناصر كثيرة من الرأى العام الأمريكى تجد فى السيطرة اليهودية بلاء ما بعده بلاء . وحسبهم أنهم محرومون من وسائل الأداء الحر . وما صيحة الألم والتحذير التى أطلقها هنرى فورد الـكبير منشىء صناعة السيارات الأمريكية من تغلغل اليهود شاهداً على ماتعنيه ، وقد نشرنا فى الجزء الأول من هذه الدراسة آراءه .

كيف نتجـه

وفى تقديرنا أن الاتجاه السليم الذى يجب أن نسير عليه ، يجب أن يشمل النقط التالية :

أولا — محاولة جادة وأمينة للوصول إلى العناصر المتحررة ، غير المخدوعة من الرأى العام الأمريكى والأوروبى ، وتبصيرها بحقائق الأمور فى منطقتنا ، وما قد يجره أكراهها على ماتريد ، من محاذير ومخاطر قد تستمر أجيالا ، وتسبب مصائب لا أول لها ولا آخر . ومن الواجب أن نعمد تجميع شامل لـكافة الـكفاءات القادرة على مخاطبة الضمير الغربى ، وإتاحة كل الفرص للمواطن العادى هناك ، كى يطلع على الحقائق .. والبلاد العربية ، والبلاد الإسلامية ، وبلاد عدم الانحياز ، ذاخرة بهذه الطاقة الـكبرى ، التى تحتاجها معركة الأعلام فى هذه الأيام . .

نحن ننفق على سفارتنا فى الخارج ، مبالغ ضخمة جداً ، وكل مانحتاجه أن نرسل إليها عقولا ناضجة كبيرة ، وأن نترك لها حرية التصرف ، وحرية التعبير فى داخل الإطار العام الذى نتفق عليه . . فإن كلمة « ممنوع » مازال حتى الآن صاحبة السيطرة على كل تصرفات السلك السياسى العربى ، ومعظم السلك السياسى الأفريقى والآسيوى . إن عشرات السفارات فى كل عاصمة أوروبية وأمريكية ، قادرة باتفاق بينها ، ومزيد من الثقة فيها ، وكمية معقولة من حرية الحركة لها أن تؤدى دوراً كبيراً ، يعزل أكاذيب إسرائيل ، عن حقائق الحال فى منطقتنا . .

وكلمة القدس ، يجب أن تـكون هى العماد ، وهى المحور .. تليها كلمة فلسطين . .

ولقد لفتت نظرنا سيدة فاضلة عملت فى أحد مراكز الأعلام فى الولايات المتحدة ، أن كتاباً تؤلفه نخبة من سيداتنا عن المطبخ الشرقى ، يفيد فى تقريب المسافة الفكرية بين نسائهم ومنطقتنا ، ويمهد السبيل لكلمات صادقة قليلة تقال عن معاركنا . . وتسمع .

ثانياً — الاتجاه إلى العالم الإسلامى ، بصلات قوية غير حذرة ، ولا مترددة لكى يجند ويوجه كل طاقاته لخدمة المعركة . . والعالم الإسلامى مأمور بأن يتحرك الآن . . مأمور من الله سبحانه وتعالى ، الذى قال لليهود ، وعنهم ، إن عادوا إلى فلسطين : « وإن عدتم عدنا ، وجعلنا جهنم للكافرين حصيرا » . . . وبماذا تعود إليهم إرادة الله ؟ تعود إليهم بالتبار ، أى الهلاك الذى سلط عليهم مرتين مرة على أيدى البابليين ، فى القرن الخامس قبل الميلاد ، ومرة على أيدى الرومان فى القرن الأول المسيحى كما سبق أن أوضحنا .

وتحركه يشمل الحرب النفسية ضد العدو وأسناده ، والحرب المادية فى منطقة المعارك ، والمؤازرة المادية للشعوب التى تقف على خط النار ، ولاسيما كتائب الفدائيين . .

ثالثاً — الكتلة الشرقية تؤيدنا بالسلاح ، وهو عماد المعركة ، وبالعمل السياسى الذى نحتاج إليه لالتقاط الأنفاس حتى تبدأ الجولة الجديدة . وأثارة الشبهات أو النقد الطائش ضدها أمر غير مقبول ، ولا معقول . ومن الواجب أن نشعر بلاد اليسار جميعاً ، بامتناننا القلبى لكل ما يصنعونه لأجلنا . . وقد قلنا من قبل أن مسلك الغرب فى مساندة إسرائيل مسلك غير أخلاقى . . وخير دليل على ذلك سلسلة الأكاذيب المكتوبة والمنطوقة التى سلطها علينا لندن جونسون رئيس الولايات المتحدة فى الأسبوعين السابقين لمعركة يونيو سنة ١٩٦٧ . . فلنكن نحن أخلاقيين ، لتكون لنا ميزة واحدة .

رابعاً — التوفر على تجويد طاقتنا العلمية ، وروح الابتكار فينا . وتطبيق ما نصل إليه فى خدمة التنمية بصفة عامة ، وخدمة المعركة بصفة خاصة .

أن قدرتنا على المعرفة غير منكورة . ودارسونا فى الخارج وصلوا إلى تفوق

كبير ، وبدأت تتخاطفهم دول أمريكا وأوروبا . . وسبب إيثارهم للعمل فى الخارج رغم حاجة الوطن إليهم ، هو البذل السخى هناك ، والشحيح هنا . . أن مليونا أو مليونين من الجنيهات تعطى لعلماء مصر ، تيسر لهم الاقامة فى بلادهم ، بدلا من الهجرة . . وتيسير وسائل البحث بالانفاق عليها انفاقا مقدماً على كل مرفق غيرها ، من الأمور الواجبة . .

ومن الواجب أن ننبه إخواننا فى البلاد العربية الأخرى ، إلى ضرورة العناية بالأبحاث العلمية ، والأبحاث التطبيقية . . وهم أولى بشباب علمائنا الفائضين عن حاجتنا ، يبذلون لهم أجوراً مشابهة أو مقاربة لما تبذله لهم ألمانيا وكندا والولايات المتحدة ، وقد منح الله بعض هذه البلدان موارد مالية يمكن لها أن تسهم فى التقدم ، ودفعه إلى الأمام ، وحتى لا يحسب المتحدثون باسم الغرب أننا نعيش . . وسنعيش على فتاتهم . وإن شاءوا حرمونا منه ، لكى نعود إلى الجاهلية !!

خامساً — ضرورة العناية بالتيارات الدينية فى الكتلة الغربية ، ولاسيما فى منطقة النفوذ الكاثوليكى . فنحن نعلم أن هيئة الأمم تضم ٤٥ دولة كاثوليكية ، تدخل روحياً ، فى نطاق السلطة الروحية للفاتيكان . . وكانت هناك موجات من الشك فى نوايا الفاتيكان ، بعد قرار تبرئة اليهود من دم المسيح . ولكننا نعلم أن هذا القرار حدث نتيجة ضغط هائل من اليهودية ، وأن صدوره لا يعنى بالضرورة انحياز الفاتيكان إلى جانب اليهود . بل ربما كان للرأى العام المسيحى فى أنحاء العالم ، تأثيره بالنسبة للقدس وما حدث لها . والموقف الحازم الصحيح الذى تقفه الكنيسة الشرقية .

إن هناك رأياً عاماً يقول بإمكان التقارب بين عناصر الكنيسة الكاثوليكى من جانب ، وعناصر الإسلام والمسيحية الشرقية من جانب آخر .

ولا ضرر من النقاش ، الذى يدور موضوعه حول القدس ، والمقدسات الفلسطينية بصفة عامة . ولو أن هناك رأيا عاما ينادى بتأجيل أى نقاش إلى ما بعد المعركة .

وقد حسم الرئيس جمال عبد الناصر ، عندما عبر عن رأى المجموعة العربية ، والإسلامية بالتالى ، بقوله أن القدس ليست موضوع مساومة ، وأنها يجب أن تعود كما كانت قبل ٥ يونيو .

لقد باع اليهود الوصاية على المقدسات المسيحية فى فلسطين لفرنسا فى معاهدة سرية ، وذلك فى الفترة مابين عام ١٩٤٨ إلى ما بعد عام العدوان — ١٩٥٦ بقليل . . وهى صفقة غير معقولة طبعا ، لأن اليهود عادوا يعرضونها على غير فرنسا ! ومن لا يملك يريد أن يتاجر ويبيع وصايا لا تعنى شيئا لصاحبها .

ومقدسات فلسطين كانت تحت إدارة العرب منذ ثلاثة عشر قرنا ، ويجب أن يستمر الكفاح حتى تعود إلى أهلها ، مفتوحة الأبواب للعابدين والزائرين من أركان الأرض الأربعة .

سادسا — وأخيراً هناك سؤال يبدأ به كل كلام ، وينتهى به كل كلام ، وهو :

هل يمكن للعرب أن يتعايشوا سلميا مع اليهود بعد كل ما حـــدث ، وقبل كل حـــدث ؟

إن تكتيك المعركة يقضى بألا نجيب على هذا السؤال الآن . .

* * *

وإلى اللقاء ، إذا أذن الله ، فى جزء ثالث من هذه الدراسة نقدم فيه صورة المعركة الختامية لهذا الصراع ؟

القاهرة فى ١٤ / ٤ / ١٩٦٩ .

محمد صبيح

فهرس الموضوعات

رقم الايداع بدار الكتب ٢٤٤٥ لسنة ١٩٦٩

مطبعة دار العالم العربى
٢٣ شارع الظاهر ــ بالقاهرة
تليفون ٩٠٦٧٠٦

هذا الكتاب

هذا الكتاب « .. وان عدتم عدنا » اكمال لسلسلة الدراسات القومية ، التى تدور كلها حول اليهود وحربنا معهم . وقد خصص مؤلفه ـ الأستاذ محمد صبيح ـ كل جهده ، وكل دقيقة من وقته ، وكل حركة من قلمه لمعاونة المعركة الضارية ، التى تدور الآن بين الأمة العربية ، واليهود وأعوانهم من المستعمرين .

وفى القسم الأول من هذه الدراسة وقف المؤلف عند قيام دولة اسرائيل ، بعد أن استعرض علاقاتنا مع اليهود منذ فجر التاريخ ..

وفى هذا القسم يستعرض المؤلف نتائج حرب ١٩٤٨ ، فى المنطقة العربية بصفة عامة ، وفى مصر بصفة خاصة .. مما ترتب عليه قيام ثورة ١٩٥٢ ، وتحقيق الجلاء عن مصر ، وحرب سنة ١٩٥٦، ثم حرب ١٩٦٧ ..

وهذه الدراسة فى كل مراحلها تستهدف غاية واضحة ، وهى انارة الطريق أمام الأمة العربية وهى تتأهب للمرحلة الرابعة والأخيرة من كفاحها للغارة الصهيونية الاستعمارية ..

وفى سبيل تجميع معلومات وثيقة سافر المؤلف الى الخطوط الساخنة فى معركتنا ، فوقف عند شواطىء نهر الأردن ، ووقف عند قنال السويس ، وتحدث مع المحاربين والسياسيين ، ومن نبض المعركة ، ووجيب القلوب المتحرقة شوقا الى لقاء الثأر ، نقدم هذا الكتاب الى قرائه ، وان بدا طبعة ثانية من الكتاب الأول : « المعتدون ... » الا أنه جديد فى كل شىء .

والله الموفق ..

مكتبة الشباب